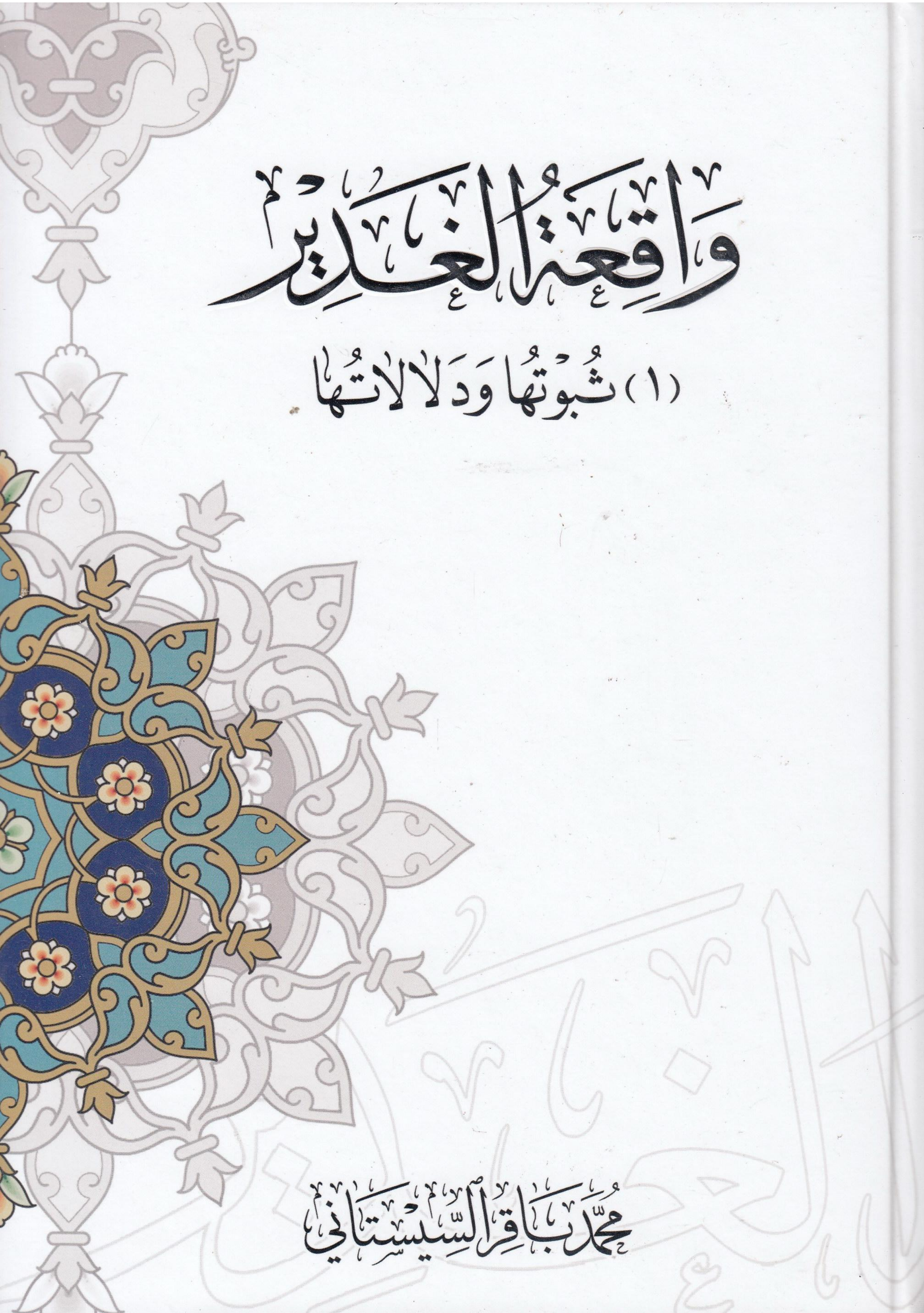


وَاقِعَةُ الغَدِيرِ

(١) ثُبُوتُها وَدَلالاتُها

مُحَمَّدْ بَاقِر السِّيستَانِي



واقعة الغدير

(١) ثبوتها ودلالاتها

وَاقِعَةُ الغَدِيرِ

(١) ثُبُوتُها وَدَلالاتُها

مُحَمَّد بَاقِر السِّيسْتَانِي

الطبعة الثانية
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م
(طبعة منقحة)


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد، فهذه بحوث حول اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الإسلام، بمعنى أنّ الله سبحانه وتعالى اختار محمداً وآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذه الأمة، وجعل آله من السلالات المصطفاة بالعلم والحكم أسوة بالسلالات المصطفاة من عترة الأنبياء في الأمم السابقة كآل إبراهيم، كما علّم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أصحابه[1] أن يقولوا في الصلاة عليه: (اللّهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد)، وقد عُلِم أنّ آل إبراهيم من السلالات المصطفاة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾، وقال جل جلاله: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا**﴾.

---

(١) سيأتي تخريج هذا الحديث وسائر الأحاديث المذكورة في المقدمة عند ذكرها في محالها من أصل البحث.

وقد جعلت محور هذا البحث (واقعة الغدير) من جهة أنّ هذه الواقعة هي التي تضمّنت الإعلان العام عن اصطفائهم، واشتملت على نصبهم هداةً للأمة عصمهم الله سبحانه من الضلالة، وأناط نجاة الأمّة من الضلالة والهلاك بهم، كما تضمّنت عقد الولاء لأوّل أهل البيت (عليهم السلام) ـ وهو الإمام عليّ (عليه السلام) ـ على حد ولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) على المسلمين وأولويته بهم من أنفسهم.

وكان قد تيسّر لي تأمّل هذه الواقعة ودلالاتها في نفسها وفي ضوء سائر النصوص والأحداث الواردة في السيرة النبوية، وتأكّد لي بوضوح بالغ دلالة هذه الواقعة على الولاء الخاص للإمام (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام).

قيام الحجة بهذه الواقعة المتفق عليها على عامة المسلمين

وقد لاحظت خلال تتبع الروايات التي رواها جمهور المسلمين وصححوها عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأن الإمام عليّ (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام) أنّها تفي بإثبات ذلك بوضوح إذا أحسن الباحث تأمّلها واستنطاقها وتفطّن لدلالاتها ومعانيها، على الرغم مما شاب بعضها من كتمانٍ أو تحريفٍ لفظي أو معنوي أو وضعٍ فيما يقابلها، إلا أنّ ذلك كلّه يعرف بشيء من الدقة والتفطّن لطبيعة الأمور وعوارض النصوص إذا خالفت الاتجاه الحاكم السائد بين الناس.

ولذلك يمكن القول إنّ الله سبحانه وتعالى قد حفظ الحجة على اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) على المسلمين كافة في ضمن التراث الثابت والمتّفق عليه

بينهم؛ إذ كان في تراث جمهور المسلمين ـ فيما صححه نقّاد الحديث ويعوّل عليه أهل السيرة النبوية ـ ما يدل على هذا الأمر الأساس في الدين، فلا يضل عنه إلا غافل أو متغافل.

ولأجل ذلك لم أتوسع في البحث عموماً بذكر سائر ما ورد في التراث الإسلامي العام مما تعرّض لمناقشة مقبولة عند النقاد منهم من علماء الحديث وأئمة الجرح والتعديل مما قد يعد عندهم خروجاً عن الموازين وتشبثاً بالأخبار الضعيفة والمريبة والموضوعة، ويؤدي ذلك إلى وقوع الشبهة في أذهان الباحثين عن الحق، وإن كان بعض تلك المناقشات محل نظر وبحث، لكن النظر والبحث فيها يبتني على إيجاد أساس أوّلي وفق الأحاديث الثابتة والمحكمة، على أنّه قد لا يؤثر إيرادها في إقناع جمهور أهل العلم الطالبين للحق منهم، فضلاً عن سائر الباحثين عن الحق فيما بينهم، بل قد يوجب دخول الشبهة عليهم وتشويه الاستدلال بما صح لديهم.

تحرير البحث

وقد تيسّر لي تدوين ما تأمّلته في ذلك، ورأيت أنّ تعميم ذلك لسائر الأخوة قد يكون فيه نصيحة من المسلم لأخيه في الدين وتذكرة قد ينتفع بها عامة المؤمنين، ولم أسعَ فيه إلى طريق الجدل والمراء، ولا إثبات حق بباطل، ولا توسعت في الوسيلة للبلوغ إلى الغاية التي أرى صوابها، ولم أقصد فيه الإساءة إلى فئة من المسلمين، ولكن خطورة هذه المسألة في الدين لم تكن تدع مجالاً

للغض عنها والمداراة مع الناس بكتمانها، وقد أخذ الله سبحانه على أهل العلم أن يبيّنوا ما وقفوا عليه من الحجة ولا يكتمونه عن الناس، ولولا ذلك لكن الأحبّ إليّ الإعراض عمّا هو مظنة للخلاف وعرضة للفرقة والاختلاف.

وكنت قد بدأت بتحرير بحث موجز حول ذلك ليكون جزءاً من البحث عن الرسالة[١]، إلا أنّني رأيت أنّ هذا البحث يقتضي بعض البسط والتفصيل، ولا يتيسر إلحاقه ببحث الرسالة.

وقد كان العنوان الذي قد قدرته للبحث من قبل هو اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الدين، ولكنني رجحت لاحقاً أن أجعل مدار البحث (واقعة الغدير)؛ لأنّها الواقعة الفصل في الإعلان عن ذلك وعقد الولاء لهم في الإسلام، ولكني أدرجت البحث عن الاصطفاء بعنوانه في أحد أقسام الكتاب[٢].

وعلى الناظر أن يعتبر هذه الأوراق استشارة منه مع هذا الأقلّ في التحقق من حقيقة الدين للبلوغ إلى الحق وإحقاقه كما أراد الله سبحانه وتعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وليجتهد في ذلك، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٣].

---

(١) في كتاب (رسالة الله إلى الإنسان) من سلسلة منهج التثبت في الدين.

(٢) وهو القسم الخامس.

(٣) سورة العنكبوت: آية ٦٩.

على أنني لم أستوف في هذه الأوراق ما كنت أرجوه، ولا بلغت ما كنت آمله من جهة تزاحم الأعمال وتعدد المشاغل، ولكني آمل أن يكون فيما تيسّر تذكرة نافعة لأهلها، ولعل الله سبحانه يسهل فيما بعد إتمام ما قصدت، ومنه سبحانه أستمد التوفيق والتسديد.

وربما وقع تكرار في ذكر بعض المعاني في ضمن الأقسام أو الإيضاحات بالنظر إلى الحاجة إلى ذكرها للنظر فيها في المواضع المختلفة من زوايا مختلفة، أو كان التكرار لأجل الاهتمام بإكمال صورة المطلب عند التعرّض للموضوع حذراً من أن يؤدي الإحالة إلى ضعف قناعة الباحث، ومساعدة اكتمال جهات الموضوع على وضوح الفكرة وحسن تلقيها، وربما طرأ التكرار من جهة إضافة في الموضوع أو تقرير أوفى للمعنى، على أنّ الانقطاع الطارئ في تحرير هذه الأبحاث ربما أدّى إلى أن يكون تأليفها أشبه بتأليف كتب أو مقالات مستقلة وإن انتظمت تحت غاية واحدة وموضوع رئيسي مشترك، فاقتضى ذكر كل ما هو محل استشهاد في البحث المعقود نفسه، وكان حذف التكرار بحاجة إلى جهد جديد لم يتسع له الوقت، على أني أرجو أن يكون في بعض هذا التكرار ما ينفع الباحث في الانتباه والتركيز على الأمور المهمة.

هذا، وقد اهتممت عموماً بالاستيثاق في أصل المنهج وأصول مطالبه، ولو أمكن أحيانا التوقف في بعض الجزئيات لم يؤثر على مجمل الفكرة وأساسها، فلا

ينبغي أن يكون مثله ـ لو اتفق ـ صارفاً عن التحقق من أصول المطالب وأركانها.

وقبل الخوض في البحث نذكر أموراً حول أهمية اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الإسلام، وأهمية واقعة الغدير، ومنهج البحث وملامحه، وأقسام الكتاب مع إيجاز عما تضمّنه هذا القسم من الكتاب.



تمهيد

١ – أهمية اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الدين.

٢ – أهمية واقعة الغدير

٣– منهج البحث

٤ – وصف ملامح المنهج المتبع

٥ – أقسام البحث

٦ – إيجاز عمّا اشتمل عليه هذا القسم من الكتاب



تمهيد

١. أهمية اصطفاء أهل البيت في الدين

إنّ من أهم المواضيع في الإسلام بعد التوحيد والرسالة هو أمر اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) للحكم والعلم والتسديد الإلهي في الدين.

ولن يكتمل دين امرئ مسلم من دونه، بل عليه أن يتحقق من هذا الموضوع تحققاً يلائم أهميته وخطورته، حتى يكون على حجة منه بحيث يتحمل مسؤوليته غداً أمام الله سبحانه وتعالى، فلئن كان الله جل جلاله قد اصطفى من هذه الأمّة مع نبيها (صلى الله عليه وآله وسلم) عترتَه وأهل بيته (عليهم السلام) في الحكم والعلم والتسديد، كان فرضاً على كل مسلم الإذعان بذلك اعتقاداً، والتسليم لهم عملاً، وأخذ تعاليم الدين منهم تعلماً وتعليماً.

وهذه مسألة بديهية لا يختلف فيها علماء المسلمين من كافة مذاهبهم، بمعنى أنّ موقع اصطفاء أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا ثبت في الدين لهو بالموقع الخطير للغاية الذي يوجب الجهل به اعتقاداً وتعلماً وعملاً ثلمة في دين المرء ويكون على ضلالة في أمر الدين وإن لم يخرج عن الإسلام ما لم يكن جاحداً متعمّداً.

٢. أهمية واقعة الغدير

وتمثل واقعة الغدير الواقعة الفصل في هذا الشأن لتميّزها بامتيازين في المضمون وفي الأداء والإعلام..

أمّا الامتياز الأوّل: ـ المضموني ـ فذلك لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد خطب فيها بين المسلمين قبيل وفاته بشهرين وعدة أيام في آخر اجتماع جماهيري عام له مع المسلمين خطاب مودع، وأوصى فيه الأمّة بوصيته بعد وفاته في شأن أمورهم من بعده، فاستوثق من إيمانهم وعقائدهم، وأقرهم على نصحه لهم، وعبّر عن مخاوفه عليهم بعده من الضلالة والهلاك، وذكر ما استخلفه فيهم عند وفاته من الكتاب والعترة مؤكداً على التمسك بالعترة مزيد تأكيد، ثمّ أقر الأمّة على ولائه عليهم حيث سألهم بقوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، فلما أقروا بذلك جعل للإمام عليّ (عليه السلام) ولاء مثل ولائه وقال: (فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

هذا، وكانت قد سبقت هذه الواقعة نصوص قرآنية تدل أو تُلوّح بامتياز عترته وأهل بيته (عليهم السلام) من بين هذه الأمّة كقوله تعالى في آية المباهلة التي نزلت في السنة الثامنة للهجرة: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ**

﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾(١)، وقد أحضر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد نزول هذه الآية أهل بيته (عليهم السلام) خاصة للمباهلة من دون سائر قرابته وأنسابه وأزواجه وأصحابه.

كما كانت قد صدرت من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً نصوص متعددة ومتواترة تدلّ على امتياز أهل بيته وخصوصيتهم من بين هذه الأمّة مثل حديث الكساء الذي جمع فيه أهل بيته (الإمام عليّاً وفاطمة والحسنين (عليهم السلام)) تحت كساء واحد بعد نزول آية التطهير في السنة الخامسة للهجرة، وقال: (اللّهم إنّ هؤلاء أهل بيتي فطهرهم تطهيراً)، وكقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الإمام عليّ (عليه السلام) في غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي).

هذا إلى غير ذلك من النصوص.

إلا أنّ واقعة الغدير وخطبتها تميّزت بتضمّنها لأمرين خطيرين في شأن أهل البيت (عليهم السلام) بلّغهما النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها:

أحدهما: نصب العترة هداة للأمة حيث ذكر (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه يخلّف في الأمّة الثقلين ـ وهما الكتاب والعترة ـ من بعده للأمن من الضلالة، وأمر بالتمسك بهما؛ لأنّ التمسك بهما أمان من الضلالة والتفرق عنهما وقوع في الهلاك، وهذا

(١) سورة آل عمران: آية ٦١.

المعنى ـ بما تضمّنه من عصمتهم كالكتاب من الضلالة ـ يعطي الإعلان عن اصطفائهم من قبل الله سبحانه مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لهداية الأمّة من بعده شأن السلالات المصطفاة في الأمم السابقة.

فالفارق بين نصوص القرآن الكريم وسائر أقوال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من قبل وبين حديث الثقلين هذا هو أنّ تلك النصوص والأقوال إنّما تدل على امتيازهم أو وجوب محبتهم أو نحو ذلك، أمّا حديث الثقلين الذي اشتملت عليه واقعة الغدير[1]، فقد أعلن ذلك إعلاناً واضحاً وأسس بناء على ذلك نصبهم أعلاماً للهداية في هذه الأمّة بما يتضمّن امتيازهم في العلم والتسديد والولاء على الأمّة.

وثانيهما: إثبات الولاء الخاص للإمام عليّ (عليه السلام) مثل الولاء الثابت له (صلى الله عليه وآله وسلم) على المسلمين، وهو يعطي معنى استخلافه (صلى الله عليه وآله وسلم) له (عليه السلام) من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم).

وأمّا الامتياز الثاني: ـ الإعلامي ـ لهذه الواقعة، فلأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أوجد هذه الواقعة كحدث وكخطاب على نحو مميز للغاية عن سائر ما جاء عنه في ذكر أهل البيت (عليهم السلام) والإمام (عليه السلام).

---

(١) سيأتي في محله ما جاء عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) من ذكره هذا الحديث في خطبة عرفات قبل واقعة الغدير بأيام وبعد قدومه من الطائف في السنة الثامنة.

أمّا العناية به كحدثٍ، فلأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ميّز هذا الحديث في الزمان والمكان والظروف والحضور امتيازاً يثبته في ذاكرة المسلمين ويبقيه على مرّ التاريخ ولا يمكن أن يُنسى أبداً رعايةً منه (صلى الله عليه وآله وسلم) لخطورة الموضوع، فلم يلقِه في اجتماع محدود كاجتماع صلاة الجماعة أو صلاة الجمعة، بل اختار له حضوراً جماهيرياً من توابع اجتماعات الحج يحضره ألوف الناس أو عشرات الألوف من مختلف بلاد الجزيرة العربية ـ التي كانت تمثّل حدود بلاد المسلمين آنذاك ـ وفيهم عامة وجوه أصحابه من المهاجرين والأنصار.

كما أنّه اعتنى (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكانه فلم يختر له مكاناً يكون علماً لأمرٍ آخر تستتر معه هذه الواقعة في وجدان المسلمين، مثل مشاعر الحج كعرفات ومنى والمسجد الحرام، بل اختار له مكاناً يكون علماً لهذه الواقعة، وتكون هذه الواقعة علماً له وهو وادي غدير خم، حتى أنّ المسلمين كلّما مرّوا بهذا المكان في طريقهم إلى الحج أو ذكروه ذكروا واقعة الغدير، وكلما ذكروا هذه الواقعة ذكروا غدير خم.

وكذلك اختار له الزمان الخاص الذي لم يعرف له مكانة من قبل وهو الثامن عشر من ذي الحجة حتى أصبح هذا الحدث علماً لهذا الزمان، فإذا ذكر المسلمون يوم الغدير تذكروا الثامن عشر من ذي الحجة، وإذا مرّ عليهم الثامن عشر من ذي الحجة ذكروا أنّه يوم غدير خم، بل جاء في رواية صحّحها جمع من النقاد أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) قدّس هذا اليوم، وقال إنّ صيامه يعدل صيام شهرين،

وورد أيضاً النص على كونه من الأيام المباركة فيما روي عن أهل البيت (عليهم السلام)[١].

كما أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) اختار لهذه الواقعة تبعاً للمكان والزمان ظرفاً غير اعتيادي، وهو أثناء الطريق، مما يجعله حادثاً مميزاً في أذهان الحضور في هذا المشهد.

وأمّا العناية به كخطاب، فإنّ خطبة الغدير رغم جزالتها وسلاستها لهي من أبلغ الخطب في مفرداتها وسياقها وترتيبها ومؤكداتها ومطابقتها لمقتضى الحال على ما يظهر عند الإمعان فيها، وهي تشتمل على جملة من جوامع الكلم والتعابير الفصيحة والبليغة التي عُرِف (صلى الله عليه وآله وسلم) بها[٢].

ومن أهمّ تلك الكلم والأقوال قرنه (صلى الله عليه وآله وسلم) العترة بالقرآن الكريم بعنوان الثقلين اللذين خلفهما في هذه الأمة، واللذان يقي التمسّك بهما من الضلالة، فصار تعبيره عنهما بالثقلين كاللقب لهما في التراث والتاريخ والأدب لن يمحى أبداً، وأعطى برفع أهل بيته إلى مستوى القرآن الكريم في الأمان من الضلالة ـ بل وإناطة صيانة القرآن عن الضلالة بالتمسك معه بأهل البيت وإحلالهم (عليهم السلام) محله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد وفاته حيث ذكرهم بدلاً عن نفسه الكريمة وسنّته إذ لم

---

(١) لاحظ مثلاً: تاريخ بغداد: ٢٨٤/٨، تاريخ مدينة دمشق: ٢٣٣/٤٢، والكافي: ١٤٨/٤، الأمالي (الصدوق): ص ٥٠، ومن لا يحضره الفقيه: ٩٠/٢، وتهذيب الأحكام: ٣٠٥/٤.

(٢) لاحظ بيان ذلك تفصيلاً في الإيضاح الخامس في هذا القسم كما يأتي إيجازه في هذه المقدمة بعنوان (إيجاز عن هذا القسم من الكتاب).

يجعلهما من ضمن الثقلين ـ أعلى معاني الاصطفاء وأجمعها للكمالات كلها من معاني الإيمان والتقديس والتسديد والإلهام، ومن معاني التعقل والرشد والحكمة والنور، ومن الإحاطة في العلم بالدين ونصوصه من الكتاب والسنة والسيرة النبوية، ومن الخصال الفاضلة والكريمة التي يتصف بها الأماثل من المصطفين.

وإنّ معاني هذا القرن المؤكّد بين القرآن العظيم وبين عترته الطاهرة لهي كبيرة وكثيرة لا تكاد تنفد، وإنّ هذه الكلمة لهي ـ في جزالتها وبلاغتها وحسن اختيار مفرداتها وسعة دلالاتها ـ حقاً من أجمع الكلام المأثور عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

وكذلك الكلمة الأخرى الجامعة والبليغة في الخطبة هي قوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، فهذه الكلمة صيغت أيضاً صياغة معبّرة وبليغة جداً، وقد زاد في حسنها أنّها قد تماثل وزن جزأيها وآخرهما، واشتملت على الإشارة الحضورية إلى الإمام (عليه السلام) مضافاً إلى ذكر اسمه، وقد ماثلت بقرن ولاية الإمام (عليه السلام) بولاية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الجملة السابقة التي تضمّنت قرن العترة بالقرآن الكريم، وهي صيغة مؤكِّدة ووافية للغاية بالدلالة على ثبوت جميع صلاحيات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بما هو مولى الأمّة والتي أشار إليها بقوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم) ـ للإمام (عليه السلام) من بعده، وهي بذلك ـ رغم إيجازها وسلاستها ـ كانت من جوامع الكلم التي تختزن تعيين ولاية الأمر بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لجميع المسلمين.

هذا عن عناية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بواقعة الغدير كحدث، وخطاب.

وبذلك كانت واقعة الغدير بين أحاديث فضائل أهل البيت ومكانتهم كالجبل الذي يتراءى من بعيد في وسط البيداء، أو كالمنارة الظاهرة في وسط البحر، فيطلع عليها لا محالة كل مسلم ليدعوه ذلك إلى الاقتراب من الاطلاع على مكانة أهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام) في السيرة والسنة النبويتين الشريفتين، فإذا به يجد ما يمكن تشبيهه بالكنز المحفوظ المستتر الذي غطّت عليه ضوضاء السياسية وعناوين الساسة وتمويه الحكام، ويحتاج استكشافه إلى إزالة هذا الركام الذي تجمّع عليه بتغييب أهل البيت (عليهم السلام) عن الموقع المحور الذي أعلنه لهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا الحدث الجلل والواقعة الفصل.

٣. منهج البحث

إنّ الحديث في هذا الكتاب عن واقعة الغدير لم يأتِ مقصوراً على شخص هذه الواقعة والبحث عن ثبوتها ودلالة ألفاظها كما يتعارف عرضه لدى أغلب الباحثين، بل اشتمل البحث ـ بمحورية هذه الواقعة ـ على القول في عامة العناصر المؤثرة على فهم هذه الواقعة ووضوح دلالاتها، وكذلك عن الأمور الموجبة لحجب هذه الدلالات بوجه من الوجوه عن التلقي السليم.

وكان هذا المنهج ضرورياً في واقعة تاريخية مهمة من هذا القبيل.

وذلك أنّ الوقائع المهمة والكبيرة من هذا القبيل تقترن عادة بملابسات متنوعة ومختلفة تتفاعل معها في دلالاتها، كما تكون لها مبادئ ومقدمات وجذور في الماضي من خلال سائر الأحداث والأقوال الصادرة من المتكلم في شأن موضوع الحديث وما يتصل به من المواضيع الأخرى، كما أنّ لها استتباعات ونتائج بعد الواقعة إمّا لأجل تثبيتها أو كرد فعل مضاد عليها لأجل محوها وكتمانها، وقد تكون لهذه الواقعة نظائر تسانخها وتنتظم معها تحت ظاهرة واحدة أو سنّة قائمة، ولذلك لن يتأتى فهم الواقعة وزواياها وأبعادها وعلاقاتها إلا بدراسة ذلك كله والاطلاع عليه، كما أنّ الحاضرين في الوقائع كانوا يستحضرون ذلك كله بشكل طبيعي بحسب تفاوت سوابقهم واختلاف مراتبهم.

فنحن إذا وجدنا مثلاً أنّ قائداً سياسياً لبلد يعلن اقتراب وفاته ويبدي قلقه على المجتمع من بعده ويحدد فئة وشخصاً في هذا السياق، فإنّنا سوف نسعى إلى أن ندرس هذا الخطاب وتوقيته وملابساته، ونتأمّل التاريخ المشترك للمتكلم، والشخص الذي اختاره، ومؤهلات هذا الشخص وتاريخه ومراحل ترقّيه وبلوغه إلى الموقع الذي حدّده الخطاب.

هذا، ولكن الخطاب الحاضر لن يخفي أصل مضمونه عادة، نعم، إذا كان الخطاب قد صيغ بعناية وتدبير فقد يحتاج فهم تفاصيله وتفكيك مقاصده إلى

تأمّل ما يكمن في خصائصه من دلالات مقصودة ومبادئ نافعة في الظروف المستقبلية والتحديات المتوقعة فيها.

وأمّا إذا كانت الواقعة تاريخية قد تجاوزها الذين تولوا الأمر من بعد، فإنّها تحتاج إلى إزالة غبار الماضي عنها وعن ملابساتها ومبادئها ونتائجها ومواقف المنظم لها والمتكلم فيها وشخصية الآخر الذي كان محوراً للحديث فيها، حتى لا يكون النظر في الواقعة كخبر عابر، بل كحادث يسعى أن ينظر إليه الناظر نظرة حية حتى كأنّه حضرها وعاش بين من شهدها وكانت لديه نفس الارتكازات والمعهودات الذهنية للحاضرين فيها.

وواقعة الغدير هي كذلك، فإنّها ليست خبراً اعتيادياً من أخبار السيرة النبوية، بل هي حدث كبير وجلل في عداد الأحداث الكبيرة والواسعة فيها، اعتنى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بترتيبها في وضع استثنائي (وسط الطريق) حتى كأنه اتّفق أمر طارئ اقتضاه، في حضور جماهيري للمسلمين من مختلف أنحاء الجزيرة العربية، في ألوف من الناس، فخاطب الأمّة من خلال الحضور خطاب المودع، وأعلن عن قرب وفاته بعد سفره هذا، وأقرّ الناس على العقائد التي جاء بها من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، واستشهدهم على نصحه لهم، ثمّ دخل فيما ساق له خطبته من الحديث عن أمور المسلمين من بعده، وعبّر عن قلقه على الأمّة من الضلالة والهلاك من بعده، وأعلن في هذا السياق أنّ الثقلين ـ الكتاب والعترة ـ من بعده هما اللذان يقيان الأمّة من الضلالة والهلاك إن تمسكت بهما،

وركّز في هذا السياق على التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) مؤكّداً على إناطة حصول الهدى بالكتاب باقتران التمسك به بأهل بيته، ثمّ أوجب الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) في موقفٍ فريدٍ له يذكر فيه شخصاً من المسلمين ويشيد باسمه في خطبته أمام جماهير المسلمين، ومهّد لذلك باستشهاد القوم على أولويته هو (صلى الله عليه وآله وسلم) بهم من أنفسهم، مشيراً إلى الآية القرآنية الكريمة الواردة بهذا المعنى[1]، وقال: (فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، فجعل علياً مولى كل مؤمن كما هو (صلى الله عليه وآله وسلم) كذلك.

فهذا حدث كبير في شكله وموضوعه وملابساته، وقد كانت وصيته الوحيدة إلى المسلمين والتي تحدث فيها في شأن أمور المسلمين من بعده قبل وفاته بشهرين وأيام فحسب.

وقد كان موضوع الحديث فيه أهل البيت (عليهم السلام) والإمام (عليه السلام).

وقد كان لهذا الحدث مبادؤه ومقدماته في سيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأقواله، من جملتها ما صدر منه (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل هذه الواقعة من نصوص مميزة في الثناء على أهل البيت (عليهم السلام) وآحادهم، كما أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد تآخى ـ وهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ مع عليّ (عليه السلام) واستوزره، وكان عليّ (عليه السلام) منذ صغره بمثابة ولده في التربية والتعليم والاقتران والمؤازرة والصلة والاختصاص.

(١) لاحظ: سورة الأحزاب: آية ٦.

كما وقعت بعد هذه الواقعة قضايا غريبة مثيرة للتساؤل، حيث أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وهو مريض ـ بإفراغ المدينة من وجوه المهاجرين والأنصار كافة ـ وفيهم أبو بكر وعمر ـ من خلال تجهيز جيش أسامة إلى مؤتة مُكرِّراً عليهم تنفيذه، فلم يفعلوا، ولو فعلوا لغابوا لشهرين أو أكثر عن المدينة وقد توفّي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتعين من يلي الأمر بعده منذ حين، ثمّ حاول أن يكتب كتاباً لن يضلوا بعده أبداً، فمنعه عمر، وهو ما عرف برزية يوم الخميس.

فتلك هي واقعة الغدير التي اتفقت في فترة حساسة للغاية من فترات حياته (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي فترة الإعلان عن قرب وفاته، وتلك هي مكانتها في سيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولكن الباحث المؤرخ والناظر في التاريخ يجد أنّ واقعة الغدير غابت مع عظمتها عن مسرح الأحداث بمجرد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فاجتمع جماعة من الصحابة في سقيفة بني ساعدة، وتنازعوا في من يتولى الخلافة إلى أن غلب جماعة أبي بكر في عقد البيعة له بمعزل عن أدنى ما يلزم تجاه بني هاشم وأهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام عليّ (عليه السلام)، وهو إخبارهم لكي يحضروا الاجتماع، فلم يخافوا ضلالة ولا هلاكاً في تغييب أهل البيت (عليهم السلام) من بعده، ولا وجدوا محلاً لولاء الإمام (عليه السلام) ولا اقتضاءً لاستشارته في الأمر، وقد امتعض أهل البيت (عليهم السلام) والإمام (عليه السلام) مما وقع حسبما اتفق عليه التاريخ والحديث، ولكن قوبل امتعاضهم هذا بالسعي إلى إكراه الإمام (عليه السلام) على البيعة لأبي بكر

والتسليم بالأمر الواقع، فامتنع (عليه السلام) لأشهر إلى أن رأى أن يبايع خشية الفتنة في أوساط المسلمين.

وإذ تصدى الإمام (عليه السلام) للخلافة برغبة الجمهور بعد ربع قرن من الزمان، بادر إلى استحضار هذه الواقعة في رحبة الكوفة في حادثة تاريخية مشهورة متفق عليها في سيرته ورواياته، وأشهد عليها الصحابة الحضور في تلك الواقعة فشهدوا له وأقروا بها، وأكّد من بعد ذلك في خطبه لأهل الكوفة على امتياز أهل البيت (عليهم السلام) من هذه الأمّة حتى انتشر التشيع لأهل البيت (عليهم السلام) في الكوفة إلى آخر الأحداث التي اتفقت.

والمقصود بذكر هذا الإيجاز عن هذه الواقعة أنّها واقعة مهمة ينبغي أن يمعن فيها النظرَ كلُّ مسلم متبصّر في أمر دينه إمعاناً ملائماً، ويتأمّل جميع العناصر المؤثرة في فهمها أو الحاجبة لها، وأن لا يبعد عن ذهنه احتمال أن تكون هذه الواقعة هي بيت القصيد في السيرة والسنّة النبويتين في شأن الأمر من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم)، وفي شأن أهل بيته (عليهم السلام) والإمام (عليه السلام)، ولا يعوّل على مجريات السياسة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تعويلاً جازماً بالمبادرة إلى تصديق اتجاه الساسة والحكام وما يمكن أن يكون قد نشأ عنه من أحاديث منسوبة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مقابل الأحداث والأحاديث التي تمّ تهميشها مثل واقعة الغدير رغم أهميتها.

وإنني لأعتقد أنّ كثيراً من شباب المسلمين اليوم يتميزون بوعي سياسي في أثر الأجواء والإمكانات الحديثة، ولذلك فإنّهم يحللون كثيراً من مجريات السياسة في بلادهم تحليلاً قريباً، ويعرفون طبيعة السياسة والساسة ويحدسون بما تخفيه الساسة بالسطوة والقوة وبالمكر والدهاء والتدبير، مما يتيح لهم أن يعرفوا الحقيقة فيما وقع بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا سعوا إلى أن يتأمّلوا التاريخ السياسي في تلك الفترة على نفس النمط الذي يتأمّلون عليه الوضع الحاضر ويتلمسوا ملامح الحقيقة وشواهدها الباقية بين ركام الماضي ورواية الساسة وتزييفهم للتاريخ.

ولذلك كان منهج البحث في هذا الكتاب هو تأمّل هذه الواقعة وجميع العناصر الدخيلة في فهمها أو الحاجبة عن الانتقال إلى مدلولها في سياق وحداني متصل، لاستحضار صورة كاملة عنها الواقعة وعن ملابساتها ومبادئها وتوابعها.

٤. وصف ملامح المنهج المتبع

وفيما يلي بيان جملة من ملامح هذا المنهج من خلال بعض المواضيع التي تمّ الحديث عنها:

الأوّل: أنّنا في مقام تأمّل مدلول الخطبة وفق ألفاظها تأمّلناها ككلام واحد دون تجزئة أو تقطيع.

وكان مما لاحظناه وفق هذا المنهج أنّ سياق الخطبة يدل على أنّها أُنشئت للإيفاء بغرض واحد وهو تحديد وضع المسلمين بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وصيانتهم عن الضلالة والهلاك، فهي وصية وداعٍ من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للأمّة متعلّقة بها بعد وفاته، وذلك بالنظر إلى إخباره (صلى الله عليه وآله وسلم) بمماته، ثمّ إقراره الحاضرين على الدين وعلى نصحه، ثم قوله إنّه استخلف فيهم الثقلين، ومعناه أنّه تركهما خلفه، وبذلك بدا واضحاً أنّه يريد تعيين أهل البيت (عليهم السلام) لمرجعية الأمّة بعده وتعيين الإمام عليّ (عليه السلام) ولياً على الأمّة كما كان هو (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكان قوله في آخرها: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) بمعنى (من كنت مولاه في حياتي فإنّ علياً مولاه من بعدي).

الثاني: أنّنا في تأمّل النص وفق ملابساته لم نقتصر على الحديث عن العناصر الموجودة الخاصة بالخطاب، بل تحدثنا عن العناصر الغائبة والمفتقدة أيضاً، إذ ربّ غائبٍ مفتقد أدلّ بغيبته من حاضر، وربّ تركٍ أدلّ على موقف صاحبه من الفعل.

وفي هذا السياق لاحظنا مثلاً أنّ غياب ذكر ولاء بديل عن ولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) أو قل غياب الطرح البديل للنظم السياسي بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطابه هذا ـ رغم تطرّقه للأمر بعد موته وفي سائر كلماته ـ ينبّه على أنّ نظره في هذا الخطاب ـ المتعرّض للأمر بعده والمتضمّن لذكر ولاية الإمام ـ إلى ملء هذا الفراغ من

خلال عقد الولاء للإمام (عليه السلام) ليحل محل ولائه، فهذا الأمر عنصر منبّه ومحفز لدلالة الحديث على ولاء الحكم للإمام (عليه السلام).

الثالث: أنّا لم نقتصر في تأمّل ملابسات الخطاب على العناصر الخارجية لاستنطاق الخطبة، بل لاحظنا العناصر النفسية أيضاً، ومن جملتها أنّ ابتداءه (صلى الله عليه وآله وسلم) الخطبة بذكر قرب وفاته تثير في نفوس الحاضرين القلق من فقده والسؤال عن الولاء البديل الذي يحل محل ولائه، كما هو الحال عند اطّلاع الناس على قرب وفاة أي رئيس للدولة وحاكم في البلاد، وهذا الأمر يكون بطبيعة الحال عنصراً مساعداً على فهم الحاضرين أنّ الولاء الذي عقده للإمام عليّ (عليه السلام) في الفقرة الأخيرة من خطبته ـ التي هي بيت القصيد فيها حسب سياقها ـ هو ولاء الحكم من بعده.

الرابع: أنّا لم نقتصر على عرض ملابسات الخطاب المعروفة، بل تأمّلنا سوابق علائق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) المتصلة والمتوالية في سيرته (صلى الله عليه وآله وسلم) وشخصية الإمام (عليه السلام) من بين الخاصة الذين حول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولأجل ذلك تتبعنا سيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع الإمام (عليه السلام) بإيجاز منذ ما قبل البعثة النبوية، ثمّ بعد البعثة بمكة المكرمة، إلى مغادرتها والهجرة إلى المدينة، ثمّ بعد الهجرة إلى المدينة إلى واقعة الغدير.

وقد لاحظنا من خلال ذلك أنّ مواقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع الإمام (عليه السلام) وأقواله عنه في مجمل سيرتهما المشتركة تأتي مناسبة وممهدة لحدث الغدير، وهذا

أمر طبيعي؛ لأنّ القائد الذي يفكّر في تعيين شخص من بعده سوف يعطي هذا الشخص أوسمة ملائمة لذلك الموقع عند مواقفه المميزة بما يدلّ على استحقاقه من بين الآخرين لتتهيأ الأذهان والنفوس لتقبل تعيينه عند وقوعه، لا سيما فيما إذا كانت سيرة القائد مبنيةً على رعاية مشاعر الناس وضمان مبادئ الاستحقاق العرفي وتجنّب مباغتتهم بموقف مستحكم وقاهر، كما كان دأب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولذلك تجد أنّ الإمام (عليه السلام) اكتسب من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثناءات مميزة ومتتابعة كلما قام (عليه السلام) بخطوات مميزة في نصرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والتضحية لأجله، وتلك الأقوال منه (صلى الله عليه وآله وسلم) في حقه (عليه السلام) هي بمثابة الأوسمة في العصر الحاضر، حيث إنّها تدلّ على تميّزه (عليه السلام) من بين سائر قرابته (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه، مما يجعل من الطبيعي أن ينتهي ذلك إلى أن ينصبه علماً للهدى ويعقد له من الولاء بعده مثل ما يثبت له (صلى الله عليه وآله وسلم) على المسلمين.

كما أنّنا في هذا السياق لاحظنا مواقع الإمام (عليه السلام) في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولاحظنا أنّه تميز بموقعين سياسيين:

أحدهما: إخاؤه للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اتخذه أخاً في مسيرته (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ بداية إظهاره للدعوة وأكده مراراً، كما في مؤاخاته بين المؤمنين في مكة ـ وكأنها كانت في السنة الخامسة من البعثة ـ ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار في المدينة في السنة الأولى من هجرته إليها.

والآخر: الوزارة في أمر أدائه للرسالة، كما قال في يوم إظهار دعوته لقومه في السنة الثالثة من البعثة ـ وهي السنة العاشرة قبل الهجرة ـ (أنت أخي ووزيري)، وقال في غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنّه لا نبي بعدي).

ولقد لاحظنا أنّ في النصّ المبكر في الإخاء والوزارة الوارد في يوم إظهار دعوته لقومه بني هاشم ما يتضمّن بناء ذلك على عقد مناصرة بينه وبين الإمام (عليه السلام) على أن ينصره ويؤازره فيكون وصيه ووارثه، حيث قال لهم: (أيّكم ينصرني ويؤازرني ويؤاخيني على أن يكون وارثي ووصيي وخليفتي)، فلم يستجب له غير الإمام (عليه السلام)، وهذا المعنى يندرج في عقد المناصرة وهو عقد معروف في المجتمعات القبلية والعربية، فكان عقده (صلى الله عليه وآله وسلم) الولاء للإمام (عليه السلام) يوم الغدير إيفاءً لازماً بهذا العقد الوثيق بجنب الاصطفاء الإلهي والتنصيب.

وبذلك أدّى تأمّل واقعة الغدير ودلالات مكانة الإمام (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام) في القرآن والسنة قبل هذه الواقعة وحينها إلى أن تكون هذه الواقعة تتويجاً لتلك المكانة، إذ كان يرتبط الإمام عليّ (عليه السلام) قبل هذه الواقعة مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بمواقع الإخاء مع النبي والوزارة له والمناصرة العقدية معه، فجاء عقد الولاء الخاص ترقية له في أثر تلك المواقع.

الخامس: أنّنا تأمّلنا في سياق تأمّل واقعة الغدير مغزى الأحداث الواقعة بعدها حتى وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد وجدنا في هذا السياق أنّ هناك ما يمثل سعياً من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في تنفيذ ولاية الإمام (عليه السلام) من بعده، وهو ترتيبه (صلى الله عليه وآله وسلم) جيش أسامة في مرضٍ كان يعلم ويعلم أصحابه أنه مرض وفاته، وقد أدرج في هذا الجيش عامة وجوه المهاجرين والأنصار ومنهم أبو بكر وعمر فألزمهم ـ حتى عند ثقل مرضه ـ بمغادرة المدينة مع أسامة إلى مؤتة، وأكّد عليهم في التعجيل فيه، وقد استثنى بني هاشم والإمام عليّاً (عليه السلام).

فكان هذا الترتيب منه تخطيطاً ظاهراً لتغييب أولئك لفترة غير قصيرة عن المدينة ريثما تستقر الأمور للإمام عليّ (عليه السلام) وتتم البيعة له، ولولا نظره (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى التخطيط لذلك لكان المفروض إبقاء أهل الحل والعقد في المدينة إلى حين وفاته، لكن يبدو أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) علم أنّ وجودهم يحول دون تنفيذ ما رامه من تمكين الإمام (عليه السلام) وفق ما كان قد أعلنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد تبيّن من تأمّل هذا الحادث جلياً أنّ صلاة أبي بكر بالناس لم تكن بتاتاً بأمر من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإنّما هي مسعى منه ومن بعض من معه لمزيد من البروز قبيل وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ إذ كيف يكون ذلك بأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد كان أبو بكر من جملة من أمرهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يكونوا مع جيش أسامة، حتى أنّه بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتعيينه للخلافة اعتذر من أسامة عن مرافقته.

كما لاحظنا في سياق العلاقة بين واقعة الغدير والأحداث التي اتفقت بعدها إلى وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حدثاً آخر يبدو ـ بحسب القرائن ـ أنّه كان سعياً من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى توثيق وصيته يوم الغدير كَتْباً، وهو ما علم من أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) صار بصدد كتابة وصية للأمة لن تضل بعدها أبداً، وهو عين الفكرة والتعبير في خطبة الغدير والتي أتبعها بإثبات الولاء للإمام (عليه السلام) على حد ولائه (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد حال دون ذلك عمر بن الخطاب وأنصاره فيما عرف برزية يوم الخميس، واتهموا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالهجر، وقالوا: حسبنا كتاب الله، وتلك حادثة متّفق عليها.

فدلّ الارتباط بين هذين الحدثين ـ واقعة الغدير والسعي إلى كتابة الوصية ـ عند الإمعان فيهما على انتظامهما في مجموعة مترابطة، بمعنى أنّ تلك الوصية كانت مسعى من النبي للتوثيق الكَتْبي لما ذكره في خطبة الغدير بعد أن وجد ـ فيما يتوقع ـ علامات التنكّر لتلك الخطبة في سلوك أصحابه.

السادس: أنّنا لم نقتصر على ما اتفق في متابعة هذه الحادثة حتى وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل تطرقنا إلى تفسير ما وقع بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) في السقيفة في إيضاح عقدناه حول واقعة الغدير وتنكّر أهل الحل والعقد من الصحابة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لها وصناعة البديل.

وذلك بالنظر إلى السؤال المعروف عن كيفية إمكان التخلّف عن الولاء للإمام (عليه السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من قبل الصحابة والمسلمين بعد تبليغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا الولاء على وجه معلن في يوم الغدير.

وقد بيّنا في هذا السياق وجود شواهد متعددة على ميول قَبْلية على طمع أهل الحل والعقد في المدينة في الأمر بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونواياهم المبيّتة في ذلك، ومن المتوقع اقتناع عامة الناس غيرهم بما جرى عليه الأمر في المدينة التي كانت بمثابة العاصمة إمّا على أساس حسن الظن بأهل الحل والعقد الذين هم ـ وفق انطباع العامة ـ من خواص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فهم أدرى بالأمر وجهاته، أو تساهلاً من بعضهم في التحقق من ذلك.

وكذلك بيّنا في هذا السياق البدائل التي صنعت للغدير، فكان البديل عن قداسة أهل البيت (عليهم السلام) قداسة عناوين أخرى من الخلفاء وأزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والعشرة المبشرين والصحابة، كما كان البديل عن حادثة الغدير تحميل حوادث ونصوص ثابتة دلالات متكلفة لا تحتملها، أو اصطناع حوادث وجعل نصوص أخرى تقابل ما جاء في حق الإمام عليّ (عليه السلام).

السابع: أنّنا تجاوزنا في تأمّل أبعاد هذه الواقعة عصر الخلفاء إلى ملاحظة زمان انتشار هذه الواقعة في زمان خلافة الإمام (عليه السلام) بعد أن أُسدِل الستار عليها وعلى أمثالها في زمان الخلفاء، وكان الإمام (عليه السلام) هو الذي بدأ بنشر هذه الواقعة في الكوفة في حادثة الرحبة الشهيرة المتفق عليها والمصحَّحة من قبل

نقاد الحديث، كما أنّه بلّغ مضامينها بالحديث عن وصايته للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وامتياز أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمّة في خطبه على منبر الكوفة، والتي جمعت جملة من مختاراتها في كتاب نهج البلاغة، وقد كان ذلك أساس ما علم بالبداهة في التاريخ من انتشار التشيع في الكوفة منذ زمانه (عليه السلام)، حيث كان (عليه السلام) دائماً ما يبيّن استحقاقه وأهل البيت بالأمر بوجوه في ملاحن القول ومعاريض الكلام، ويُعرّض بما اتفق بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بوجوه من التعريض والتلويح.

وفي هذا السياق أوضحنا تمسّك أهل البيت (عليهم السلام) وبني هاشم بواقعة الغدير، على خلاف ما قد يظن من أنهم جروا على شرعية الخلافة التي قامت بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وذكرنا شواهدَ على ذلك.

وقد أوضحنا أنّ مباغتة بني هاشم وأهل البيت (عليهم السلام) بصرف الأمر عنهم في السقيفة ووقوع البيعة وفقها من الأنصار جعلت من خلافة أبي بكر أمراً واقعاً، وأدّت إلى نحو مداراة من قِبَلهم عن المطالبة بحقهم خشية الثلمة في الإسلام بإثارة الموضوع ووقوع القتال بين الطرفين وارتداد فريق من الناس عن الدين، ثمّ تأكد هذا الأمر الواقع في أذهان العامة باستقرار الأمر عليه لمدة ربع قرن من الزمن، ودخول كثير من الناس في الإسلام بالفتوحات في زمان الخلفاء.

ولكنّ الإمام عليّاً (عليه السلام) بعد توليه الخلافة بمبايعة أهل الحل والعقد ووفوده إلى الكوفة بلّغ اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) وحقهم في الحكم في خطبه بلاغاً مؤكداً أدّى إلى ولاء أهلها له، وقد أُثِرَت عنه كثير من تلك الخطب على وجه واضح وثابت لدى جمهور المسلمين، ومن بعده رجع شيعته في الكوفة إلى الأئمة من ذريته من الحسن ثمّ الحسين (عليه السلام) وهكذا، كما أنّ عامة بني هاشم كانوا يرون ويلوحون إلى أنّ الأمر بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام (عليه السلام).

الثامن: أنّنا تطرقنا في استيعاب أبعاد هذه الواقعة إلى تحدي استمرار الإمامة، حيث إنّه قد يطرح أنّ دلالة واقعة الغدير على إمامة الإمام عليّ (عليه السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تبدو بعيدة؛ لانقطاع الإمامة بوفاته (عليه السلام) أو بوفاة ابنيه الحسن والحسين (عليهما السلام)، ولو كانت هناك إمامة في أهل البيت (عليهم السلام) لاستمرت أبداً.

وبيّنا في هذا السياق دلالة الخطبة على توسعة مفهوم أهل البيت لرجالٍ متعاقبين من ذرية هؤلاء بقرينة ما جاء فيها من أنّ العترة والكتاب لا يفترقان حتى يردا الحوض، كما دلّت على كون ولاية الأمر فيهم أبداً، لدلالة حديث الثقلين على أنّ الولاء للإمام (عليه السلام) ـ وهو سيد أهل البيت (عليهم السلام) ـ إنما هو لمكان اصطفائهم من هذه الأمّة أبداً ووجوب التمسك بهم مع الكتاب حتى القيامة، وفي ذلك دلالة على استمرار الإمامة.

وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبته بعرفات من حجة الوداع نفسها قد ذكر أنّ الأئمة اثنا عشر إلا أنّ ضوضاء الصحابة أدى إلى إنهائه لكلامه، وقد أنيط تعيين كل إمام إلى من قبله على سبيل الوصية، حفاظاً على الأئمة اللاحقين من كيد الحكام والأعداء، وقد وُجِدَت هذه السلسلة الاثنا عشرية فعلاً من خلال الإمام (عليه السلام) وخلفائه من عترته وعترة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهم الأئمة المعروفون للإماميّة من الحسنين والسجاد والباقر والصادق والكاظم والرضا والجواد والهادي والعسكري والمهدي (عليهم السلام)، فكان تطابقاً غير متوقع لما أخبر به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

هذا، ولا تمثّل الغيبة عائقاً بعد أن كانت بسبب الأمة، ولو استعدت الأمّة الآن لأذن الله سبحانه بظهور الإمام الباقي (عليه السلام) في الآن نفسه حسبما يفهم من أحاديث أهل البيت (عليهم السلام).

فهذه جملة من ملامح هذا المنهج في استيفاء جميع الأمور المؤثرة بنحوٍ ما في فهم مدلول خطبة الغدير على وجهه السليم.

ولذلك كان هذا الكتاب بأقسامه مسعى لمعالجة عامة الأبعاد التي تتعلق بإمامة الإمام عليّ (عليه السلام) واصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الإسلام.

٥. أقسام البحث

وقد رتبت البحث في عدة أقسام:

القسم الأوّل: في ثبوت الواقعة ودلالاتها، وقد تضمّن البحث عن دلالاتها تأمّل هذه الواقعة كحدثٍ وكخطابٍ وتحليلٍ لألفاظها ومعانيها وملاحنها.

وقد اشتمل على إيضاحات:

١- واقعة الغدير وبداهة ثبوتها بالمنظور التاريخي والروائي.

٢- واقعة الغدير والقدرة على تحليل الحوادث الاجتماعية والسياسية التاريخية.

٣- واقعة الغدير والتوضيح العام لها في ضوء فهم ملاحن الخطاب ومعاريضه.

٤- واقعة الغدير ودلالة الأمر بالتمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) على اصطفائهم (عليهم السلام) في الإسلام.

٥- واقعة الغدير وعقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) على حدّ ولاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من بعده.

٦- واقعة الغدير ووضوح دلالتها عند اختبار مؤداها على وجه المعايشة مع الحدث.

٧- واقعة الغدير مشهد عام لوصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الأمّة حول الأمر من بعده.

٨- حول واقعة الغدير ودلالات التركيز على الشخص في الولاء والعداء.

٩- حول واقعة الغدير ومقتضيات ولاء النصرة الخاص للإمام (عليه السلام).

١٠- كون الولاء للإمام (عليه السلام) في واقعة الغدير ولاءً اصطفائياً لا سياسياً

اعتيادي.

والقسم الثاني: حول ملابسات الواقعة ودلالاتها، وقد اشتمل على إيضاحات:

١. واقعة الغدير وفهم أهل البيت (عليهم السلام) والصحابة الحضور لها، ودلالات ذلك.

٢. واقعة الغدير واقتضاءات ملء الفراغ في الولاء المتوقع بوفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ودلالات ذلك.

٣. واقعة الغدير وغياب أي إرشاد آخر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الولاء البديل من بعده، ودلالات ذلك.

٤. واقعة الغدير واختيار المشهد الجماهيري العام لها، ودلالات ذلك.

٥. واقعة الغدير واختيار وسط الطريق دون مكة موضعاً لها، ودلالات ذلك.

٦. واقعة الغدير وخطبة عرفات قبلها وما طرأ فيها من الممانعة من إتمامها عند بدء تعرض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لولاية الأمر بعده، ودلالات ذلك.

٧. واقعة الغدير ودلالة غياب سبب خاص للواقعة في ملابساتها، ودلالات ذلك.

٨. واقعة الغدير واحتفاف الواقعة بأجواء المعارضة لتمييز النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام)، ودلالات ذلك.

٩. واقعة الغدير في ضوء الفتن الواقعة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأحاديث التي

رويت عنه بشأنها، ودلالات ذلك.

١٠. واقعة الغدير ومكانة أهل البيت والإمام في القرآن والسنة عند هذه الواقعة وقبلها، ودلالات ذلك.

والقسم الثالث: حول الأمور والحوادث التي سبقت هذه الواقعة ودلالاتها، وقد اشتمل على عدة إيضاحات:

١. واقعة الغدير وما نزل بشأنها من القرآن الكريم، ودلالات ذلك.

٢. واقعة الغدير وسيرة الإمام عليّ (عليه السلام) مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) قبلها، ودلالات ذلك.

٣. واقعة الغدير وواقعة عقد المناصرة والاستخلاف بين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) عند إظهار دعوته لعشيرته الأقربين (بني هاشم)، وأهمية ذلك.

٤. واقعة الغدير وعقد المؤاخاة بين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام)، ودلالات ذلك.

٥. واقعة الغدير واستيزار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام (عليه السلام)، ودلالات ذلك.

٦. واقعة الغدير وظاهرة السلالات المصطفاة في الرسالات السابقة بحسب القرآن الكريم، ودلالات ذلك.

٧. واقعة الغدير وموافقة الولاء للإمام مع قواعد توريث الولاء بحسب الارتكاز العرفي السائد، ودلالات ذلك.

٨. واقعة الغدير والولاءات والمعاهدات التي اعتمد عليها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأداء

رسالته وحفظ نفسه بعد بعثته وإظهار دعوته.

٩. واقعة الغدير وإيجاب محبة قرابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الدين، ودلالات ذلك.

١٠. واقعة الغدير ودلالات تمييز بني هاشم في استحقاق الخمس والفيء على تكوين عصبة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته المصطفين (عليهم السلام).

والقسم الرابع: حول الأمور والحوادث التي وقعت بعد هذه الواقعة ودلالات ذلك، ويتضمن عدة إيضاحات:

١. واقعة الغدير وسعي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى تنفيذها بتغييب وجوه المهاجرين والأنصار في ضمن جيش أسامة عن المدينة في مرض موته.

٢. واقعة الغدير وسعي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى توثيقها كتباً وممانعة عمر وأنصاره من ذلك فيما عرف برزية الخميس، وقد تضمّن هذا الإيضاح الحديث عن أنّ عمر هل كان يتوقع حقاً هجر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو أراد الحيلولة دون كتابته، ولِمَاذا أعرض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن كتابة تلك الوصية.

٣. واقعة الغدير ومؤهلات الإمام عليّ (عليه السلام) حسبما اتضح من سيرته وأقواله عند خلافته، وكذلك مؤهلات الأئمة من ولده (عليهم السلام).

٤. واقعة الغدير وإحياء الإمام عليّ (عليه السلام) لها بعد توليه الخلافة.

٥. واقعة الغدير وكيفية استمرار الإمامة بعد الإمام عليّ (عليه السلام) والحسنين (عليهما السلام).

٦. واقعة الغدير ومساعي الكتمان والتضعيف والمعارضة وأثر ثبوتها على

تزلزل المقاييس المعتمدة لدى جمهور المسلمين في رفض وقبول الأحاديث والأخبار.

٧. واقعة الغدير والاستبعاد الناشئ من صنيع الصحابة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في إبعاد أهل البيت (عليهم السلام) عن موقع الحكم، ويتضمّن الحديث عن اجتهاد الصحابة في مقابل نصوص الكتاب وأقوال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حياته ومن بعده.

٨. واقعة الغدير وصناعة البديل برفع مكانة الخلفاء والصحابة والأزواج وآحاد من الصحابة.

٩. واقعة الغدير وصدق التنبؤ الذي وقع في هذه الخطبة.

١٠. واقعة الغدير وما ترتب على التخلف من تطبيقها في واقع الأمّة حتى في الزمان الحاضر، وماذا لو طبّقت واقعة الغدير وتولى أهل البيت (عليهم السلام) أمر الأمّة.

والقسم الخامس: حول اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الدين، ويتضمن مقدمة وموضوعين..

فالمقدمة: في أهمية الاطّلاع على المصطفين في الدين، ويشتمل الحديث في ذلك على ذكر وجوب معرفة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والتحقق من رسالته على كل باحث عن الحق والدين الصحيح، وكذلك وجوب الإذعان بمَن اطّلع المرء على رسالته من الرسالات السابقة، وكذلك يشتمل على بيان وجوب تحقّق

المسلم من اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الإسلام.

والموضوع الأوّل: حول إثبات اصطفاء أهل البيت في الدين على ضوء نصوصه في الكتاب والسنة النبوية وأقوال أهل البيت (عليهم السلام).

ويتضمّن هذا الموضوع مقدمة في ذكر الاصطفاء الجماعي لسلالات الأنبياء في الرسالات السابقة، واستمرار ذلك في الإسلام.

والموضوع الثاني: حول أمور عامة في شأن الاصطفاء الإلهي في الدين وتطبيقها في شأن الإمام عليّ (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام)، وقد تضمّن عدة إيضاحات يشتمل كل إيضاح على الفكرة العامة ذات العلاقة بالاصطفاء في ضوء القرآن الكريم، ثمّ تطبيقها، وشواهدها في شأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام)..

١. صفات المصطفين، وهي ثلاثة: صفات السلامة عن الاضطربات النفسية والإدراكية والتحلي بالاعتدال والإدراك العقلي السليم وصفات الإيمان من جهة نوازع التعلّق الفطري بالله سبحانه والتوجه إليه، وصفات الفضيلة وهي التحلي بمكارم الأخلاق والفطرة الصافية، ومن جملتها الاهتمام بالصفات التي تورث الاطمئنان والثقة بهم في بيئتهم.

٢. أدوار المصطفين، من الرسالة والملك والوزارة للمصطفين والوصاية عن الأنبياء بعد وفاتهم على أممهم، وأداء النساء المصطفيات دوراً مختلفاً إذ كنَّ زوجات لهم أو أمّهات كفاطمة ومريم (عليهما السلام).

ويتضمّن هذا الإيضاح ذكر الدور الخاص والعام للمصطفين.

٣. أسباب الاصطفاء الإلهيّ من قبيل اقتضاء خلق الإنسان، وحاجة المجتمع إلى المعلّم، وأهليّة المصطفين لاصطفائهم، وإعانة المصطفين أو سؤالهم، ورفع الظلم والفساد.

٤. دوام الاصطفاء الإلهيّ الذي يمثل صلة الأرض والسماء واستخلاف الله سبحانه للإنسان.

٥. انقسام المصطفين إلى ظاهر ومستور.

٦. الوحي إلى المصطفين وما يلحق به من حديث الملائكة والإلهام والتسديد.

٧. العناية بالمصطفين في أصل خلقهم وفي نشأتهم ومسيرتهم حتّى الوفاة.

٨. عناية الله تعالى بالمصطفين في الأخذ بمكارم الأخلاق وصيانتهم عن السوء والخطيئة.

٩. إمداد الله سبحانه المصطفين بالعلم المميّز والحكمة الراشدة والحكم الصائب، وصيانتهم عن الضلالة.

١٠. دعم المصطفين بالخوارق والكرامات واختلافهم في ذلك.

١١. مساعدة المصطفين في مسيرتهم الرسالية الاجتماعية، وعدم وقاية الاصطفاء الإلهيّ أهله عن القتل والاستضعاف.

١٢. مراتب المصطفين والسبيل إلى تحديدها.

١٣. مسؤوليّة المصطفين أمام الله سبحانه في هذه الحياة ويوم القيامة.

١٤. إنباء بعض المصطفين عن بعض.

١٥. حقوق المصطفين على أممهم والأدب الواجب تجاههم.

١٦. خصائص المصطفين في التشريع.

١٧. المصطفون والتألّه والدعاء.

١٨. المصطفون ونفي الغلو فيهم في الدين.

القسم السادس: حول الإمام عليّ (عليه السلام) في حياة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويشتمل على عرضين إجمالي وتفصيلي:

فالعرض الإجمالي: عرض للصورة العامة لحياة الإمام عليّ (عليه السلام) مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقربه منه واختصاصه به وأدواره في أداء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للرسالة.

وقد تضمّن ذكر أنّه (عليه السلام) كان من عشيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الأقربين وعصبته الذين اعتمد على تعهدهم بحمايته في إظهار رسالته (عند البعثة وبعدها) ـ، وتحملوا من الأذى في ذلك ما تحملوه، وقد خصّهم الله تعالى بإيجاب مودتهم وإشراكهم في الخمس والفيء من دون غيرهم من قريش والقبائل الأخرى، وأنّ الإمام (عليه السلام) ابن عمه (صلى الله عليه وآله وسلم) وابن الحامي الرئيس له (صلى الله عليه وآله وسلم)، أعني أبا طالب شيخ بني هاشم الذي حماه (صلى الله عليه وآله وسلم) من أذى قريش حتى وفاته، وهو (عليه السلام) المخصوص بين قرابته وسائر أصحابه والمؤمنين به (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه كان ربيبُه الذي كان بمثابة ولده، وقرينه المتأسي به، وكان أوّل من اطلع على بعثته

وصدّقه، وقد استوزره وآخاه في أداء الرسالة منذ إظهار دعوته، وكان مصدقه، وحارسه، ومُفديه بنفسه حيث تركه غيره، وأمينه على أمانته، والحامل لظعنه، وقد جعل بيته بين بيوته وبيوت أزواجه، وكان صاحب رايته، وقائد جيشه، ورجل المهمات الصعبة عنده في الحرب والسلم والأمن والقضاء والدعوة، والمستجيب الوحيد لمن بارزه من أعدائه، وهو رسوله في إبلاغه القرآن حيث تعذّر عليه، والمشارك له في خصائص تشريعيةٍ لم يشاركه بها غيره، منها بقاء بابه مفتوحاً إلى مسجده، ومنها تجويز حج القِران له من غير أن يكون قد ساق هدياً، وهو (عليه السلام) المخصوص بمناجاته ودوام السؤال منه أو ابتداء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إياه بالسؤال، وهو المخصوص معه في مباهلته (صلى الله عليه وآله وسلم) مع النصارى، وهو الذي خصّه من بين قرابته بجعله من أهل بيته وسلالته الذين دعا لهم بالطهارة والتطهير الخاص، وجعل أبناءه (عليه السلام) من ابنته أبناءه (صلى الله عليه وآله وسلم) وسلالته، وهو أوّل أهل بيته الذين جعلهم خلفاً له بعد وفاته لهداية الأمّة، وعقد له من الولاء مثل ولائه، وقد تعهده في مرضه وتوفي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجره، وأوصى إليه بتجهيزه ودفنه، وقد حمل عنه وعن القرآن الكريم من العلم والحكمة ما تمثل في تراثه كنهج البلاغة، وكان المميز من أصحابه بالعلم والحكمة والفقه والمؤدّب معه غاية الأدب.

وأمّا العرض التفصيلي: فيشتمل على موضوعين:

الموضوع الأوّل: علاقة الإمام (عليه السلام) بالنبي (صلى الله عليه وآله) في العهد المكي قبل البعثة النبوية وبعدها.

أمّا قبل البعثة، ومدتها عشر سنوات منذ ولادة الإمام (عليه السلام) حتى البعثة، فيتضمن البحث عدة إيضاحات:

١. علاقة القرابة والجوار منذ النشأة.

٢. علاقة التكفّل منذ الطفولة والتربية ـ على حدّ علاقة الولد بالوالد ـ بإيداع أبي طالب والد الإمام (عليه السلام) إياه منذ طفولته عند الرسول (صلى الله عليه وآله).

٣. علاقة المرافقة والصحبة كما حدّث عنه (عليه السلام) من مرافقته (عليه السلام) إياه (صلى الله عليه وآله) في غار حراء وتأثره به.

وأمّا منذ البعثة إلى الهجرة ومدتها ثلاث عشرة سنة فقد تضمّن البحث عدة إيضاحات:

١. اطلاع الإمام على بعثة النبي (صلى الله عليه وآله) والتي كانت في السنة الثالثة عشرة قبل الهجرة، وتصديقه (عليه السلام) إياه (صلى الله عليه وآله) كأوّل رجل صدقه، وقد خصّه النبي (صلى الله عليه وآله) بقبول ذلك رغم عدم بلوغ الإمام (عليه السلام) حينئذٍ، ولم يتفق له (صلى الله عليه وآله) قبول إسلام أحد قبل بلوغه، فتلك حالة مفردة في تاريخه (صلى الله عليه وآله).

٢. مصاحبته (عليه السلام) للنبي (صلى الله عليه وآله) في بداية نزول الوحي عليه واستيزاره له فيما بينهما، كما حدّث (عليه السلام) عن ذلك في كلام مذكور في نهج البلاغة.

٣. كتابته (عليه السلام) للوحي منذ بدايته.

٤. مشاركته هموم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في فترة الدعوة السرية.

٥. اجتماع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع رجال قومه بني هاشم اجتماعاً خاصاً ودعوته لهم وطلبه منهم حمايته والإيمان به، وقد تضمّن البحث ذكر استجابة بعضهم للإيمان، واستجابتهم جميعاً ـ عدا أبا لهب ـ لحمايته سواء مَن آمن أو مَن لم يؤمن.

٦. اتخاذ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الإمام (عليه السلام) في نفس الاجتماع أخاً ووزيراً على أن يكون وارثه ووصيه، وقد تضمّن ذكر أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عرض على قومه في دعوته لهم أن يؤازره أحدهم بشكل خاص فيكون خليفته، وقد استجاب له الإمام (عليه السلام) دون غيره (عليه السلام) لمؤازرته، فاتّخذه (صلى الله عليه وآله وسلم) أخاً ووزيراً في أداء الرسالة على حدّ هارون وموسى، والتزم الإمام (عليه السلام) للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك بعد هذا الحادث في شؤون أدائه (صلى الله عليه وآله وسلم) للرسالة، فكان كل ما وقع من الإمام (عليه السلام) بعد هذا الحدث إيفاءً بالإخاء والوزارة وعقد المناصرة معه.

٧. مرافقة الإمام أخاً ووزيراً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مجالسه مع قريش في أمر الرسالة، وقد تضمّن أنّ الإمام (عليه السلام) كان يصاحب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مجالسه مع قريش ويصدقه، كما كان حال هارون (عليه السلام) مع موسى (عليه السلام)، وهو من أبعاد الأمر السابق.

٨. حمايته (عليه السلام) للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع عامة عشيرته بني هاشم وشيخهم أبي طالب والد الإمام (عليه السلام).

٩. تخصيص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الإمام علياً (عليه السلام) بمؤاخاته في السنة الرابعة للهجرة عند مؤاخاته بين المؤمنين في مكة المكرمة، وقد كانت مؤاخاته إياه هذه المرة معلنة أمام عامة قريش والمؤمنين، وكانت تحقيقاً لما كان قد سبق منه في اجتماعه مع قومه في أوّل إظهار دعوته.

١٠. محاربة سائر فروع قريش للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومعاداتهم لبني هاشم، وحصارهم لهم في شعب أبي طالب في السنة السابعة من البعثة إلى العاشرة، وقد تضمّن البحث ذكر احتمالات قتل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين ذاك ومرافقة الإمام (عليه السلام) له (صلى الله عليه وآله وسلم).

١١. إيجاب المودة لقربى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على المؤمنين، وكان ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[١]، وقد نزلت في سورة الشورى المكية[٢].

١٢. ثبات الإمام (عليه السلام) في مكة إلى آخر بقائه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها، وقد تضمّن هذا البحث أنّ الإمام (عليه السلام) انفرد بين بني أعمام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالإيمان به وبقائه

(١) سورة الشورى: آية ٢٣.

(٢) وهي السورة (٦٢) وفق الترتيب المشهور من مجموع السور التي نزلت بمكة ويبلغ (٨٩) سورة.

في مكة رغم الضغوط عليه، وعدم هجرته، ولم يشجع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الإمامَ (عليه السلام) على الهجرة إلى الحبشة والمدينة كما شجع سائر أصحابه المضطهدين على ذلك، ولم يبق منهم من يستطيع الهجرة ممن كان مضطهداً عدا رجالاً من بني هاشم، وقد هاجر بعضهم كجعفر (عليه السلام) أخي الإمام (عليه السلام).

١٣. استنصار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سائر القبائل القاطنة خارج مكة، أو الوافدة إليها للحج بعد وفاة أبي طالب من غير جعل نصيب لهم في الأمر، وامتناعهم من الاستجابة له، وقد كان ذلك في السنة العاشرة فما بعدها.

١٤. إسلام بعض الأنصار في السنة الثالثة قبل الهجرة (وهي الحادية عشر بعد البعثة)، ثم قدوم جماعة منهم في السنة التي تليها، ومبايعتهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الإسلام، وسميت بيعة العقبة الأولى، ثمّ قدوم عشرات منهم في السنة الأخيرة قبل الهجرة، ومبايعتهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على السمع والطاعة وأن ينصروه ويمنعوه عمّا يمنعون عنه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم وأن لا ينازعوا الأمر أهله، وهذا عقد للولاء معهم والولاية عليهم.

١٥. وقاية الإمام (عليه السلام) للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلة هجرته بمبيته مكانه، وقد تضمّن البحث ذكر تخطيط قريش لقتل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في السنة الثالثة عشرة في ليلة هجرته إلى المدينة، ووقاية الإمام (عليه السلام) له (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه بالمبيت في مكانه عملاً بإخائه واستيزاره (صلى الله عليه وآله وسلم) إياه (عليه السلام).

١٦. إيكال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أهله وأمانات أهل مكة لديه إلى الإمام (عليه السلام) وقيام

الإمام (عليه السلام) بحفظ أهله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأداء أماناته.

١٧. هجرة الإمام (عليه السلام) إلى المدينة وحمله الفواطم ولحوقه مسرعاً بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

الموضوع الثاني: علاقة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام علي (عليه السلام) في العهد المدني..

وكانت مدته عشر سنوات حتى وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكانت هناك إيضاحات حول ما وقع في كل سنة منها:

السنة الأولى:

١. انتظار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أخيه ووزيره الإمام (عليه السلام) قبل دخول المدينة، وإسراع الإمام (عليه السلام) إليه حتى كأنّهما على موعد بدخول المدينة معاً في أوّل إطلالة له (صلى الله عليه وآله وسلم) على أهل المدينة، ومفارقة أبي بكر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمجرد الوصول إلى المدينة، وسكن أبي بكر وكذلك عمر في أعالي المدينة بعيداً عن مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبيته وبيوت من كان حول المسجد من أصحابه.

٢. بناء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مسجده وقوله عن عمار: (تقتلك الفئة الباغية) في إشارة إلى الفئة الباغية الأبرز (جماعة معاوية) في زمان حكم الإمام (عليه السلام) بعد ثمانية وثلاثين سنة.

٣. تخصيص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أخاه الإمام (عليه السلام) بجعل بيته (عليه السلام) بين بيوته وبيوت أزواجه حول المسجد، من دون سائر قرابته حتى عمه حمزة بن عبد

المطلب، وكثرة تردد أحدهما على الآخر.

٤. عمل عليّ (عليه السلام) كأخ ووزير للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة بعد اتساع نشاط النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها.

٥. ترتيب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وثيقة المدينة كتعاقد عام بين أهلها من المسلمين المهاجرين والأنصار والمشركين واليهود بالولاء العام فيما بينهم، وكونهم أمّة واحدة على من سواهم، وجعل المهاجرين من قريش قبيلة واحدة في الولاء الخاص.

٦. تمييز النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) مرة أخرى بمؤاخاته إياه في المدينة عند مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار كتأكيد آخر على هذه العلاقة الخاصة أمام أهل المدينة كافة، وبينما كانت طبيعة المؤاخاة أن يكون بين واحد من المهاجرين وآخر من الأنصار، حتى أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) آخى بين حمزة ومولاه زيد بن حارثة، وقيل إنّه آخى بين جعفر أخي الإمام (عليه السلام) ـ رغم كونه بالحبشة ـ مع آخر من الأنصار، لكنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أبى أن يقرن علياً بأحد غيره.

٧. نشأة ظاهرة النفاق في المدينة وبقاؤها حتى وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وجعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بغض عليّ (عليه السلام) من النفاق.

٨. ابتداء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة بالتعرض لقوافل قريش التجارية من خلال إرسال سرايا إليها.



السنة الثانية:

١. بداية النشاطات القتالية في المدينة بغزوة بدر، والتعرض للقافلة التجارية الكبرى لقريش فيها.

٢. الدور الفريد للإمام عليّ (عليه السلام) وبني هاشم في القتال في غزوة بدر وما بعدها.

٣. تخصيص عصبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (بني هاشم) بسهم في خمس الغنائم في حدث مهم يبدأ بتمييز مؤبدٍ لبني هاشم عن سائر قريش والقبائل الأخرى من الأنصار وغيرهم، وهو اهتمام شرعي بتكوين عصبة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليبقوا مميزين بأنسابهم وأحسابهم إلى آخر الدهر.

٤. اصطحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً في حرب بدر وكل حروبه.

٥. جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً قائداً في بدر وبعدها دائماً، وعدم جعله تحت قيادة غيره في أي موقف عسكري أو مدني، كما لم يقرنه بغيره في مؤاخاة أو غيرها.

٦. تخصيص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً بإعطائه لواءه في غزوة بدر وسائر حروبه.

٧. دفع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالإمام (عليه السلام) في كل مهمة صعبة ومتعذّرة على الآخرين.

٨. تزويج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الإمام (عليه السلام) من ابنته فاطمة (عليها السلام) بعد غزوة بدر.

السنة الثالثة:

١. ولادة الحسن بن عليّ (عليه السلام) أوّل حفيد للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واعتبار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

إياه سلالة له رغم أنّه ابن ابنته، وأقواله المميزة في حقه.

٢. غزوة أحد والدور الفريد للإمام (عليه السلام) فيها.

٣. شهادة حمزة بن عبد المطلب في هذه الغزوة، وتميّز تعامل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع شهادته بالجزع والصلاة.

السنة الرابعة:

١. ولادة الإمام الحسين بن عليّ (عليه السلام) واعتبار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إياه (عليه السلام) سلالته (صلى الله عليه وآله وسلم) ونسله، وأقواله (صلى الله عليه وآله وسلم) المميزة في حقه.

٢. غزوة بني النضير والدور الفريد للإمام (عليه السلام) فيها.

٣. تخصيص عصبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) (بني هاشم) مرة أخرى دون سائر قريش والقبائل بجعل سهم لهم في الفيء مع سائر المؤمنين المستحقين.

السنة الخامسة:

١. غزوة الخندق والأحزاب والدور الفريد والمنقذ للإمام (عليه السلام) فيها.

٢. نزول آية التطهير الدالة على عناية الله تعالى بأهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أسوة بالأنبياء السابقين من أصحاب السلالات المصطفاة.

٣. تخصيص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عنوان أهل بيته (عليهم السلام) ـ الذين يكونون محل العناية الناجزة من الله تعالى ـ بالإمام عليّ وفاطمة والحسنين (عليهم السلام) فحسب في حديث الكساء المتفق عليه، وجعله (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً ـ من بين قرابته أجمع ـ من جملة سلالته وعترته، واعتباره (صلى الله عليه وآله وسلم) نسله ـ من فاطمة وعلي (عليه السلام) ـ من

سلالته وإن كانوا أولاد ابنته وابن عمه الذي هو صهره، فكانت هذه الحادثة ولادة لعنوان (أهل البيت) كما أراده النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

٤. نزول الآية الآمرة للمؤمنين بالصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما يصلي عليه الله وملائكته، وتعليم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أصحابه ضمّ (آله) إليه في الصلاة عليه والدعاء بالصلاة عليهم جميعاً كما صلّى على إبراهيم وآل إبراهيم، في دلالة واضحة على أنّ آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) سلالة مصطفاة من هذه الأمّة كاصطفاء آل إبراهيم.

السنة السادسة:

١. صلح الحديبية ودور الإمام (عليه السلام) وأدبه مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتغليظ عمر على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وشكَّه في الرسالة حينئذٍ ـ كما قال ـ.

٢. فريضة التصدق قبل النجوى، وانفراد الإمام (عليه السلام) بامتثالها مما دلّ على اهتمامه بسؤال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دوماً، بينما ترك سائر الصحابة نجوى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد عتب الله على عامة الصحابة غيره في ترك النجوى فراراً عن الصدقة قبلها.

السنة السابعة:

١. غزوة خيبر والدور الفريد للإمام (عليه السلام) فيها، وإبداء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) امتياز الإمام (عليه السلام) في محبة الله سبحانه ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، لا يخيبه الله أبداً)، وهو

ثناء مميّز على الإمام (عليه السلام).

٢. قدوم جعفر من الحبشة إلى المدينة وإبداء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) سروره بمقدمه.

٣. صلح فدك، ونحلة فاطمة (عليها السلام) إياها تنفيذاً لحقها في الفيء.

٤. عمرة القضاء ودور الإمام (عليه السلام) في الأمن والسلم في هذه العمرة.

٥. اصطحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في رجوعه إلى المدينة لابنة حمزة، وقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الإمام عليّ (عليه السلام) وأخيه جعفر في شأن حضانتها.

٦. سدّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أبواب الصحابة إلى المسجد عدا بابه وباب الإمام (عليه السلام).

السنة الثامنة:

١. غزوة مؤتة وشهادة جعفر بن أبي طالب، وقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأنه، وما خُصّ به من الثواب.

٢. فتح مكة، ودور الإمام فيها.

٣. غزوة حنين، والدور الفريد للإمام (عليه السلام) وبني هاشم فيها.

٤. غزوة الطائف، ودور الإمام (عليه السلام) فيها.

٥. مناجاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع الإمام (عليه السلام) بمحضر أصحابه وإطالته فيها، واعتراض أبي بكر على ذلك.

٦. إخباره (صلى الله عليه وآله وسلم) بقتال بعض أصحابه على تأويل القرآن، ثمّ إخباره عن أنّه عليّ (عليه السلام).



السنة التاسعة:

١. غزوة تبوك وخصائصها واستخلاف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الإمام في المدينة.

٢. طعن المنافقين على الإمام (عليه السلام) في إبقاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إياه في المدينة، وقوله المشهور عنه (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي).

٣. حادثة السعي إلى قتل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الغزوة من جماعة من مرافقيه وهم ملثمون، وإخبار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حذيفة بأسمائهم.

٤. أهل البيت (عليهم السلام) وحادثة المباهلة مع نصارى نجران.

٥. تبليغ آيات أوّل سورة براءة إلى قريش في مكة، ومجيء جبرئيل بإرسال عليّ (عليه السلام) بعد إرسال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا بكر بها.

٦. تصدّق الإمام (عليه السلام) راكعاً، ونزول قرآن يتلى في الثناء على ذلك مشيراً إلى الإمام (عليه السلام) إشارة واضحة.

السنة العاشرة:

وهي سنة السابقة على سنة وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

١. إرسال الإمام (عليه السلام) إلى اليمن داعياً وقائداً وأميناً وقاضياً، ودعاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام عليّ (عليه السلام) في أمر القضاء وتسديد الله سبحانه إياه بذلك.

٢. حجة الوداع، وما جاء من خطبته (صلى الله عليه وآله وسلم) بعرفات وذكر أهل البيت (عليهم السلام) والأئمة من بعده، وسائر خطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها، وهي آخر حجة وزيارة من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للبيت الحرام.

٣. لحوق الإمام عليّ (عليه السلام) من اليمن بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجه، وما اتفق من خصوصية له في ذلك.

٤. شكاية من كان مع الإمام (عليه السلام) في اليمن إياه (عليه السلام) إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتزكية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام (عليه السلام) على وجه أكيد.

٥. إعلان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في رجوعه من مكة الى المدينة في اجتماع الحجاج بغدير خم عن قرب وفاته، وإقرار الحاضرين على عقائد الدين، واستخلاف أهل بيته في الأمّة ـ مع القرآن الكريم ـ لوقايتهم من الضلالة، وتأكيده على اتباعهم، وعقد مثل ولائه للإمام (عليه السلام) والتشديد على ذلك، وذلك هو ما عرف بواقعة الغدير.

٦. إخبار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الفتن من بعده، ومنها افتتان أصحابه ورجوعهم القهقرى بعده، ويتوقع أنها كانت في أواخر حياته.

٧. بعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جيش أسامة في مرض موته، وفيه عامة وجوه المهاجرين والأنصار إلا بني هاشم والإمام علياً (عليه السلام)، وهو يؤشر على الاهتمام بانعقاد خلافته لوجوه عصبته (بني هاشم) دون سائر أهل الحل والعقد، ويبدو ذلك سبيلاً عملياً لتنفيذ واقعة الغدير.

٨. سعي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى كتابة وصية لا تضل الأمّة بعدها، وهذا إشارة ظاهرة إلى حديث الثقلين، وممانعة عمر وأنصاره من ذلك، وقوله: (إنّ النبي غلبه الوجع.. حسبنا كتاب الله) في إشارة إلى ما صرحت به رواية أخرى من

اتهامه (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه يهجر ـ حاشاه (صلى الله عليه وآله وسلم) من ذلك ـ، وذلك ما عرف برزية الخميس.

٩. ما روي من تصدي أبي بكر لإمامة الجماعة في الصلاة في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مرضه وملابسات ذلك.

١٠. وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجر الإمام (عليه السلام) وقيامه بتجهيزه (صلى الله عليه وآله وسلم).

هذه جملة من الحوادث التي تتعلق بمكانة الإمام في سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهناك أحداث وأحاديث كثيرة لا نعلم تاريخها بالدقة، وربما تيسر الحدس بتاريخها بمزيد من البحث والتنقيب، كما أنّ هناك أحداثاً وأحاديثَ قد يُختلف في ثبوتها وصحتها، وقد يتأتى إحراز ذلك بمزيد من البحث أيضاً، وإنما الغرض مما ذكرناه ذكر مجموعة مِن أثبتِ الأحداث والأحاديث الواضحة والتامة التي تمثّل مكانة الإمام (عليه السلام) في سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

القسم السابع: حول تفصيل خطوات صناعة البديل عن الإمام عليّ (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام)، ويتضمّن مقدمة وموضوعين:

فالمقدمة: في إجمال سياسة الخلفاء تجاه أهل البيت، ونصوص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأن أهل البيت (عليهم السلام) والإمام (عليه السلام)، ثمّ سياسة معاوية والصحابة في حقبة إمرته بعد شهادة الإمام (عليه السلام).

الموضوع الأوّل: السياسة تجاه أهل البيت (عليهم السلام) في زمان الخلفاء:

١. سلب الاستحقاقات المفروضة في القرآن لأهل البيت (عليهم السلام) في الخمس

والفيء على وجه معلن.

٢. سلب الإمكانات المالية لأهل البيت (عليهم السلام)، مثل سلب فدك وسلب ميراث فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأخذ صدقات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من بني هاشم.

٣. التعامل الفظ والشديد مع أهل البيت (عليهم السلام)، ولا سيما مع فاطمة الزهراء ومع الإمام عليّ (عليه السلام).

٤. عدم تولية قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بني هاشم في أي منصب قيادي سياسي أو مدني أو قضائي أو عسكري.

٥. تحديد نشاطات أهل البيت (عليهم السلام) الاجتماعية والتعليمية.

٦. إعطاء امتيازات مالية وإمكانات سياسية وقضائية وعسكرية لسائر رجال قريش ورجال من الأنصار حتى المنافقين والمؤلفة قلوبهم.

٧. رفع رجال قريش إلى مصاف الإمام (عليه السلام) بجعلهم معه من ستة الشورى.

٨. التخطيط لإبعاد الأمر عن أهل البيت (عليهم السلام) أبداً كما يتمثل في تركيب عمر لستة الشورى وترجيح كفة عثمان.

٩. حجب سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسنته وشأن أهل البيت (عليهم السلام) بالمنع العام عن نشر الحديث وتدوينه والحثّ على قراءة القرآن محضاً.

١٠. استشارة الخلفاء مع الإمام عليّ (عليه السلام) وحدودها.

١١. سياسة الإمام عليّ (عليه السلام) في التعامل مع الخلفاء في زمان خلافتهم.

الموضوع الثاني: سياسة الخاصة من الصحابة في التعامل مع الإمام عليّ (عليه السلام) أيام خلافته.

الموضوع الثالث: سياسة معاوية تجاه مكانة أهل البيت (عليهم السلام) بعد شهادة الإمام عليّ (عليه السلام) وكذلك سياسة الآخرين من الصحابة والتابعين.

وكانت هذه السياسة مؤلفة من جزئين:

الجزء الأوّل: هدم مكارم الإمام (عليه السلام).

١. سياسة الكتمان الخاص والمنع الرسمي والمعاقبة المشددة على مخالفة ذلك.

٢. سياسة السبّ والشتم والتنقيص والبراءة.

٣. سياسة مصادرة امتيازات الإمام (عليه السلام) في الأحداث والنصوص لصالح الآخرين.

٤. سياسة وضع أمور مشوّهة لشخصية الإمام (عليه السلام) في السيرة والسنة النبوية.

٥. اضطهاد شيعة الإمام (عليه السلام) في الكوفة وسائر الأمصار.

٦. سياسة تكذيب الإمام (عليه السلام) فيما حكاه من سوابقه وخصوصيته مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

٧. استمرار سياسة عزل بني هاشم ومصادرة حقوقهم الشرعية والشخصية.

٨. ردود فعل الخاصة والعامة من الناس على هذه السياسات.

٩. نظرة في سياسة أهل البيت (عليهم السلام) في التعامل مع معاوية وخلفاء بني أمية.

الجزء الثاني: رفع مكانة الآخرين.

١. رفع مكانة عنوان الصحابة بوجه عامّ والسعي إلى استفادة ذلك مما ورد في الثناء عليهم في القرآن الكريم.

٢. رفع مكانة الخلفاء في مقابل الإمام عليّ (عليه السلام).

٣. وضع سوابق للخلفاء قبل الإسلام.

٤. المبالغة في سبق الخلفاء إلى الإسلام.

٥. استنباط متكلف للثناء على الخلفاء من القرآن الكريم مثل استنباط الثناء على أبي بكر من آية الغار.

٦. مبالغات في إنفاق الخلفاء في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

٧. محاولات في شأن تحوير ما يمس الخلفاء مثل حادثة عزل أبي بكر عن إبلاغ آيات البراءة ونصب عليّ (عليه السلام) بوحي جبرئيل إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

٨. ادعاء أدوار جهادية وقتالية للخلفاء وإخفاء ارتدادهم على الأدبار.

٩. وضع أقوال في الثناء على الخلفاء من قبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتأكيد قربهم من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

١٠. وضع روايات في تعيين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا بكر للخلافة وذكره للخلفاء المتصدين.

١١. ادعاء أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأبي بكر بالصلاة مكانه في مرضه (صلى الله عليه وآله وسلم).

١٢. جعل فضائل للخلفاء على غرار ما روي من فضائل عليّ (عليه السلام) مقابلة

لها، ومصادرة بعض فضائله مثل إبقاء خوخة أبي بكر عند سد الأبواب.

١٣. جعل روايات في استدراك عمر على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الرشد والحق.

١٤. وضع روايات في فضائل أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

١٥. وضع روايات في فضائل آخرين من آحاد الصحابة قبل الإسلام وبعده.

١٦. وضع روايات في فضائل لبني أمية والشام في مقابل بني هاشم والمدينة.

١٧. ردود الأفعال على هذه الأساليب للحط من مكانة الإمام عليّ (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام).

١٨. التعامل مع ورثة الغدير من أهل البيت (عليهم السلام).

فهذه هي الأقسام التي تمّ إعدادها، وكان إعداد بعضها إعداداً أولياً.

وهناك مواضيع أخرى مهمة ذات علاقة بالموضوع يمكن عقد قسم لها وتفصيل القول فيها مثل امتياز أهل البيت (عليهم السلام) في معرفة الدين ونصوص الكتاب والسنة في شأن كل العقائد والفروع وسائر عناصر الثقافة الدينية، إلّا أنّ ما ذكرناه هو الذي تيسر البحث فيه فعلاً.

وقد كتبت سلسلة بحوث حول سيرة أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في تبوّء موقع الإمامة وتبليغها، وهذه البحوث هي بمنظور أشمل كالمتمم لهذا البحث، إذ من جملة العناصر التي يثار الشك بها في اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) أنّ رجال أهل البيت (عليهم السلام) بأنفسهم لم يدّعوا ذلك، بل كانوا اعتقاداً وتبليغاً من أهل السنة.

وهذا الطرح وإن كان يتضح عدم صحته من جملة من مباحث الكتاب، منها إيضاح حول إحياء الإمام عليّ (عليه السلام) لواقعة الغدير ومكانة أهل البيت (عليهم السلام) إلا أنّه قد تضمّنت السلسلة المذكورة صورة أكمل وأوضح حول ذلك.

٦. إيجاز عمّا اشتمل عليه هذا القسم من الكتاب

لقد اشتمل القسم الأوّل من هذا البحث ـ كما تقدم ـ على عشرة إيضاحات عُنيت بثبوت الواقعة نفسها وإيضاح دلالات خطبتها يحسن ذكر موجزها، لأجل تحصيل انطباع إجمالي وكامل عنها قبل الوقوف على تفاصيلها.

فالإيضاح الأوّل: تناول ثبوت الواقعة.

وقد تضمّن بيان بداهتها لثبوتها بجميع الطرق المتعارفة لثبوت واقعة أو قولٍ ما ثبوتاً بيناً، وهي الثبوت التاريخي والثبوت الروائي بنحويه المتواتر والصحيح، ثمّ الثبوت الصحيح كان على وجهيه من الصحيح بذاته والصحيح بغيره من جهة المتابعات، وكانت الطرق الصحيحة متعددة فيها، منها ما ورد عن رجال البخاري ومسلم بأعيانهم وعلى شروطهما تماماً، وجرى التنبيه في هذا السياق على اتفاق علماء الحديث على ثبوت هذه الواقعة ثبوتاً واضحاً.

وتضمّن هذا الإيضاح بيان أنّ إهمالَ نادرٍ لهذه الواقعة كالبخاري لا يفسّر تضعيفها من قبله بتاتاً، وربما ضعّفها نادر كابن تيمية فاعتُبِر ذلك خطأً واضحاً



وتسرعاً ذمياً.

وتضمّن عواملَ بداهةِ ثبوتِ هذه الواقعة وأخواتها ـ رغم مساعي إخفائهاـ، وهي ترتيبها من قبل النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) على وجه تاريخي مميّز وواسع، ثمّ عناية الإمام (عليه السلام) عند خلافته بإحيائها، ثمّ نصب الأمويين العداء لأهل البيت (عليهم السلام) مما خلق ردة فعل معاكسة، ثمّ وجود روح الإنصاف والتحرّي في جماعة من أهل العلم من أهل السنّة.

وكان **الإيضاح الثاني**: حول واقعة الغدير والقدرة على تحليل الحوادث الاجتماعية والسياسية التاريخية على وجه ملائم.

وقد تضمّن أوّلاً بيان أنّ واقعة الغدير هي على كل حال ذات مدلول سياسي.

ثمّ ذُكرت مقدمة عامة حول أهمية مقدرة الباحث في التاريخ على التحليل الملائم لتلك الحوادث، كما هو الحال في الحوادث السياسية والاجتماعية المعاصرة حيث يذهب الناس مذاهب شتى في تحليلها ودلالاتها، وذُكِرَت أمثلة للتلقيات الساذجة من كثير من الناس للحوادث في عصر النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وعن واقعة السقيفة بعده، وعن الفتن في زمان الإمام عليّ (عليه السلام)، حتى أنّ أحدهم ترضّى عن الإمام عليّ (عليه السلام) وحجر ومعاوية تصحيحاً لعمل الصحابة رغم أنّ معاوية قتل حجراً على محبة الإمام عليّ (عليه السلام) وموالاته.

وبعد هذه المقدمة تضمّن الإيضاح بيان أهمية القدرة على تحليل واقعة

الغدير وعناصرها على وجه ملائم في إدراك حقيقة هذه الواقعة ومضمونها، بل لا بدّ من المقدرة على تحليل الوقائع ذات العلاقة مثل حادثة السقيفة واتجاه من حضرها من أهل الحل والعقد من الصحابة، كما يلزم فهم اتجاه فريق من الصحابة في مواجهة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حياته ومحادثتهم مع النبي تعويلاً على آرائهم في مقابل قراراته وتعليماته.

وكان **الإيضاح الثالث:** حول توضيح خطبة الغدير في ضوء فهم ملاحن الخطاب ومعاريضه ودلالاتها الذكية.

وقد اشتمل على تقديم مقدمة عامة حول أهمية فهم الخطاب وملاحنه بنحو عام وفي الأدب العربي، وجاء التذكير بعوامل عدم الانتباه إلى مدلول الخطاب وهي خمسة: فقدان الذوق الأدبي، والافتراضات المسبقة، والموانع الفكرية والمذهبية، وحجاب الغيبة والتاريخ، وعدم الالتفات إلى حراجة الموقف وحساسيته.

وجرى في ضوء هذه المقدمة تأمّل عناية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه الواقعة حدثاً وخطاباً من خلال العناصر المختلفة التي رتب عليها الحدث وتضمّنها الخطاب، مما يدلّ على الاهتمام الأكيد فيها بإيصال رسالتها حول الأمر بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي ما يقرب من ثلاثين عنصراً، وهي سوق الحديث على وجه الخطبة، وتخصيص موضوع الخطبة بمكانة أهل البيت (عليهم السلام)، والولاء للإمام (عليه السلام)، وإلقائها في الاجتماع الجماهيري العام، وعقد الاجتماع لأجلها،

والاهتمام بخصوصية مكانها، والمفاجأة بها، وعنصر الإبهام حتى لحظة التصريح، وأسلوب التفاعل مع الحضور، والتذكير بقرب وفاته، وإبداء النصح والإشفاق، واعتبار الكتاب والعترة أمانة مودعة عند الأمة، وأسلوب أخذ الإقرار بشيء لإلزام المخاطب بغاية تترتب عليه، وعنصر التدرج والتسلسل الهرمي في مضامين الخطاب، والتعبير عن شكوك المتكلم في استجابة المخاطب له، وقرن الخطاب بالترغيب والتحذير، وأسلوب التعليل، وتضمين الخطاب التنبؤ بعواقب التخلف، ومعالجة الشبهات المتوقعة في مقابل الخطاب على وجه التلويح، وإثبات اللوازم ونفي الأضداد تأكيداً، وحكاية الوحي، وربط الموضوع بالإيمان بأصل الدين، والتعبير البليغ عن الكتاب والعترة بالثقلين حتى أصبح لقباً لهما، والتعبير عما يجب تجاه أهل البيت بالتمسك، وإحلال أهل البيت محل نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم) وسنّته بعدم جعلها في ضمن الثقلين، وتوسعة مفهوم أهل البيت (عليهم السلام) ليشمل مَن بعد الإمام عليّ والحسنين (عليهما السلام) ويتعاقب إلى آخر الدهر، والابتداء باللين والتواضع، ثم الإشفاق والتشويق، ثم الانتهاء إلى الحزم وجعل الولاء للإمام من ولائه على الأمّة، والاهتمام بإبراز عليّ (عليه السلام) للحضور، وقرن عقد الولاء بالدعاء المؤكّد والشديد، وصناعة الخطبة على وجه مفهم بليغ، ولكن بما يسلم عن مساعي الكتمان والتحريف.

ولاحظنا خلال ذلك حجم الأساليب البلاغية التي تشتمل عليها الخطبة،

وزيادة الثقة بها بالالتفات إلى المستوى المميز لها والاهتمام بترتيب الحدث والخطبة على وجه يبقى حادثاً تاريخياً مميزاً في ذاكرة المسلمين وتاريخهم ودلالة هذه العناية على خطورة موضوعها.

وفي **الإيضاح الرابع:** كان الحديث حول واقعة الغدير ودلالة الأمر بالتمسك بأهل البيت على اصطفائهم في الإسلام من خلال فقرة حديث الثقلين في خطبتها.

واشتمل البحث على ذكر ستة عشرة إيضاحاً حول هذه الفقرة، وكان موضوعها هو ثبوتها في خطبة الغدير وسائر مواردها ودلالاتها على امتياز أهل البيت (عليهم السلام) عن سائر الأمّة بعصمتهم عن الضلالة أبداً، وبيان مساوقة ذلك مع اصطفائهم في الدين، وتوضيح عظمة قرن أهل البيت (عليهم السلام) بالقرآن الكريم، والتأكيد البالغ في الخطبة على التمسك بأهل البيت (عليهم السلام)، ودلالتها على وقوع الفتن التي كان قد تنبّأ (صلى الله عليه وآله وسلم) بها من بعده جرّاء عدم التمسك بأهل بيته، وبيان عدم تمسك الأمّة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأهل البيت (عليهم السلام)، ودلالة لحنها على أجواء غير مستجيبة بين الحضور للتمسك بأهل البيت (عليهم السلام)، وكذلك دلالتها على وجود إمام هدى حيّ من أهل البيت (عليهم السلام)، وعلى مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) في موقع سنّة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسيرته، وعلى أنّ خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إنّما هي في أهل بيته حصراً، ودلالتها كذلك على كون أهل بيته هم الإمام عليّ (عليه السلام) ورجال متعاقبون من ذريته وذرية الرسول

(صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد جاء بعد ما تقدم في تتمة هذا الإيضاح ذكر مكانة أهل البيت (عليهم السلام) قبل خطبة الغدير، وإحياء الإمام (عليه السلام) في خلافته لمبدأ صيانة أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمّة من الضلالة وجريان عترته من بعده على ذلك، ومساعي المناقشة والتحريف في فقرة الثقلين من خطبة الغدير، وإذعان علماء أهل السنة بدلالة الخطبة على مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) في الدين.

وفي **الإيضاح الخامس**: كان موضوع البحث حول دلالة خطبة واقعة الغدير على الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) من بعده على حدّ الولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

وقد اشتمل على بيان أنّ الاستحضار الحي للواقعة كافٍ لفهم وضوح دلالة الخطبة على ذلك، إلا أنّ جريان الواقع التاريخي على خلاف اتجاه النص قد يسلب الكلام مؤدّاه وهو ما وقع في العديد من أحاديث فضائل أهل البيت (عليهم السلام).

وقد تضمّن هذا البحث أمرين:

أحدهما: حول توضيح معنى الولاء، وهو وشيجة قائمة بين اثنين تقتضي التناصر والتعاون، وله أنواع بحسب مبادئه ومجالاته من الولاء السياسي والقومي والقبلي والتعاقدي والأسري والديني، ومنه الولاء بالملك والجوار والرحمية والمصاهرة والقيادة، ومنه ولاء الله سبحانه ورسوله، وكذلك ولاء

العشرة والصحبة والإحسان.

وكذلك تضمّن البحث توضيح انقسام الولاء إلى ولاء متكافئ كالولاء القبلي بين أفراد العشيرة، والولاء المختلف الذي يكون أحد طرفيه محوراً والآخر تابعاً له مثل ولاء الله ورسوله للمؤمنين، وولاء القادة والرؤساء لمن يتولون أمره، وولاء الأب للطفل.

وتضمّن البحث بيان القول في المعاني التي ذكرها اللغويين، وبيان أنّها مصاديق أو لوازم، مع احتمال تأثرهم ببعض الأمور المذهبية.

الأمر الآخر: حول معنى الولاء المثبت للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وللإمام (عليه السلام)، وبيّنا أنّ المفهوم منه ولاء غير متكافئ يقتضي محورية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) وقيادتهما وتبعية الآخرين، وناقشنا احتمالات متكلّفة مثل أن يكون المراد تأكيد الولاء الإيماني العام من الإمام أو ولاء ترتّب عليه المحبة أو النصرة إذا ظلم في موقف له.

ولاحظنا دلالة القرائن اللفظية التي هي ملء الخطبة على ذلك من التركيز على الإمام في الولاء، وكون الخطبة وصية ناظرة لما بعد وفاته، وتفريع الولاء في الخطبة على وجوب التمسك بالثقلين بعده، فالكتاب والعترة هم خلف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الأمة، وذكر الإمام (عليه السلام) بعد ذكر أهل البيت (عليهم السلام)، وتمهيده (صلى الله عليه وآله وسلم) لإثبات الولاء لنفسه بقوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم) الذي دلّ على أنّ ذلك هو المراد بكونه مولى المسلمين، فدلّ على أنّ

ذلك هو المراد بكونه وكون الإمام موليي المؤمنين، ثم قوله: (اللّهم والِ من والاه) الذي يقتضي كون الإمام محوراً للولاء، هذا مضافاً إلى اهتمام النص اهتماماً بالغاً بأمر إثبات الولاء له حيث كان هو بيت القصيد من الخطبة بكل مؤكداتها، ودلالة الخطبة على سعيه إلى نفي الاتهام عن نفسه وهو يلائم ولاء الحكم.

وذكرنا في نهاية ذلك إيجازاً عن مجمل القرائن الأخرى غير اللفظية على نظر الحديث إلى ولاء الحكم من ملابسات حاضرة وحوادث سابقة وأمور لاحقة لهذه الخطبة، وقد لخّصنا فيها ما جاء في جلّ الإيضاحات المقبلة في هذا القسم والقسمين الآخرين بعده، وقد بلغت نيفاً وعشرين قرينة تساعد على ذلك.

وكان **الإيضاح السادس**: حول جلاء دلالة الخطبة عند اختبار مؤداها على وجه المعايشة مع الحدث.

وقد اشتمل ـ أوّلاً ـ على توجيه عام لتأثير حيوية المشهد على فهم الكلام، وتضمّن ذلك بيان أنواع غيبة المشهد عن الناظر، وما يخفى من العناصر في إثْر الغياب وما يتجدد ويؤثر سلباً على مؤداها.

وبعد الحديث عن ذلك ذكرنا أسلوبين لاختبار المعايشة الحية لواقعة الغدير وفهم دلالتها، وهما افتراض الحضور فيها أو تجربة مثلها في العصر الحاضر، واستعنّا بالوقائع العشائرية القريبة لتقريب ذلك.

وفي الإيضاح السابع: تعرّضنا لكون واقعة الغدير مشهداً لوصية النبي

(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الأمّة حول الأمر من بعده، كما يدلّ عليه نعيه لنفسه، وأخذه الإقرار على الإيمان بالله ورسوله وعلى الإيمان باليوم الآخر من الحاضرين، ثم عدّ نعمه عليهم، وقد ذكر أوّلاً ما خلفه فيهم وهو الكتاب والعترة مؤكّداً على التمسك بهما معاً للأمن من الضلالة، وأكد على التمسك بالعترة تأكيداً بالغاً حذر الهلاك من بعده، ثم عقد الولاء لأوّل رجال العترة صريحاً وهو الإمام عليّ (عليه السلام)، وجعل ولاءه على حدّ ولائه.

وقد أنهينا القول ببيان تنصيص الإمام عليّ (عليه السلام) على أنّه وصي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكذا أصحابه في حرب الجمل وصفين فيما كانوا يرتجزون عند القتال بين يديه.

والإيضاح الثامن: تضمّن بيان أنّ الولاء للإمام (عليه السلام) في الخطبة من الولاء الاصطفائي دون الولاء السياسي الاعتيادي، فهو مقرون بالعلم المميز والتسديد الإلهي الخاص، على حدّ ولاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ عدا الوحي ـ.

وقد تضمّن البحث توضيح قسمي الولاء وفوارقهما، ثمّ دلالة الخطبة على الولاء الاصطفائي للإمام بقرينة التفريع المفهوم من الخطبة للولاء على الأمر بالتمسك بالثقلين، والذي دلّ على عصمة العترة من الضلالة ـ خطأً كانت أو خطيئة ـ، وذلك معنى الاصطفاء، والإمام (عليه السلام) أوّل هذه العترة، كما أنّ في الدعاء بمعاداة الله تعالى لمن عاداه ما يلائم ذلك.

وفي **الإيضاح التاسع**: شرحنا دلالة التركيز على الشخص في الولاء والعداء

وبيّنا أنّ التركيز على الولاء للإمام (عليه السلام) وبشكل مطلق يقتضي اتّباعه عند التفرق وحدوث الفتن والشبهات، وبيّنا أهمية هذا المعنى وإفضاءه إلى إثبات الولاء السياسي للإمام (عليه السلام)؛ بالنظر إلى أنّه كان صاحب اتجاه وموقف في الأمور السياسية بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد روى عنه الجميع أنه كان يرى نفسه أولى من أبي بكر بالأمر، ولا معنى للولاء الإيماني المطلق لمن يخالف رأي السلطة إلا إذا كان هو صاحب الشرعية في الحكم.

وفي **الإيضاح العاشر**: شرحنا أهمية مضمون الخطبة، حتى لو كان مفادها نصر الإمام (عليه السلام) فيما اختلف فيه مع غيره، إذ اختلف مع أهل السقيفة فيما بنوا عليه من بيعة أبي بكر، ولم يبايعه إلى عدة أشهر، وأفصح عن أولوية نفسه (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام) بأمر الأمّة في زمان خلافته، فأدّى إلى انتشار التشيع لأهل البيت في الكوفة، ولا معنى لولاء النصرة لمن يخالف رأي السلطة إلا إذا كان هو صاحب الشرعية في الحكم، ولذلك فإنّ الولاء بالنصرة للإمام ينتهي إلى الولاء السياسي.

وبهذا تمّ هذا القسم من البحث بعد استنطاق خطبة الغدير عن حقيقة دلالاتها وملاحنها.



واقعة الغدير



واقعة الغدير

لقد اتفقت واقعة الغدير ـ غدير خم ـ قبيل وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنحو من شهرين ونصف أو يزيد قليلاً بعد الانصراف من الحج في اجتماع عامّ جماهيري حضره المسلمون من عموم البلاد تقريباً، حيث إنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد خروجه من مكة فاجأ الحجاج العائدين من الطريق العام إلى المدينة والبلاد الأخرى معهم، فوجههم إلى جنب غدير ماء وأشجار تظلل من حوله، فتوقف هناك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وخطب فيهم خطبةً خصّها بذكر مكانة أهل بيته وعقد الولاء الخاص للإمام عليّ (عليه السلام)، وقد استهلها بذكر جهده (صلى الله عليه وآله وسلم) في تبليغ الرسالة وأخذ الإقرار من الحاضرين على ذلك، ثمّ أبان عمّا قصده.

وقد رويت هذه الواقعة عن الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) وعن عشرات من الصحابة وصحّحها النقاد عن كثير منهم، بل قالوا عن جملة من طرقها إنّها على شروط الشيخين البخاري ومسلم، ومن جملة من رويت عنهم زيد بن أرقم وعبد الله بن عباس وسعد بن أبي وقاص وأبي أيوب الأنصاري.

ومن المواضع التي أثار فيها الإمام (عليه السلام) هذه الواقعة هو يوم الرحبة في أيام خلافته، وقد استشهد عليها الصحابة الحاضرين في تلك الواقعة، فشهد بها كثير منهم قيل إنهم بلغوا ثلاثين رجلاً، وقد استفاض نقل ذلك من طرق

عديدة، وأيضاً صحّح جملة منها النقّاد، بل قالوا إنّ بعضها يصحّ على شروط البخاري ومسلم، ومن جملتها ما صححوه من رواية يزيد بن أبي زياد وسماك ابن عبيد بن الوليد العبسي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: (شهدت علياً رضي الله عنه في الرحبة ينشد الناس: أنشد الله من سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم من كنت مولاه فعليّ مولاه لمّا قام فشهد، قال عبد الرحمن فقام اثنا عشر بدرياً كأني أنظر إلى أحدهم، فقالوا نشهد أنّا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم غدير خم: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجي أمهاتهم، فقلنا بلى يا رسول الله، قال: فمن كنت مولاه فعلى مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه)[1].

ورواها بعد إثارة الإمام (عليه السلام) لها جماعة من الصحابة الذين كانوا أحياء أيام خلافته فما بعدها.

ومن أشهر الصحابة الذين روي عنهم هذا الحديث هو زيد بن أرقم الأنصاري، وقد صحّح النقّاد جملة من الطرق إليه بعضها يصحّ على شروط البخاري ومسلم، ومن طرقها وألفاظها التي صححوها ما أخرجه جماعة منهم الطبراني بإسناد صحيح عن زيد بن أرقم، (قال: نزل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجحفة، ثمّ أقبل على الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني لا

(١) لاحظ مثلاً: مسند أحمد: ١/ ١٩٩، قال الألباني: قلت: وهو صحيح بمجموع الطريقين عنه.

أجد لنبي إلا نصف عمر الذي قبله، وإني أوشك أن أدعى فأجيب فما أنتم قائلون، قالوا: نصحت، قال أليس تشهدون أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ الجنة حق والنار حق وأنّ البعث بعد الموت حق، قالوا نشهد، قال فرفع يديه فوضعهما على صدره، ثمّ قال: وأنا أشهد معكم، ثمّ قال: ألا تسمعون، قالوا: نعم، قال: فإني فرطكم على الحوض وإنكم واردون عليّ الحوض وإن عرضه أبعد ما بين صنعاء وبصرى فيه أقداح عدد النجوم من فضة فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين، فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: كتاب الله طرف بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلوا، والآخر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، وسألت ذلك لهما ربي، فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم، ثمّ أخذ بيد عليّ رضي الله عنه، فقال: من كنت أولى به من نفسي فعلي وليه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه)[1].

وقد روى مسلم في صحيحه هذا الحديث من طريق مشايخه عن زيد بن أرقم، ولكن بلفظ لا يشتمل على فقرة الولاء للإمام (عليه السلام) أصلاً، بل اقتصر فيه على ذكر حديث الثقلين وبلفظ خاص وذلك من طريق أبي حيان التيمي الكوفي، قال: (حدثني يزيد بن حيان، قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر

(١) يلاحظ مثلاً: المعجم الكبير: ١٦٧/٥.

ابن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، حدّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: يا ابن أخي والله لقد كبرت سنّي وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم فما حدثتكم فاقبلوا وما لا فلا تكلفونيه، ثم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمّاً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثمّ قال: أمّا بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربى فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثَّ على كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال: وأهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي)[١].

ورواه كذلك أحمد في المسند[٢]، وابن خزيمة في صحيحه[٣]، والطبراني في المعجم الكبير[٤]، والطحاوي في شرح مشكل الآثار[١]، وابن أبي عاصم في

(١) صحيح مسلم: ١٢٢/٧ ـ ١٢٣.

(٢) مسند أحمد: ٣٦٦/٤ ـ ٣٦٧.

(٣) صحيح خزيمة: ٦٢/٤ ـ ٦٣.

(٤) المعجم الكبير: ١٦٧/٥ و١٨٢، و٦٧/٣.

السنة[٢].

ولكن لا شك في اشتمال رواية زيد بن أرقم على فقرة (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) لما تقدم من رواياتها من عدة طرق مصحّحة من جملتها ما يصح على شرط مسلم كما صرّح به أهل العلم بالحديث.

ومن الطرق المصححة ذات الألفاظ المفصلة للحديث ما رواه جماعة منهم ابن عساكر[٣] عن حذيفة بن أسيد قال: (لما قفل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن حجة الوداع نهى أصحابه عن شجرات بالبطحاء متقاربات أن ينزلوا حولهن، ثمّ بعث إليهم، فصلى تحتهم، ثمّ قام، فقال: أيّها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي يليه من قبله وأني لأظن أن يوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون، قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً، قال: ألستم تشهدون أن لا إله ألا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنته حق، وناره حق وأنّ الموت حق وأنّ البعث بعد الموت حق، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور، قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: اللّهم أشهد،

(١) شرح مشكل الآثار: ١٨/٥، ٨٨/٩، ٨٩/٩.

(٢) كتاب السنة (لابن أبي عاصم): ٦٣٠/١.

(٣) أخرجه الطبراني باختصار في المعجم الكبير: ٦٧/٣، ح٢٦٨٣، وذُكِر في تاريخ دمشق: ٢١٩/٤٢، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٦٤/٩ بطوله.

ثمّ قال: أيها الناس إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وإني أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فهذا مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه، ثمّ قال: أيها الناس إني فرط لكم، وإنكم واردون على الحوض حوضي أعرض مما بين بصرى وصنعاء، فيه عدد النجوم قدحان فضة، وإني سائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به ولا تضلوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ حوضي).

ولنذكر عدة إيضاحات حول ثبوت هذه الواقعة ودلالاتها[١].

---

(١) وقد اختصرنا الحديث عن ثبوتها لوضوحه فكان موضوع الإيضاح الأوّل، وكانت باقي الإيضاحات حول دلالة الحديث والعناصر المؤثرة فيه.



الإيضاح الأوّل

حول ثبوت هذه الواقعة

وفيه نقاط:

١. الاتفاق على ثبوتها.



٢. ثبوت الواقعة بالثبوت التاريخي والمتواتر والصحيح.

٣. متن الحديث.

٤. عوامل حفظ هذه الواقعة رغم مساعي كتمانها وتحريفها.



الإيضاح الأوّل

حول ثبوت هذه الواقعة

وفيه نقاط:

١- الاتفاق على ثبوتها

النقطة الأولى:

لا شك لدى علماء المسلمين في ثبوت هذه الواقعة وأصل ما جاء فيها من عقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام)، فأوردها عامة أهل السيَر في أحداث السيرة النبوية في أحداث شهر ذي الحجة من السنة العاشرة، وتلقاه الجميع تلقي حدث تاريخي ظاهر ومعلوم في عداد الأحداث التاريخية الكبيرة من هذا القبيل.

وكذلك قد نقلها أهل الحديث في كتبهم وصححها عامة علماء الحديث ونقاده فيما اهتموا به من السيرة أو ألفوه في فضائل الإمام عليّ (عليه السلام).

هذا وقد انفرد نادر من أهل السيرة والمحدثين بإهمال هذه الواقعة، ولكن الإهمال لا يعني النفي كما هو مقرر لدى أهل العلم كافة، ولذلك فهو لا يعني وجود خلاف في الموضوع ولا ينفي وضوح ثبوت الحديث وفق المقاييس



المعتمدة.

فمن النادر بين أهل السير ما صنعه ابن هشام في السيرة النبوية التي هي اختصار لسيرة ابن إسحاق، فحذفها من سيرته بعنوان التخليص والإيجاز، فأوجب التعجب من صنيعه هذا، رغم أنّ الإعراض في مثله لا يعتبر إنكاراً لهذه الواقعة عند علماء التاريخ، لكن ذلك أمر لا يجوز مثله بحال فإنّه إخلال بالمنهج وبمقتضيات الأمانة، ولا يصحّ إهمال مثل هذه الواقعة والخطبة وهي حدث جماهيري عام حضره الآلاف من المسلمين، لا سيما أنّ بناء التاريخ على ذكر الأحداث المعهودة دون المشاحّة في رجال الإسناد كما هو دأب المحدثين من أصحاب الصحاح كما هو معلوم لأهل الممارسة.

ومن النادر بين أهل الحديث إعراض البخاري عن إيراد هذا الحديث من دون قدح صريح، وقد استدركه عليه جماعة من النقاد المتقدمين كالذهبي والمتأخرين كالألباني[١]، وقالوا إنّ الحديث صحيح على شرطه بمعنى أنّ الرجال الذين رووه قد روى لهم البخاري في صحيحه، ولم يكن له أن يهمل هذا الحديث بتاتاً.

وينبغي الالتفات في هذا السياق إلى أنّ عدم ذكر الواقعة لا يدلّ على إنكارها ونفي صحتها كما هو معروف عند أهل فنّ الحديث، إذ قد علم من

---

(١) لاحظ: سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤/ ٣٣٠، التحف شرح الزلف: ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

خلال المقارنة والممارسة والتأمّل أنّ للإعراض عن ذكر الحديث أسباباً لدى بعض أهل الحديث كالبخاري غير الشك في صحته مثل تجنّب تمسّك أهل البدع به، وكانت خطبة الغدير هي المستمسك الأهم لإمامة أهل البيت (عليهم السلام) التي اعتبرت بدعة لدى مدرسة الخلافة.

وأيّاً كان فإنّ إهمال هذه الواقعة حالة نادرة، لكنها لا تعني ـ كما ذكرنا ـ إنكار صدورها ممن أهملها عند أهل العلم.

نعم، ربما وقع موقف شاذ صريح في التشكيك في ثبوت أصل الواقعة، وهو ما صدر من ابن تيمية في بعض كلماته فوقع موضعاً للنقد في هذا الموقف[1]، واعتبر خروجاً ظاهراً عن الموازين العلمية، واعتُبر سببه ضرباً من التسرّع، وقد يكون منشأه التحوّط لسلامة الاعتقاد بمدرسة الخلافة.

وقد عهدت من ابن تيمية زلات متعددة من هذا القبيل في شأن الروايات التي ترد في فضائل أهل البيت (عليهم السلام)، وذلك معروف لمن سبر منهجه، وقد انتقده العديد من أهل العلم من بعده.

هذا، وقد انقرض مثل هذا الموقف النادر والشاذ ـ فيما أعلم ـ في أوساط المسلمين، فقد اتفق جميع علماء الحديث وأهل الفن فيه على صحة هذه الواقعة وخطبتها وفق الموازين العامة للجرح والتعديل.

---

(١) لاحظ كلام الألباني في موقف ابن تيمية في سلسلة الأحاديث الصحيحة.

ولذلك يمكن القول إنّ هذا الأمر هو متفق عليه بين علماء الحديث ممن تعرض لتقييم رواية هذه الواقعة بنحوٍ ما، فهناك من أوردها في كتابه الذي ألّفه في الأحاديث الصحيحة والحسنة، ومَن قيّمها في التعليق على كتب الحديث وشرحها، أو مَن تطرّق لها ضمن مباحثه الكلامية، فلا تجد أحداً أنكر اعتبار هذا الحديث عدا شاذٍّ صرّح علماء الفن بأنه غير جارٍ على الموازين العلمية ونشأ إنكاره من عدم المراجعة والاطلاع على طرق الحديث.

وليس في عدم رواية البخاري لهذه الواقعة شهادة نافية لثبوتها لدى أحد من صيارفة الحديث ونقاده، وإنّما ذلك مما يظنه عوام الناس أو بعض المبتدئين، أو يتمسك به بعض أهل العصبية والجدال، لأنّ من الواضح للغاية بالمتابعة والمقارنة أنّ البخاري ومسلم لم يستوعبا كل الأحاديث الصحيحة على شرطهما وتركا بعضها، والدليل القاطع الواضح على ذلك هو ورود كثير من الأحاديث التي تركاها بعين الأسانيد التي رويا بها الأحاديث التي صححاها وأورداها وبرواية الرواة الذين رووا لهم بأعيانهم، وواقعة الغدير من مصاديق هذه الحالة، فإنّ العديد من طرقها صحيحة وفق شروط البخاري ومسلم كما صرّح به جماعة من أهل العلم، ومنهم الذهبي والألباني من المتأخرين[1].

(١) وربما تصدى بعض المبتدئين في العلم ممن لا ممارسة له في شيء، أو لا يتحرج من القول بغير علم، لبيان عدم اعتبار هذا الحديث اعتماداً على منهج خاطئ وواهم لم يستكمل أدوات العلم، وذلك من جهات عديدة:

أوّلاً: أنّه يهمل تصريحات أئمة الحديث بصحة الحديث تعيناً، بل تواتره، حتى الذين يستعين بأقوالهم في تضعيف بعض طرق الحديث ورجاله كالمحدث الألباني، ولا ضير من مخالفة الباحث لأهل العلم عن اجتهاد ناضج، ولكن لا يصح بحال إيهام المخاطبين والناظرين بأنّ هذا الاجتهاد متعين وفق قواعد البحث الحديثي المعتمد عند أهله، فعلى الباحث أن ينقل بصدق حجم الإذعان بصحة الحديث.

وثانياً: أنّه يعوّل على عدم رواية هذه الواقعة في صحيح البخاري وعلى عدم وجود لفظة (ومن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) في صحيح مسلم، وهذا التعويل خطأ فاحش عند النقاد؛ لأنّ من الواضح لديهم بالممارسة أن ترك الحديث لا يدل على أي مؤشر سلبي عليه بالضرورة لدى البخاري ومسلم بدليل تركهما روايات مروية بأسانيدهما ورجالهما مما لا مجال للشبهة فيها بوجه يعتمد عليه عند النقّاد، والحال في واقعة الغدير كذلك فقد صحّح النقّاد قديماً وحديثاً الواقعة ببعض طرقها وفق شروط الشيخين.

وبعد فإنّ الشيخين وإن اشتهر أنّ لهما شروطاً مشددة إلا أنّه يتضح بملاحظة ما ذكروه في تفصيل ذلك أنّ هذه الشروط كانت مرهونةً بمذاقٍ شخصي للغاية لم يستطع النقّاد شرحها وبيانها بتاتاً.

وثالثاً: أنّ مبنى المناقشة المعروضة في بعض طرق الحديث هو وجود ملحظ ناقد على بعض الرواة ولو من قبل بعض الرجاليين من غير الثقات، إلا أنّ البناء على هذا المنهج ليس صحيحاً ولا مقبولاً باتفاق أهل العلم، ولو بني على الأخذ به لزم إسقاط روايات كثيرة حتى مما اتفق عليه أهل العلم في الفقه والسيرة، بل بعض ما ورد في الصحيحين؛ لأنّ في إسنادها من وقع فيه بعض الكلام في كتب الجرح والتعديل، ويعلم أهل العلم أنّ كثيراً من مشاهير أهل العلم حتى بعض أئمة المذهب أو الحديث مثل أبي حنيفة ومالك والثوري والبخاري وغيرهم قد وقع في شأنهم بعض التوصيف الناقد.

والوجه في عدم قبول ذلك أنّ أنواع الملاحظات على الرواة مختلفة ومستوياتها متعددة، كما يعبّر عن ذلك اختلاف تعابير علماء الجرح والتعديل في حقهم، أو الجمع بين الشهادات المختلفة في حقهم، فهناك من يكون بعض السوء في حفظه، أو بعض اللين في نقله، أو إسقاط الوسيط الذي تلقى الحديث منه، ومثله يقوى بالشواهد والمتابعات، ولذلك يعوّل على روايته إذا اقترنت بشاهدٍ، وقد عمل البخاري ومسلم على هذا المبدأ فرويا عن بعض الرجال مقترنين أو رويا عنهم في الشواهد والمتابعات، (وقد ذكروا العديد من الاستشهادات للبخاري مثلاً في تهذيب الكمال (٢/٣٥٠ و٤٩٣ وغيرها) وفي سير أعلام النبلاء (٦/١٨٢)، ومن متابعات مسلم مثلاً في تهذيب الكمال (٤/٢٠٠، ١٢/٤٧٥ وغيرها) وفي سير أعلام النبلاء (٦/٣٤٤)).

وقد صرّح عامة النقّاد الذين تطّرقوا لنقد بعض أسانيد هذه الواقعة بجنب تصحيح بعضها على أنّ ضعف بعضها الآخر ينجبر بالشواهد والمتابعات الموجودة لها ولا يؤدي إلى عدم الاعتبار بها، وهذا أمر لا محيص عنه لمن كان ممارساً في التراث، وإنّما يفرط في النقد من لا يعرف المنهج ولوازم الأمور وملزوماتها.

ومن أمثلة تصحيح الحديث بالمتابعات ما قيل مثلاً عن رواية الأعمش لواقعة الغدير عن حبيب ابن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم من: (أنّ حبيباً كان مدلّساً وقد عنعنه، لكنه لم يتفرد به فقد تابعه فطر بن خليفة بإسناد صحيح على شرط البخاري، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي، وقال عنه الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة وهو ثقة، وتابعه أيضاً سلمة بن كهيل أخرجه الترمذي بإسناد صحيح على شرط الشيخين).

وقيل في رواية النسائي واقعة الغدير عن طريق هانئ بن أيوب عن طاووس عن عمرو بن سعيد عن عليّ (عليه السلام) في الرحبة: (إنّ هانئاً قال عنه ابن سعد: فيه ضعف، وذكره ابن حبان في الثقات، فهو ممن استشهد به في الشواهد والمتابعات).

وقيل في رواية جماعة واقعة الغدير منهم عبد الله بن أحمد في زوائد المسند من طريق شريك بن عبد الله القاضي عن أبي إسحاق عن سعيد بن وهب وعن زيد بن يثيع عن عليّ في الرحبة: (شريك سيئ الحفظ وحديثه جيد في الشواهد وقد تابعه شعبة وغيره).

وقيل عن رواية الطبراني واقعة الغدير من طريق إسماعيل بن عمرو عن مسعر عن طلحة بن مصرف عن عميرة بن سعد عن أنس بن مالك وأبي هريرة: (قال الهيثمي في إسناده لين، لكن يقويه أنّ له طرقاً أخرى عن أبي هريرة وأبي سعيد وغيرهما من الصحابة). (لاحظ: السلسلة الصحيحة للألباني ٤/١٧٥٠)، فهذه نماذج من أقوال النقّاد في منهج تقييم الحديث، وعلى هذا المثال فقِس.

وربما اعتمد بعض المبتدئين في تضعيف بعض الأحاديث على أنّ في رواة الحديث كوفيين، ولا ثقة بأهل الكوفة في الحديث لميلهم إلى التشيع استشهاداً بأقوال وردت بمناسبات خاصة ولم ترد على جهة العموم.

وهذا القول أيضاً ناشئ من عدم المتابعة والممارسة؛ لأنّ أهل العلم الممارسين يعلمون أنّه مهما قيل في هذا الشأن فإنّه لا يمكن أن يقدح في إثبات واقعة الغدير؛ وذلك..

أوّلاً: أنّ لهذه الواقعة أسانيد من غير طريق الكوفيين، مثل بعض طرق الحديث عن سعد بن أبي وقاص.

وثانياً: أنّ حجم أسانيد هذه الواقعة من طرق الكوفيين لهو هنا بدرجة لا يمكن فيها تطبيق هذه المقولة، وإنّما يمكن أن يطبق ذلك في بعض الروايات المفردة.

وثالثاً: أنّ كثرة أسانيد الكوفيين إلى هذه الواقعة ونحوها من فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام) ترجع إلى عوامل طبيعية لا تدعو إلى الشك والريبة عند المتأمّل في تاريخ تدوين الحديث في الكوفة وأسباب اختلافها عن المدينة، وذلك أنّ قسماً من تلك الأحاديث كانت قد ثبتت من قبل الإمام (عليه السلام) بالكوفة، أو استشهد عليها الصحابة فيها كما لاحظنا في واقعة الغدير، وحيث إنّ الإمام



٢- ثبوت الواقعة بالثبوت التاريخي والمتواتر والصحيح

النقطة الثانية:

إنّ مستوى اعتبار هذا الحديث ليس مقصوراً على الخبر الصحيح باصطلاح علماء الحديث، بل يرقى إلى مستوى الحدث التاريخي المشهور، بل إلى الخبر المتواتر كما صرّح بذلك جماعة من المحدثين النقّاد من أهل السنة.

(عليه السلام) كان قد نزل في الكوفة بعد تولي الخلافة وحدّث بها فروى أصحابه وسائر الناس بالكوفة خطبه وأحاديثه، وكان كثير من أحاديثه يدور حول تعريف الناس بنفسه وسوابقه من جهة اقتضاء ما كان فيه من الفتن لبيان مثل ذلك حتى يثق الناس به وبمواقفه في تلك الفتن الكبيرة، لا سيما أنّ تلك السوابق كانت مسكوتاً عنها بطبيعة الحال في زمان الخلفاء من قبل.

كما أنّ قسماً آخر من أحاديث أهل الكوفة كان من قبل الصحابة من الأنصار والمهاجرين الذين وفدوا على الكوفة مع الإمام (عليه السلام) وشاركوا في القتال معه مثل أبي سعيد الخدري وأبي الطفيل وغيرهما، كما نزل آخرون من الصحابة فيها لدواعٍ أخرى، وهؤلاء وجدوا في ظل خلافة الإمام (عليه السلام) أجواءً تتيح الحديث في فضائله وسوابقه مما لم يحدثوا بها من قبل في خلافة من سبقه، كما أنّ انتشار التشيع لأهل البيت (عليهم السلام) في الكوفة في أثر خطب الإمام (عليه السلام) خلق ـ حتى بعد شهادته ـ أجواءً ملائمة في الوسط الاجتماعي فيها للحديث عن مثل ذلك، وهذا أثر يظهر بتأمّل تاريخ تدوين الحديث ورجاله في الكوفة.

ورابعاً: أنّه لو بُني على إسقاط روايات أهل الكوفة لسقط كثير من روايات الصحيحين وغيرهما مما وقع الاتفاق على العمل به لا سيما في المذهب الحنفي والشافعي والحنبلي، ولكن بعض المبتدئين ممن لم يدرس العلم على أصوله يتمسك بها في غير موضعها ويطبقها في غير محلها، وللحديث عن الطعن في أسانيد الكوفيين تفصيلٌ، ولا يسعنا توضيح الموضوع بأزيد من ذلك.

وينبّه على ذلك أنّ بعض المحدثين وأصحاب السير خصّه بكتاب مفرد منهم:

١. الطبري صاحب التاريخ والتفسير، وهو من أئمة الفقه، حيث بلغه تشكيك بعضهم في هذا الحديث، فاهتمّ بإثباته وألّف فيه كتاباً مفرداً في جزأين[١].

٢. ابن عقدة الزيدي وهو حافظ مشهور، فقد قيل إنّه استوعب طرق الحديث، وقد وقف عليه ابن حجر العسقلاني وقال عن طرقه: (منها صحاح ومنها حسان)[٢]، واهتمّ جماعة من أهل النظر والتتبع برصد طرق رواية هذه الواقعة ورواتها وشواهدها في التاريخ والأدب[٣].

وتوضيح ذلك أنّ هناك ثلاثة أنواع من الطرق معهودة لثبوت الوقائع والأقوال ـ وقد ثبتت الواقعة بها جميعاً ـ:

الطريق الأوّل: هو الطريق التاريخي، والمراد به أنّ الواقعة الاجتماعية العامة يحصل الوثوق برواتها وفق المعتاد في رواية التاريخ ما لم يكن هناك معارض لها، بالنظر إلى أنّ خلق واقعة واسعة بهذا الحجم التي حضرها عشرة آلاف من الرجال على أقل تقدير، وقيل بل عشرات الألوف، وفيهم جمهور المهاجرين

---

(١) لاحظ: البداية والنهاية (ابن كثير): ٥/٢٢٧.

(٢) لاحظ: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي: ٦/٢٨٢.

(٣) ومن أبرز هؤلاء صاحب عبقات الأنوار ثم العلامة الأميني صاحب كتاب الغدير المعروف.

والأنصار من غير أن تكون قد وقعت أصلاً، أو تحريف نصوصها إلى غير وجهها، مظنة للانكشاف أو الريبة في شأن الراوي، وذلك مما يتجنبه الرواة حتى كثير من الضعفاء منهم، وليس هناك من حديث معارض ينفي هذه الواقعة.

وعلى هذا الطريق يُعوَّل عموماً في إثبات أحداث السيرة النبوية، فإنّها لم تُرْوَ رواية مسندةً ثقةً عن ثقةٍ غالباً، بل هي أخبار مراسيل رواها الإخباريون المعنيون بالسيرة في سياق حكاية التاريخ.

وهذا الطريق يتحقق بوضوح في شأن خطبة الغدير، لأنّ من غير الوارد أن تكون حكاية واقعة استثنائية وقعت في أثناء الطريق بهذا الحجم الواسع الذي يدّعى فيها حضور ألوف من الناس بما فيهم عامة الوجوه والقادة من رجال المهاجرين والأنصار حكايةً ملفقةً لأمرٍ لم يقع بتاتاً، وهذا أمر ظاهر وفق قواعد إثبات التاريخ، فهذه الواقعة إنما هي من قبيل الوقائع الكبيرة التي لا يتأتى تزويرها في عصر قريب منها كما هو الحال في الحروب والغزوات الكبرى.

والواقع أنّ حديث الغدير أولى بالثقة من كثير من حوادث السيرة النبوية التي يعتمدها عامة المؤرخين والمحدثين وأصحاب السير، لأنّ حجم هذه الواقعة أوسع، ومؤشرات كذبها لو كانت كاذبة ستكون أوضح من الوقائع الأخرى، لا سيما أنها تضمّنت موضوعاً حساساً وخطيراً لدى جمهور المسلمين.

هذا، وينتمي الطريق التاريخي في الحقيقة إلى نوع أعم، وهو الطريق الذي يعوّل فيه على احتفاف الخبر بالقرائن المؤكدة بأنواعها المختلفة من الاعتبارات التاريخية وتعدد الرواة وإذعان المؤرخين غير المتهمين والشواهد الأخرى.

الطريق الثاني: هو الطريق الروائي المنقول على سبيل التواتر، والمراد به أن تتعدد حكاية الخبر من طرق متعددة يوثق بأنّها لا تنشأ عن أصل واحد، وقد اقتفى بعضهم أثر بعض آخر.

ومعرفة تحقق التواتر في أحداث السيرة النبوية وأقوال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نوعاً بحاجة إلى الاطلاع على تاريخ الحديث ومصادره وأحوال الرواة في الجملة، وإلا احتمل الناظر البعيد عن مثل ذلك ـ في بادي النظر ـ وضع الحديث ابتداء من قبل واحد، ثمّ اقتفاء الضعفاء إياه وإسناده إلى آخرين حتى تراءت له طرق مستقلة وهي ليست كذلك، بل الأصل فيها شخص واحد قد وضع الحديث.

وقد ثبت تواتر حديث الغدير في جملة (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) عند جماعة من النقاد من محدثي أهل السنة[١] الذين اطلعوا على سعة طرقه ومصادره، وهو أمر ظاهر شريطة أن يكون الباحث مجهزاً بمعرفة علوم الحديث وتاريخه ومصادره وطبقات الرواة وأحوالهم كما أشرنا.

---

(١) يلاحظ تفصيل تواتر حديث الغدير عند علماء أهل السنّة في كتاب الغدير (الأميني): ٢٩٤/١ وما بعد.

الطريق الثالث: وهو الطريق الروائي المعتمد ويوصف بالصحيح أو الحسن، وهو عند المحدثين على ضربين:

١. الطريق المعتمد على الثقة بآحاد الرواة في جميع طبقات الإسناد المتصل حتى ينتهي إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومن البديهي عند المحدثين النقاد تماميّة هذا الطريق في شأن واقعة الغدير، مهما تشدّد الباحث في قبول الرواية واعتبر شروطاً أشد في قبولها، ولذلك صرّح جماعة من النقّاد ـ كما قدّمنا ـ بثبوت هذه الواقعة على شروط البخاري ومسلم في الصحيحين[1]، بل هذا الحديث أولى بالثقة من جلّ روايات الصحيحين حسب أدنى مقارنة بين طرقها وأوصاف رجالها، ولذلك صرّح

---

(١) وهذه الشروط هي كما يلي:

الأوّل: شرط نصّ عليه الشيخان وهو ثبوت اللقاء عند البخاري، والاكتفاء بالمعاصرة مع إمكان اللقاء عند مسلم.

الثاني: شهرة الراوي بطلب الحديث والعناية به، وهو شرط حدس به من خلال الاستقراء.

الثالث: اعتبار حفظ الراوي وملازمته لشيخه ولو مدة يسيرة عند مسلم، وينتقي البخاري ممن التقى مدة يسيرة بعضاً دون بعض من دون استيعاب للجميع ولا ترك للجميع، وهو شرط حدس به بالاستقراء أيضاً.

الرابع: أنّ الثقة إذا انفرد عن الكثيرين ينظر إلى إتقانه وكثرة روايته، وما إذا كان يتحمل تفرده أم لا، وهو أيضاً شرط عرف بالاستقراء.

غير واحد من أهل العلم كالذهبي وابن حجر[١] بصحة العديد من طرق الرواية، بينما توقف بعضهم في صحة بعض أحاديث الصحيحين.

٢. الطريق المعتمد على تقوية الطرق الحسنة بعضها بعضاً من خلال الشواهد والمتابعات وفق ضوابط محددة في علم دراية الحديث.

وهذا طريق معروف عند المحدّثين ولا يندرج به الحديث عندهم في عنوان الصحيح لذاته، ولكنه يوصف بأنّه (صحيح لغيره)، فهم قد يعتمدون على حديث الراوي من جهة اقترانه بغيره أو ورود طريق آخر يشهد له ويساعد عليه.

وجملة من طرق واقعة الغدير هي طرق حسنة واجدة لشرائط الثقة بالتقوية والمتابعات كما ذكره النقّاد.

٣-متن الحديث

النقطة الثالثة:

لقد اشتملت خطبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في واقعة الغدير على أجزاء متعددة بعضها ممهدات أو متممات ولواحق وبعضها أركان، والأركان فقرتان:

إحداهما: فقرة الولاء وهي: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، وهذا هو المحور الأساس للحديث.

---

(١) لاحظ: سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤/ ٣٣٠، التحف شرح الزلف: ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

وثانيتهما: فقرة التمسّك بالثقلين، وهذه أيضاً فقرة أساسية جاءت في الحديث قبل فقرة الولاء.

وقد اختلفت طرق الحديث فيما تضمّنت حكايته من ركني الخطبة وهما فقرة الثقلين وفقرة الولاء وسائر ممهداتهما ومتمماتهما.

فاقتصر بعضها على فقرة الثقلين في الحديث التي تتضمّن الأمر بالتمسك بالكتاب والعترة للوقاية من الضلالة.

واقتصر بعضها الآخر على فقرة الولاء (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

واشتمل بعضها على جمل إضافية تصف ابتداء الخطبة ومقدماتها ونهايتها.

والقاعدة المعروفة عند كافة أهل العلم أنّ ما اشتمل على زيادة يعتبر أكمل مما خلا عنها ويكون حجة على إثباتها، ولا يكون عدم اشتمال بعض آخر عليها نافياً لوجود الزيادة، لأنّ اقتصار الرواة على إيراد بعض الكلام أمر متعارف، ونقل شيء لا يدل على نفي ما عداه، لاسيما أنّ من المعلوم أنّ ما صدر من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في غدير خم كان خطبة خطب بها ولم يكن جملة أطلقها، فكان مؤلفاً من جمل عديدة بطبيعة الحال.

هذا، وقد يكون للاقتصار على بعض الحديث دواع طبيعية للإيجاز والتلخيص، إلا أنّ من الملفت إهمال بعضهم ـ مثل مسلم في صحيحه تبعاً لبعض مشايخه ـ لفقرة الولاء التي هي لبّ الحديث ومركزه والغاية التي أراد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الانتهاء إليها في الخطبة بحسب سياقها، وتلك هي قوله (صلى الله عليه وآله وسلم):

(من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، فاقتصر مسلم على رواية فقرة حديث الثقلين منه رغم أنّه رواه من طريق زيد بن أرقم، الذي روى عنه جماعة هذا الحديث مشتملاً على هذه الزيادة وفق شروط مسلم في الصحيح، على أنه روى هذه الفقرة بلفظٍ ذَكَرَ فيه الثقلين، ولكن استبدل التمسّك بأهل البيت بالتذكير بأهل البيت فقط، رغم أنّ المشهور في رواية زيد بن أرقم وغيرها في لفظ الحديث الأمر بالتمسّك، وهو الأنسب بسياق الحديث[١].

وقد صحّ ذلك من رواية زيد بن أرقم من طرق أخرى صحيحة على شرط مسلم، ولكنه لم يشأ أن يورد الرواية بتلك اللفظة.

والواقع أنّ تغييب أهل البيت (عليهم السلام) عن الموقع الملائم لهم ـ وفق ما تشير إليه نصوص الكتاب وتدلّ عليه نصوص السنّة من التميز العلمي والمعنوي والسياسي ـ أدّى إلى ظاهرة محسوسة بسهولة ويسر في شأن النصوص والوقائع المتعلقة بهم، وهي إهمال النصوص المتعلّقة بهم، وقلّة طرقها، وتقطيعها، وتخفيف صياغاتها.

لكن مع ذلك بقيت جملة من تلك الوقائع والنصوص محفوظة بطرق معتبرة تقوم بها الحجة على المسلم.

---

(١) لاحظ في بيان مناسبته الإيضاح الثالث، العنصر ٢٢.

٤-عوامل حفظ هذه الواقعة رغم مساعي كتمانها وتحريفها

النقطة الرابعة:

إنّ هناك عدة عوامل ساعدت على حفظ هذه الواقعة وأخواتها من الأحاديث المهمة الواردة في مكانة أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمة، وساعدت على بقائها في مقابل التحديات التي واجهتها من قبل الخلفاء والساسة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من المنع من تدوين الحديث ونشره على وجه عام، ثمّ ما يختص بفضائل الإمام عليّ (عليه السلام) على وجه خاص، ومن أهم تلك العوامل:

الأوّل: وقوع بعض أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أهل البيت (عليهم السلام) في وقائع تاريخيّة جماهيريّة، وهو فيما يبدو كان أمراً مخططاً له من قبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأجل بقائها.

ومن مصاديق تلك الوقائع واقعة الغدير، فقد كانت هذه الواقعة جزءاً مشهوداً من سيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ إذ كانت حدثاً جماهيرياً ذا ملابسات فارقة، ولم يكن قولاً حدّث به بعض أصحابه، ولا حدثاً اعتيادياً في المسير، بل كان حدثاً مفاجئاً قيل إنه غيّر لأجله الطريق بعض الشيء، وجمع لإلقائه من حضر حتى عرف المكان وهو غدير خم بهذه الواقعة في التاريخ، ويبدو في خصوص هذه الواقعة أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان معنياً بهذا النوع من الاهتمام الخاص ليكون حدثاً تاريخياً يتعذر محوه من ذاكرة الحاضرين ومن بعدهم، وإذا كان نادر من أصحاب السير كابن هشام في السيرة النبوية قد تجرّأ على حذفه فقد ارتكب

خطأً فاحشاً كما تقدم.

الثاني: إحياؤها مِن قبل أهل البيت (عليهم السلام)؛ كما تصدى لذلك أمير المؤمنين بعد توليه الخلافة في خطبه التاريخية التي ألقاها على جمهور أهل الكوفة المجموعة في نهج البلاغة، ومثل ذلك فعل ذريته (عليهم السلام) إذ رووا هذه النصوص وأكدوا عليها.

ولو نظرنا إلى واقعة الغدير فإننا نجد بالنظر في كتب الحديث عند جمهور المسلمين أنّ الإمام (عليه السلام) كان أبرز رواة واقعة الغدير، وقد استشهد عليها في واقعة معروفة بالرحبة[1] من كان يحضره من الصحابة فشهد له العديد منهم، فعدّ هؤلاء كلهم من جملة رواة الحديث، على أنّ الراوي للحديث لم يذكر أسماء أكثر من شهد له (عليه السلام)، ولذلك قلّ عدد من تُعلم أسماءهم من الصحابة بالقياس إلى من كان يشهد بذلك.

على أنّ من المعلوم أنّ واقعة الغدير كانت في حجة الوداع التي حج فيها جماهير المسلمين من المدينة وسائر الأقطار وكان فيها من المهاجرين والأنصار فكانوا ألوفاً، بل قيل إنهم كانوا يبلغون عشرات الألوف، ومن ثمّ فإنّه مهما تعدّد الرواة فإنهم لا يبلغون عدد شهود الواقعة، على أنّ ذِكْرَ الإمام (عليه السلام) لهذه الواقعة أدّى إلى تحرّي بعض الناس عنها بسؤال بعض الصحابة، وهذا من

(١) لاحظ مثلاً: مسند أحمد: ١/ ١١٩. وصححه الألباني بمجموع طريقيه.

أسباب رواية بعض الرواة للواقعة عن زيد بن أرقم، فإنّها جاءت في سياق التأكّد منها بعد رواية الإمام (عليه السلام) لها.

الثالث: إنّ نصب الأمويين العداء لأهل البيت (عليهم السلام) مبكراً ـ من خلال سبهم، وتكفيرهم، وسعيهم إلى إكراه الصحابة وسائر المسلمين على ذلك ـ أدّى إلى ردّ فعلٍ من بعض الصحابة لاحقاً، ومن المتوقع أنّ ذلك من أسباب رواية سعد بن أبي وقاص لهذا الحديث، فقد طلب معاوية من سعد أن يسبّ الإمام (عليه السلام) فامتنع ذاكراً بعض ما شهده من أقوال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المميزة في حقه، كما يظهر مما أورده مسلم في صحيحه وأحاديث أخرى، وكذلك الحال في رواية عبد الله بن عباس فقد جاء في مقام إنكار سبّه (عليه السلام) الذي أشاعه معاوية وبنو أمية من بعده بين جمهور المسلمين[1].

الرابع: وجود روح الإنصاف والالتزام والتحري في فريق من أهل العلم من الجمهور أبوا معه أن ينفوا أصل هذه الحادثة أو يشككوا فيها، أو يتوسعوا في المبررات المذهبية لكتمان الأحاديث الواردة في شأن أهل البيت (عليهم السلام) كما كان شائعاً ومحموداً في أوساط جماعة واسعة من أهل الحديث؛ لأنّهم وجدوه إنكاراً غير مقبول للتراث التاريخي والحديثي المحفوظ عن السيرة النبوية، وخروجاً صارخاً عن الموازين العلمية في رواية الأحاديث وتوثيقها، ومخالفاً

(١) لاحظ مثلاً: صحيح مسلم: ٧/ ١٢٠.

مع ما اتفق عليه المسلمون من الأمر بمودة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قرباه وأهل بيته (عليهم السلام)، فإنّ ذكر ما ورد من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حقهم وفي مكانتهم من جملة مصاديق المودة، حتى أنّ بعض أهل العلم تحمّلوا أذى كثيراً من المجتمع المتعصب للخلفاء بالجهل، لكنهم لم ينثنوا عن رواية هذه الواقعة وحكايتها.

على أنّ هؤلاء العلماء الذين اهتموا برواية هذه الواقعة قد صرفوها ونحوها مما جاء في بيان مكانة أهل البيت (عليهم السلام) عن مفادها مضطرّين؛ كي لا تمسّ شرعيّة الخلافة التي اعتبروها أمراً لا يجوز المساس به بحال.

وأياً كان، فقد بقيت هذه الواقعة التاريخية على مرّ التاريخ من طرق جمهور المسلمين وثبتت ثبوتاً واضحاً لمن وقف على مداركها، واتفق عليها أهل العلم جميعاً، رغم عناية فريق من الحكام والرواة وأهل العلم بإخفائها لغايات سياسية أو مذهبية خاصة، وودوا لو أنها لم تكن.

ولذلك اقتصرنا في توضيح ثبوت الحديث على هذا الإيجاز تعويلاً على وضوح الأمر وجهود أهل العلم في إيضاح ذلك، ولو اقتضى الأمر أمكن أن نعقد له قسماً برأسه نفصّل فيه الطرق التاريخية والروائية لإثبات الحديث وفق الضوابط العقلائية العامة والضوابط المعروفة لدى أهل الحديث وعلماء الجرح والتعديل.



الإيضاح الثاني

واقعة الغدير والقدرة على تحليل الحوادث الاجتماعية والسياسية التاريخية

وفيه نقاط ثلاثة:

١. واقعة الغدير حادثة ذات أبعاد اجتماعية وسياسية.

٢. أهمية المقدرة على تحليل الأحداث السياسية والاجتماعية في معرفة الاتجاه الحق والباطل فيها.

تأمّل المشهد السياسي في عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).



تأمّل المشهد السياسي بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

تأمّل المشهد السياسي في زمان خلافة الإمام عليّ (عليه السلام).

٣. تأثير القدرة على التحليل السياسي في فهم واقعة الغدير.

الإيضاح الثاني

واقعة الغدير والقدرة على تحليل الحوادث الاجتماعية والسياسية التاريخية

إنّ واقعة الغدير تتألف من حدث وخطاب، ولذلك فمن المهم أن نتأمّل منهج فهم كل من الأحداث والخطابات على وجه عام، والإشارة إلى ما يلائم هذه الواقعة وخطبتها للوقوف على حقيقة مغزى هذه الواقعة ومؤدى الخطبة التي ألقاها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها، وفي هذا الإيضاح نتحدث عن منهج فهم هذه الواقعة كحدثٍ، لنتأمّل في الإيضاح اللاحق عن منهج فهم الخطاب المُلقى فيها.

وهنا نقاط ثلاثة:

١-واقعة الغدير حادثة ذات أبعاد اجتماعية وسياسية

النقطة الأولى:

إنّ واقعة الغدير حادثة اجتماعية عامة وهي ذات بعد سياسي على كل حال.

وذلك لأنّ الخطبة التي خطبها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تتألف من فقرتين أساسيتين كما تقدم:

١. فقرة إيجاب التمسك بالثقلين.

وهذه الفقرة تتحدّث عن مكانة (أهل البيت) بين الأمّة بشكل خاص والتمسك بهم كسبيل للأمن من الضلالة، وهذا المعنى ذو ظلال في عالم السياسة، فأيّ حاكم مستقبلي لا بدّ أن يحسب لرجال هذا البيت ـ الذين قال فيهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قولته هذه ـ حساباً كما يحسب الحكام دائماً حساباً لأصحاب المواقع الدينية الذين يراهم الجمهور هداة في الدين وفي مقتضياته في الحياة.

٢. فقرة الولاء.

وهذه الفقرة أيضاً تتحدث عن أمر ذي دلالات سياسية.

وذلك:

أوّلاً: أنّها تحدثت عن الولاء لشخصية سياسية في دولة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الإمام عليّ (عليه السلام)، فقد كان الإمام (عليه السلام) في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أبرز عصبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحماته، وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد صرّح بأنّه أخوه ووزيره ووصيه، والوزارة لمن يكون في موقع القيادة السياسية كالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هي طبعاً ذات معنى سياسي، كما أنّ عقد الإخاء معه (عليه السلام) لن يخلو عن مغزى سياسي كما يظهر بتأمل ذلك جيداً.

وثانياً: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد ارتكز في عقد الولاء للإمام (عليه السلام) على صلاحيته السياسية وهي أولويته بالمؤمنين من أنفسهم، فإنّ ذلك يتعلّق بأمر

تدبيره وقيادته للأمة وحقه في تقرير ما يراه.

إذاً مضمون الخطبة في كل من فقرتيها سياسي أو ذو بعد سياسي، فتكون هذه الواقعة ذات مدلول سياسي، ويجب التعامل معها والتفطن لدلالاتها واتجاهها وفق ما يلزم من العناية في شأن الأمور السياسية، والالتفات إلى ما تكون هذه الأمور عرضة له من وجوه التأويل والتحريف، لا سيما إذا لم تكن لمصلحة الخلفاء والحكام كما هو الحال في هذه الواقعة، إذ كانت الخلافة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عموماً في غير أهل البيت (عليهم السلام) عدا فترة وجيزة وهي خمس سنوات حكم فيها الإمام عليّ (عليه السلام)، وستة أشهر بعدها حكم فيها الإمام الحسن (عليه السلام).

٢-أهمية المقدرة على تحليل الأحداث السياسية والاجتماعية في معرفة الاتجاه الحق والباطل فيها

النقطة الثانية:

إنّ من الضروري في تحليل أيّ حدث اجتماعي وسياسي ـ ولو كان معاصراً ـ أن يرتقي الباحث إلى مستوى من الوعي المناسب لتحليل هذا الحدث وما يحتفّ به من ملابسات وحوادث، وإلّا تراءت له أمور خاطئة وقرأ الحوادث قراءة غير صائبة وبعيدة عن الواقع.

وهذا أمر يجده أيّ إنسان نابه في الحياة المعاصرة عندما يتأمّل الحوادث

الاجتماعية والسياسية التي يشهدها والأقوال التي يسمعها والغايات المنظورة بها.

ولكنّ كثيراً من الناس في المجتمع لا يرتقون إلى هذه الدرجة بشكل مباشر، فهم لا يتقنون التحليل الاجتماعي والسياسي لما يحدث وما يتعلق به من تقييم الرجال ومراتبهم وغاياتهم ومطامحهم، ولذا يقع كثير منهم في فخ الانطباعات الخاطئة ويتّبعون على أساسها قيادات غير مؤهلة للاتباع، لأنّهم لا يستطيعون قراءة الواقع وتحليله على وجه مناسب.

وهناك من يعتمد في تحليل القضايا على أشخاص يثق بهم، فإن كانوا ممّن يستوجبون منه الوثوق لاختباره علمهم وأخلاقهم وطلبهم للحقيقة وبصيرتهم في الأمور فهو سوف يصيب الواقع بذلك، وإن كانوا من الذين لا يستوجبون الوثوق، ولكن اغترّ بهم من جهة عناوينهم ومواقعهم وخطابهم ومزاعمهم عن أنفسهم دون تثبّت وتدقيق منه فإنّه يقع في الخطأ بطبيعة الحال.

وهذا المعنى ينطبق في صراع الحق والباطل في الاتجاهات الاجتماعية والسياسية على وجه عام حتى وإن لم يكن في المجتمع الديني أو على أساس الخطاب الديني كما يلاحظه الناظر في المجتمعات غير الدينية، فهناك اتجاهات عديدة فيها، بعضها معنيّ بالصالح العام، وبعضها معنيّ بالغايات الشخصية، وجمهور الناس بين من يعتمد تحليل هذه الفئة أو تلك، كما يتحقق مثل ذلك في المجتمع الديني.

وقد يستغرب كثير من النابهين قناعة فريق من الناس بقيادات تمارس الكذب والتمويه والتلبيس في تسويق أنفسها وتدّعي الغايات الحميدة والسوابق السديدة.

وليس ذلك إلّا من جهة عدم ارتقاء هؤلاء إلى تحليل الأمور والحوادث من الناحية الاجتماعية والسياسية على وجه مناسب، ولو من جهة التسرّع والانفعال والانخداع بالإعلام والشعارات المرفوعة.

ويعبَّر في لغة النصوص الدينية عن مثل هذه الاختلافات بالشبهات والفتن كما يرد ذلك كثيراً في كلمات الإمام عليّ (عليه السلام)، وقد ذكر الإمام (عليه السلام) في كلام له ورد في نهج البلاغة[١] أنّ الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق..

ومراده (عليه السلام) بالعالم الرباني مَن كان مخلصاً متبصراً للحق وواقفاً على حقائق الأمور وتحليل الأحداث.

كما أنّ المراد بالمتعلم على سبيل النجاة من يتثبّت في تحديد الموقف الصائب تثبّتاً كافياً ويزن الأمور بميزان صحيح فيميل إلى من يوثق به وبتبصّره للأمور.

والمراد بالهمج الرعاع المتسرّعون إلى تصديق كل راية من دون تثبّت وبصيرة.

---

(١) لاحظ: نهج البلاغة: ٤٩٦.

وقد ترك (عليه السلام) في التعداد ذكر صنف رابع من الناس وهم أئمة الضلال وقادته الذين يتبعهم الهمج الرعاع، وهم الذين ذكرهم بعنوان (كل ناعق) لكنّه لم يدخلهم في التعداد.

فهذا أمر يجري في عامة المجتمعات الإنسانية دينيةً كانت أم لا.

ولكن ينطبق ذلك بشكل خاص في المجتمع الديني، فالمجتمع الديني بحاجة كبيرة إلى تحليل صائب للاتجاهات المتعددة والحوادث الواقعة وتحديد المسار السليم عن المسار الخاطئ، وتشخيص مَن يكون مؤهلاً بالثقة به عمّن لا يكون كذلك.

وإذا تأمّلنا المشهد الديني في أوساط المسلمين فإنّنا نجد في الساحة الدينية خطابات متعددة وأشخاصاً مختلفين كل منهم يترأس جماعة يتبعونه ويوافقونه في التحليل الاجتماعي والسياسي للأمور والأحداث وما يترتب عليها من استحقاقات.

وقد كان الأمر كذلك منذ بداية الإسلام.

ولنضرب لذلك عدّة أمثلة حتى يتضح الموضوع.

تأمّل المشهد السياسي في عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

المثال الأوّل: المشهد السياسي في عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأسلوب تحليله.

لقد كان المسلمون في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على هذا الوصف الذي أشرنا إليه

كما يظهر من القرآن الكريم، إذ كانت ظروف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمين صعبة، إذ كان هذا الدين ديناً جديداً مبتلىً بمحاربة عامة العرب له فكانت تكتنفه ظروف الحرب والقتال والضيق، وهي ظروف تُولّد الشبهات والفتن بطبيعتها، وقد كان هناك منافقون يؤمنون بظاهر كلامهم ويبطنون الكفر في قلوبهم ويلقون الشبهات في أوساط المؤمنين ويثيرون أسئلة يجيبون عليها بأجوبة خاطئة، كما كان في المجتمع أهل الكتاب الذين كانوا يحسنون اللغة الدينية وكيفية المجادلة بالحق والباطل في الدين وأساليب التمويه والتلبيس والزيادة والنقصان بما يوقع الشبهة بين أوساط المسلمين كما حكى الله سبحانه كل ذلك في القرآن الكريم.

وكان هناك في المؤمنين من هو على حافة الإيمان، فهو يزلّ بأدنى شك وشبهة، وقد يتأثر إذا أصاب مصلحة إثر إيمانه فيقوى إيمانه وإذا أصابه ضرر تراجع عن الإيمان أو تزلزل في عقيدته لعدم رسوخ العقيدة في عقله وقلبه، وهؤلاء هم بعض الذين جاء أنّهم آمنوا ثم كفروا، كما كان هناك فريق من المؤمنين لم تزل رواسب العصبية قائمة في نفوسهم، فإذا أثيرت فيهم ثاروا في اتجاهها ولم يأبهوا بما يمليه عليهم دينهم.

وقد حثّ الله سبحانه المؤمنين على أن يتلقّوا تحليل الحوادث من أهل العلم ويحذروا الشبهة والفتنة.

ومن المقاطع القرآنية الرائعة في ذلك ما نزل في فقرة من سورة النساء نزلت

فيما يبدو في الإعداد لفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا * وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا * وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١).

وقد كان من المسلمين مَن هو أشبه بالهمج الرعاع فيتأثر بما يبثّه المنافقون أو المشركون أو أهل الكتاب، أو يتخذهم أولياء يركن إليهم ويثق بهم ولا يتوقى من سوء مقاصدهم، وقد جاء في سورة الممتحنة ـ وقد نزلت قبل سورة النساء ـ النهي الشديد عن ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ

(١) سورة النساء: آية ٨٠ ـ٨٣.

﴿أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾[٢].

وجاء في سورة آل عمران من قبل ـ وقد قيل إنّها نزلت في السنة الثالثة للهجرة ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[٣].

وجاء بعد ذلك كله في سورة التوبة ـ التي نزلت في السنة التاسعة للهجرة عن المنافقين ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

---

(١) سورة الممتحنة: آية ١ـ٢.

(٢) سورة الممتحنة: آية ١٣.

(٣) سورة آل عمران: آية ١١٨ـ١٢٠.

بِالظَّالِمِينَ * لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[١].

تأمّل المشهد السياسي بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

المثال الثاني: المشهد السياسي بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأسلوب تحليله.

إنّنا إذا لاحظنا مشهد المسلمين بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وفق الروايات المتفق عليها وجدنا مشهداً غريباً على كل حال، فقد بادر الأنصار إلى عقد اجتماع داخلي فيما بينهم لتعيين من يَلِي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم من غير استشارة لبني هاشم والإمام عليّ (عليه السلام) ـ وهو في الموقع الذي كان فيه بين يدي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ ولا لسائر المهاجرين من قريش رغم أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وهو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ كان يستشيرهم في أمور السلم والحرب ويستأنس برأيهم، وقد أمره الله بذلك، ولأنّ المشورة تقرب القلوب وتؤلف النفوس وتذهب بالضغائن، لكنهم خشوا إن أشركوا قريشاً وبني هاشم أن يُغلَبوا على الأمر، فرأوا أن يبايعوا أحدهم، ويجعلوا قوم النبي وعشيرته الأقربين (بني هاشم) في مقابل الأمر الواقع، وقد تمسكوا لاستحقاقهم في الأمر بأنّهم الذين آووا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونصروه بعد أن طرده قومه (قريش) من مأواه مكة وكادوا يقتلونه ثمّ حاربوه.

---

(١) سورة التوبة: آية ٤٦ـ٤٨.

والواقع[١] أنّه لو تمّ للأنصار أن يبايعوا أحدهم لكان وضع المسلمين خطيراً، لأنّ قريشاً ومهاجريها لم يكونوا يقبلون بذلك عادة، لأنّهم يرون أنفسهم أشرف العرب، وعصبيتهم أقوى من عصبية الأنصار، ولأنّهم قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فهم أحق بتراثه وفق العرف القبلي. كما أنّ خضوع سائر العرب للأنصار كان أمراً صعباً، وليس على حد خضوعهم لقريش؛ لمكانة قريش

(١) ولا ينبغي أن يُتوهم مما ذكرنا أنّ في ذلك ما يصحح شرع المهاجرين الثلاثة إلى بيعة أحدهم إذ لم تكن الممانعة من بيعة الأنصار لأحدهم بالذي يتوقف على هذا الشرع الذميم المخالف لميزان الشورى فضلاً عن ميزان النص، مما أرسى أساساً خاطئاً للأبد للحكم في الإسلام، بل كان يكفي أن يصروا على أنّه لا بدّ من حضور قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بني هاشم والإمام عليّ (عليه السلام) وسائر المهاجرين للأخذ برأيهم، ثمّ يُبعث إليهم لحضور عاجل، ولكن انطوى تسرعهم على الرغبة في صرف الأمر عن بني هاشم.

هذا، على أنّا ذكرنا خطورة بيعة الأنصار لواحد منهم لو ثبتوا عليه، والذي يرجح في النظر أنّهم حتى لو كانوا قد بايعوا أحدهم وحضر الإمام (عليه السلام) أمكن أن يتراجعوا عن ذلك إذا احتج عليهم ـ مضافاً إلى حجة واقعة الغدير القاضية بتعيين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام (عليه السلام) والنصّ عليه ـ بأنّهم بايعوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مكة عند استدعائه إلى المدينة على أن لا ينازعوا الأمر أهله، وكذلك إذا احتجّ بما ورد عنه في نهج البلاغة بأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، لأنّ الأمر لو كان فيهم لم تكن الوصية بهم، وبأنّ قرابة الشخص أحق بموقعه وفق العرف العربي العام الذي هو محل إقرار الجميع، وإذا كانوا هم مَن آووا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونصروه فإنّ بني هاشم قد نصروه من قبل في مكة وحموه من سائر قريش، ولولا ذلك لقتل، على أنهم نصروه في المدينة أيضاً، فهم جمعوا بين القرابة والنصرة، فلاحظ.

المركزية عند العرب، ولذلك كان من المتوقع حدوث فتن بين المسلمين كأن يخرج جل قريش من المدينة إلى مكة وينافسون الأنصار على حكم العرب، وقد تقع الحرب بينهم وبين الأنصار.

هذا، وبينما كان الأنصار في صدد إبرام الأمر لأنفسهم، إذ بثلاثة من مهاجري قريش ـ وكأنّهم يمثلون هوى جلّ رجال قريش غير بني هاشم ـ وهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة يفاجئونهم بالدخول إلى السقيفة، ويطالبون بأن يكون الأمر لهم، ويقع الخلاف الشديد بينهم وبين الأنصار، فيحتج الأنصار بحقهم في أن يكون لهم نصيب من الأمر، ويحتج هؤلاء بأنّ قريشاً قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيكونون هم أولى بتراثه.

وقد بادر أحد هؤلاء الثلاثة ـ وهو عمر ـ بالضرب على يد آخر منهم ـ وهو أبو بكر، وكان أسنّ الثلاثة وأسبقهم إلى الإسلام ـ يبايعه قبل أن يتفق مع الآخرين، وتبعه أبو عبيدة، فوقع الخلاف بين الأنصار وتحركت روح المنافسة بين رجالها فبايع بعضهم ثمّ تبعه الآخرون.

وهؤلاء المهاجرون الثلاثة لم يخبروا ولم يستشيروا الجناح الآخر في قريش، وهم بنو هاشم الذين حموا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مكة من قريش نفسها، ولا سيدهم الإمام علياً (عليه السلام) الذي هو ابن عمّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وربيبه وقرينه، ومَن خصّه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمؤاخاة والوزارة ووجوه من الثناء المميز، وكان رجل بني هاشم وقريش في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد أبيه أبي طالب بلا منازع، وكان بذلك

أحق الناس بمقام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وفق العرف العربي والقبلي، مضافاً إلى الاستحقاق الإلهي بالنص والتعيين.

ثمّ ذهب أبو بكر إلى مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على أنّه خليفة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كأمر واقع إذ بويع عليها من قبل بعض المهاجرين والأنصار، فبايعه الآخرون.

ثمّ اطّلع على الأمر بنو هاشم والإمام عليّ (عليه السلام) بعد إبرامه، وامتعضوا من بيعة أبي بكر، وكان معه (عليه السلام) بعض المهاجرين من قريش وغيرهم كالزبير، ودخل عمر وعصابة معه بيت الإمام (عليه السلام) ليكرهوا الإمام (عليه السلام) ومن معه على البيعة، وكُسِر سيف الزبير فبايع، ولكن الإمام (عليه السلام) امتنع مهما وقع من الضغط عليه، واستمر (عليه السلام) على عدم البيعة لشهور عدة، والامتناع من بيعة الخليفة خاصة من الوجوه والأعيان وخاصة ممن يرى نفسه ويراه العرف أولى يعني أمراً خطيراً؛ لأنّه يُعتبر بحسب مفهومه العرفي عدم إذعان بشرعية الخلافة، ورغم ذلك استمر الإمام في الامتناع عن البيعة، ثمّ بايع بعد وفاة فاطمة (عليها السلام)، وقد تحدّث هو (عليه السلام) عن سبب ذلك، فقال إنّ السبب هو خوفه على الإسلام من جهة رجوع راجعة الناس عن الإسلام[1]، وفي كلام آخر أشار إلى أنّه لم يكن قادراً على تغيير الأمور بعد إبرامها[2]، وذكر لأبي بكر

(١) نهج البلاغة: ٤٥١.

(٢) نهج البلاغة: ١٥٢.

أنّه كان يرى نفسه أولى وقد استُبد بالأمر من دونه(١)، فهذه قصة ما جرى بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولما تولّى الإمام عليّ (عليه السلام) الخلافة ـ بعد خمس وعشرين سنة من حكم الخلفاء عندما خرج الأمر من يد قريش فقتل عثمان دون وصية لأحد ـ لم يسكت عمّا جرى بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل ملأ الكوفة بذكر أولويته وامتياز أهل البيت (عليهم السلام)، وعبّر عن ذلك بملاحن من القول تعرف مثلها العرب في الأوضاع الحرجة، حتى انتشر التشيع في الكوفة كما يُشهد بوضوح بالغ في التاريخ.

وتمسّك من بعده بنوه كالإمام الحسن والحسين (عليهما السلام) وذريتهم بأولويتهم بالأمر، كما يدل عليه ملاحظة مجموعة كلماتهم ومواقفهم.

ولكن مع ذلك نجد أنّ جماعة يسعون إلى أن يمثّلوا الموقف بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على أنّه كان إجماعياً بين أهل الحل والعقد من الصحابة، ويعتبرون موقف الإمام (عليه السلام) مطابقاً مع اتجاه الصحابة ومذعناً بالخلفاء وراضياً بخلافتهم، وتلك مفارقة واضحة للتاريخ، وسذاجة بالغة في تحليل الأحداث، وسعي متكلف في تحصيل الواقع الخاطئ والذميم.

---

(١) صحيح البخاري: ٥/٨٣، صحيح مسلم: ٥/١٥٤.

تأمّل المشهد السياسي في زمان خلافة الإمام عليّ (عليه السلام)

المثال الثالث: المشهد السياسي في زمان خلافة الإمام (عليه السلام) وأسلوب تحليله.

وإذا لاحظنا الأمور في زمان الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) نجد أنّ الإمام (عليه السلام) ـ بغضّ النظر عن أولويته بالأمر ـ قد انعقدت له الخلافة على أساس معترف به على وجه ظاهر للجميع حيث بايعه جمهور المهاجرين والأنصار من غير كره ولا إجبار، فكان المفروض أن يَسْلَم المجتمع من الفتنة والشبهات.

ولكنّ قوماً من الخاصة أثاروا الفتنة على أساس العصبيات القبلية والمطامع الشخصية، وهو أمر متوقع عموماً، ولكن الملفت اتّباع جماعة من الناس لهم وقتالهم معهم ضد الإمام (عليه السلام) من دون تثبّت انخداعاً بالعناوين الكبيرة.

فهؤلاء طلحة والزبير وعائشة كانوا ممّن حرّض على عثمان في المدينة بسبب إيثاره قومه بني أمية، وكان طلحة وعائشة من فرع آخر من قريش وهم بنو تيم، والزبير من فرع ثالث وهم بنو أسد بن عبد العزّى، فلمّا تولّى الإمام (عليه السلام) الخلافة بادرا إلى بيعته ظناً منهما ـ كما يبدو ـ أنّ السبق إلى البيعة يكون أقرب إلى المكافأة وأدنى إلى القيادة المقبلة، فلمّا خاب أملهما استأذنا الإمام (عليه السلام) في العمرة، ولحقا بالبصرة، وأخذا معهما عائشة، فرفعوا شعار مظلومية عثمان في البصرة، وعرّفا أنفسهما بأنّهما صاحبا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذه عائشة



زوجته وأم المؤمنين.

وقد كان أهل البصرة عند قدوم هؤلاء عليهم خالي الذهن عمّا حدث في المدينة، ولكنّهم لم يتثبّتوا بإرسال وفد إلى المدينة للتحقق من الموضوع، بل اعتمدوا على هذه العناوين الكبيرة، وقاتلوا من دونهم على أنّهم يدافعون عن مظلومية عثمان، وأريقت منهم دماء كثيرة جذّرت فيهم الولاء لعثمان وطلحة والزبير وعائشة، فإنّ الدم إذا أريق ـ بحق كان أو بباطل ـ يثبت في نفوس الناس أثره اتجاه من أراق الدم، وكلّما خاطبهم الإمام (عليه السلام) وأوضح لهم الأمر لم يرفعوا اليد عنهم، إذ امتلأت أذهانهم من قَبْلُ بما قصّه طلحة والزبير وعائشة وتعاطفوا مع حديث مظلومية عثمان.

فهذه قضايا قد نجدها واضحة ونجد التحليل الاجتماعي والسياسي لهذه الفتنة سهلاً وبديهياً.

ولكن لا يزال جماعة من المسلمين يرون أنّ طلحة والزبير تحريا الحق وقاتلا الإمام (عليه السلام) على أساس الحجّة وليس على أساس طمع في جاه ولا رغبة في مال، وكذلك الحال في عائشة، فهي لم تندفع على أساس قبلي ولا لانفعالات نسائية لكون الإمام صهر ضرّتها خديجة، وهذا بالرغم من تواتر الشواهد التاريخية على موقف هؤلاء الثلاثة من عثمان، وتصريح الإمام (عليه السلام) بأنّ طلحة والزبير بايعا طائعَين، ووضوح خصال عائشة وحساسيتها في صحاح الآثار، ولكن لا يزال التحليل الاجتماعي والسياسي لدى أولئك يميل

إلى أنّهم كانوا يعتمدون على الحجّة ويطالبون بالاقتصاص من قتلة عثمان، ويقاتلون الإمام (عليه السلام) على أساس أنّه حمى قتلة عثمان ولا يسلّمهم إلى أولياء دمه.

على أنّ الواقع أنّ الإمام (عليه السلام) لو كان قد فعل ذلك فإنه ليس مبرراً للبغي عليه بهذا الأسلوب وإثارة الفتنة والتفرّق بين المسلمين بما يؤدي إلى هذه المقتلة الكبيرة، كما لا يصحّح أحد من المسلمين الخروج على الحاكم وقتاله بهذا المقدار، وهو أمر بديهي، فلا سبيل لتبرير صنيع طلحة والزبير وعائشة بحال ولو باجتهاد حقيقي خاطئ، وإنّما هو هوى متّبع وانفعالات غير حميدة.

وهذا معاوية بن أبي سفيان كان طالباً لولاية الشام كما كان والياً عليها طيلة عقدين من الزمن منذ زمان عمر ثمّ عثمان، فلم يقبل الإمام (عليه السلام) بولايته على الشام، فواجه الإمامَ (عليه السلام) ورفع شعار مظلومية عثمان والمطالبة بالقصاص من قتلته بدعوى حماية الإمام (عليه السلام) لهم، بل اتّهم الإمامَ (عليه السلام) بأنّه حرّض على قتل عثمان، مع أنّ الإمام (عليه السلام) كان حذراً للغاية في زمان عثمان من أيّة حركة أو قول يُتلقّى كذلك، كما حدّث عنه (عليه السلام) بنفسه[1]، وكانت حقيقة الأمر أنّ معاوية لم يكن يريد أن يخرج الأمر بعد عثمان عن بني أميّة، وقد أسّس لحكم وراثي لأوّل مرّة في الإسلام بتولية يزيد، رغم وضوح عدم أهليته

---

(١) نهج البلاغة: ٧٣.

للخلافة لاستهتاره وطيشه وغير ذلك، وقد ارتكب معاوية من الفظائع ما ارتكب، منها قتل حجر بن عدي على ولاء الإمام عليّ (عليه السلام)، وكل ذلك عليه شواهد واضحة للغاية في التاريخ الإسلامي العام والحوادث المتّفق عليها.

ولكن أهل الشام اقتنعوا بأقوال معاوية من دون تثبت، وبذلوا نفوسهم في الدفاع عنه وعن موقفه، ولا يزال هناك جماعة من المسلمين يحلّلون الأمور بطريقة مختلفة ويرون أنّ معاوية كان متحرّياً للحق وأنّه اجتهد في سبيله، لكنّه قد يكون أخطأ، فهو مأجور على ما فعل، وقيل إنّ قائلهم لمّا سأل عن قبر حجر قال: (هذا قبر سيدنا حجر بن عدي رضي الله عنه قتله سيدنا معاوية رضي الله عنه على ولائه لسيدنا عليّ رضي الله عنه فرضي الله عنهم جميعاً).

ثمّ يسندون هذا الانطباع إلى أساس قرآني لأنّه سبحانه قال: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾(١)، ومعاوية من التابعين بإحسان كما أنّ طلحة والزبير من السابقين الأوّلين من المهاجرين، وهذا إيقاع للمعارضة بين النصوص وبين الواقع المشهود على خلافها، بالنظر إلى وضوح الحوادث التي اتفقت من الصحابة في التاريخ في تنافسهم على الجاه والمال وانطلاقهم من العصبيات الضيقة

(١) سورة التوبة: آية ١٠٠.

وتمسكهم بالشبهات الواهنة.

فهذه الأمثلة توضح أهمية المقدرة على التحليل الاجتماعي والسياسي للحوادث ومناشئها وغاياتها والتمييز بين التفسير الملائم والتفسير غير الملائم لتلك الأحداث.

وهذه مقدمة عامة نحتاجها في تحليل عموم الحوادث الواقعة المتصلة بأهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام) في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعدها.

٣-تأثير القدرة على التحليل السياسي في فهم واقعة الغدير

النقطة الثالثة:

إنّه في ضوء المقدمة التي ذكرناها عن ضرورة المقدرة على التحليل الاجتماعي والسياسي على نحو ملائم يمكن أن نلتفت إلى أنّ واقعة بحجم واقعة الغدير في مضمونها وتوقيتها ـ قبيل وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وفي ملابساتها ليست بالأمر الهيّن ولا اليسير، ولا يمكن تفسيرها أبداً بتفسير غير سياسي بتاتاً.

فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو القائد السياسي للأمة، والإمام عليّ (عليه السلام) الذي تدور الخطبة حوله هو وزير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ بعثته وما بعدها جعله (صلى الله عليه وآله وسلم) أخاه، ولم يجعله تحت قيادة غيره أبداً لا قيادة مدنية ولا قيادة عسكرية، ولا قرنه بآخرين بتاتاً، بل قرنه دوماً بنفسه وتآخى معه حيث آخى بين الآخرين، وهو

القائد العسكري الظافر دوماً، والذي أثنى عليه ثناءً مميّزاً، وقد خصّه بالزواج من ابنته، وبأمور أخرى تترى في السيرة النبوية.

وفي هذه الواقعة التي كانت قبيل وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) بشهرين وعدة أيام أوقف (صلى الله عليه وآله وسلم) جموع الحجاج وأخذ بيد عليّ (عليه السلام) ليروه جميعاً، وذلك ليخطب في شأن الإمام (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام) خطبة خاصة به تعقد له (عليه السلام) الولاء وتنيط بهم (عليهم السلام) الهدى، وقد مهّد للقول بنعيه نفسه إلى المسلمين ليشير بذلك إلى المستقبل بعده، ثمّ تطرق في الفقرة التأسيسية الأولى لوجوب التمسك بالثقلين الكتاب والعترة في معرفة الحق والباطل والهدى والضلال، وأنهما لن يفترقا أبداً، وقد قرن أهل البيت (عليهم السلام) في هذا السياق بالقرآن الكريم الذي هو الرسالة الإلهية المقدسة، وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أكّد في نصوص سابقة متفق عليها على مكانة أهل بيته (عليهم السلام)، فهل يلائم ذلك إلا نصب أهل البيت (عليهم السلام) مناراً للأمة وتمييزهم عن سائرها بالعناية الإلهية الخاصة والتسديد التامّ عن الزيغ والضلال، أم ينسجم مع ما يجري عليه أغلب المسلمين من البناء على أنّ حال أهل البيت (عليهم السلام) حال سائر الأمة، فمنهم من يضلّ كما أنّ منهم من يهتدي هدي المجتهد الذي يصيب ويخطئ، وإنّما مفاد الحديث إيجاب مودتهم على الأمّة فحسب؟

لا أظنّ أنّ هذا التفسير أمر معقول وملائم، بل يقتضي هذا القول يقيناً جعلهم مقياساً للحق والباطل، ومناطاً للهدى والضلال بعده، فهم راية الهدى

والحق، فمن وقف تحت هذه الراية اهتدى، ومَن جانَبَها وتباعَد عنها ضلّ، ولا تزكية لأحد في مقابلهم بتاتاً.

فهذا القول إشهار منه بتزكيتهم في حادث تاريخي عام، سوف لن يرقى إليه أي قول يمكن أن يوضع وينسب إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأن أحد غيرهم من أصحابه وأزواجه وقرابته ممن يمكن أن يتصدر المشهد غداً، ويسعى إلى التأثير على الناس، فلا يقيّم الحق بأي واحد غير أهل البيت (عليهم السلام)، بل يقيّم الجميع بالحق وبدالّة الحق وهي أهل البيت (عليهم السلام).

وقد عرف موقف أهل البيت (عليهم السلام) في القضايا بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكان الإمام عليّ (عليه السلام) معترضاً ومخالفاً لبيعة السقيفة بوضوح، وقد امتنع عن بيعة أبي بكر لأشهر رغم الضغوط عليه، وكان يقول إنّه أولى بالأمر، ومنه يعلم موقفه في تعيين أبي بكر لعمر، وعمر لعثمان في ستة الشورى، وفي سائر القضايا الابتلائية في الأمة.

فهذه الخطبة بثقلها الاجتماعي والتاريخي والمضموني كافية في الريبة في جميع الأحاديث المنسوبة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأن الخلفاء وفي بعض أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو آحاد منهم مما يخالف مضمون هذه الخطبة وإرشاداتها، وذلك لأنّ شيئاً من ذلك لا يرقى إلى خطبة الغدير.

وفي الفقرة التأسيسية الثانية ذكر (صلى الله عليه وآله وسلم) أولويته بالمؤمنين من أنفسهم وأقرّهم عليه، ثمّ قال: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم وال من والاه،

وعاد من عاداه).

فهل من المعقول أن لا يكون لهذا الحديث والقول في أفهام الحاضرين أيّ مدلول سياسي في شأن الإمام (عليه السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل يقتصر مدلوله على الإلزام بنصرته (إذا وقع اعتداءٌ ما عليه بغير حق) أو بمحبته ومودته فحسب، ولا يزيد على ذلك، ثم يغيَّب الإمام (عليه السلام) عن مشهد الحكم وعن المجتمع الإسلامي العام لفترة ربع قرن ويكون شأنه أن يعيش في زاوية من زوايا المدينة وقد يخرج إلى أطرافها فينشغل بالزراعة، فهل يبدو هذا أمراً معقولاً وملائماً لمن كان له أدنى حسّ سياسي واجتماعي في تفسير الأحداث الاجتماعية واستنطاقها وتحديد ما يلائمها؟!

كلّا، بل مقتضى هذا القول يقيناً جعل الإمام (عليه السلام) رأساً للولاء في هذه الأمة، وعلى الأمّة أن يوالوه ويناصروه في كل ما اتخذ فيه موقفاً، ولا يقفوا في الصف الآخر ولا موقف الحياد، فالأمة تنقسم دوماً إلى اتجاهين: اتجاه الإمام ومواليه، والاتجاه الآخر، فكلما اختلفت الأمّة وانقسمت في الرأي والولاء لزمت موالاة الإمام (عليه السلام).

فعلى الباحث أن يرتقي إلى التحليل المناسب للوقائع ويتأمّل الأمور تأمّلاً ملائماً ويزنها بميزان العقل والتفكير، ويستشعر المشهد والقول على وجه حيّ، فإنّ ذلك أهدى للوصول إلى الحق وفهم مغزى هذه الواقعة المميّزة.

والواقع أنّه لا يكفي في فهم حادثة الغدير السعي إلى تحليل مناسب لهذه

الحادثة فحسب، بل يتوقف على قدرة المرء على تحليل حادثة السقيفة ومواقف أهل الحل والعقد فيها، وكذلك يتوقف على القدرة على الرجوع إلى الوراء وتحليل المواقف في زمان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وما يمثلها من معارضة بعضهم للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واتهامه فيما يوصف بالاجتهاد في مقابل النص، ثمّ تحليل ما حدث في جيش أسامة وفي رزية يوم الخميس؛ وذلك لأنّ الحوادث مترابطة، كما أنّ النصوص مرتبطة بالحوادث، ولذلك فإنّ هناك حاجة إلى القدرة على تحليلٍ ملائمٍ للحوادث الخاصة لواقعة الغدير فيما وقع قبلها وبعدها حتى يكون هناك أرضية ملائمة لفهم هذه الواقعة، ولأجل ذلك عقدنا في هذا البحث إيضاحات حول الواقعة تتطرق لملابسات الواقعة والحوادث من قبلها ومن بعدها، ولم نقتصر على تأمّل ألفاظ الخطبة وحدها.

وسيأتي في الإيضاح اللاحق ذكر ما يمثّله ترتيب هذه الواقعة في الزمان والمكان والحضور وصياغة خطبتها على الوجه المأثور من وجوه الاهتمام البالغ والمميز مما يشير إلى أنّها حدث خطير للغاية.



الإيضاح الثالث

واقعة الغدير والتوضيح العام لخطبتها في ضوء فهم ملاحن الخطاب ومعاريضه ودلالاته الذكية



وهنا نقطتان:

١-أهمية حسن فهم الخطاب

عوامل عدم الانتباه إلى المؤدى الدقيق للخطاب

٢-فهم خطبة الغدير من خلال ملاحظة العناصر المختلفة التي تشتمل عليها..

١. سوق الحديث على وجه الخطبة.

٢. تخصيص موضوع الخطبة بمكانة أهل البيت والولاء للإمام (عليه السلام).

٣. إلقاء الخطبة في الاجتماع الجماهيري العام.

٤. ٥. عقد الاجتماع لأجلها، والاهتمام بخصوصية مكانها.

٦. ٧. المفاجأة بالخطبة، وعنصر الإبهام حتى لحظة التصريح.

٨. عنصر التفاعل.

٩. تذكيره (صلى الله عليه وآله وسلم) بقرب وفاته.

١٠. إبداء النصح والإشفاق.

١١. اعتبار الكتاب والعترة أمانة مودعة عند الأمة.

١٢. أخذ الإقرار بشيء لإلزام المخاطب بغاية تترتب عليه.

١٣. عنصر التدرج والتسلسل في مضامين الخطاب.

١٤. اشتمال الخطاب على التعبير عن شكوك المتكلم في استجابة المخاطب للخطاب.

١٥. قرن الخطاب بالترغيب والتحذير.

١٦. أسلوب التعليل.

١٧. قرن الخطاب بالتنبؤ بعواقب التخلف.

١٨. معالجة الشبهات المتوقعة تجاه مضمون الخطاب على وجه التلويح.

١٩. أسلوب إثبات اللوازم ونفي الأضداد.

٢٠. عنصر حكاية الوحي.

٢١. ربط الموضوع بالإيمان بأصل الدين.

٢٢. إناطة التمسك بالقرآن بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام).

٢٣. التعبير عن الكتاب والعترة بالثقلين.

٢٤. التعبير عمّا يجب في الدين تجاه أهل البيت (عليهم السلام) بالتمسّك بهم.

٢٥. إحلال أهل البيت عليهم السلام محل نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الأمّة بعدم جعلها ضمن الثقلين.

٢٦. توسعة مفهوم أهل البيت عليهم السلام لعترته (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد الإمام عليّ والحسنين عليهم السلام.

٢٧. الابتداء باللين والتواضع، ثمّ الإشفاق، والتشويق، ثمّ الانتهاء إلى الحزم.

٢٨. جعل الولاء للإمام (عليه السلام) من ولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) على الأمّة.

٢٩. الاهتمام بإبراز الإمام عليّ (عليه السلام) للحاضرين.

٣٠. قرن عقد الولاء بالدعاء المؤكّد والشديد.

٣١. صياغة الخطبة على وجه مفهم بليغ، ولكن على وجهٍ يسلم عن مساعي الإخفاء والتحريف.

توضيح واستنتاج

الإيضاح الثالث
واقعة الغدير والتوضيح العام لخطبتها في ضوء فهم ملاحن الخطاب ومعاريضه ودلالاته الذكية

قد ذكرنا في الإيضاح السابق أنّ واقعة الغدير تشتمل على حدثٍ وخطاب، ومن المهم للباحث عن الحق في شأن هذه الواقعة ـ بعد وضوح ثبوتها ـ الانتباه إلى منهج فهم الأحداث والخطابات العامة الاجتماعية والسياسية، وتحدثنا هناك عن منهج فهم الأحداث، وفي هذا الإيضاح نتحدث عن منهج فهم الخطابات العامة من هذا القبيل.

وهنا نقطتان:

إحداهما: عامة حول أهمية حسن فهم الخطاب.

والأخرى: خاصة حول فهم خطبة الغدير.

١. أهمية حسن فهم الخطاب

النقطة الأولى:

إنّ من أهمّ العناصر الدخيلة في فهم الموقف الصحيح هي القدرة على استنطاق الكلام وفهم زواياه وملائماته، ونُعبِّر عن ذلك بفهم ملاحن الكلام



ومعاريضه.

فخصائص الكلام وأساليبه عناصر معبّرة عن تحديد مدلول الكلام عندما تعرض الشبهة والإبهام، لأنّ انتقاء المفردات والأساليب تأتي بطبيعة الحال ملائمة لغرض المتكلّم ما لم يرتبك في الأداء.

وباب ملاحن الكلام ومعاريضه لهو باب معروف في الأدب العربي[١].

والمراد بلحن الكلام خصائصه المعبرة عمّا وراءه من المقاصد والغايات، وهو ما يظهر عند العدول والميل في صياغة الكلام عن الأسلوب المسترسل والمعتاد، كأن يقول القائل قولاً يترك فيه التصريح إلى التعريض والإبهام، يقال: (لحنت لفلان) إذا قلت له قولاً يفهمه عنك وقد يخفى على غيره، قال ابن دريد في كتاب الملاحن: (اللحن عند العرب الفطنة، ومنه قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (لعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته..)[٢]، أي أفطن لها وأغوص فيها، وذلك أنّ أصل اللحن أن تريد شيئاً فتورّي عنه بقول آخر)[٣].

والظاهر عدم اختصاص معنى اللحن في اللغة بالتورية، بل يعم كل خصوصية في الكلام تعبّر عند التفطن لها عن معنى دقيق، ومنه قول الله سبحانه لرسوله عن المنافقين: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ

(١) لاحظ: المزهر في علوم اللغة للسيوطي، النوع ٣٩.

(٢) لاحظ مثلاً: صحيح البخاري: ٣/١٦٢.

(٣) كتاب الملاحن (ابن دريد): ٦٤ ـ ٦٥.

اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾(١)، فالمراد أنّ نواياهم التي يضمرونها تظهر على خصوصيات أقوالهم وكلماتهم، ومن ذلك أيضاً ما عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في المتخاصمين: (إنما أنا بشر وأنكم تختصمون ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وأقضى له على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذ فإنما أقطع له قطعة من النار)(٢)، فالمراد هو أن يصوغ المرء كلامه على نحو تتم الحجة له، ولا يعطي مأخذاً لخصمه.

وأمّا المعاريض فهو من التعريض بالشيء، وهو الدلالة على وجهٍ لا يخلو عن خفاء ودقة، ومنه أن يتكلّم المرء بكلام يتراءى منه معنى ولكنه يقصد معنى آخر، ولذا قيل: (إنّ في المعاريض لمندوحة من الكذب)(٣)، وقد جاء أنّ

---

(١) سورة محمد: آية ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) صحيح البخاري: ٨/٦٢، ولاحظ: المبسوط (الطوسي): ٨/٢٥٦.

(٣) وقد عدّ من أمثلة المعاريض ما جاء من أنّه (لما هَزم الحجاجُ عبدَ الرحمن بن الأشعث وقتَل أصحابَه وأسرَ بعضهم، كتب إليه عبدُ الملك بن مَرْوان أن يَعْرِض الأسرى على السيف، فمَن أقرَّ منهم بالكفر خلَّى سبيلَه، ومَن أبَى يَقْتله، فأُتِي منهم بعامر الشعبي، ومطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير وسعيد بن جُبَير؟! فأمَّا الشعبي ومطرِّف فذَهبا إلى التعريض والكناية، ولم يُصرِّحا بالكفر، فَقبِل كلامهما وعفا عنهما؟! وأمَّا سعيد ابن جُبير فأبى ذلك فقتل.

الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): (إنّا والله لا نعد الرجل من شيعتنا فقيهاً، حتى يلحن له فيعرف اللحن)(١)، وفي نصٍّ آخر: (لا يكون الرجل منكم فقيهاً حتى يعرف معاريض كلامنا)(٢).

وليس هناك من شك في اختلاف دلالات الكلام في فهمها دون مؤونة أو حاجتها إلى شيء من الفطنة والفقه، وقد ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (نصر الله امرأً سمع منا حديثاً حفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه)(٣)، و(نضّر الله امرأً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع)(٤)، وفي حديث آخر: (نضّر الله امرأً سمع مقالتي

وكان مما عرَّض به الشعبي، فقال: آصلح الله الأمير، نَبا المنزل، وآحْزَن بنا الجَناب، واستَحلَسْنا الخوفَ، واكتَحلنا السهرَ، وخَبطتنا فتنةٌ لم نكن فيها برَرَة أتقياء، ولا فَجَرة أقوياء. قال: صدقَ والله، ما بَرُّوا بخروجهم علينا ولا قَوُوا. خَلِّيا عنه.

ثم قُدِّم إليه مُطرِّف بن عبد الله، فقال له الحجَّاج: آتُقِرُّ على نفسِك بالكفر؟ قال: إنَّ مَن شقَّ العصا، وسَفَك الدماء، ونكث البَيْعة، وأخاف المسلمين لجديرٌ بالكفر. قال: خلِّيا عنه. ثمّ قُدِّم إليه سعيد بن جُبير، فقال له: أتقِرُّ على نفسك بالكُفر؟ قال: ما كفرتُ بالله مذ آمنت به؟ قال: اضربوا عُنقه)، وفي الحكاية نظر، ولكن المراد مجرد التمثيل.

(١) مستدرك الوسائل: ١٧/٣٤٥.

(٢) معاني الأخبار: ٢.

(٣) السنن الكبرى (النسائي): ٣/٤٣١.

(٤) سنن الترمذي: ٤/١٤٢، المعجم الأوسط: ٢/٧٨.

فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[١].

وكلّما كان المتكلّم أكثر بلاغةً وإمساكاً بزمام اللغة وأقدر على استخدام الأساليب التعبيرية كانت خصائص كلامه أكثر انسجاماً مع غرضه ومقصده.

وتفريعاً على ذلك: فإنّ فهم الكلام وخاصّةً الكلام البليغ يقتضي ارتقاء المخاطب والسامع والناظر في الكلام إلى ما يلائم مستوى كلام المتكلّم، ولذلك فإنّه متى كان المخاطَب بليغاً نابهاً متّصفاً بالذوق الأدبي فإنّه يستطيع أن يتفطّن من خلال تأمّل الكلام إلى حقيقة مدلوله، ويستنطقه عمّا وراءه، بينما يغفل المخاطَب العادي عن العناصر الذكية التي يستبطنها الكلام، وقد يحمل المخاطب العادي الكلام على وجه غير ملائم متكلّفاً في توجيه خصائصه وأسلوبه بما ليس محتملاً.

وكثيراً ما يجد الناظر في كتب تفسير القرآن الكريم أو شرح الأحاديث تفسيرات غير ملائمة للنص تُفقد النص بريقه وبلاغته ممّا يدلّ على عدم ارتقاء صاحبها إلى مستوى فهم الخطاب.

ولنضرب لذلك مثلاً بآية الوضوء وهي قوله تعالى: ﴿**فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ**

---

(١) مسند أحمد: ٤/ ٨٠، سنن ابن ماجة: ١/ ٨٤، سنن أبي داوود: ٢/ ١٧٩.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[١]، فقد اختلف أهل العلم من المسلمين في أنّ الواجب في الوضوء هو مسح تمام الرأس أو بعضه، وقد جاء عن أهل البيت (عليهم السلام) أنّه يكفي مسح بعضه، وسأل زرارة الإمام الباقر (عليه السلام) عن وجه ذلك فقال (عليه السلام): لمكان الباء[٢]، ومقصوده (عليه السلام) أنّ قوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ يدل على كفاية مسح البعض لصدق (المسح بالرأس) بذلك، ولو خلا النص عن الباء وقيل: (وامسحوا رؤوسكم) اقتضى استيعاب المسح للرأس.

وهناك شاهد ثانٍ في هذه الآية: حيث إنّ جماعة من أهل العلم زعموا أنّ آية الوضوء تلائم غسل الأرجل ليكون الأرجل عطفاً على الأيدي في جملة الغسل مع الفصل بجملة المسح، وهو أمر لا يحتمله النص العادي فضلاً عن نص بمستوى القرآن الكريم، إذ ليس من الملائم في طريقة التكلّم تأخير الأرجل إلى ما بعد جملة المسح إذا كان المراد غسله، بل يتعيّن ذكرها قبل جملة المسح لتقترن بالوجوه والأيدي، وهذا يحتاج إلى قليل من الذوق في فهم الكلام، ولذلك أكّد أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) على أنّ الواجب في الوضوء هو مسح الأرجل دون غسلها.

---

(١) سورة المائدة: آية ٦.

(٢) لاحظ مثلاً: الكافي: ٣/ ٣٠.

وهناك شاهد ثالث في هذه الآية: وهو أنّ بعض أهل العلم ظنّوا أنّ مؤدّى الآية أن يبدأ الإنسان في غسل اليد من رؤوس الأصابع إلى المرافق، استناداً إلى أنّ (إلى) في ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ تدلّ على الانتهاء في الغسل إلى المرافق، وبذلك أبطلوا وضوء من غسل يده من المرافق إلى رؤوس الأصابع.

وهذا خطأ، لأنّ من الواضح بحسب المناسبات العرفية أنّ المقصود من هذا الكلام ليس تحديد كيفية الغسل، بل بيان المقدار المغسول من اليد، وحيث أنّ لليد أجزاء تبدأ بالأصابع وتنتهي بالمرفق ثمّ الكتف جاء ذكر (إلى) تحديداً لنهاية المقدار الذي يجب غسله، وهذا أمر واضح في هذا النص كما هو الحال في نظائره العرفية، فلو أنّ الطبيب طلب من المريض غسل يده إلى المرفق كل يوم لم يفهم منه بتاتاً أن يبدأ بالغسل من الأصابع.

وينبّه على ذلك أنّ طبيعة الغسل ـ والذي هو في الأصل نوع من النظافة ـ في الأعضاء الممتدّة عمودياً أن يغسل من الأعلى إلى الأسفل لينفصل الماء من الأسفل وليس العكس، واليد عضو متدلٍّ يكون الكتف أعلاه والمرفق أوسطه وتكون الأصابع أدناه، فكيف يُفهم من النص أنّ المراد الابتداء في غسل اليد بالأصابع، وليس هذا تعمّقاً في علّة الحكم، ولكنّه مناسبة مساعدة على فهم النص، كما يعلمه أهل الاختصاص.

عوامل عدم الانتباه إلى المؤدى الدقيق للخطاب

وهناك عدة عوامل لعدم انتباه الناظر في الخطاب إلى حقيقة مؤداه:

١-عدم اتصاف الناظر بالذوق الأدبي اللازم لفهم الكلام، وتلك حالة معروفة يكثر وقوعها حتى في أوساط بعض أهل العلم من المفسرين للقرآن الكريم والحديث النبوي كما يظهر بالممارسة والاطلاع، وقد تقدم مثال ذلك في آية الوضوء.

٢-عدم انتقال الناظر في الخطاب أحياناً إلى دلالات المفردات والأساليب المستخدمة في الخطاب من جهة تلقي الفكرة الصائبة في منظوره من خارج الخطاب وفق المعهودات الذهنية السابقة، وذلك ضرب من الفهم والتفسير بالرأي.

٣-حيلولة موانع فكرية ومذهبية دون الفهم الملائم للنص.

ومن نماذج ذلك ـ على سبيل المثال ـ ما طرحه بعض المفسرين من المناقش في دلالة آية الولاية على مكانة مميّزة للإمام عليّ (عليه السلام) بدعوى عدم نظر الآية إلى واقعة جزئية، واستند في ذلك إلى التعبير بالجمع: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[1]، ولم ينتبه إلى أنّ طبيعة هذا الحدث (دفع الزكاة في حال الركوع) تلائم كونه واقعة خاصّة، والتعبير بالجمع

---

(١) سورة المائدة: آية ٥٥.

لا ينفي ذلك؛ لأنّه أسلوب أدبي يجعل الحالة الخاصة حالة عامة إمّا تجنّباً عن ذكر التركيز على الخصوصية كي لا تُثار حساسية الآخرين أو تشويقاً للآخرين للتأسّي بهذا الفعل الكريم ليندرجوا في الثناء في الآية إن شاؤوا.

٤-حجاب الغيبة والتاريخ، والمراد بذلك أنّه قد يُبتلى الناظر بالتكلّف في التعامل مع النص، لأنّه لا يشهد النص وتأثيراته في مشاعر الحاضرين على وجه حيّ، وإنّما يتأمله كنص علمي، ولو كان في مشهد النص أو عاشه لانتقل إلى مراميه ودلالاته، ولذلك نجد أنّ من الناس مَن إذا أراد أن يتكلم بشيء يثبت عليه دقّق كثيراً في انتقاء المفردات الملائمة، ولكنه إذا نظر في كلام الآخرين لم يعمل هذا التدقيق في مقام فهمها، كما أنّ من الناس مَن إذا كان معنيّاً بالنص ـ بمعنى أنّ النص يتعرض له ولمنافسه بتلويح أو تعريض في ثناء أو عتاب ـ تحسّس من دلالاته وانتقاءاته في المفردات والأسلوب، لكن إذا لم يكن يعنيه النصّ فإنّه لا يجد مثل ذلك.

ولذلك كان تصوّر المشهد على وجه حي، وانتقال المرء بنفسه إلى تاريخ الحدث والخطاب حتى كأنّه من حضّاره قد يساعد على فهم الدلالات الحقيقية للنص.

٥-عدم الالتفات إلى حراجة الموضوع وحساسيته في أجواء الخطاب، فإنّ هذا العامل بطبيعته يؤدي إلى الغفلة عن الانتباه إلى مرامي الخطاب.

والوجه في ذلك أنّ الكلام يزداد اشتمالاً على الملاحن والمعاريض

والدلالات الذكية في الموارد الحرجة والحساسة التي يسعى المتكلم فيها إلى تفهيم الشيء بطريقة ملائمة لا يجرح شعور المخاطَبين ولا يثيرهم، فلو أراد الثناء على شخص ممّن ينافسه ولا يعتقد به فإنّه سينتقي الألفاظ المعبّرة عمّا يريده بحذر.

وكذلك الحال في الموارد المهمة والخطيرة التي يُراد فيها التأكيد على أمر تأكيداً بالغاً، فيضطر المتكلم إلى الإطناب في أداء الموضوع باستخدام أدوات متعددة تعطي أهمية هذا الأمر.

وكذلك الحال في موارد مواجهة حالة التشكيك والمشاكسة والتنكّر عند المخاطب للمضمون الذي يراد تفهيمه، فيسعى المتكلم إلى اختيار ما يزيل هذا الشك ويرفع الشبهة ويقطع العذر.

ولذلك فإنّ من المهم في النصوص التاريخية الانتباه إلى ظروف النص وبيئته وانطباعات المجتمع المخاطب به في شأن موضوعه.

وهذا كله ممّا يجده الباحث بالاطلاع والممارسة والذوق الأدبي.

٢ . فهم خطبة الغدير من خلال ملاحظة العناصر المختلفة التي تشتمل عليها

النقطة الثانية: لا شك في أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان متكلماً بليغاً، يلقي القول في موضعه، ويختار في أدائه المفردات والأساليب المعبّرة والمؤثرة، وكان تلميذه

الإمام عليّ (عليه السلام) كذلك، كما يدلّ على ذلك تحليل ما أُثر عنهما من جمل وأقوال بليغة ومميزة، وقد كان ذلك من جملة العوامل المساعدة على حفظ بعض أقوالهما، لأنّ النفوس تركّز على القول البليغ.

ويجد الناظر في خطبة الغدير أنّها خطبة بليغة حقاً، ومحبوكة حبكة قوية تشتمل على استخدام العديد من المفردات والأساليب المعبّرة.

ونحن نعرض هذه العناصر في تأمّلٍ مسترسل في هذه الخطبة، وسوف نتأمّل دلالة الخطبة على مكانة أهل البيت (عليهم السلام) في الدين وعقد الولاء الخاص للإمام (عليه السلام) في إيضاح لاحق، وإنما المراد هنا الوقوف على أسلوب فهم هذه الخطبة في ضوء القاعدة المتقدمة لفهم الخطاب..

١. سوق الحديث على وجه الخطبة

العنصر الأوّل: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يتكلم بما أراده على وجه اعتيادي كما كان كثيراً ما يحدّث أصحابه وهو بينهم، بل صاغ كلامه على وجه الخطبة، وهو يمثّل اهتماماً خاصاً.

والخطبة في المفهوم والنموذج الإسلامي خطاب يوجّه إلى جماعة أو جمهور ويبدأ بالبسملة والثناء على الله تعالى، وقد يُعقَّب في خطب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بذكر بعض ما يتعلق بنفسه (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما يُعقَّب في خطب مَن بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالثناء عليه (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد تشتمل الخطبة أيضاً على الموعظة والتذكرة،

ثمّ يذكر المتكلم غرضه وينهي الخطبة، وتكون الخطبة عادة مؤلفة من جمل عديدة ولا تقل عن ثلاثة أسطر أو يزيد، وخطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما يبدو كانت غالباً مختصرة ومركزة، وهذا بخلاف غالب ما أُثر عن الإمام عليّ (عليه السلام) فإنّها خطب مفصّلة، وذلك ضرب من التدرج الذي يقتضيه اختلاف الزمان.

وأصل الخطبة بالنحو المذكور الذي ساد في الإسلام مقتبس من جملة من سور القرآن الكريم، فإنّه تعالى بدأ فيها السور[1] بالبسملة وبالثناء على الله تعالى، فمنها ما بدأها سبحانه بالحمد كسورة الحمد والأنعام، ومنها ما بدأها بالتسبيح كالمسبحات، ومنها ما بدأها بوجه آخر من الثناء كسورة الملك، وربما ذكر سبحانه رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد الثناء على ذاته المقدسة كما في سورة الجمعة: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**[2].

وقد جرى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً في خطبه على الثناء على الله تعالى بحمده، واتّبعه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وزاد في كثير منها الثناء على رسوله، وذكر في بعضها ـ ولو في أثناء الخطبة أو آخرها ـ الثناء على أهل البيت (عليهم السلام) أيضاً.

وللكلام على وجه الخطبة جمال خاص، حيث يلقي ذكر الله سبحانه والثناء

---

(١) وقيل: إنّ البسملة جزء من سورة الحمد فقط والباقي أدب جرى عليه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في أوائل السور.

(٢) سورة الجمعة: آية ٢.

عليه هيبةً على الكلام، ويضفي عليه إيحاءات معنوية وتربوية، ويهيّئ نفس المخاطب للإذعان بالحق، وقد كان لهذا الأسلوب وقع مميز في العصر الأوّل لكونه أسلوباً حديثاً غير شائع أو معهود، ولكن اعتاد عليه الناس في مثل عصرنا هذا فاختلف الأمر بعض الشيء.

وقد ساق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كلامه في الغدير سَوق الخطبة، فبدأ بحمد الله سبحانه والثناء عليه، ومهّد لما ذكره بالتذكير بأصول الدين من الإيمان بالله سبحانه واليوم الآخر من البعث والحساب والجنة والنار، إلى آخر ما جاء فيها.

ولو شاء (صلى الله عليه وآله وسلم) لقال قولاً مختصراً كأحاديثه المعتادة، ولم يجعله على وجه الخطبة.

ومن اقتضاءات الخطبة ـ لا سيما لجمع محتشد بعشرة آلاف وما يزيد عليها ـ أن يرتقي المتكلم إلى موقع يراه الجميع ويهيمن عليهم، وكان للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مسجده منبر يخطب عليه، وقد جاء في ذكر واقعة الغدير أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) صنع مكاناً مرتفعاً وارتقاه وخطب بالحاضرين، وهذا يقتضي أن تكون الخطبة في موضع مميز بالنسبة إلى المخاطبين بها.

٢. تخصيص موضوع الخطبة بمكانة أهل البيت والولاء للإمام (عليه السلام)

العنصر الثاني: أنّ النبي خصّص هذه الخطبة بالحديث عن مكانة أهل البيت (عليهم السلام) والولاء للإمام عليّ (عليه السلام)، حيث لم يذكر فيها موضوعاً آخر كما

كان (صلى الله عليه وآله وسلم) قد فعل في خطبة عرفة قبل ثمانية أيام[١] ـ حسب اقتضاء المقام فيها ـ، وهذا أمر ظاهر بالتأمّل في سياق الخطبة فإنّ كل ما جاء فيها من ذكر الله تعالى والدار الآخرة والاستشهاد على ذلك إنما كان تمهيداً فيها، كما أنّ ذكر التمسّك بالقرآن الكريم إنما جاء للأمر معه بالتمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) حيث جعلهما (صلى الله عليه وآله وسلم) قرينين معبِّراً عنهما بالثقلين، ولذلك قال: إنهما لا يفترقان، حتى لا يظن ظان إنّ التمسك بالكتاب وحده يقي الأمّة من الضلالة.

وفي تخصيص الخطبة بموضوع واحد مزيد اهتمام به وبتركيز الحاضرين عليه حتى لا تتشتت أذهانهم بين المواضيع المتعددة، ويتوزع اهتمامهم وانتباههم بينها، كما أنّ ذلك يؤدي إلى حفظ مضمونها وعدم سهولة التعامي عنه، بحيث إذا قيل خطبة الغدير انتقل السامع إلى هذا الموضوع، ولو أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) ذكر عدّة مواضيع لأمكن أن يُترك موضوع التمسك والولاء ويُنقل سائر ما اشتملت عليه الخطبة، وقد أصبحت هذه الخطبة فعلاً علماً لذكر مكانة أهل البيت (عليهم السلام) والولاء للإمام عليّ (عليه السلام) في السيرة والحديث والتراث التاريخي والأدبي والجغرافي، وساعد هذا التخصيص على حفظ الخطبة

(١) سيأتي في القسم الثاني في إيضاح حول (واقعة الغدير وعلاقة تأخيرها بما حدث من الضوضاء في خطبته بعرفات ودلالات ذلك) أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة عرفات ذكر التمسّك بالثقلين وتطرّق للأئمة من بعده، وذكر أنهم اثنا عشر إماماً، ولكن حدثت ضوضاء حجبت كلامه عن الحاضرين، إلا أنّ في خطبة عرفات مضامين متنوعة أخرى.

وموضوعها كما يظهر بملاحظة نصوصها وحكاياتها في السيرة والروايات والأدب.

٣. إلقاء الخطبة في الاجتماع الجماهيري العام

العنصر الثالث: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اهتمّ بإلقاء هذه الخطبة في الاجتماع الجماهيري العام الذي تحضره الألوف من الناس.

وذلك أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتحدث في أجواء مختلفة، فهناك ما يتحدث به بعد صلاة الجماعة في مسجده بالمدينة، وهناك ما يتحدث به في خطبة صلاة الجمعة، وهي أوسع من صلاة الجماعة إذ يأتيه الرجال من مسافة ثمانية فراسخ، وقد ينادي الصلاة جماعة فيتحدث مع من يحضر فيها.

والملاحظ أنه في شأن موضوع خطبة الغدير لم يكتفِ (صلى الله عليه وآله وسلم) بذكر ذلك لبعض أصحابه ممّن حضر وبالتعويل على نقلهم للآخرين، ولا اكتفى بمن يجتمع معه عند الصلاة، ولا أجّله إلى بلوغ المدينة ليلقيه هناك، بل جمع المشاركين في هذه المسيرة وهم من أهل المدينة وما حولها ومن أماكن أخرى تقع في طول المسيرة فألقى هذه الخطبة فيهم.

هذا، وفي إلقاء الخطبة في الاجتماع الجماهيري العام مزيد عناية بموضوعها، وهو موقع أهل البيت (عليهم السلام) في الدين وعقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام)، كما أنه يقتضي أنّه كان أمراً عاماً لا يخصّ طائفة، ولا يكون محل ابتلاء جماعة

فحسب كأهل المدينة مثلاً التي كان الإمام عليّ (عليه السلام) ساكناً فيها، ويتعرض للعداء والحسد من المنافقين وغيرهم، بل هو شأن عام من شؤون المسلمين، يشمل أهل المدينة من المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين القاطنين في أنحاء الجزيرة العربية.

٤. عقد الاجتماع لأجلها

العنصر الرابع: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يُلْقِ هذه الخطبة في اجتماع طبيعي اجتمع فيه الناس لغرض آخر كما في اجتماعات الحج والصلاة مثلاً، بل عقد الاجتماع لأجل إلقاء هذه الخطبة.

بيان ذلك: أنّ جموع الحجاج وإن كانت مرافقة له (صلى الله عليه وآله وسلم) بشكل طبيعي، إلّا أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) جمعها وهي منتشرة ومتفرقة في الطريق ووجّهها إلى وادي غدير خم لتتوقف هناك، ولم يكن ذلك على حدّ خطبته في اجتماعات الحج كيوم عرفة حيث كان الاجتماع طبيعياً تماماً، وهذا الأمر يمثّل مزيد اهتمام بالموضوع يستوجب هذا العناء، كما أنه يؤدي إلى شعور الحاضرين بمزيد الاهتمام به، كما يوجب مزيد تركيزهم على هذا الحدث والخطاب، وبذلك يثبت هذا الحدث في ذاكرة الحجاج ويساعد على نقل الخطبة بشكل طبيعي.

٥-الاهتمام بخصوصية مكانها

العنصر الخامس: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يُلْقِ هذه الخطبة في مكان معتاد كما لو

ألقاها في مكة المكرمة قبل أيام في اجتماع الحجاج، أو في المدينة بعد أيامٍ عند الرجوع من الحج، بل ألقاها في الطريق، وهو أمر غير معتاد، وقد وجّه (صلى الله عليه وآله وسلم) الحجاج إلى مكان مخصوص أصبح علماً للخطبة، وأصبحت الخطبة علماً له وهو غدير خم، فكلما مرّ المسلمون بهذا المكان أو ذكروه استذكروا هذه الخطبة، وبهذا تميّزت عن خطبة عرفة لأنّها ألقيت في مكان معهود، وهو وادي عرفات الذي هو محل الوقوف العبادي من أركان الحج، وهذه الجهة ـ أي كون عرفات محل الوقوف المفروض في الحج ـ هي السمة الغالبة لهذا المكان.

ويمثّل تخصيص الخطاب بمكان متميّز على هذا السبيل مزيد اهتمام بالحدث كما يساعد على تركيز الحاضرين، ويثبّت الحادث في ذاكرتهم، وهو ما يجده ويستشعره الباحث بملاحظة هذه الواقعة في السير والروايات والأدب واللغة وكتب البلدان.

كما تساعد خصوصية المكان على حفظ الواقعة والثقة بها لأنها تقي من احتمال الكذب، إذ ليس من المعقول أن يضع الوضّاع أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) توقّف في غدير خم فخطب في الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) من غير أن يكون قد فعل (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك.

٦. المفاجأة بالخطبة

العنصر السادس: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جعل من هذه الحادثة مفاجئة.

بيان ذلك: أنّ الخطاب قد يكون متوقعاً مثل يوم الجمعة أو يوم العيد، وقد يكون مفاجئاً لا يتوقعه حاضروه.

وللخطاب المفاجئ مزايا عدة:

١-أنّه يكون له تأثير مميّز بالمقارنة مع الخطاب المعتاد، لتأثير عنصر المفاجأة في نفس الحاضرين فيثبت الحادث في الذاكرة ويزيد من وقعه في نفس المخاطب.

٢-أنّه يفوّت التدبير المضاد للخطاب باتفاق جماعة ـ ممن لا يروق لهم مضمون الخطاب ـ مثلاً على التشويش عليه كما يقع في هذا العصر أحياناً.

٣-أنّه قد يقي المتكلم من اتهامه بتدبير مسبق لهذا الموضوع.

وقد كان هذا العنصر موجوداً في خطبة الغدير على النحو الأمثل، إذ لم يكن يتوقع أحد أن يخطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الطريق، لا سيما أنّه كان قد خطب في أولئك الجماهير الراجعين من الحج أنفسهم في يوم عرفة وفي مناسبات غيرها مثل يوم العيد حسبما ورد في الآثار.

وربما يساعد هذا العنصر على وقاية خطبته (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه مما وقع في خطبة عرفات التي ألقاها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل ثمانية أيام من واقعة الغدير، فإنّه تطرّق فيها إلى الأمر بالتمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) وذكر أنّ الأئمة من قريش وهم اثنا عشر، وربما كان لكلامه بقية في هذا السياق فحدثت الضوضاء وفق

الروايات المتفق عليها(١)، وقد كان اجتماع عرفات معلوماً لأنه من واجبات الحج، وخطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه قد يكون متوقعاً عادةً، ولكن خطبة الغدير لم يكن كذلك فلم يستطع أحد التشويش فيها.

كما أنّ في المفاجأة في هذه الخطبة دلالة أكيدة ـ لمن كان تراوده شكوك في أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد نصّ على الإمام انحيازاً منه (صلى الله عليه وآله وسلم) لابن عمه وقومه ـ على أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) إنّما أُمِر من الله تعالى أمراً مفاجئاً بما يذكره في شأن أهل بيته (عليهم السلام) وولاء الإمام عليّ (عليه السلام)، إذ لو كان ذلك من قبله لرغبته في ابن عمه كما كان يظنه بعض أصحابه لم يقع على هذا النحو من المفاجأة وفي أثناء الطريق.

٧. عنصر الإبهام حتى لحظة التصريح.

العنصر السابع: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حافظ على إبهام مقصده بالخطاب وغايته إلى آخر لحظة أبداها فيها، وعنصر الإبهام بما يثيره من التساؤل يوجب الحرص على الاطلاع ويؤدي إلى الاستعداد النفسي لتلقّي أمر صعب وثقيل، وعندما يكون المقصود غير متوقع فإنه يمنع من لا يطيقه أن يتهيّأ لرد فعل على الخطاب.

---

(١) لاحظ الإيضاح الذي تقدمت الإشارة إليه مما سيأتي في القسم الثاني حول (واقعة الغدير وعلاقة تأخيرها بما حدث من الضوضاء في خطبته بعرفات ودلالات ذلك).

وقد عُلم من سيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه يستعين بعنصر الإبهام في حركاته ولا يبين مقاصده الحساسة إلا في وقتها، أو حتى تتضح بنفسها للناس.

ومن مصاديق ذلك عدم إفصاحه (صلى الله عليه وآله وسلم) عن جهة تَحَرُّكِه غالباً لمن كان معه من الناس.

ومن أمثلة ذلك أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ترك علياً في المدينة في غزوة تبوك ولم يصطحبه كما هي عادته في غزواته، ولمّا طعن المنافقون على الإمام (عليه السلام) بذلك تأذّى وجاء يبكي إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) له: (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي)[١]، وفي هذا الكلام دلالة ذكية على سبيل اللحن والتورية على أنّه إنّما أراد أن يخلف رجلاً قوياً يقوم مقامه في المدينة خشية إثارة الجاهلين ـ من المنافقين المتخلفين في غزوة تبوك ـ الفتنة، مثلما خلّف موسى هارون في قومه خشية إثارة الفتنة في غيابه، كما جاء في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[٢]، ولعلّ هذا هو الذي أثار المنافقين، فطعنوا في الإمام عليّ (عليه السلام) بأنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يصطحبه كما كان يفعل من قبل، ولم يوضح

---

(١) صحيح البخاريّ: ٤/٢٠٨، ٥/١٢٩، صحيح مسلم ٧/١٢٠، المصنف للصنعاني: ٥/٤٠٦، سبل الهدى والرشاد: ٥/٤٤١، السيرة الحلبية: ٣/١٠٤.

(٢) سورة الأعراف: آية ١٤٢.

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) غرضه توضيحاً يفهمه الجميع.

وقد يقول القائل: ولماذا خلّف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه المرة علياً (عليه السلام) على المدينة، وهو في سائر غزواته لم يخلفه فيها، بل كان صاحب رايته؟

والجواب: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اصطحب في هذه الغزوة كل من وجد مركباً وسلاحاً، لاهتمامه بتكثير العدد بإزاء الروم الذين كان جنودهم تبلغ المائة ألف، ولذلك بلغ عدد المسلمين ثلاثين ألفاً، فخلت المدينة عن الرجال عدا من كان عاجزاً أو لم يجد ما يحمله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عليه وعدا جماعة من المنافقين، ويبدو أنّ المنافقين كانوا نشطين جداً في تلك الفترة، كما يظهر من آيات سورة التوبة التي نزلت بهذا الشأن، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: فإنّ هذه الغزوة لم تكن قتالية، فلم يقاتل المسلمون فيها، بل كانت هذه الغزوة لمجرد إظهار هيبة المسلمين في مقابل الروم كي لا يظنوا أنّ العرب بعد الإسلام جماعات متفرقة كما كانوا قبله فيحتقروهم ويعتدوا عليهم، وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلم بذلك، لكنه لم يكن يريد أن يخبر الناس به خشية أن يبلغ العدو وربما نظر إلى أن يتميز المنافقون الأشد نفاقاً[١]، ولا يفقد المسلمون الإرادة القتالية، إلّا أنه لم يفصح عن ذلك، فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يستعين

(١) كان ممن صحب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) جمع من المنافقين كما يُعلم ممّا ذُكر في السيرة، وكانوا يبثون الإشاعات المثبّطة والمشككة في شأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد سعى جماعة منهم وهم الملثمون إلى قتل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بدفعه من أعلى العقبة ليسقط في الوادي فلم ينجحوا في ذلك.

على مقاصده بالإبهام.

وكذلك فعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الخطبة، فقد دعا المسلمين فجأة في الطريق إلى الاجتماع في وادي غدير خم، ولم يبلغهم بغايته، وليس هناك من شك في أنّهم قد توقعوا أنّ ذلك لأمر طارئ اقتضى جمعهم من شتات الطريق، ولكن قد لا يكون في حسبان أيّ منهم أنّ ذلك لغرض الوصية بأهل بيته (عليهم السلام) وعقد الولاء لابن عمه (عليه السلام)، إذ ليس ذلك أمراً عارضاً في وسط الطريق، ولو أراد (صلى الله عليه وآله وسلم) بيان مثله لذكره في مناسك الحج حيث كان هؤلاء الحاضرون وغيرهم معه (صلى الله عليه وآله وسلم)، أو أجّله إلى المدينة.

ثمّ إنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما أمر باجتماع المسلمين المتفرقين على مسافة طويلة في الطريق مضى وقت حتى اجتمع الجميع في غدير خم، فتهيّأ وبدأ بالخطبة بحمد الله تعالى وثنائه، ثمّ التذكير بالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، ثمّ تذكيرهم بنصحه لهم في أداء الرسالة وأقرّهم على ذلك كله، ثمّ أوصاهم بالتمسك بالثقلين كتاب الله وعترته، فانتبه الحاضرون حينئذٍ إلى أنه قصد التوصية بالتمسّك بأهل بيته (عليهم السلام)، ولكن هل هذا كل ما قصده؟ وماذا بعد ذلك؟ لقد أقرّهم ـ قبل أن يبيّن بيت القصيد في الخطبة ـ على أنه أولى بهم من أنفسهم، فلما أقروا بذلك أخذ بيد عليّ (عليه السلام) وهو قريب منه، ونزّله (عليه السلام) منزلة نفسه، وقال: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، ثمّ ختم كلامه بالدعاء لمن والاه (عليه السلام) ونصره والدعاء على من عاداه (عليه السلام) أو خذله، وختم الخطبة

بذلك، فكان حديثه (صلى الله عليه وآله وسلم) عن هذا الموضوع مفاجأة غير متوقعة للمسلمين الحاضرين جميعاً.

٨. عنصر التفاعل.

العنصر الثامن: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صاغ خطابه في هذه الواقعة بطريقة تفاعلية حتى ينتبه الجميع إليه ولا يشتغل بعضهم عنه بأمر آخر، فقد سألهم (صلى الله عليه وآله وسلم) عدة مرات فأجابوه، ومن ذلك..

١. قال: إني أوشك أن أدعى فأجيب فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نصحت.

٢. قال: أليس تشهدون ألّا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ الجنّة حق وأنّ النار حق وأنّ البعث بعد الموت حق؟ قالوا: نشهد، قال: وأنا أشهد معكم.

٣. قال: ألا تسمعون؟ (لفتاً لانتباههم، وتأكيداً على إصغائهم)، قالوا: نعم، قال: إني فرطكم على الحوض وإنكم واردون عليّ الحوض وإنّ عرضه أبعد ما بين صنعاء وبصرى فيه أقداح عدد النجوم من فضة فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين، (وهنا أبهم (صلى الله عليه وآله وسلم) الثقلين ليثير انتباههم وسؤالهم).

٤. فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: كتاب الله طرف بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلوا والآخر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، وسألت ذلك لهما

ربي فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم.

٥. ثم أخذ بيد عليّ (عليه السلام) فقال: من كنت أولى به من نفسي فعليّ وليه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه.

وفي نقلٍ آخر جاء نقل هذه الفقرة على وجه تفاعلي، حيث سألهم ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه[١].

وتماثل هذه الخطبة في إلقائها بالأسلوب التفاعلي خطبه (صلى الله عليه وآله وسلم) المأثورة في حجة الوداع في عرفة وفي يوم النحر وفي أوسط أيام التشريق وفق بعض رواياتها[٢].

وعنصر التفاعل عنصر مهم جداً في مثل هذا الجمع، لأنّه يوجب مزيد الانتباه للفكرة من قبل المخاطبين ويرسّخها في أذهانهم وذاكرتهم، كما أنّ فيه استيثاقاً من سماعهم لصوته (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا الجمع الكبير، أو فهمهم لما قاله ولو بسؤال من يكون أقرب إليه (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلا يكون حضورهم شكلياً دون

(١) المعجم الكبير للطبراني: ١٩٥/٥.

(٢) لاحظ مثلاً: صحيح البخاري: ١٩١/٢، من خطبة له (صلى الله عليه وآله وسلم): (أليس يوم النحر قلنا بلى قال أي شهر هذا...)، وفي مسند أحمد بن حنبل: ٧٢/٥، ورد: (كنت آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوسط أيام التشريق أذود عنه الناس فقال: يا أيها الناس أتدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم...).

استيعاب.

ومن المتعارف في هذا الزمان حثّ حاضري الخطب على التفاعل بأسلوبٍ ما كذكر اسم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليُصلي عليه الحاضرون، أو تشويقهم إلى إبداء الاستجابة للكلام بقول آخر كالتكبير، وذلك مما يوجب مزيد الالتفات، ويزيل الشعور بالملل والسأم الذي قد يحدث بطول الخطاب، ويشوّق المتكلم حيث يكون التفاعل في الاتجاه الذي يقصده بالخطاب.

٩. تذكيره (صلى الله عليه وآله وسلم) بقرب وفاته.

العنصر التاسع: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صرّح في أوّل خطابه بقرب وفاته، حيث ذكر أنه يوشك أن يدعى فيجيب، فهذا أيضاً عنصر مؤثر في زيادة وقع الخطاب بل دلالاته من وجوه[١]:

الأوّل: أنّ ذلك أمر يهز السامعين ويوجب حسن إنصاتهم وإصغائهم للكلام، فتنبيه الخطيب على أنّه سوف يفارق الحاضرين يوجب مزيد تركيزهم وانتباههم لقوله لمعرفة الأمر الذي يريد أن يوصيهم به وحرصهم على التزود منه ما دام حيّاً.

الثاني: أنّ ذلك يساعد على تقبّل الحاضرين لما يذكره ويوصي به ويُضعِف

(١) الوجهان الأوّلان من قبيل الأمور المساعدة على تأثير الخطاب، والثالث من قبيل التأثير على مدلول الخطاب.

فيهم روح التمنّع والمعارضة من جهة أنّه يثير فيهم الشعور بالمحبة له والرقة عليه، فإنّ قرب الفراق من شأنه أن يؤدي إلى تهييج هذه المشاعر في نفوس المخاطبين، وهذه مشاعر مساعدة على قبول الوصية والاستجابة لها.

الثالث: أنّ هذا الأمر يبيّن أن ما يذكره (صلى الله عليه وآله وسلم) هو وصية تتعلق بها بعد موته، وليس تكليفاً فعلياً للمخاطبين، وهو يؤكّد أنّ غرضه (صلى الله عليه وآله وسلم) نصب أهل بيته (عليهم السلام) وعقد الولاء للإمام (عليه السلام) من بعده، كما أنّ تعبيره لاحقاً باستخلاف الثقلين فيهم يؤكّد ذلك.

١٠. إبداء النصح والإشفاق.

العنصر العاشر: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أخرج الكلام مخرج النصح للحاضرين.

وهذا من جملة الأساليب المؤثرة في الخطاب، وهو أن يذكر المتكلم سوابق نصحه للمخاطب وحبه الخير له، ويخرّج كلامه مخرج النصيحة له، وهو أمر يلاحظه كل شخص يسعى إلى تعليم الآخرين وتوجيههم وتربيتهم.

والسرّ في ذلك أنّ الناصح يخلص لمن ينصح له ويريد صلاحه، وليس له مأرب لنفسه، فهو لا يغشّه ولا يلبّس الأمر عليه.

وتتأكد الحاجة إلى التذكير بذلك في موردين:

١. عندما يكون المتكلم في معرض الشك والريبة والتكذيب لدى المخاطب بأنّه إنما يذكر ما يذكره لنفع يعود إليه، فيريد إبعاد هذه الشبهة عن

نفسه بالتأكيد على أنّه ليس بصدد ذلك، بل لتحري مصلحة المخاطب والشفقة عليه من تبعة المسيرة الخاطئة، وهو يؤثر في نفس المخاطب بالنظر إلى أنه قد يُجلّ المتكلم عن أن يكذب في ذلك إذا كان قد عرفه بالصدق والأمانة.

٢. إذا كانت الاستجابة للخطاب شاقةً على المخاطب مما يوجب أن توسوس له نفسه بأنّ هذه الاستجابة غير ضرورية، وأنّ المتكلم يبالغ فيما يأمر به، فيكون بيان المتكلم لكونه ناصحاً دفعاً لهذه الوسوسة وتطميناً للمخاطب بأنّ هذه الاستجابة ضرورية له لأجل صلاحه وسعادته ومستقبله.

وإبداء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نصحه في مقام أداء الرسالة أسلوب قرآني فيما حكاه القرآن عن الأنبياء في مقام تبليغ رسالة الله سبحانه إلى قومهم، فكانوا يقولون: إنّهم إنّما يريدون نصحهم بأمانة، كما قال سبحانه عن نوح (عليه السلام) وقومه: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾(١)، وقال سبحانه عن هود (عليه السلام) وقومه: ﴿**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا**

(١) سورة الأعراف: آية ٥٩ ـ ٦٢.

﴿لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾(١).

ثمّ إنّ إبداء المتكلم كونه ناصحاً للمخاطب على نحوين:

الأوّل: أن يصرّح بكونه ناصحاً كما مثّلنا في أقوال الأنبياء.

الثاني: أن يُعلل ما يأمر به بعود نفعه إلى المخاطب، وهذا كثير في النصائح أيضاً، وهو أمر مطرد في تبليغ الأنبياء للرسالات، فهم يعللون أداءهم للرسالة بأنّه لأجل هدايتهم وإنذارهم، بل يرد ذلك في كلام الله سبحانه في مقام تعليل تكليفه للناس، كقوله تعالى بعد الأمر بالوضوء: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾(٢)، وذلك أكثر من أن يحصى في القرآن الكريم.

وقد جاء في خطبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الغدير النصيحة على كلا النحوين:

فالنحو الأوّل: هو التصريح بكونه (صلى الله عليه وآله وسلم) ناصحاً لهم، فقد جاء أنّه ذكّر الحاضرين بنصحه لهم، أو سألهم: (هل نصحت لكم؟) فقالوا: (اللّهم بلى)، أو ما بمنزلة ذلك، ومن الملاحظ أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) بحسب الصيغة الثانية ـ أي (هل نصحت لكم) ـ لم يصف نفسه بالنصيحة، بل استخدم أسلوباً أكثر تأثيراً، وهو

(١) سورة الأعراف: آية ٦٥ ـ ٦٨.

(٢) سورة المائدة: آية ٦.

أخذ الإقرار منهم على نصحه إياهم، وهذا الأسلوب أبلغ لأنّ المخاطب بعد إقراره بكون المتكلم ناصحاً يكون ملزماً باتباع نصيحته عملاً بإقراره.

وأمّا النحو الثاني: فهو ما جاء في تعليل الأمر بالتمسك بالثقلين من أنّ ذلك لأجل أن لا يضلوا لو لم يتمسكوا بهم بأن يسبقوهم أو يتأخروا عنهم فإنهم سوف يهلكون.

وكأنّ من أسباب تأكيده (صلى الله عليه وآله وسلم) على عنصر النصح أنّه أراد أن يَذْكر مكانة أهل بيته (عليهم السلام) في الدين ويعقد الولاء لابن عمه وصهره، فيساء الظن به بأنه إنما يفعل ذلك لأجل قرباهم له، وهناك شواهد عديدة على أنّ بعض الصحابة كان حساساً تجاه تقريبه لابن عمه ويسيء به الظن في ذلك كما ذكرناه في موضع آخر.

فهذا أيضاً عنصر آخر استخدمه (صلى الله عليه وآله وسلم) لأجل التأثير على المخاطبين.

١١. اعتبار الكتاب والعترة أمانة مودعة عند الأمة.

العنصر الحادي عشر: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نزّل الكتاب والعترة[١] منزلة الأمانة التي يخلفها صاحبها ـ وقت السفر مثلاً ـ عند من يأتمنه ليستردها لاحقاً.

ويفيد هذا المعنى ما جاء في نصّ الخطبة من قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (فانظروا كيف

(١) والمقصود الأصلي بهذا القول العترة، ولكن ضمّ القرآن الكريم إليها تأكيداً على مكانته كما سبق.

تخلفوني في الثقلين، فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: كتاب الله طرف بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلوا، والآخر عترتي، وأنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض).

والمقصود بكون الثقلين أمانة يخلفها (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ طبعاً ـ ليس حفظهما بمعنى الإبقاء على الكتاب من دون تضييع لبعضه أو تحريفه، والإبقاء على العترة من دون العدوان عليهم وقتلهم فإنّ هذا يفترض أن يكون من الواضحات في الدين، بل المراد كما صرّح به (صلى الله عليه وآله وسلم) هو التمسّك بهما، وذلك هو نوعُ حفظٍ لهما.

وبذلك يُعلم أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) نزّل التمسك بهما منزلة حفظهما ونزّل تجاوزهما منزلة تضييعهما، والوجه في ذلك أنّ هوية القرآن الكريم وهوية أهل البيت (عليهم السلام) هي هوية الهداية والتعليم وفق الخطبة، فمن لم يستجب لهما فكأنّه أضاعهما، نظير ما يقال من أنّ فلاناً ضيّع الكتاب أو السنة إذا أخل برعايتهما، ويقال إنّ الناس ضيّعوا العالم الذي كان بينهم إذا لم يتمسّكوا وينتفعوا به كما يليق، ويقال في هذا العصر إنّ فلاناً حرّف الدستور إذا نقضه، لأنّ هوية الدستور هي هوية قانونية فمن نقض ما جاء فيه من القوانين، فكأنه خرق الدستور كما لو مزّقه مبدياً عدم الالتزام به، وذلك تنزيل للأمر المعنوي منزلة الأمر الحسي.

فالكتاب والعترة هما أمانة الرسول لدى الأمة، وسوف يستردهما منها غداً

على الحوض، فعلى الأمّة أنّ ترجعهما كاملين غير منقوصين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[١].

وهذا التنزيل يعطي شعوراً مؤكّداً لدى الحاضرين بالمسؤولية تجاه هذا الأمر، وقبح تجاوز القرآن والعترة.

والوجه في ذلك: أنّ قبح خيانة الأمانة كان من الأمور المعروفة والمؤكّدة في المجتمع العربي المخاطب بهذا الخطاب، كما هو الحال في المجتمع الإنساني العام.

بل قبح خيانة الأمانة من وجوه الغدر للتعهد والالتزام، لأنّ الأمين يتعهد بالأمانة لصاحبها، وقبح الغدر عند العرب كان قبحاً كبيراً للغاية، فقيمة الرجل ورجولته عندهم إنّما هي باحترامه لتعهده والتزامه تجاه الآخرين، وكانت القبائل تتعهد فيما بينها فكان قبح الغدر موجباً لالتزامها بذلك، وكانت تأنف أن توسم بالغدر والخيانة، فيكون ذلك عاراً يبقى أثره على عصبتهم وذريتهم.

وبوجه آخر يمكن القول إنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اعتبر الكتاب والعترة تَرِكَته في الأمة، وقد أوصى بحفظهما حتى يردا عليه الحوض، فأشبه حاله معهما حال من يوكل تركته إلى شخص ويوصيه بشأنها، والوصية هي أيضاً أمر ملزم على وجه

(١) سورة النساء: آية ٥٨.

مؤكد بحسب العقل والعرف القبلي، لأنّ الموصي غائب عما يوصي به وعن الوصي أبداً، وإنّما يعوّل على الثقة به، فيقبح بالوصي أن يتخلف عن الوصية، ولذلك عندما أراد الله سبحانه تغيير قوانين الميراث الجاهلي بتوريث النساء والبنات والأطفال ألزم الناس أوّلاً بالوصية لهم، وذلك نظراً إلى أنّ وصية الميت في تركته كانت نافذة عندهم، فقال عز من قائل: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[١].

ثمّ لما تمهّد الأمر بذلك فُرضت بعد بضعة سنوات الاستحقاقات المناسبة بنظام التوريث المباشر في سورة النساء[٢].

١٢. أخذ الإقرار بشيء لإلزام المخاطب بغاية تترتب عليه.

العنصر الثاني عشر: الذي استخدمه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة الغدير هو أخذ الإقرار بشيء ـ من غير بيان الغاية ـ ثم إلزام المُقرّ بموجب إقراره.

(١) سورة البقرة ـ وهي أوّل سورة نزلت في المدينة، ويتوقع أن يكون ذلك في السنة الأولى للهجرة ـ: آية ١٨٠ ـ ١٨١.

(٢) لاحظ آيات المواريث في أوائلها، وقد نزلت سورة النساء في السنة السادسة أو السابعة للهجرة.

وهذا أسلوب بليغ في التأثير في مشاعر المخاطبين، ويستخدم حيث يكون المخاطب أو بعض المخاطبين مظنة لإنكار الشيء والاعتراض عليه وإبداء عدم تقبله، وهو يفاجئ المخاطب باضطراره إلى الإذعان والالتزام بشيء لم يكن يريد الإقرار به أو كان يتوقف في ذلك.

فقد أخذ (صلى الله عليه وآله وسلم) الإقرار بأصول الدين من الإيمان بالله الواحد وحقانية البعث والجنة والنار أوّلاً، وأخذ الإقرار بنصحه للناس ثانياً، ثمّ أمر تأسيساً على ذلك بالتمسّك بالثقلين، فلم يكن للحاضرين محيص عن قبول التمسّك بذلك لأنهم أقرّوا من قبل بنصحه، كما أقرّوا برسالته في توحيد الله سبحانه واليوم الآخر، ففي ذلك تلميح إلى أنّ من كان مقراً بالله ورسوله واليوم الآخر فإنّ عليه أن يتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) مع القرآن الكريم، ولا سبيل إلى التفكيك بين الأمور ولوازمها، وإلا كان المرء قد ناقض نفسه ونكث ما أقرّ به.

ومرّة أخرى عاد (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أخذ الإقرار من الحاضرين بكونه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ثمّ رتّب عليه إثبات مثل ولائه للإمام (عليه السلام) بقوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، وفي ذلك دلالة على أنّ من لم يلتزم بالولاء الخاص للإمام (عليه السلام) فإنّه ناقض أولوية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من نفسه ولم يقبل بكونه (صلى الله عليه وآله وسلم) مولاه، لأنّ من كان (صلى الله عليه وآله وسلم) مولاه فإنّ علياً مولاه.

١٣. عنصر التدرج والتسلسل في مضامين الخطاب.

العنصر الثالث عشر: ـ الذي راعاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في صياغة هذه الخطبة ـ هو عنصر التدرّج والتسلسل في فقرات الحديث، فقد تضمّنت الخطبة وجوهاً ثلاثة من القرن المؤكّد تدرّجت فيه:

الأوّل: قرن مجمل ما سيذكره (صلى الله عليه وآله وسلم) في مكانة أهل البيت (عليهم السلام) والولاء للإمام (عليه السلام) بأصول الدين من الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر من البعث والحساب والجنة والنار وبلاغ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ونصحه.

الثاني: قرن التمسك بالقرآن الكريم بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) ضماناً للهدى في أمور الدين، وتوقياً من الهلاك في الدنيا.

الثالث: قرن الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) بالولاء لنفسه (صلى الله عليه وآله وسلم).

فهذه اقترانات ثلاثة جاءت في الحديث، وهي رائعة للغاية كما سيأتي إيضاحها في طي العناصر اللاحقة.

ولكن محل الشاهد هنا هو رعاية التسلسل المنطقي في العرض وذلك على النحو التالي:

١. ذكرت الخطبة أوّلاً أصل الدين، وهما الإيمان بالله واليوم الآخر وبلاغ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

٢. ثم فرّعت عليه ما ينبغي أن يتفرّع على هذا الإيمان ويستتبعه من التمسك بالقرآن الكريم وبأهل البيت (عليهم السلام).

٣. ثم ذكرت ما يتفرّع على التمسك بالقرآن الكريم من الولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وللإمام عليّ (عليه السلام).

وذلك لأنّ ولاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على الأمّة أمر زائد على بلاغه ورسالته، وهو من جملة تعاليم الكتاب كما قال سبحانه: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾[1]، كما أنّ ولاء الإمام (عليه السلام) في الحقيقة متفرّع من جهةٍ على الولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنظر إلى جعله منه بقوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، كما أنّه متفرّع من جهة أخرى على وجوب التمسّك بأهل البيت (عليهم السلام)، لأنّ الإمام عليّاً (عليه السلام) هو سيد أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأوّلهم، كما تبيّن من آية المباهلة وحديث الكساء وسائر ما تضمّن أنّه (عليه السلام) من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كقول جبرئيل يوم إبلاغ سورة البراءة، واستحقاقه للولاء كان بالنظر إلى أنّه الهادي لهذه الأمة، فإنّ الهادي أولى بالولاء ممن لا يَهدي إلا أن يُهدى، وذلك أمر سيأتي مزيد إيضاح له في موضعه.

وهذا التدرج والتسلسل أمر لطيف ورائع كما يظهر لمن تأمّله جيّداً.

١٤. اشتمال الخطاب على التعبير عن شكوك المتكلم في استجابة المخاطب للخطاب.

العنصر الرابع عشر: ـ الذي يتمثل في خطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ إشعار المتكلم

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٦.

في خطابه (صلى الله عليه وآله وسلم) باطّلاعه المسبق على نوازع المخاطبين وهواجسهم تجاه مضمون الخطاب.

فإنّ هذا الإشعار يعطي قوة للخطاب ويعطي هيمنة المتكلم على ما يسرّه المخاطبون كالذي يعلنونه فليس بخافٍ عنه ما يضمرونه تجاه مضمون الخطاب.

وهذا أسلوب قرآني، حيث تشتمل جملة من الآيات القرآنية على التعبير عن الشك في عمل المخاطبين بالتعاليم المذكورة والإخبار عن توجهات معارضة، ولذلك يجري التأكيد على أنّه سبحانه يعلم ما يسرّون ويخفون وما يعلنون[1].

---

(١) قال تعالى في أوّل سورة الأنبياء: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنبياء: آية ١ ـ ٤)، وقال سبحانه في أوّل سورة التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (التغابن: آية ١ ـ٤)، ومن ذلك ما يرد في تعقيب الأوامر أحياناً بمثل قوله سبحانه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: آية ٢٣)، و﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: آية ٩١)، و﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: آية ٦٢)، و﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ

ومن مبرزات التعبير عن الشك في استجابة المخاطبين بخطبة الغدير للخطاب أمور:

الأوّل: عناصر التأكيد المتقدمة من وجوه التمهيد والقرن والإطناب والترغيب والتهديد، فالتأكيد كما ذُكر في علم الأدب أسلوب أدبي لمعالجة نوازع الشك في نفس المخاطب، ولذلك إذا قيل: (زيد عالم يقيناً) أو (والله إنّ زيداً عالم) دلّ ذلك على شك المخاطب فيه ممّا اقتضى التأكيد.

الثاني: قوله: (وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض)، فإنّ التعبير عن الله سبحانه باللطيف والخبير إشارة إلى اطلاعه على خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

الثالث: استعمال أداة الشرط في قوله: (ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي أبداً)، فقد كان من الممكن أن يأمر بالتمسك بهما ويقول إنّهم لن يضلّوا إذاً أبداً، ولكنه استعمل أداة الشرط، واستعمال أداة الشرط يشعر بشك المتكلم في تحقق المشروط، فتدل هذه الجملة على أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يشك في أن تتمسك الأمّة بأهل البيت (عليهم السلام) فعلاً.

وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: آية ٢٣)، و﴿**لَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (آل عمران: آية ١٣٩).



١٥. قرن الخطاب بالترغيب والتحذير.

العنصر الخامس عشر: أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) قرن الخطاب بالترغيب والتحذير، وقرن الأمر والتشريع بذلك يدل على الإصرار المؤكد على الاستجابة للخطاب، لا سيما إذا كان الترغيب والتحذير مميّزاً، كما يرد ذلك في آيات القرآن الكريم كثيراً.

وقد ورد ذلك في الخطبة من وجوه متعددة:

الأوّل: ما يلمح إليه أصل ربط الموضوع بالإيمان بالله واليوم الآخر وذكر الجنة والنار، فإنّ في ذلك ضرباً من الترغيب والترهيب.

الثاني: قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) (إنّهما يردان علي الحوض) فقد عبّر بذلك عن أنّ أيّ مسلم لن ينجو غداً يوم القيامة إلا إذا سقاه (صلى الله عليه وآله وسلم) من حوض الكوثر الذي يقوم عليه، وكأنّ سقيه إياه يرمز إلى الشهادة بفلاحه، وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) لن يسقي من حوض الكوثر إلا من ثبت على ما أمر به وتمسك بالقرآن والعترة، وهما سوف يردان عليه الحوض، وكأنّه ليشهدا على المسلم بالتمسك بهما من عدمه، فلا مجال للتمويه والادّعاء الكاذب هناك بالتمسك بهما، ، وفي هذا القول ترغيب صريح إلى التمسك بهما بفلاحه غداً، وترهيب مبطن لمن لم يتمسك بهما غداً بخيبته وخسرانه.

وفي ذكر الحوض بين وجوه الثواب نكتة بلاغية لطيفة، وهي مطابقته لمقتضى الحال، فالجو عموماً حار في الجزيرة العربية، ومن المتوقع أن شهر ذي

الحجة آنذاك كان يقع في الصيف ممّا يزيد الحر، والناس يتصبّبون عرقاً، ويتوقون إلى شرب الماء النقي البارد توقاً، وذلك ممّا يذكّر المرء بمشهد القيامة حسب تصوير النصوص الواردة عن ذلك المشهد عند حشر الناس جميعاً.

كما أنّ في كيفية ذكره (صلى الله عليه وآله وسلم) تمثيلاً حسناً وأخّاذاً لمشهد الحوض من مشاهد القيامة حيث قال: (فإنّي فرطكم على الحوض، وأنتم واردون عليّ الحوض، وأنّ عرضه أبعد ما بين صنعاء وبصرى، فيه أقداح عدد النجوم من فضة).

الثالث: قوله: (ولا تقدموهم فتهلكوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا)، فإنّ في ذلك إنذاراً لمن تخلف عن التمسك بالعترة بالهلاك، وهو هلاك في الدنيا والآخرة..

أمّا الهلاك في الدنيا فما يقع من الفتن التي تؤدي إلى القتال مما يوجب إزهاق الأنفس وإضاعة الأموال وذهاب الأمن وانتشار الإعاقة والترمّل واليتم وطمع الأعداء.

وأمّا الهلاك في الدين فمن جهة الوقوع في الضلالة وارتكاب الموبقات للدين.

الرابع: قوله: (اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه)، فإنّ اندراج المرء في من دعا له الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ترغيبٌ، واندراجه في من دعا عليه ترهيب، على أنّ الظاهر أنّ هذه الجملة وإن كانت صورتها دعاء ولكن واقعها وعد ووعيد، فالمراد أنّ الله يوالي من والاه ويعادي من عاداه وسيأتي ذلك في موضعه.

هذا، وولاء الله سبحانه وعداؤه ينطوي على مجمل وجوه الترغيب والترهيب، لما ورد في القرآن الكريم من وجوه الوعد لمن والاه ووجوه الوعيد لمن عاداه.

ومثل ذلك قوله: (وانصر من نصره واخذل من خذله).

١٦. أسلوب التعليل.

العنصر السادس عشر: ـ مما جاء في كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة الغدير ـ أسلوب التعليل، وهو من الأدوات المؤثرة في الإقناع، فإنّ تعليل الكلام بأمر مرغوب للمخاطب يساعد على مزيد تقبّله والإذعان له كما هو مشهود في مقام التوجيه والتربية، لأنّ في ذلك ربطاً للمطلوب منه بغاياته ورغباته بما هو مطلوب له مسبقاً، ولأنّ في ذلك بياناً أنّ طلب هذا الشيء منه إنما هو على وجه النصيحة والحثّ على صلاح حاله، وليس لغرض يعود إلى المتكلم بتاتاً.

ولذلك نجد في القرآن الكريم كثيراً تعليل الأوامر والتشريعات ولو على وجه الإجمال مثل قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾[2]، وقوله جلت

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣.

(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٥.

آلاؤه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾(١)، وقوله عز من قائل: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾(٣).

ومن جملة تلك الموارد تعقيب التشريعات بذكر الصفات الإلهية مثل (إنّ الله عليم حكيم)، فيدلّ على أنّ هذا التشريع ليس للتكليف والعناء وإنّما هو لعلمه سبحانه وحكمته بما يعود صلاحه إلى الناس أنفسهم.

ويأتي التعليل عادةً بمعنى يكون مطلوباً للإنسان وفق نوازعه الفطرية ورغباته العامة من وجوه صلاحه في الحال والمستقبل، فإنّه متى تمّ وصل التشريع بعلّة فطرية يعقلها الناس نفذ الحق في قلوبهم واتصل بعمق مداركهم وتقبّلتها عقولهم.

ولأجل ذلك نجد تكرر المفاهيم الفطرية المحمودة وأضدادها مئات أو آلاف المرات في القرآن الكريم مثل العقل والرشد والتفكر والتدبر والهدى والتبصر والعدل والصدق والوفاء، وكذا الجهل والسفاهة والضلال والظلم والكذب والخيانة، كما نجد أنّ الظالمين والمتعسفين يسعون إلى تعليل مواقفهم

(١) سورة هود: آية ١١٤.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٥٣.

(٣) سورة المائدة: آية ٦.

بمفاهيم الصلاح والرشد والهدى، كما جاء عن فرعون في القرآن الكريم أنه قال لقومه عند صدّه عن دعوة موسى (عليه السلام) كما حكاه سبحانه بقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[١]، وكذا قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[٢].

وقد اشتملت خطبة الغدير على التعليل في عدة موارد:

الأوّل: تعليل الأمر بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) مع القرآن للتوقي عن الضلالة، فدلّ على أنّ الأمر بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) لم يكن لذاتهم ولا لقربهم من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل من جهة ما تميّزوا به من الهدى والصلاح.

وهذا تعليل للأمر بمطلوبٍ فطري للإنسان وهو الهدى في الدين، وذلك بعينه التعليل الوارد لوجوب الإيمان بالله سبحانه وحده، كما قال تعالى لمشركي قريش والعرب: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٣]، كما علّل إنزال الكتب إلى الخلق بهداية الناس بقوله سبحانه: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٤]، وبقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ

(١) سورة غافر: آية ٢٩.

(٢) سورة غافر: آية ٢٦.

(٣) سورة يونس: آية ٣٥.

(٤) سورة الجاثية: آية ٢٠.

﴿التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾(١) وعلل وجوب الإيمان بالأنبياء بأنّهم يهدون بإذن الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(٣).

والمراد بالضلالة هو التحيّر والتيه في أمر الدين والابتلاء بالشبهات والفتن، والوقوع في مسيرات منحرفة، كما يؤكد ذلك أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الأخرى المتفق عليها التي حذر (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها أصحابه عن الوقوع في الفتن من بعده وأن يرجعوا القهقرى ويرتدوا على الأعقاب(٤)، وذكر أنّ أصحابه يقعون فيها، وحدّد في أحاديث أخرى له بعض المفتتنين مثل تحذيره بعض نسائه عن أن تنبحها كلاب الحوأب وقد اتفق ذلك لعائشة في طريقها إلى حرب الجمل(٥)، ومثل تحذيره بعض أصحابه المبالغين في العبادة(٦)، وقد اتّفق قتاله

---

(١) سورة آل عمران: آية ٣ـ٤.

(٢) سورة الشورى: آية ٥٢.

(٣) سورة الأنبياء: آية ٧٣، والسجدة: آية ٢٤.

(٤) لاحظ مثلاً: صحيح البخاري: ٧/٢٠٨.

(٥) لاحظ مثلاً: مسند أحمد: ٦/٥٢، والمستدرك على الصحيحين: ٣/١٢٠.

(٦) لاحظ مثلاً: مسند أحمد: ٣/٣٤، عن أبي سلمة قال جاء رجل إلى أبي سعيد فقال: (سمعته (صلى الله عليه وآله وسلم) يذكر قوماً يتعمقون في الدين يحقّر أحدكم صلاته عند صلاتهم وصومه عند صومهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية).

للإمام عليّ (عليه السلام) في النهروان، وإخباره (صلى الله عليه وآله وسلم) ببغي من يقتل عماراً[١]، وقد اتّفق ذلك في معاوية وأصحابه، وإخباره بقتال الزبير لعلي (عليه السلام) وهو له ظالم[٢]، وقد اتّفق ذلك منه في حرب الجمل.

هذا، ومن الملفت أنّ ما صرّح به من الفتن كلها هو ما يثار في وجه الإمام عليّ (عليه السلام) وقد حدّد الحق فيها في جانب الإمام (عليه السلام)، وهذا بالرغم من وقوع بعض الفتن في زمان الخلفاء الثلاثة، كما أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث آخر موثوق عند النقّاد ذكر أنّ بعض أصحابه يقاتل على تأويل القرآن كما قاتل هو على تنزيله، فسأله أبو بكر ثمّ عمر إن كانا هما المقصودين فقال: لا، ولكن خاصف النعل ـ يعني علياً (عليه السلام) الذي كان مشغولاً بخصف نعله ـ[٣].

الثاني: تعليل النهي عن التقدم على أهل البيت والتأخّر عنهم بالهلاك في قوله: (لا تتقدّموهم فتهلكوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا).

الثالث: تعليل عقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) بصيانته الأمّة عن الضلالة والهلاك وقيادته لها إلى الهدى والصلاح، وهذا التعليل يستفاد من سياق الكلام، لأنّه ذكر أوّلاً التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) للأمن من الضلالة

---

(١) صحيح البخاري: ٣/٢٠٧، صحيح مسلم: ٨/١٨٦، مسند أحمد: ٢/٢٠٦، ٣/٢٢، سنن الترمذي: ٥/٣٣٣.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ٣/٣٣٦ و٣٣٧.

(٣) مسند أحمد: ٣/٣٣، المستدرك على الصحيحين: ٣/١٢٣.

والهلاك، ثمّ ذكر عقد الولاء للإمام (عليه السلام)، ومن المعلوم أنّ الإمام عليّاً (عليه السلام) أبرز أهل بيته، بل هو الوحيد الذي يتأتى التمسك به من قبل عامة المسلمين من أهل بيته بالمعنى الذي ذكره ورسّخه (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقول والعمل وهم الإمام عليّ وفاطمة والحسنان (عليهم السلام)، إذ كانت فاطمة (عليها السلام) وهي على علوّ مقامها واصطفائها لم ولن تتصدى طبعاً لأمر عام من هذا القبيل، وأما الحسنان (عهما) فكانا صبيّين يومذاك، إذ كانا على الترتيب في السابعة والسادسة من عمرهما الكريم.

١٧ . قرن الخطاب بالتنبؤ بعواقب التخلّف.

العنصر السابع عشر: مما تضمّنه كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة الغدير هو قرن الخطاب بالتنبؤ بعواقب عدم الاستجابة للخطاب، وذلك فيما جاء في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) من ذكر أنّ عاقبة التخلف عن أهل البيت (عليهم السلام) هي الهلاك، كما قال: (ولا تتقدّموهم فتهلكوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا).

وقَرْنُ بيان التكليف بالتنبّؤ يوجب مزيد انتباه من المتكلّم للكلام وتأثير الكلام فيه ووقعه في نفسه.

وقَرْنُ التوجيه بتنبّؤ العواقب أسلوب قرآني معروف، والتنبّؤات القرآنية على ضربين:

فمنها: ما يكون مجرد بيان للسنن الإلهية العامة في الحياة عامة وفي أهل

الأديان خاصة مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[١].

ومنها: ما يكون بشارة في حال الطاعة أو تحذيراً في حال المعصية والخذلان، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢]، وفي قوله سبحانه: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣]، وغير ذلك.

وقد اشتملت خطبة الغدير كما ذكرنا على التنبؤ بأنّ عدم التمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) يؤدي إلى هلاك الأمّة، والهلاك يشمل الهلاك في الدين والدنيا، ويحصل ذلك بتفرق الأمّة أحزاباً في الدين والقتال فيما بينهم ممّا يوجب ذهاب أنفسهم وانتهاك أعراضهم وتلف أموالهم وفقدانهم للأمن والطمأنينة والسلامة والألفة، وقد حصل كل ذلك من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد عقدين من وفاته في أواخر زمان عثمان بعد إيثاره قومه بأموال المسلمين ومناصبهم، وتعسّفه مع الناس المعترضين على ذلك حتى هاج الناس وثاروا، ولم يستجب لإصلاح

---

(١) سورة الأعراف: آية ٩٦.

(٢) سورة المائدة: آية ٥٤.

(٣) سورة محمد: آية ٧.

الأمور ولا الاستقالة من الخلافة حتى قُتل، ثم تولى الإمام عليّ (عليه السلام) باختيار جمهور المهاجرين والأنصار، فثارت ضده الفتن الثلاث التي أوجبت لأوّل مرة القتال الداخلي بين المسلمين، وذهب في أثرها عشرات الآلاف من رجال المسلمين حتى استشهد (عليه السلام) بفعل رجل من أصحاب تلك الفتن، وكان بعده ما كان عند تولي الحسن (عليه السلام)، ثمّ حكم بني أمية على الناس باستيلاء معاوية على الحكم وشهادة الحسن (عليه السلام)، ثمّ تولي يزيد وشهادة الحسين (عليه السلام)، ثمّ ما كان بعد ذلك من حروب بين المسلمين.

وهذا الحديث في اشتماله على هذا التنبؤ على حدّ أخباره (صلى الله عليه وآله وسلم) الثابتة العامة والخاصة عن الفتن كما ألمحنا إليه، ولذلك تكون نسبة هذا الحديث إلى تلك الأخبار نسبة المجمل إلى المفصَّل.

هذا، وقد جرى الإمام عليّ (عليه السلام) في خطبه على هذا المنوال فكان يقرن بياناته للمواقف الصحيحة ومواعظه للناس بذكر عواقب التخلف عنه، وهذا من أسباب اشتمال خطبه على جملة من أنباء المستقبل.

١٨. معالجة الشبهات المتوقعة تجاه مضمون الخطاب على وجه التلويح.

العنصر الثامن عشر: ـ الذي تضمّنته خطبة الغدير ـ معالجة الشبهات المتوقعة تجاه الأمر بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) للأمن من الضلالة وعقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام).

بيان ذلك: أنّ المتكلم البليغ النابه قد يقدّر الشبهات المتوقعة في أجواء الخطاب التي تحول دون الإذعان بالخطاب، وقد تُستغل في مسارب نفوس المخاطبين أو اجتماعاتهم كمنفذ للخروج عنه، فيشير إلى ما يحول دونها ويمنع من التشبّث بها.

وهذا ما نجده عند التأمل في خطبة الغدير، حيث سعت الخطبة إلى معالجة شبهتين تعرضان لمن يريد أن يترك أهل البيت (عليهم السلام).

فالشبهة الأولى: ـ التي يمكن أن تخطر في ذهن المسلمين ـ هي ما ينفي الحاجة إلى التمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) للتوقي من الضلالة.

ومضمون الشبهة هو أنّ القرآن الكريم كافٍ في وقاية المسلم عن الضلالة، فهو رسالة الله تعالى إلى العباد، ويزيّن ذلك في النفوس وفي توجيه هذا الموقف لدى الآخرين ـ في مقابل التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) ـ بأنّ الله سبحانه قد وصف كتابه بأنّه نور وهدى وبيّنات وسائر ما يدلّ على هذا المعنى ويؤكّده، فلا حاجة معه إلى شيء وراءه.

وهذه هي الشبهة التي أثارها عمر وأنصاره أمام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد شهر وأيام من خطبة الغدير عندما طلب (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يكتب كتاباً لا تضل الأمّة بعده أبداً، فقال عمر : (إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع وعندكم

القرآن، حسبنا كتاب الله)(١) وهو كناية عن الهجر، وفي لفظ آخر (فقالوا يهجر)(٢)، ولم يذكر القائل في هذا اللفظ، ولا شك أنّه إشارة إلى عمر أو هو القدر المتيقن منه بالالتفات إلى سائر ألفاظ الحديث، ولكن يبدو أنّ ابن عباس ربما كنى عن عمر عند حكاية هذه الحادثة وكره التصريح باسمه، وحاشا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الهجر.

إذاً هذه أوّل الشبهات وأقربها ممّا يمكن أن يجعل مستمسكاً للاستغناء عن أهل البيت (عليهم السلام)، وهي شبهة متوقعة جداً.

ولأجل ذلك قرن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) التمسّك بالقرآن الكريم بالتمسّك بالعترة وأناط حصول التمسك بأحدهما بالتمسك بالآخر، وأكّد هذا المعنى بأنّهما لا يفترقان أبداً حتى يردا عليه الحوض، وأكّد ذلك بأنّ الله سبحانه صاحب القرآن الكريم هو الذي أخبره بأنّهما لن يفترقا.

وعنصر التأكيد على عدم الافتراق (حتى يردا الحوض) هو عنصر بارز ومؤكّد ينظر إلى المستقبل المتوسط والبعيد من جهة شدة الحاجة عندما يصل الدور إلى ما بعد الإمام عليّ والحسنين (عليهم السلام) الذين كانوا موجودين في عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونصّ عليهم وعلى أنّهم من أهل بيته، لخفاء الإمام من أهل البيت

(١) صحيح البخاري: ١٣٨/٥، و٩/٧، صحيح مسلم: ٧٦/٥، مسند أحمد: ٣٢٥/١ و٣٣٦.

(٢) صحيح البخاري: ٦٦/٤، ١٣٧/٥، صحيح مسلم: ٧٥/٥ و٧٦، مسند أحمد: ٣٥٥/١، و٢٢٢، شرح صحيح مسلم (النووي): ٩٠/١١.

(عليهم السلام) بعدهم على عموم الأمة، فيظن الظان أنه لا محل للتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) عندئذٍ، فأكّد على دوام التمسّك.

الشبهة الثانية: ـ التي يمكن أن تخطر في ذهن بعض المسلمين كمخرج عن التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) ـ هي أنّ مناط الصيانة عن الضلالة هو التمسك بكتاب الله وسنّة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا حاجة إلى ما وراء ذلك، وذلك يطابق ما تكرر في القرآن الكريم من ثنائية إطاعة الله تعالى وإطاعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذه الشبهة هي أيضاً متوقعة على أساس ما يتمثّل في القرآن دائماً من الأمر بطاعة الله ورسوله، وعلى ذلك كان عمل المسلمين حتى هذه الواقعة، كما أنّ إليها نظر الذين قابلوا هذا الحديث بحديث: الثقلين (كتاب الله وسنّتي)، وهو حديث غير موثوق جداً بحسب النقد الروائي، وقد أعرض عنه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وللحديث تفصيل موكول إلى موضعه[١].

وقد عالج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الشبهة بتغييب نفسه في فقرة الثقلين من خطبة الغدير، واستبدلها بذكر أهل بيته وعترته، فهم امتداده، ولا محل للاحتجاج بسنّته في مقابل أهل بيته.

كما عالجها في فقرة الولاء بجعل ولاء الإمام عليّ (عليه السلام) من ولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) كما أوضحنا من قبل.

(١) لاحظ مزيد من القول فيه في الإيضاح الرابع.

فلا بدّ للمسلمين من التمسك والولاء لإمام حيّ حاضر، ولا يغني عن ذلك التمسك والولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد وفاته.

١٩. أسلوب إثبات اللوازم ونفي الأضداد.

العنصر التاسع عشر: ـ المتمثل في خطبة الغدير ـ هو تعقيب المعاني بذكر اللوازم والأضداد، وذلك من جملة الأساليب البلاغية في أداء المعنى وتأكيده، فيعمد المتكلم مع إثبات الشيء إلى إثبات لازمه ونفي ضده، فيقول القائل مثلاً: (قم من هنا واجلس في مكان آخر) و(قم ولا تقعد) و(كن في البيت ولا تخرج) وهكذا، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة.

ومن الملاحظ في هذه الخطبة تكرر استعمال هذا الأسلوب في مواضع:

الأوّل: تعقيب الأمر بالتمسك بهم بالنهي عن التقدم عليهم أو التأخر عنهم حيث قال: (ولا تتقدموهم فتهلكوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا)، ومن المعلوم أنّ التمسك بهم ينفي التقدم عليهم والتأخر عنهم.

الثاني: تعقيب الأمر بالاهتداء بهم (المستفاد من الأمر بالتمسك بهم للتوقي من الضلالة) بالنهي عن تعليمهم (وهدايتهم) حيث قال: (ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم).

الثالث: التعرّض للموالاة والمعاداة بعد ذكر الولاء وذلك في قوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم وال من والاه، وعادِ من عاداه)، فإنّ لازم

كون عليّ (عليه السلام) مولى الأمّة في الدين هو أن يوالي الله من والاه ويعادي الله من عاداه كما هو الحال في الرسول، وقد تقدّم أنّ الدعاء في ذلك تعبير عن الوقوع، إلا أنّ ذكر ذلك جاء تأكيداً واهتماماً.

الرابع: التعرض لنصرة الله تعالى وخذلانه بعد التعرض لموالاة الله ومعاداته، فإنّ من لوازم ولاء الله سبحانه نصرته ومن لوازم معاداة الله سبحانه خذلان من يعاديه.

٢٠. عنصر حكاية الوحي.

العنصر العشرون: ـ مما يتمثل في خطبة الغدير ـ حكاية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحياً من الله تعالى في دعم ما ذكره من الأمر بالتمسك بالقرآن والعترة معاً وعدم افتراقهما أبداً حيث قال: (وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض).

وكان المنظور بهذا الدعم التأكيد الشديد على هذا الأمر المهم، وهو عدم افتراق الكتاب والعترة أبداً في أيّ ظرف من الظروف حتى لا تدخل الشبهة على أحد في ظرفٍ ما بأنّه لا حاجة إلى الالتفاف حول أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويكفينا أن نعمل بكتاب الله سبحانه، وحتى لا يظن آخر أنّ توصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأهل بيته رأي منه واجتهاد له، إذ لم يرد ذلك في القرآن، وذلك مما كان يخطر في أذهان بعض الصحابة.

فالجواب: أنّ هذا الأمر وإن لم يرد في القرآن إلا أنّ الله سبحانه هو الذي أوحاه إليه (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا ينحصر الوحي بالقرآن الكريم كما يعلمه المسلمون، ولئن لم يُصدَّق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حكاية وحيه سبحانه في غير القرآن، فإنّ ذلك من وجوه تكذيب رسالته طبعاً.

وكأنّ السر في التعبير عن الله سبحانه بـ(اللطيف الخبير) ـ على ما ذكرنا من قبل ـ الإشارة إلى أنّ الله سبحانه يعلم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، فمن أظهر طاعة وولاء وانطوى على خلافه علم الله سبحانه منه ذلك وإن جهل الناس منه ما انطوى عليه، وذلك تحذير شديد، وقد اقتبس (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا التعبير من القرآن الكريم، قال سبحانه: ﴿**وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[1]، وفي سورة أخرى في القرآن عُبّر في مثل هذا السياق بالعليم الخبير، كقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**﴾[2]، والفرق أنّ (اللطيف) فيه مزيد تركيز على العلم بما يدقّ ويخفى، وأمّا العلم فهو معنى عام، وقد أراد (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا المورد التركيز على علمه سبحانه بانطواء المرء على عدم

---

(١) سورة الملك: آية ١٣ ـ ١٤.

(٢) سورة التحريم: آية ٣.

الاستجابة لخطابه (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا في شأن أهل البيت (عليهم السلام) على وجه يخفيه، وكأنّ في ذلك نحو تعريض ببعض الحاضرين وتحذيراً لهم عن أن يظهروا القبول والولاء ويضمروا الرفض والعداء.

٢١. ربط الموضوع بالإيمان بأصل الدين.

العنصر الحادي والعشرون: أنّ الخطبة تضمّنت التلويح بربط ما جاء فيها من إيجاب التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) والولاء للإمام (عليه السلام) بأصول الدين من الإيمان بالله تعالى وبالرسول وباليوم الآخر من البعث والجنة والنار.

وربط الموضوع الذي يراد إقناع المخاطب به بأصول معتقداته وقناعاته عامل مساعد على إقناعه.

ووجه التلويح في الخطبة بذلك أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) مهّد الخطبة بذكر هذه الحقائق، قائلاً: (أليس تشهدون أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ الجنة حق والنار حق وأنّ البعث بعد الموت حق؟ قالوا: نشهد، قال: فرفع يديه فوضعهما على صدره، ثمّ قال: وأنا أشهد معكم، ثمّ قال: ألا تسمعون؟ قالوا: نعم).

ففي إقرارهم بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر قبل تبليغ ما أراده (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأن أهل البيت والإمام عليّ (عليه السلام) ما يلوّح إلى أنّ من آمن بذلك فإنّ عليه أن يؤمن بما يبلغه الرسول الآن في هذه الخطبة من إيجاب التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) في الدين، والولاء للإمام عليّ (عليه السلام)، فإن لم يفعل فكأنه لم

يؤمن بذلك.

وهذا أسلوب قرآني لتأكيد الفكرة كما في قوله تعالى ـ بعد النهي عن تداول قذف المحصنات ـ: ﴿يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[٢]، وقوله سبحانه: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٤]، وقوله عزّ من قائل: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٦]، وقوله تعالى:

---

(١) سورة النور: آية ١٧.

(٢) سورة يونس: آية ٨٤.

(٣) سورة التوبة: آية ١٣.

(٤) سورة الأنفال: آية ١.

(٥) سورة المائدة: آية ١١٢.

(٦) سورة المائدة: آية ٥٧.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١)، وقوله جلّت آلاؤه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٢)، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٣).

ومن أنحاء هذا الأسلوب ما جاء بعد النهي عن موالاة الكفار حيث قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾(٤)، وما جاء بلغة حصر المؤمن في فئة معينة كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(٥).

٢٢. إناطة التمسك بالقرآن بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام).

العنصر الثاني والعشرون: ـ مما تضمّنته الخطبة ـ هو ربط التمسّك بالقرآن بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) واعتبارهما أمراً واحداً لا ينفك، فمن لم يتمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) فهو لم يتمسّك بالقرآن تمسكاً يقيه من الضلالة والهلاك

(١) سورة آل عمران: آية ١٧٥.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٣٩.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٧٨.

(٤) سورة المائدة: آية ٥١.

(٥) سورة الأنفال: آية ٧٤.

حقاً، وفي هذا تأكيد كبير على الفكرة؛ لأنّ في إناطة ربط التمسك بالنص الأساس الذي يفترض من المخاطب التمسك به ورعايته بالتمسك بشيء آخر ما يحثّه على التمسك بهذا الشيء الجديد، كما لو قيل إنّ ما يضمن صواب المرء أن يتمسك بالدستور والقوانين التي تشرّع في حدوده معاً.

وهذا المعنى متحقق في الخطبة، لأنّ القرآن هو النص الأساس في الدين الذي ابتنت عليه النبوة، لأنّه الرسالة الإلهية إلى الخلق والعروة الوثقى التي يكون التمسك بها أمراً لا غنى عنه في الدين، ولا يفلح المرء في دينه من دونه أبداً، فإنّ كل امرئ مسلم يفترض في نفسه أنّه متمسّك به ومهتد بهداه، وعليه فإنّ ربط حصول التمسك بالقرآن بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) معنى كبير جداً، وهو يدل على اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الدين، إذ تمّ قرنهم بالقرآن العظيم.

والواقع أنّ الحديث يدلّ على ربط التمسك بالقرآن بالتمسك بالعترة بالنظر إلى الأثر المطلوب للتمسّك بالقرآن وهو التوقي من الضلالة والهلاك، لأنّ فحواه ولحنه أنّ أصل التمسّك بالقرآن لن يحصل من دون التمسك بأهل البيت (عليهم السلام)، لا أنّه يحصل ولكن لا يترتب عليه الأثر المنظور والغاية المتوخاة وهو الأمان من الضلالة، فمن لم يتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) لا يتمسّك بالقرآن حقاً.

والوجه في فهم ذلك أنّ القرآن الكريم صريح في أنّه كتاب هدى يعصم من

تمسك به من الضلالة، وهو الأمر المركوز في نفوس المسلمين المخاطبين جميعاً، ومقتضى ذلك أنّ دخالة التمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) بالتوقي من الضلالة باعتبار عدم تمامية التمسّك بالقرآن حقاً من دون التمسك بهم (عليهم السلام).

على أنّ قوله لاحقاً: (إنّهما لا يفترقان) يدلّ على أنّه لا يحصل التمسك بالقرآن إن لم يحصل التمسك بالعترة، إذ لا يُراد بذلك أنّ ذاتيهما لن يفترقا، بل إنه (صلى الله عليه وآله وسلم) يريد أنّ التمسك بهما لن يفترق، وذلك ظاهر.

ويدل الحديث من خلال هذا الربط والإناطة على أنّ أهل البيت (عليهم السلام) هم الذين يبيّنون القرآن وهديه في الأمور المتشابهة في الدين والحياة كلها نظرية وتطبيقاً، فهم الذين يتلون القرآن حق تلاوته ويفسرون القرآن ويبينون ما أبهم منه، وهم الذين يعرفون عام القرآن وخاصه ومحكمه ومتشابهه، وهم الذين يجرون في الفتن والشبهات على منهاج القرآن، وهم الذين يجب طاعتهم وفق ما أمر به القرآن من إطاعة أولي الأمر كما تجب طاعة الله ورسوله.

ولو شاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يذكر القرآن في هذا السياق، بل اقتصر على الأمر بالتمسك بأهل بيته، لأنّ من تمسك بهم فإنّه يأمن من الضلالة، ولكنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قرن أهل البيت (عليهم السلام) بالقرآن، وجعل التمسك بهما واحداً، حتى يفيد الكلام أنّ التمسّك بالقرآن وحده لا يقي من الضلالة.

وجملة (التمسك بالثقلين) بهذا المقدار على إيجازها هي من جملة جوامع

كلمه (صلى الله عليه وآله وسلم) حقاً، وقد قال (صلى الله عليه وآله وسلم) في بعض حديثه (أوتيت جوامع الكلم)[١]، وجوامع الكلم هي الكلمات الجامعة التي تختزن دلالات كثيرة وعميقة وواسعة تدل على بلاغة المتكلم وأفقه الواسع وحسن تأصيله للمعاني وتصريفه لها، وقد أحصى أهل العلم نماذج من جوامع كلمه (صلى الله عليه وآله وسلم).

فهذه الجملة هي من جملة تلك الكلمات الجامعة بما تتضمنه من عقد الارتباط بين التمسّك بالقرآن والعترة والوصل بينهما وصلاً مؤكداً، فإنّ هذا الارتباط والوصل ينطوي على أبعاد وآفاق كثيرة، منها مرجعيتهم في تنزيل القرآن وتفسيره وتفصيله وتطبيقه على ما أشرنا إليه أوّلاً.

هذا، ويشبه الربط ـ في هذه الفقرة من الحديث ـ بين التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) وبين التمسك بالقرآن ربط موضوع الخطبة بالإيمان بأصل الدين في الفقرة الأولى من الخطبة على ما ذكرناه في العنصر السابق، وقد يكون الفرق بينهما أنّ الربط هناك اعتقاديّ، فمن يعتقد بالدين عليه أن يستجيب لهذا الخطاب، والربط هنا عمليّ، فمن لم يتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) فإنّه لم يتمسك بالقرآن الكريم.

٢٣. التعبير عن الكتاب والعترة بالثقلين.

العنصر الثالث والعشرون: التعبير عن الكتاب والعترة بالثقلين، فهذا من

(١) مسند أحمد: ٢/ ٢٥٠.

المفردات البليغة والفريدة التي استخدمها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في كلماته وجاءت في هذه الخطبة..

أمّا بلاغتها فلما تتضمنه من تصوير الكتاب والعترة كثقلَي الحمل على الدواب، وهو يصوّر الارتباط بينهما تصويراً حسّياً رائعاً وجميلاً ودقيقاً يلائم ذوق العرب في التصوير والتشبيه والذي كان يستحسن التشبيه بالأنعام وملابساتها حتى كانت مفردة العقل في اللغة مشتقةً من عقال البعير.

وفي التعبير بتثنية الثقلين مزيد تأكيد على القرن بين الكتاب والعترة، فإنّ التثنية في مثل ذلك تستخدم في القرن المؤكد بين الشيئين، والتعبير عن العلقة الخاصة بينهما كما في الزوجين.

والثِّقْل في اللغة الحمل الثقيل، ويطلق على متاع المسافر وأحماله، فكأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) حمّل المسلمين من بعده هذين الحملين الثقيلين وهما الكتاب والعترة، وربما يكون (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أشرب كلامه تشبيههما ضمناً بما يحمل على الدابة حيث إنّه ينقسم إلى قسمين، فإن اختل أحدهما اختل الآخر.

وأمّا كون هذه الكلمة فريدة فلأنّها تعبير موجز وغريب وغير معهود، وقد أوجبت الانتباه وبقيت في ذاكرة المخاطبين وصارت سمة لأهل البيت (عليهم السلام) ورمزاً لمكانتهم في الدين لا يمكن محوها من الحدث والخطبة أبداً.

ومن طرائف هذا التعبير أنّه دلّ على أنّ الفعل الذي كان قد استخدمه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الخطبة تجاه كل من الكتاب والعترة كان فعلاً واحداً متماثلاً وهو

التمسّك بهما كما جاء في معظم وجوه نقل الحديث، كما أنّه الملائم لما جاء في الخطبة من جعل العترة وقاية من الضلالة.

ولكن بعض الرواة ـ وهو الذي اعتمده مسلم في صحيحه ـ رغم محافظته على التعبير بالثقلين جعل الفعل في شأن الكتاب التمسك، وجعل الفعل في شأن أهل البيت (عليهم السلام) التذكير (أذكّركم الله في أهل بيتي)، وكأنّه رجّحه التفاتاً إلى أنّ واقع الحال أنّ مدرسة الخلافة ليست متمسكة بأهل البيت (عليهم السلام) في الدين بتاتاً لا في التمسك بالكتاب ولا في تلقي أصول الدين وفروعه ولا في تحديد الحق والهدى في الشبهات والفتن التي وقعت بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، والواقع أنّ التعبير المتفق في هذا النقل أيضاً ـ وهو جعل الثقلين الكتاب والعترة ـ يشير إلى تحريف هذا النقل للحديث؛ لأنّ هذا التعبير يلائم وحدة الفعل وهو التمسك، فما جمعهما النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا التعبير إلّا وهو يريد أن يوصي بهما معاً، وبذلك لاحظنا كيف أنّ التعبير بالثقلين ساعد على حفظ الفعل المنظور للمتكلم.

على أنّ النقل المذكور ـ لمسلم ـ مرجوح ومريب؛ لأنّ اللفظ الغالب في رواية زيد بن أرقم والذي تشتمل عليه جملة من الأحاديث الصحيحة، وكذلك في غير رواية زيد، هو ذكر التمسك بالثقلين، ويشتبه في أن يكون استبدال (التمسك) بـ(التذكير) في شأن أهل البيت (عليهم السلام) بدافع مذهبي لكي يلائم الحديث تعامل الخلفاء وجمهور الأمّة مع أهل البيت (عليهم السلام) حيث لم يتمسّكوا

بهم بتاتاً، وهذا مثال لكيفية تحوير متون الأحاديث الواردة في شأن أهل البيت (عليهم السلام) من قبل بعض الرواة لأجل تصحيح عمل الأمّة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

٢٤. التعبير عمّا يجب في الدين تجاه أهل البيت (عليهم السلام) بالتمسّك بهم.

العنصر الرابع والعشرون: هو التعبير عن وظيفة الأمّة تجاه أهل البيت بالتمسّك بهم دون التعبير بالطاعة أو الولاء أو نحو ذلك وإن استبطن التمسّك كل هذه المعاني.

فالتعبير بالتمسّك هو من التعابير البليغة ذات المحتوى المميز، وذلك التمسّك هو الإمساك بالشيء كحبل الإنقاذ والنجاة ممن وقع في البئر أو يكاد يغرق في البحر بقوة، ويكون هذا التمسك عادة عندما يكون الإنسان في وضع يكاد يفلت مما تمسك به كما في مثال من وقع في البئر أو يكاد يغرق في البحر، وقد جاء ذلك صريحاً في بعض نصوص خطبة الغدير حيث ذُكر أنّ الكتاب والعترة حبلان ممدودان.

إذاً هذه الجملة تتضمن تشبيه الثقلين بحبل النجاة لمن يكون في معرض الهلاك[١]، وهو يدل على أنّ الناس سوف يبتلون بشبهات وفتن تحول دون

---

(١) ويعبّر علماء البلاغة عن هذا النحو من التشبيه بالتشبيه والاستعارة على وجه الكناية، لأنّ المتكلم يضمر تشبيه شيء بشيء آخر ويكني عن هذا التشبيه بلازمه من دون تصريح بالمشبه به، مثلاً يشبه المنية بالسبع ولا يذكر السبع، بل يكني عن هذا التشبيه بإثبات الأظفار للمنية، كما في

اهتدائهم إذا لم يصروا على التمسك بالعترة مع الكتاب، وهو ما يوضح طبيعة الفتن التي أخبر (صلى الله عليه وآله وسلم) عنها في أحاديث أخرى له معروفة، فهي فتن وشبهات ناشئة من عدم التمسك بأهل البيت (عليهم السلام).

وهذا التعبير اقتفاء تقريبي للتعبير القرآني بالاستمساك بالله والإيمان به، والاستمساك والتمسك كلاهما مبالغة في (المَسْك)، قال سبحانه: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[2]، وقال عزّمن قائل: ﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[3].

هذا، وفي بعض ألفاظ الحديث ذكر الاعتصام بدل (التمسّك)، وهو قريب من التمسك، يقال اعتصم بالشيء إذا استمسك به ولزمه لأجل الحفظ والوقاية، والعصام حبل يُشد بالقربة فتحمل به.

وهذا التعبير قرآني أيضاً، فقد ورد ذكر الاعتصام بالله أو بحبله في القرآن

قول الشاعر: (وإذا المنية أنشبت أظفارها * ألفيت كلّ تميمة لا تنفع)، فهنا تضمّن هذا التعبير تشبيه الكتاب والعترة بحبل النجاة، ولكن لم يذكر الحبل، بل ذكر التمسّك.

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

(٢) سورة لقمان: آية ٢٢.

(٣) سورة الزخرف: آية ٤٣.

الكريم مكرراً، كما قال سبحانه: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

٢٥. إحلال أهل البيت (عليهم السلام) محل نفسه (صلى الله عليه وآله) في الأمّة بعد جعلهم ضمن الثقلين.

العنصر الخامس والعشرون: مما تضمّنته خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) ـ وهو أعظم ما انطوت عليه جملة التمسك بالثقلين ـ إحلال أهل البيت (عليهم السلام) محله (صلى الله عليه وآله) في

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٠١ ـ ١٠٣، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء: آية ١٤٦)، وقوله عزّ من قائل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (سورة النساء: آية ١٧٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (سورة الحج: آية ٧٨).

التمسك والهدى؛ لأنّه لم يجعل نفسه من ضمن الثقلين الذين أمر بالتمسك بهما وجعلهما وقاية عن الضلالة.

بيان ذلك: أنّ الثنائية التي كان يجدها كل مسلم في كتاب الله سبحانه وفي توجيه الرسول هو التمسك بكتاب الله وبأقوال الرسول، وهذا ما تتضمنه الآيات التي تأمر بطاعة الله ورسوله وما بمعنى الطاعة من المفاهيم الأخرى، وقد اعتاد المسلمون بطبيعة الحال على أن يتمسكوا بكتاب الله سبحانه وبتعاليم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي يُعبَّر عنها بالسنة.

وإذا كان قد ذُكِر أولو الأمر في بعض الآيات الكريمة مع الله ورسوله كما في قوله تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ**﴾[1]، فإنّ سياق الآية يدلّ على أنّ ذلك من جهة إيلاء الله ورسوله الأمر إليهم فتجب طاعتهم لذلك.

ولكننا نجد في هذه الخطبة أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يذكر نفسه أو سنته مع الكتاب، بل ذكر بدلاً عنها (أهل بيته) فهما الثقلان اللذان يقي التمسك بهما من الهلاك والضلالة.

وهذا القول ذو معنى عظيم ومحتوى كبير في شأن موقع أهل البيت (عليهم السلام) عند الله وعند رسوله وفي الدين، ولقد لاحظنا في القرآن الكريم أنّ الله

---

(١) سورة النساء: آية ٥٩.

سبحانه إذا أراد أن يبيّن موضع رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الدين قرنه بنفسه طوراً فيقول سبحانه: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾[1]، وطوراً آخر يجعل طاعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) طاعة لنفسه فيقول: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾[2]، ولكن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) زاد في شأن أهل بيته (عليهم السلام) في هذه الفقرة، فأحلّ أهل بيته محلّ نفسه وآثاره، وغيّب نفسه عن محل التأثير وهو رسول الله إلى هذه الأمّة والذي يجب الإيمان به أبداً والتمسك بهداه دائماً.

وهذا الأسلوب يشبه ما سميّ في علوم البلاغة بـ(الاستعارة المكنية).

بيان ذلك: أنّه في حال تنزيل شيء منزلة شيء، مثل تنزيل زيد منزلة الأسد، فإنّ هناك عدة أساليب في إبراز هذا التنزيل:

١. أسلوب التشبيه الصريح بذكر أداة التشبيه، فيقال: (زيد كالأسد).

٢. أسلوب التنزيل الصريح وذلك بحذف أداة التشبيه، مثل أن يقال: (زيد أسد)، وهو أبلغ من التشبيه الصريح.

٣. أسلوب التنزيل المضمر بذكر المشبه به بدون المشبه فيقال: (جاء أسد) ويعني (جاء زيد)، ولكن حُذف (زيد) بالنظر إلى أنه اعتُبِر أسد فلم تعد حاجة لذكره، وهو أبلغ من التنزيل الصريح.

---

(١) سورة النساء: آية ٥٩.

(٢) سورة النساء: آية ٨٠.

٤. أسلوب التنزيل المضمر بذكر المشبّه نفسه دون ذكر المشبه به أصلاً، ولكن يذكر شيء من لوازم المشبه به كما إذا قلت: (إذا زأر زيد خاف الجميع) فإنه قد ذكر زيد بنفسه دون الأسد الذي شبّه به، ولكن عبّر عن صوته بالزئير مما يدل على إضمار تشبيهه بالأسد واعتباره أمراً مفروغاً عنه، ويُمثّل له بقول الشاعر:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها   ألفيت كلّ تميمة لا تنفع

فإنّ الشاعر شبّه المنية وهي الموت بالأسد، ولكن لم يذكر المشبه به أصلاً حتى كأنّ من المعروف أنّ المنية من جملة أفراد الأسد، بل أثبت للمنية أظفار السبع التي تنشب في الفريسة التي اصطادها، وهذا الأسلوب قد يكون أنفع من أسلوب التنزيل المضمر بذكر المشبه به.

وما جاء في هذه الجملة وهي التمسّك بالثقلين ليس في الحقيقة تشبيهاً، ولكن بمثابته، وهو في ذلك بمثابة الأسلوب الأخير، فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يذكر نفسه التي كانت قرين القرآن دائماً، وكان التمسك بالقرآن منوطاً به، بل حذف ذكر نفسه وأحلّ أهل بيته محلّه.

ومغزى صنعه هذا في الحقيقة أنه نزّل أهل بيته من بعده منزلة نفسه، فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم، وهم منه، وإنما هما بمثابة شخصٍ واحد لا يميّزه (صلى الله عليه وآله وسلم) عنهم إلا الرسالة، وهم فيما عداها من الاصطفاء والعلم والهدى والتسديد سواء، وهذا ما نجده في لسان نصوص متعددة متّفق عليها، فقد جاء جبرائيل في السنة

التاسعة يأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يرسل علياً (عليه السلام) بدل أبي بكر بآيات البراءة، ويقول له: (لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك)(١)، وجاء في بعض النصوص أيضاً التقييد بأنّ علياً مني وأنا منه، كما ورد في شأن حفيده الإمام الحسين (عليه السلام): (حسين مني وأنا من حسين)(٢).

هذا، ويدل عدم ذكره (صلى الله عليه وآله وسلم) لنفسه أنّ نظره في الأمر بالتمسك بالثقلين إلى ما بعد وفاته، فهذه الجملة في الحقيقة وكذلك مجمل مدلول الخطبة هي وصيته لما بعد وفاته، كما يساعد على ذلك أنّه مهد الخطبة بذكر أنّه يوشك أن يدعى فيجيب، وهو ما ينفي الاعتقاد بأن مضمون هذه الجملة مجرد ثناء على أهل البيت (عليهم السلام) وإيجاب محبتهم ومودتهم كما جرى عليه بعض من تحدث حول مدلول هذا الحديث، بل مفادها أنّ أهل البيت (عليهم السلام) أعلام هدى قد نصبوا كمنارات للأمة في سيرها كما كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كذلك.

وهذا النوع من الحديث عن أهل البيت (عليهم السلام) هو الذي نجد روحه في أحاديث الإمام عليّ (عليه السلام) في نهج البلاغة كلما ذكر أهل البيت أو آل محمد

---

(١) عمدة القاري: ٤/٧٨. مسند أحمد: ١/١٥١. المستدرك على الصحيحين: ٣/٥١. مجمع الزوائد: ٧/٢٩.

(٢) تهذيب الكمال: ٦/ ٤٠٢. ميزان الاعتدال: ٢/١٣٥. سنن الترمذي: ٥/٣٢٤. مسند أحمد: ٤/١٧٢. سنن ابن ماجة: ١/٥١. المعجم الكبير: ٣/٣٢. المصنف: ٧/٥١٥. التاريخ الكبير (البخاري): ٨/٤١٥.

(صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو حديث سائر الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) كالإمامين الحسنين وعلي زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق ومن بعدهم (عليهم السلام جميعاً).

وينطوي تحت إحلاله (صلى الله عليه وآله وسلم) أهل بيته محل نفسه وآثاره أمور عديدة:

أوّلاً: أنّ التمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) تمسك به وبسيرته وسنته تماماً، فمن تمسّك بهم لم يحتج إلى أن يتحرّى وراء ما يبلغونه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) عن سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسنّته فهم يعلمون ذلك ويبلّغونه على الوجه الأتمّ والأسلم.

وثانياً: أنّه يثبت لأهل البيت (عليهم السلام) جميع المؤهلات والصلاحيات في الدين مثل ما يثبت للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عدا الرسالة والوحي، فهم مسددون من عند الله سبحانه كتسديد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويبلّغون عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما لو كان هو القائل، ولهم من الولاية على الأمّة مثل ما يثبت للرسول، وهذا يعطي اصطفاء أهل البيت في الدين كما اصطُفي في أمم سابقة إبراهيم وآل إبراهيم، فأهل البيت (عليهم السلام) ليسوا على حد المجتهدين في الشريعة الذين قد يصيبون ويخطئون ولو لعذر، بل هم مسددون لن يقولوا إلا هدى ولن يسيروا إلا على رشد، فهم على يقين في أمر الدين تماماً.

وثالثاً: أنّه لا يصح مشاكسة أهل البيت (عليهم السلام) بالاحتجاج بسيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وسنته، لأنهم أعلم بذلك كله، وعلمهم بذلك علم كامل مسدد لا حاجة لهم معه إلى من سواهم، وهم سائرون على منهاجه (صلى الله عليه وآله وسلم) ومنهاج

الكتاب.

٢٦. توسعة مفهوم أهل البيت (عليهم السلام) لعترته (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد الإمام عليّ والحسنين (عليهم السلام).

العنصر السادس والعشرون: ـ في هذه الخطبة وهو من جملة ما ينطوي عليه الأمر بالتمسك بالثقلين ـ هو توسعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الخطبة مفهوم (أهل بيته) لعترته بعد الإمام عليّ (عليه السلام) والحسنين.

وهذا من أهم المعاني التي انطوت تحت كلامه لمن تفطن لملاحنه.

توضيحه على وجه الإيجاز[١]: أنّ الذي يظهر من القرآن الكريم أنّ من سنن الله سبحانه في بعض أنبيائه أن يصطفي من أهل بيتهم عباداً يكونون امتداداً لهم وعوناً، فهم يتميزون بالعناية الإلهية الخاصة، ويعبَّر عن هؤلاء طوراً بـ(أهل بيت النبي) وأخرى بـ(آل النبي)، كما جاء ذلك في القرآن الكريم في شأن إبراهيم (عليه السلام) في قوله تعالى على لسان الملائكة خطاباً لزوجة إبراهيم (عليه السلام): ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٣]، وقوله

(١) سيأتي تفصيله في القسم الثالث من هذه السلسلة حول اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام).

(٢) سورة هود: آية ٧٣.

(٣) سورة آل عمران: آية ٣٣.

سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾[١].

وقد أبدى سبحانه في السنة الخامسة من هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة تقريباً عنايته تعالى بأهل بيته (صلى الله عليه وآله وسلم) في ضمن الحديث عن نسائه، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢]، وكان قد تزوج الإمام عليّ (عليه السلام) آنذاك فاطمة ابنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث كان زواجهما في السنة الثانية من الهجرة، كما كان قد ولد لهما الحسنان (عليهم السلام)، وذلك ـ على الترتيب ـ في السنتين الثالثة والرابعة للهجرة.

وبعد نزول هذه الآية دعا النبي علياً وفاطمة والحسنين فجمعهما مع نفسه تحت كساء وقال: (اللّهم هؤلاء أهل بيتي فطهرهم تطهيراً) فسأل الله سبحانه أن يجعل العناية التي يعنيها بأهل بيته في هؤلاء، وهو يعلم ـ بتسديد الله سبحانه إياه ـ بأهليتهم لذلك، وتلك حادثة مشهورة متفق عليها[٣]، وبذلك خص عنوان أهل البيت (عليهم السلام) بهؤلاء الخمسة.

ولمّا جاء في السنة الخامسة نفسها أمْرُ الله تعالى المؤمنين بالصلاة عليه ـ وذلك في سورة الأحزاب ذاتها بعد آية التطهير ـ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ

(١) سورة النساء: آية ٥٤.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٣٣.

(٣) لاحظ: صحيح مسلم: ٧/ ١٣٠، تهذيب الكمال: ٦/ ٢٢٩. سير أعلام النبلاء: ٢/ ١٢٢.

يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[(١)]، سأله الصحابة عن كيفية الصلاة عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) فعلمهم أن يقولوا: (اللّهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد)، وذلك أيضاً حديث متفق عليه مذكور في الكتب المنتقاة كالصحاح[(٢)].

ويبدو أنّه أراد بآل محمد عترته أو أراد بني هاشم ولكن بمحورية العترة، كما كانت العناية بآل إبراهيم بمحورية رجال محددين منهم.

وقد استجاب الله سبحانه له، فكان هؤلاء هم الذين أمر الله سبحانه بالمباهلة بهم في آية المباهلة التي نزلت في السنة الثامنة للهجرة، وهي قوله تعالى: **﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾**[(٣)]، حيث لا شك بحسب السيرة النبوية أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يدع أحداً غير هؤلاء الأربعة رغم صغر الحسن والحسين إذ كانا على الترتيب في الخامسة والرابعة من عمرهما الشريف، ومرجع الآية إلى أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يباهل

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٥٦.

(٢) لاحظ مثلاً: صحيح البخاري: ٤/١١٨ـ ١١٩، كتاب الأم (الشافعي): ١/١٤٠.

(٣) سورة آل عمران: آية ٦١

النصارى بأهل بيته(١).

وجاء عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في تزكية هؤلاء من النصوص الصحيحة المميزة التي تدل وتلوّح إلى اصطفائهم من قبل الله سبحانه.

وهكذا دلت ملاحن أقواله ومواقفه المعبرة عن أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) خصّ (أهل البيت) (عليهم السلام) ـ الذين يرجو (صلى الله عليه وآله وسلم) لهم العناية الإلهية الخاصة المعهودة لسلالات الأنبياء ـ بالأربعة المذكورين، وهذا تخصيص منه (صلى الله عليه وآله وسلم) لهذا العنوان بهؤلاء الأربعة بالعناية التي ذكرناها.

لكن لم يفصح (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما نعلم عن شمول أهل البيت (عليهم السلام) في منظوره لغير هؤلاء الأربعة.

فكان أوّل موقف له (صلى الله عليه وآله وسلم) ينطوي على ذلك هو خطبة الغدير(٢) عندما نصب أهل بيته (عليهم السلام) أعلاماً للهدى في غيابه (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث أمر بالتمسّك بهم مع القرآن، وقال: إنّهما لا يفترقان أبداً حتى يردا عليه الحوض.

---

(١) راجع مثلاً: صحيح مسلم: ١٢٠/٧، سنن الترمذي: ٢٩٣/٤، السنن الكبرى (البيهقي): ٦٣/٧، مسند أحمد: ١٨٥/١، وغيرها.

(٢) ومن قبلها خطبة عرفات قبله بثمانية أيام، والتي من المتوقع أنّه أراد فيها إبلاغ ولاء الإمام عليّ (عليه السلام) ولم يتمّ له من جهة الضوضاء، وسيأتي تفصيل ذلك وشرحه في الإيضاح الثالث عشر، وهناك حديث آخر عن أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) ذكر حديث الثقلين بعد رجوعه (صلى الله عليه وآله وسلم) من الطائف، والله أعلم.

فدلّ ذلك على استمرار وجود أهل البيت (عليهم السلام) إلى القيامة كما هو حال القرآن الكريم، لما عرفنا[١] من أنّ قوله هذا يقتضي وجود شخص خاص في كل عصر يقع التمسّك به، وليس التمسّك بآثار من سبق، وإلا لذكر نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ يجب التمسّك بآثاره.

وهكذا أفاد (صلى الله عليه وآله وسلم) استمرار الاصطفاء في رجال من أهل البيت أبداً، وهو المناسب للدعاء له ولآله أبداً بالصلاة كما صلّى الله سبحانه على إبراهيم وآل إبراهيم، وهذه دلالة مهمة وذكية من دلالات هذه الخطبة.

٢٧. الابتداء باللين والتواضع، ثمّ الإشفاق والتشويق ثمّ الانتهاء إلى الحزم

العنصر السابع والعشرون: سوق الكلام بدواً على وجه اللين والتواضع، ثمّ على وجه الإشفاق عند ذكر مكانة أهل البيت (عليهم السلام)، ثمّ إنهاء الكلام على وجه الحزم.

وهذا أسلوب بليغ في النفوذ في نفوس المخاطبين، وهو ضرب من التدرّج لأنّ المخاطب يستمال باللين والتواضع، فيستجيب بعده للإشفاق والتشويق، ويتهيأ حينئذٍ لقبول الحزم.

بيان ذلك: أنّ الناظر في هذه الخطبة يرى أنّ لحن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد تدرّج في هذه الخطبة ثلاث مرات:

---

(١) لاحظ العنصر ٢٥.

١-فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) بدأ هذه الخطبة باللين والتواضع على خلقه العام المعهود، وقد قال عنه سبحانه: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[(١)]، وذلك حيث سأل الحاضرين عمّا إذا كان قد بلّغ الرسالة وأدّاها ناصحاً، فتفاعلوا معه وأجابوا بالإيجاب.

٢-ثمّ تدرّج عند تبليغ الأمر بالتمسّك بأهل بيته (عليهم السلام) في فقرة حديث الثقلين إلى الإشفاق والتشويق حيث لم يذكر التمسّك بالثقلين بصيغة الأمر، بل ذكر أوّلاً التشويق إليه بأنّه يخلف فيهم الثقلين وينتظرهم على الحوض، أي لأجل أن يسقيهم فيما إذا تمسكوا بهما من بعده، ولم يقل صريحاً إنه يمنع مَن لم يتمسّك بهما، وإن كان الكلام يعطي تلويحاً بذلك، ثمّ ذكر ما يعطي الإشفاق عليهم وهو أنّ التمسّك بهم يقيهم من الضلالة، ولو سبقوا أهل البيت (عليهم السلام) أو قصّروا هلكوا.

٣-ثمّ بعد أن تمّ تبليغ الولاء للإمام (عليه السلام) استعمل (صلى الله عليه وآله وسلم) لغة الحزم والتشديد ـ إضافة إلى لغة التشويق بالدعاء لمن والاه والنصرة لمن نصره ـ وذلك بالدعاء على من عاداه وخذله بمعاداة الله سبحانه إياه وخذلانه له، فبدا (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأن التخلّف عن موالاة الإمام (عليه السلام) حازماً شديداً، يسأل الله سبحانه معاقبة المتخلفين ومعاملتهم بمثل ما يعاملون به الإمام (عليه السلام) فإن

(١) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

استجابوا لولائه (عليه السلام) والاهم ونصرهم، وإن عادوه أو خذلوه عاداهم وخذلهم، وفي ذلك ما يقطع أمل المسلمين عن النجاة في حال التخلف عن ولائه (عليه السلام)، لأنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ على رحمته ورأفته بأمّته ـ يدعو على من تخلّف بخسران الدنيا والآخرة.

فانظر إلى لطف صياغة هذا القول وجمال هذا العرض والعناية في صياغته والبلاغة في سوقه وفق مقتضيات الأحوال.

٢٨. جعل الولاء للإمام (عليه السلام) من ولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) على الأمّة

العنصر الثامن والعشرون: مما اشتملت عليه خطبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في يوم الغدير هو جعل الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) قرين ولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) هو على الأمّة، فلم يقتصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في عقد الولاء للإمام (عليه السلام) على أن يقول (وأنّ علياً مولاكم)، بل سألهم (صلى الله عليه وآله وسلم) أوّلاً عن أولويته منهم بأنفسهم كما ورد في القرآن الكريم، فأقروا بها، فقال: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

وهذا ثالث قرن يستعمله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الخطبة كأداة بليغة ومعبّرة عن عمق مقصوده، وكان من قبل قرن العترة بالقرآن الكريم معبّراً عنهما بالثقلين، ولوّح في أوّل الخطبة الذي تضمن إقرار الحضور بأصول الدين بقَرْن الاستجابة لما يذكره في خطابه هذا ـ في شأن أهل البيت (عليهم السلام) وفي شأن الإمام عليّ (عليه السلام) ـ بالإيمان بتلك الأصول.

والمفهوم من هذه الجملة أنّ من لم يذعن بأنّ علياً مولاه لم يذعن بأنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مولاه وهو أولى به من نفسه، فإنّ الولاء للإمام (عليه السلام) هو من الولاء للرسول، وليس قرينه فقط، فمن كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مولاه كان الإمام (عليه السلام) مولاه بنفس مولوية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عليه.

وفي هذا الأسلوب تأكيد كبير للغاية على الولاء للإمام (عليه السلام) وموقع هذا الولاء في الدين، لأنّ المؤمنين كلهم أولياء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا محالة بحكم الدين بعد إيمانهم بالرسالة، ومن لم يوال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يؤمن برسالته.

وصياغة هذه الجملة (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) صياغة موجزة ومميزة ولطيفة وبليغة في توحيد الولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع الولاء للإمام (عليه السلام)، وقد جاء على نسق قول جبرئيل: (لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك)، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (علي مني وأنا منه)، وقد أصبحت عنواناً لأمير المؤمنين (عليه السلام) وقد حفظها جلّ الرواة لمكان إيجازها وجزالتها حتى سارت في الآفاق.

وهي حقاً على حدّ جملة (التمسك بالثقلين) من جوامع كلم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، لأنّها فضلاً عن دلالتها على تأكيد الولاء للإمام (عليه السلام) بجعله من ولاء الرسول فإنّها تختزن إثبات جميع أبعاد الولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الولاء للإمام (عليه السلام)، فالمفروض تنزيله (عليه السلام) منزلة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما عدا نبوّته من الله تعالى كما في حديث المنزلة (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)، فالطاعة له على حدّ طاعة الرسول والمعصية له على حد معصية

الرسول، وهكذا في سائر الصفات من الحب والبغض والمحادّة والمشاحّة والإيذاء وأخواتها، وقد ورد في القرآن الكريم الربط بين هذه المعاني في شأن الرسول وفي شأن الله كما ذكرنا تلك المعاني في موضع سابق، وهذه الجملة تربط هذه المعاني في شأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي شأن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، فكل ما جاء في الكتاب في شأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كقوله: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾[1]، ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**﴾[2] ينطبق في شأن الإمام (عليه السلام).

وعليه يجب التسليم للإمام (عليه السلام) على حدّ التسليم للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واعتبار قوله حجة على حدّ كون قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حجة، فهذه الجملة بالتنزيل الذي تضمّنته ترسي قاعدة واسعة وتأصيلاً كبيراً.

وما ذكره (صلى الله عليه وآله وسلم) بعدها بقوله: (اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه)، وكذا قوله ـ الذي اشتملت عليه بعض الطرق المعتبرة للحديث ـ: (وانصر من نصره واخذل من خذله) هو في الحقيقة شرح لجانب مما تنطوي عليه، لأنّ ذلك كله ينطبق في شأن الولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنّ الله سبحانه يعادي من عاداه ويوالي من والاه وينصر من نصره ويخذل من خذله، كما هو فحوى آيات القرآن

---

(١) سورة النساء: آية ٨٠.

(٢) سورة الحشر: آية ٧.

الكريم.

هذا، وسيأتي مزيد توضيح لهذا القول في طيّ الإيضاحات اللاحقة، وإنما كان الغرض هنا بيان مؤدى هذا القول على وجه الإيجاز.

٢٩. الاهتمام بإبراز الإمام عليّ (عليه السلام) للحضور

العنصر التاسع والعشرون: ـ ممّا تضمّنته خطبة الغدير ـ الاهتمام بتعرف الحاضرين على شخص الإمام بوجهه وملامحه، فلم يكتفِ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بذكر الإمام عليّ بالاسم في الخطبة، بل جاء أنه قد وضع له (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يرتقي عليه حتى يشهده الجمهور ويرونه، ثمّ أخذ (صلى الله عليه وآله وسلم) بيد عليّ (عليه السلام) إلى مكانه الذي هو فيه وهو صدر ذلك المشهد ورفعها (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى بان بياض إبطه، وأشار بـ(هذا) قائلاً: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، فكان ذلك تعريفاً منه باسمه وشخصه معاً، وذلك لكي يشهده الناس ويروه، وهذا نظير ما يتفق من تعريف شخص بآخر في مجلسه حيث يدعوه إلى مكانه ويعرفه بالحاضرين.

فهذه الخطوة التي قام بها (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك الجمع إنما كان لأجل أن يعرفه (عليه السلام) عامةُ المسلمين ويشخصونه باسمه ووجهه، فإنّ ذلك أوجب للانتباه وأبعد عن طرق النسيان والاشتباه؛ لأن للإحساس البصري تأثيره الخاص في الاهتمام والاستيعاب والحفظ والنحت في الذاكرة كما هو ظاهر.

فالمراد تحويل الإمام (عليه السلام) من شخصية خاصة تعرفها قبيلته قريش

ويعرفها أهل المدينة من المهاجرين والأنصار وتعرفها ساحات الحرب ورجالها إلى شخصية عامة يعرفها المسلمون جميعاً.

وهذا النحو من التعريف بالإمام عليّ (عليه السلام) يلائم أن يكون قد أنيط به دور عام من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهو تعريف للمسلمين بمن عقد الولاء له عليهم من بعده، ولولا ذلك لم يكن هناك حاجة أو مناسبة إلى القيام بهذه الخطوة.

٣٠. قرن عقد الولاء بالدعاء المؤكّد والشديد

العنصر الثلاثون: هو قرنه (صلى الله عليه وآله وسلم) عقد الولاء للإمام (عليه السلام) بالدعاء لمن استجاب وعلى من خالف، إذ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بعد قوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) ـ: (اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه)، وقد حفظت هذه الجملة بفقرتيها؛ لأنها متناسبتان في الوزن ومتماثلتان في السجع تماثلاً قريباً.

وهذا الدعاء من العناصر المؤثّرة عند الطلب والموعظة، سواء كان الدعاء لمن استجاب أم الدعاء على من خالف وعصى، فإنّه من جملة أساليب الترغيب والترهيب، وهي مؤثّرة في نفوس المخاطبين طبعاً.

وقد ختم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خطبته بهذا الدعاء، وذلك يزيد في بلاغة الكلام؛ لأنّ حسن ختام الخطبة يزيد في حسن الخطبة وروعتها، كما هو ظاهر.

وقد جاء في بعض الروايات الموثوقة إضافة: (وانصر من نصره، واخذل من خذله)، وهذه الجملة الأخيرة ذات مدلول أوسع من قوله: (وعادِ من

عاداه)، لأنّ من يخذل الإمام (عليه السلام) قد ينطلق في خذلانه من عداء وحساسية تجاهه فيندرج موقفه في المعاداة، وقد ينطلق من التثاقل في أداء التكليف والمسامحة في نصرة الحق والمجاملة لأهل الباطل فلا يكون موقفه معاداة، ولكنّه يكون خذلاناً.

ومن مصاديق خذلانه (عليه السلام) في زمان حكومته عدم مبايعته من مثل سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، وكذا عدم الاستجابة له مِن قبل مَن استنهضهم للقتال ممّن شكا منهم في خطبه.

ومن مصاديق خذلانه قبل ذلك خذلان القوم له بعد السقيفة حيث امتنع عن بيعة أبي بكر، وهو يرمز إلى أنه لا يرى شرعيّتها، ولو استطاع أن يعيد الكَرّة لفعل، ولكن لم يجد أنصاراً، وفي بعض الأخبار التاريخية ما يدلّ على أنّه طرق أبواب رجال من الأنصار ليلاً لكي ينصروه فاعتذروا بأنّهم لن يستطيعوا ذلك بعد مبايعتهم لأبي بكر[1]، وكان ذلك عرفاً قائماً لدى القبائل العربية وهو أن من بايع يجب أن يثبت على البيعة وإن لم تكن على أساس صحيح.

وكذلك من مصاديق خذلانه هو وقوف عثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله ضده في الشورى السداسية.

---

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي حديد المعتزلي): ٦/ ١٣.

ومن الخطأ أنّ بعض المحدّثين[١] النقّاد رجّح أن تكون هذه الجملة الدعائية الثانية: (وانصر من نصره، واخذل من خذله) زيادة من الراوي وفق ما فهمه من فحوى الجملة الأولى: (اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه).

ووجه الخطأ: أنّ من المعروف عند المحدثين النقّاد أنّ الزيادة من الثقة يؤخذ بها ما لم ينفِها الحديث الخالي عن الزيادة نفياً يساوق إثبات الزيادة صريحاً في الحديث المشتمل عليها، لأنّ الراوي قد يقتصر على نقل بعض الحديث من جهة كونه المقدار الذي علق بذهنه منه، أو من جهة أنّ شاهده في المقدار الذي نقله، أو لأجل الإيجاز، ولا ضير فيه ما لم يكن في ذلك إخلال ظاهر بمعنى المقدار الذي نقله، ومن هذا الباب تقطيع الحديث الرائج لدى المحدّثين حيث يقتصرون على نقل بعض الحديث لا تمامه، وقد وقع ذلك عند البخاري ومسلم في مواضع حيث نقلوا باقي الحديث في مواضع أخرى، ولكن لم ينبّهوا عليه في الموضع الذي حذفوا بعضه، كأن يقولوا في نهاية ما نقلوه: (الحديث) أو (إلى آخر الحديث) كما يفعله المتأخرون، كما وقع منهم في مواضع أخرى لم ينقلوا باقي الحديث أبداً، ولو في موضع آخر، وقد نبّه على ذلك شرّاح كتب الحديث، مثل شرّاح الصحيحين كابن حجر في فتح الباري، بل لوحظ أنّ بعض ما تركوه أو أبهموه لم يكن ملائماً في عدد من الحالات، لكنّهم لوّحوا إلى

---

(١) الألباني في السلسلة الصحيحة الجزء الرابع حول حديث الغدير.

ذلك عادة، لأنّ بناءهم عموماً ليس على النقد الصريح للصحيحين.

إذاً المفروض بحسب القواعد العلمية العامة وفق مبدأ التعويل على خبر الثقة التعويل على الزيادة وإثبات (وانصر من نصره واخذل من خذله)، ولذلك قد يظنّ أنّه انطلق في مسعاه للتشكيك في هذه الزيادة سعياً إلى عدم مساس الحديث بموقف من خذل الإمام (عليه السلام) من كبار الصحابة الذين كانوا شهوداً من دون شك على خطبة الغدير مثل سعد بن أبي وقاص.

يضاف إلى ذلك: أن هذه الجملة الدعائية الثانية في الحقيقة بسط لما ينطوي في أصل قوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) في الجملة الدعائية الأولى، وهي قوله: (اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه)، لأنّهما يدلّان على وجوب موالاته، ووجوب الموالاة لشخص يستتبع وجوب نصرته عند حاجته إلى النصرة كما هو ظاهر، كما أنّ الولاء بين أفراد القبيلة يقتضي نصرة بعضهم لبعض عند حاجته إليه، ولازم وجوب نصرة الشخص حرمة خذلانه، وهذا أمر بديهي.

ثمّ إنّ للدعاء الذي دعا به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مغزى وملاحن ذكية، وهي عدة أمور:

١. أن يقطع (صلى الله عليه وآله وسلم) اعتذار من عادى علياً (عليه السلام) وخذله بعذر يزينه لنفسه أو للآخرين، فمن عادى الإمام وخذله بعد أن سمع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو بلغه كلامه على وجهه لم يكن له عذر يعذره الله سبحانه ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بتاتاً،

بل باء بغضب من الله ورسوله واستوجب عداء الله سبحانه وخذلانه في الدنيا والآخرة.

وكأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نظر إلى غيوب المستقبل الذي يزيّن فيه جماعة لأنفسهم الشبهة في عداء الإمام (عليه السلام) أو خذلانه، كما فعل الخلفاء الثلاثة بإبعاده (عليه السلام)، وكما فعل طلحة والزبير وعائشة وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص بمحاربته والخروج عليه أو اعتزاله.

وأعجب من ذلك أنّ جماعة من بعدهم قالوا إنّهم مجتهدون تحرّوا الحق والعدل فإن أخطؤوا فلهم ـ على بغيهم وقتلهم وقتالهم للإمام (عليه السلام) ومعاداتهم إياه وخذلانهم له (عليه السلام) ـ أجر واحد!

وكيف يكون ذلك؟! وهؤلاء جميعاً من حاضري واقعة الغدير، وهم مشمولون بدعاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على من عاداه وخذله، وليس السرّ في هذا الدعاء إلا قطع معاذير المفتونين والمشتبهين من الحاضرين، لأنّهم شهدوا الحق وعرفوه وتنكّروا له وحاربوه.

٢. إنّ الدعاء بعداء الله سبحانه المطلق على المسلم هو أشد دعاء يمكن أن يدعى به على امرئ مسلم، وهو فوق اللعن الذي ورد في القرآن الكريم وفي

السنة النبوية في شأن بعض أصحاب الكبائر كالقاذف للمحصنات[١]، وذلك أنّ اللعن هو الطرد من رحمة الله تعالى، وأمّا العداء فهو يزيد على ذلك.

بل الظاهر أنّ الله سبحانه لن يعادي المؤمن بحال، نعم قد يخذله ـ بمعنى أنّه لا ينصره ـ إذا استحق الخذلان كما قال تعالى خطاباً للمؤمنين: ﴿**وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ**﴾[٢]، ولذلك لم يرد إثبات عداء الله سبحانه في القرآن الكريم إلا للكافرين أو المنافقين كما قال سبحانه: ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ**﴾[٣]، وقال عزّ من قائل: ﴿**تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾[٤]، وقال جل جلاله: ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿**يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ**﴾[٦]، وقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾[٧]، وقال جلّ جلاله: ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ**﴾[١]،

---

(١) في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾ (سورة النور: آية ٢٣).

(٢) سورة آل عمران: آية ١٦٠.

(٣) سورة البقرة: آية ٩٨.

(٤) سورة الأنفال: آية ٦٠.

(٥) سورة التوبة: آية ١١٤.

(٦) سورة طه: آية ٣٩.

(٧) سورة الممتحنة: آية ١.

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[٢].

٣. وعليه قد يكون المفهوم من ملاحن الدعاء بمعاداة الله تعالى اعتبار من عادى الإمام (عليه السلام) ـ ولم يُشبَّه عليه ـ خارجاً عن حدّ الإيمان بالله سبحانه وبالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهو وإن كان مقراً بالله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ظاهراً لكنه لا يكون مؤمناً حقيقة؛ لأنّه آمن ببعض دون بعض، فهو منافق، وذلك لاستبعاد الدعاء على المؤمن بأن يخرجه الله سبحانه من الإيمان، فمن دُعي عليه بمعاداة الله فهو مستوجب له بخروجه من الإيمان قبل أن يشمله هذا الدعاء.

٤. وتفريعاً على ذلك فقد يرجح أن يكون الدعاء بمعاداة الله سبحانه إخباراً في صورة الدعاء إظهاراً للنفور من المدعو عليه من قبل الداعي كالدعاء على الكافرين الجاحدين باللعن والعذاب الذي يعلم الداعي بتحققه في حقهم لا محالة، ومجاراة مع قوله: (اللّهم وال من والاه) و(انصر من نصره) و(اخذل من خذله)، فالمراد أنّ الله تعالى سوف يعادي من عاداه لأنّه ليس بمؤمن، بل هو جاحد لِمَا بلّغه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعليه لا بدّ أن يكون المراد بالمعاداة الجحود لولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الدين لا مجرد مخالفته (صلى الله عليه وآله وسلم) عملاً، اللّهم إلا أن

---

(١) سورة فصلت: آية ١٩.

(٢) سورة فصلت: آية ٢٨.

يكون التعبير بمعاداة الله سبحانه في الخطبة توسعاً، وليس على حدّ الإطلاقات القرآنية بعداء الله تعالى للكافرين، ويكون المراد بها أن يعاملهم معاملة أعدائه بمعاقبتهم وعذابهم.

٥. وقد يكون من ملاحن هذا الدعاء إشعاره بالحصر، فالحاضرون في المشهد المذكور ـ ومن في حكمهم ممن بلغه بغير شبهة ـ بين مستجيب لما عقده (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام (عليه السلام) من الولاء فهو موال له، أو غير مستجيب فهو معاد له، والمراد بالاستجابة هو أصل التولي، وليس الطاعة التامة، فمن لم ينصره وخذله تقاعساً مع الإذعان بولائه فهو قد لا يندرج في المعادين، ومن لم يتولاه ولم يقرّ بولائه كما كان يقرّ بولاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فذاك من المعادين.

٣١. صياغة الخطبة على وجه مفهم بليغ، ولكن على وجه سليم عن مساعي الإخفاء والتحريف

العنصر الواحد والثلاثون: صياغة الكلام على نحو بليغ ومفهم لكن على وجه يبقى محفوظاً ويسلم من مساعي الإخفاء والتحريف.

وهذا العنصر قد يطرح في مقام الجواب على سؤال، ومحصّله أنّه لماذا لم يضع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الخطبة بأقصى حدود الصراحة فيقول: إنّ علياً خليفتي عليكم من بعدي، وسوف يلي أموركم بعد وفاتي كما كنت أليها، ويجب عليكم طاعته مثلما وجب عليكم طاعتي؟

وهنا جوابان عن هذا السؤال:

الجواب الأوّل: أنّ تعبير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الخطبة قد جاء تعبيراً وافياً بليغاً مفهوماً، وهو أسلوب تعبيري ملائم في ذلك العصر، وليس في تولد الشبهة في مدلول هذه الخطبة لاحقاً ما يقتضي ترجيح تعبير آخر كي يكون ذلك منبّهاً على عدم نظره (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى عقد الولاء للإمام (عليه السلام) على حد ولائه على المسلمين.

ولو صحّ مثل هذا السؤال لصحّ في أمثاله، فيقال مثلاً إنه لو لم يكن لله سبحانه ما يصحّ أن يعبّر عنه بالوجه واليدين فلماذا وقع مثل هذا التعبير الموهم للتجسيم، وإذا لم يكن الله سبحانه هو الفاعل الحقيقي لأفعال العباد فلماذا يقول في القرآن الكريم إنه ﴿**يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ**﴾[1]، وهكذا، فما يقال في مثل هذه الموارد يقال بعينه هنا.

والجواب في ذلك كله: أنّ التعبير الوارد في النصوص تعبير طبيعي ووافٍ وبليغ لمن وعى معنى الكلام، وليس في الاقتراحات المبنيّة على الشبهات الحادثة ما ينبّه على فهم الكلام على وجه مختلف بتاتاً، ولا يكشف حقيقة ولا يمثّل عدولاً ذا مغزى.

والجواب الآخر: أنّ بيان الخطبة هو بيان صريح فعلاً، ولكن بنوع من

(١) لاحظ مثلاً: سورة الرعد: آية ٢٧.

الصراحة المتعارفة التي لا تمنع من إقرار الخصم بالكلام، ولكنه يسعى إلى تأويله، وليس بالصراحة التي توجب اهتمامه بإخفاء الكلام وتحريفه وعدم بلوغه على وجهه للآخرين.

بيان ذلك: أنّ التصريح هو أن يصاغ الكلام على وجه لا يحتمل وفق دلالاته الواضحة معنىً آخر لدى المخاطبين، ويمكن أن يكون على نحوين:

أحدهما: التصريح الاعتيادي الذي يُفهم الكلام للمخاطبين بدلالة واضحة، لكن يتأتى التكلّف في صرفه عن معناه بتحميله معنى آخر بوجه من وجوه التكلّف والتأويل غير المستساغ، فقبول الكلام للتأويل غير المستساغ لا يعني أنّه ليس بصريح في معناه، بل قد يكون المعنى ملء الكلام أداء وسياقاً، ولكنه مع ذلك يتأتى لمتكلفٍ أن يؤوله، ولذلك قد لا يأبى السامع للكلام عن الإذعان به ونقله للآخرين إذا اضطر إلى ذلك، ولكنه يؤوله، وقد يستقر التأويل كعرف قائم ويخفى على عامة الناس المنساقين للاتجاه الخاطئ وجه التكلّف فيه.

والآخر: التصريح غير الاعتيادي الذي لا يمكن صرف الكلام عن معناه الصريح، ولا سبيل تجاهه لمن يأبى الإقرار بالمعنى المصرّح به إلا أن يُخفي أصل النص أو يحرّف لفظه.

وبالالتفات إلى ذلك فقد يطرح أنّ خطبة الغدير وإن كانت صريحة في ولاء الإمام (عليه السلام) صراحة مؤكدة ومفهمة، لكن مع ذلك اختير أداؤها بأسلوب

صريح قابل للتأويل المتكلف غير المستساغ، وذلك كي تسلم عن التعرض للكتمان أو التحريف، فيتم نقلها إلى الآخرين فتكون حجة على الجميع.

فالموجب إذاً لعدول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في صياغة الخطبة عن مثل الصيغة الصريحة للغاية المقترحة هو اهتمامه بوصول قوله هذا إلى عامة الناس على وجهه حتى تحفظ به الحجة على الجميع[1].

(١) وبيان هذا الطرح على وجه تفصيلي يقتضي تقديم مقدمة تشتمل على أمور:

١ – إنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ حسب ما تدل عليه شواهد متعددة في سيرته وأقواله ـ كان معنياً بانتقال مواقفه بشكل خاص إلى الغائبين والأجيال اللاحقة من بعده، وقد جاء في خطبة له (صلى الله عليه وآله وسلم): (رحم الله من سمع مقالتي فوعاها وبلّغها، فرُبّ حامل فقه وليس بفقيه، ورُبّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ألا فليبلغ الحاضر الغائب).

وهذا التوجه يماثل توجهه في الاهتمام بحفظ القرآن الكريم، فقد اتخذ له كَتَبَة من الصحابة وشجّع على تعليمه حتى أصبح تعليماً عاماً في الإسلام، كما شجع على حفظه وحذّر من النسيان من كان قد حفظه، واهتمّ بنشر الكتابة بين المسلمين حتى جعل فدية عدد من أسارى بدر من المشركين تعليم كل واحد الكتابة لعشرة أشخاص في المدينة.

والواقع أنّ هذا التوجه تجاه القرآن الكريم كان في الأصل من الله سبحانه، لأنه سبحانه أنزله منذ بدأ بإنزاله على أنّه كتاب من الله تعالى، ومعنى ذلك أنّ شأنه أن يكتب ويحفظ كما كان حال الكتب، وكذلك كان الأمر في الرسالات السابقة كما يُعلم من القرآن الكريم، ولذلك كانت الرسالات الإلهية من العوامل المحفّزة على الكتابة في المجتمع البشري، وكان أهلها من النخبة المتعلّمين للكتابة في مجتمعاتهم على ما يحدث به التاريخ، والداعي إلى ذلك حفظ الكتاب على وجه موثوق للأجيال القادمة على وجه تقوم به الحجّة.

٢- إنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ كما تدل عليه الأدلة الواضحة والمتفق عليها من أقواله ـ كان يعلم بما سيحدث من الفتن من بعده ومن استبعاد أهل بيته، فقد أخبر عن افتتان أصحابه من بعده على وجه عام على سبيل الإجمال، كما أخبر عن فتن تتعلق بفترة حكم الإمام عليّ (عليه السلام)، وأخبر عن قتال الإمام (عليه السلام) على تأويل القرآن الكريم، كما كان يعلم بطبيعة الحال أنه سوف يُكذب عليه، وأنه سوف يتم تحريف أقواله، وهو أمر طبيعي لكل شخصية مثله كما يعلمه أهل الاطلاع والمعرفة.

٣- إنّه من المتوقع ـ في مثل هذه الحالة من افتتان الأمّة من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) وإعراضهم عن أهل بيته (عليهم السلام) ـ أن تُحجَب النصوص النبوية بحق أهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام) عن الأمّة تماماً، وهو ما اتفق بمنع نقل الحديث وتدوينه في زمان أبي بكر وعمر وعثمان، ولذلك لم تبدأ حكاية الأحاديث النبوية في هذا الشأن إلا في زمان خلافة الإمام (عليه السلام) بعد أن حدّث بها في خطبه، وكان قادراً على ذلك إذ كان خليفة المسلمين.

ويجد الباحث المتتبع شواهد تاريخية على أنّ ما روي من أحاديث الصحابة حول أهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام) يرجع تاريخها إلى ما بعد خلافة الإمام (عليه السلام)، سواء كان في زمان خلافته أو بعد وفاته، فهذا حديث الغدير قد أحياه الإمام (عليه السلام) في الكوفة باستشهاد الصحابة الحاضرين في اجتماع الرحبة فشهد به عدد غير قليل منهم، قيل: إنهم بلغوا ثلاثين، وأخفاه ثلاثة دعا عليهم الإمام (عليه السلام)، وقد جاء هذا الحديث عن جماعة من الصحابة تدل الشواهد أنه كان بعد إبلاغ الإمام (عليه السلام)، فقد رواه سعد بن أبي وقاص، ويبدو أنه أخبر به عندما سأله معاوية عن سبب امتناعه عن سب الإمام (عليه السلام)، فذكر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال فيه أقوالاً أربعة هي أحب إليه من حمر النعم: أحدها قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

وجاء الحديث أيضاً عن زيد بن أرقم بعد أن أصبح شيخاً كبيراً وكان في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) شاباً، وذلك كان بعد خلافة الإمام (عليه السلام) بل يبدو أنه كان بعد وفاته.



وكذلك جاء عن ابن عباس نقله إياه عندما خرج من عنده قوم يبدو أنهم كانوا يقعون في الإمام عليّ (عليه السلام)، فلما خرجوا أبدى استغرابه من أن يقولوا ذلك في رجل قال فيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أقوالاً منها قوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

وبعد الإمام عليّ (عليه السلام) سعى معاوية عند سيطرته على الحكم إلى أن يمحو فضائل الإمام (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام) على ما هو معروف في سيرته وأحواله، إلا أنه لم يستطع ذلك، بعد أن نشرها الإمام (عليه السلام) بعض الشيء عند توليه للخلافة، وانتشار التشيع له في الكوفة في أثر ذلك، بل إن الانتقاص الظالم من قبل معاوية وولاته من الإمام (عليه السلام) وسعيهم إلى جعله سنة عامة في أوساط المسلمين رسّخ الشعور بظلم الإمام (عليه السلام)، وأدى إلى نقل بعض الصحابة الساكتين عن نقل فضائله لبعضها كما لاحظنا في موقف سعد بن أبي وقاص وزيد بن أرقم.

وساعدت مظلومية أهل البيت (عليهم السلام) لا سيما الإمام الحسين (عليه السلام) على انتشار الأحاديث النبوية في حقهم لا سيما في أوساط أهل الكوفة.

٤- هذا، ولكن لا غنى عن أن ينقل الأحاديث النبوية بحق أهل البيت (عليهم السلام) غيرهم من الصحابة كي يوجب وثوق الناس بها، ولا يكفي نقل أهل البيت (عليهم السلام) لها، بل يكونون عرضة للتكذيب إذا انحصر نقلها بهم، كما كان يكذبه (عليه السلام) بعضُ أهل الكوفة الذين تربّوا في زمان الخلفاء الثلاثة في بعض قوله، ولا يصدقونه، كما جاء في بعض خطبه في نهج البلاغة.

إلا أنه ليس من المعقول أن ينقل الصحابة كلاماً عن عقد الأمر للإمام عليّ (عليه السلام) على وجهٍ لا يجدون له تأويلاً بتاتاً ينسجم مع استبعاد أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ يكون ذلك إذعاناً على أنفسهم بتحريف الدين، ويكون فضيحة في أوساط سائر المسلمين.

فما هو الحل في مثل هذه الحالة؟

٥- الحل هو اختيار أداء الكلام بأسلوب بليغ مفهم لمن حضر ولمن وعى وطلب الحق، ولكن يستطيع المنكر للحق أن يلويه ويؤوله، فينقله الناقلون المعرضون عن الحق إذا اقتضى الأمر ظناً

أنّ مدلول الحديث ينسجم مع الأمر الواقع بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، لا مجال لغير ذلك، فيكون حجة لأهل الفطنة وبلاغاً للنابهين.

وهذا هو الطريق الذي سلكه الإمام عليّ (عليه السلام) في خطبه بين أهل الكوفة، على ما يظهر مما أثر عنه في كتب سيرته وما حكي من أقواله في نهج البلاغة وغيره.

فهو (عليه السلام) قد نزل الكوفة وكانت قد أُنشأت في عصر عمر، وكان الشيخان أبو بكر وعمر يُقدَّسان فيها ويتمسك أهلها بسنتهما، فبدأ في خطبه بالتذكير بامتياز أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمّة بتعابير وافية ومفهمة لمن وعاها لكنها غير موقظة لمن غفل عنها ونزلها على ما ينسجم مع واقع الحال، وقد تكرر ذلك غالباً بين ثنايا خطبه مسبوقاً وملحوقاً بأغراض أخرى، فهو يقع بينها، كقوله في أواخر كلامه بعد عتاب أهل الكوفة على عدم الاستجابة لدعوته إلى الجهاد: (انظروا أهل بيت نبيكم، فالزموا سمتهم، واتّبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا)، ثم أثنى بعده على أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: (لقد رأيت أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فما أرى أحداً يشبههم منكم، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً..) إلى آخر كلامه (عليه السلام).

فهذا الأسلوب من الكلام كان يؤثر في الناس حسب مقدار وعيهم..

فمنهم: من ثبت على سنة الخلفاء تماماً، وحملها على وجوب محبتهم ومودتهم فحسب من غير زيادة على ذلك.

ومنهم من رأى أنها تدلّ على مزيد علمهم وفضلهم.

ومنهم من اهتدى إلى ما يؤديه فعلاً من اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) من عند الله تعالى فاعتقد أن خلافة الخلفاء لا تصحّ إلا في حال موافقتهم، ولكن اعتقد أنّ الإمام (عليه السلام) وافق على ذلك.

ومنهم من رأى أنّ الإمام (عليه السلام) يشير بذلك إلى نفسه فلا يعمّ ذريته.

ومنهم من فهم أنّ ذلك إنما يعني الجانب السياسي، فالحكم يكون فيهم.

والذي نؤكّد عليه تأكيداً بالغاً ونرى أنّه لا ينبغي الشك فيه بتاتاً أنّ خطبة الغدير كانت مفهمة للحاضرين ووافية وصريحة دون خفاء، ولا تزال كذلك لمن لم يقع في الشبهة جرّاء رسوخ العقائد المنافية لها والمجادلات التي أثيرت

واهتدى جماعة إلى أنّ هذا يعني اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمة في العلم والحكم والتسديد ولا شرعية لحكم غيرهم على الأمّة ممن سبق الإمام (عليه السلام) وهو ما يسمى بالرفض، وهذا كان هو المفاد الحقيقي لهذه الأقوال على ما يجده السامع إن لم يكن قد رسخ في ذهنه اتجاه مغاير.

وقد نقل أقوال الإمام عليّ (عليه السلام) هذه رجالٌ عامتهم ليسوا من أهل الرفض لخلافة الخلفاء وإن كانوا شيعة للإمام (عليه السلام) بمعنى عام ومحبين له على وجه خاص لما يشهدونه من فضله وعلمه وعلموه من سوابقه وأحواله، وليس ذلك إلا لأنهم كانوا يجدون في نفوسهم مخرجاً عن دلالتها على ما يوجب رفض الخلافة.

إذا عرفت هذه المقدمة: فقد يُبنى على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتحرى الكلام البليغ المفهم في حق أهل البيت (عليهم السلام) وفي حق الإمام عليّ (عليه السلام) ولكن على وجه يجد من يضطر إلى نقله مخرجاً في حكايته.

وهكذا كان واقع الحال، فإن كثيراً من جمهور المسلمين إنما نقلوا حديث الغدير والثقلين من جهة أنهم وجدوا في أذهانهم مخرجاً تصحّ معه الخلافة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا يتعين الرجوع إلى أهل البيت (عليهم السلام) في أمور الدين، ولو أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) صاغ الكلام صياغة لا تحتمل الشبهة والتأويل كما لو قال: (إنّ علياً هو إمام هذه الأمة من بعدي، وخليفتي عليها، فمن تولى الأمر دونه كان غاصباً ظالماً)، فإنه فضلاً عن احتمال نشوب اضطرابات ـ ولو بعد وصوله إلى المدينة ـ كان من المتوقع أن يصبح نصاً متروكاً لا ينقله مثل سعد بن أبي وقاص وزيد بن أرقم وغيرهما.

حولها، وليست ضرباً من الملاحن والتورية التي يقتصر فهمها على أهل الفطنة فحسب كما تبيّن من تضاعيف ما تقدم.

والعمدة فيما يوجب صراحة النصّ ـ فيما يُعتقد ـ أن تضاف كلمة (بعدي) في الجملة، فلو أضيفت هذه الكلمة لاعتبر الكلام صريحاً دون شك، ولكن الواقع أنّ هذه الكلمة مفهومة بوضوح من الخطبة؛ لأنّها وصية، ولأنّها تتضمن ذكر ما خلّفه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الأمّة، ولأنّها ذكرت أهل البيت (عليهم السلام) مع القرآن دون نفسه الكريمة، ولأنّها دلّت على ثبوت الولاء الثابت له (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) ولا يكون ذلك إلا بعد موته (صلى الله عليه وآله وسلم)، وليس من المهم بعد هذا الوضوح والصراحة عدم استعمال كلمة (بعدي) ولا عدم التعبير بالخليفة.

توضيح واستنتاج

هذه جملة من الأساليب الأدبية التي تضمّنتها خطبة الغدير لبيان مكانة أهل البيت (عليهم السلام) والولاء للإمام علي (عليه السلام) على ما بدا بالتأمّل فيها.

وقد وردت هناك خصائص أخرى تستوجب التأمّل والتوضيح من قبيل ما جاء في بعضها من أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصى بأنّ يبلّغ الشاهد الغائب، وهو اهتمام مؤكد بإبلاغ الأمّة جميعاً.

وقد اتضح بما ذكرنا أمور:

١. إنّنا لاحظنا من خلال ما تقدم أنّ الخطبة استوفت جميع الأدوات

والأساليب المساعدة على التركيز والاهتمام والإقناع في الحوادث والنصوص، واقتصرنا فيها على متن الخطبة وفق حكاية صحيحة ومقبولة عند النقّاد، ورغم طول هذا البحث بعض الشيء إلا أنّنا لم نسعَ إلى تفصيل ما يحتمله الموضوع من الشرح والتوضيح والتنبيه على النظائر والأمثال.

٢. إنّ الباحث يزداد ثقة بهذه الخطبة على ضوء ما ذكرناه، لأنّ نوع الأساليب الأدبية المستخدمة لن يتأتى من عامة الرواة، إذ لا يرتقون في بلاغة الكلام إلى هذا المستوى العالي والجامع والعميق، فلا يتّجه بحالٍ احتمال وضع بعض الرجال الضعفاء ذوي الميول الشيعية مثلاً هذه الخطبة بتاتاً، لأنّ المتكلم العادي فيها إذا أراد أن يؤكّد على معنىً ما فإنّه قد يستخدم أدوات اعتيادية للتأكيد مثل التصريح والتكرار، ولا يهتدي إلى صياغة الفكرة وتنميتها وتفريعها على نحو ما يتأتى من المتكلم البليغ.

هذا، مضافاً إلى انتفاء هذا الاحتمال في نفسه حتى على أشد المناهج تشدداً في قبول الأحاديث الواردة في شأن مكانة أهل البيت (عليهم السلام) والذي يبلغ إلى درجة الوسوسة والحذر غير المعتاد سواء من جهة سوء الظن بالرواة المعروفين أو من جهة ما يُعتبر نقداً للحديث من حيث مضمونه، فإنّ شيئاً من ذلك لا يمنع من الوثوق بهذا الحديث وفق معلومات علم الجرح والتعديل وقواعد اعتماد الحديث في علم الدراية حسب مجموع شواهد هذه الواقعة والنظر في أحوال رواتها كما تقدم ذلك.

٣. إنّ السبب الأساس في بقاء هذه الواقعة وخطبتها هو صياغة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لهذه الواقعة زماناً ومكاناً وموضوعاً على وجه يبقى حدثاً تاريخياً مميزاً وشاخصاً في الأذهان، كما صيغت خطبتها بصياغة لغوية وبلاغية مميزة من قبيل السهل الممتنع واشتملت في ركنيها ـ الركن المتعلّق بمكانة أهل البيت والركن المتعلّق بالإمام عليّ (عليه السلام) ـ على تعبيرين موجزين فريدين يعلقان بالذاكرة هما (التمسك بالثقلين) و(من كنت مولاه فعلي مولاه).

٤. إنّ صياغة هذه الواقعة وخطبتها تدلّ بالنظر إلى العنايات الأدبية الأسلوبية والبلاغية على خطورة موضوعها في منظور النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي أوساط الحاضرين.

هذا، ومن الجائز أن يغفل بعض الناظرين في الكلام عن فهم العنايات الكلامية وراء ترتيب المشهد وصياغة الكلام بالنظر إلى كون النص تاريخياً، فهو يتلقى المشهد الذي صدر فيه الكلام والكلام نفسه تلقياً اعتيادياً، فلا ينتقل إلى الدلالات الكامنة وراء الترتيبات المختارة للحدث ووراء الأساليب المستخدمة والمفردات المنتقاة لصياغة الكلام.

ولكن الناظر النابه لا يغفل عن ذلك، بل يكون حاله بالعكس، فهو يجعل الحدث بخصوصيات ترتيبه والكلام بخصوصيات صياغته وأساليبه مرآة لأحوال المخاطبين والحساسية التي كانت في أوساطهم في شأن الحديث في هذا الموضوع ممّا استوجب صياغته على هذا الوجه الخاص.

ولولا ذلك لاتجه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الكلام وهو في الطريق في موضعه هو، واقتصر بدلاً عن خطبة الغدير على ذكر جملتين، وهما: (عليكم التمسك بأهل بيتي فإنه يقي من الضلالة، والولاء لعلي (عليه السلام)). فلماذا يهتم (صلى الله عليه وآله وسلم) بعقد الخطبة ويجمع الناس في المسير ويبتدئ بالتذكير بالله سبحانه والدار الآخرة والبعث والنشور والحساب والجنة والنار، ويُقر الحاضرون على ذلك؟ ولماذا يقرن أهل البيت (عليهم السلام) بالقرآن الكريم وما يتعلق بتفريعات هذا المعنى؟ ولماذا يستفيض في ذكر أضداد التمسّك بهم فينهي عن تقدّمهم وعن التأخّر عنهم وعن تعليمهم؟ ولماذا يذكر أوّلاً أولويته بالمؤمنين من أنفسهم ويقرّهم على ذلك؟ ولماذا يربط ولاء عليّ (عليه السلام) بولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) ويجعله منه قائلاً: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)؟ ولماذا يدعو بعد إثبات الولاء لعلي (عليه السلام) بولاء الله تعالى لمن والاه وعدائه سبحانه لمن عاداه؟

فهذه الأمور في الخطبة هي علائم أدبية واضحة للناظر البليغ النابه على حساسية الموضوع وخطورته في أجواء الحاضرين من حيث عدم شعور فريق بأهميته وصعوبة تقبّله من قبل فريق آخر.

إذاً كان ما أضافته هذه الخطبة في مضمون الدين من نصب أهل البيت (عليهم السلام) أعلاماً للهداية وعقد الولاء الخاص للإمام عليّ (عليه السلام) هي إضافة نوعية مهمة وخطيرة في الدين من قبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في آخر أيامه كما أعلنه بنفسه، وليس من قبيل التكاليف المعهودة كالصلاة والصوم والزكاة والحج

وغيرها مما جرى تبليغها والتأكيد عليها طيلة سنوات الرسالة وتواترت فيها النصوص القرآنية والنبوية وجرى عليه عمل الناس بإشراف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلم يكن بدّ من تثبيت هذا المبدأ وترسيخه من استخدام كل الأدوات المتاحة لإبراز خصوصيته وأهميته في الدين ودرء الشبهات والشكوك عنه وتثبيته في نفوس الحاضرين.

فهذا توضيح عام لهذه الواقعة وخطبتها، والتركيز على فهم معاريضها وملاحنها، وسيأتي في الإيضاحات المقبلة التركيز على دلالات الخطبة وملابساتها على وجه أكثر تفصيلاً.



الإيضاح الرابع

واقعة الغدير ودلالة الأمر بالتمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) على اصطفائهم (عليهم السلام) في الإسلام

١- ثبوت فقرة الثقلين في خطبة الغدير وسائر مواردها.

٢- دلالة هذه الفقرة على امتياز أهل البيت (عليهم السلام) عن سائر الأمّة بعدم وقوعهم في ضلالة أبداً.



٣- مساوقة عصمة أهل البيت (عليهم السلام) من الضلالة مع اصطفائهم في الدين.

٤- عظمة قرن أهل البيت (عليهم السلام) بالقرآن الكريم.

٥- التأكيد البالغ في الخطبة على التمسك بأهل البيت (عليهم السلام).

٦- دلالة الخطبة على وقوع الفتن التي كان قد أخبر بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

من بعده جرّاء عدم التمسك بأهل بيته (عليهم السلام).

٧- عدم تمسّك الأمّة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأهل البيت (عليهم السلام).

٨- دلالة لحن الخطبة على أجواء غير مستجيبة بين الحضور للتمسك بأهل البيت (عليهم السلام).

٩- دلالة الخطبة على وجود إمام هدى حي من أهل البيت (عليهم السلام) دائماً

١٠- دلالة الخطبة على مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) في معرفة سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسيرته.

١١- دلالة الخطبة على أنّ خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إنّما هي في أهل البيت (عليهم السلام).

١٢- إنّ أهل بيته (عليهم السلام) في الحديث هم الإمام عليّ ورجال متعاقبون من ذريته وذرية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

١٣- مكانة أهل البيت (عليهم السلام) قبل خطبة الغدير.

١٤- إحياء الإمام عليّ (عليه السلام) في خلافته لمبدأ صيانة أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمّة من الضلالة وجريان عترته على ذلك.

١٥- مساعي المناقشة والتحريف في فقرة الثقلين من خطبة الغدير

١٦- كلمات علماء أهل السنة في دلالة حديث الثقلين على امتياز أهل البيت (عليهم السلام)

الإيضاح الرابع

واقعة الغدير ودلالة الأمر بالتمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) على اصطفائهم (عليهم السلام) في الإسلام

إنّ واقعة الغدير ـ من خلال الفقرتين الركنين فيها ـ تضمّنت أمرين مهمين ومترابطين في الإسلام ـ كما تقدم منا ذكر ذلك ـ:

الأمر الأوّل: ـ وهو الفكرة الأمّ ـ الإعلان عن انفراد أهل البيت (عليهم السلام) عن سائر هذه الأمّة في الهدى، وهو يعني اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الإسلام، وفرض هذا المبدأ اعتقاداً واتباعاً.

وهذا الأمر اشتملت عليه فقرة الثقلين، وقد نعبّر عنه بفقرة الهدى في مقابل فقرة الولاء، وقد جاءت هذه الفقرة في الخطبة أوّلاً حيث جاء فيها: (فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين، فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: كتاب الله طرف بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلوا، والآخر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، وسألت ذلك لهما ربي، فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تتأخروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم).

الأمر الآخر: ـ وهو التفريع ـ عقد الولاء الخاص للإمام عليّ (عليه السلام) فيها

على حد الولاء الثابت للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو الجانب الذي غلب على هذه الواقعة وعُرفت به.

واشتملت على هذا الأمر الفقرة التي نعبّر عنها بفقرة الولاء، وهي قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

وفي هذا الإيضاح نركز على توضيح الأمر الأوّل.

والواقع أنّه يمكن القول إنّ دلالة هذه الفقرة على مكانة أهل البيت (عليهم السلام) لهي دلالة واضحة وبيّنة جداً، فالتمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) للأمن من الضلالة يعني أنّهم قد نُصبوا أعلاماً للهداية في هذه الأمّة، فهم قادة الأمّة إلى الحق والهدى والرشد في أمور دينها وفي جميع شؤون حياتها، وإنّ المرء ليعجب من إهمال هذه الفقرة أو التوقف في دلالتها ومن تصحيح السيرة الجارية على غير مقتضاها من قبل أهل الحل والعقد بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

لكن الحاجب الأساس عن فهم دلالتها هذه في الحقيقة هو جريان هذه السيرة نفسها التي لم تجعل أهل البيت (عليهم السلام) محوراً للهداية، واستبدلت بهم آخرين ممن تصدوا للخلافة أو كانوا من أنصارها ومواليها، فاستوجب ذلك التنكّر لهذا المدلول رغم وضوحه جداً.

ولتوضيح ثبوت هذه الفقرة ودلالتها نذكر هذه النقاط[١]:

١- ثبوت فقرة الثقلين في خطبة الغدير وسائر مواردها

النقطة الأولى:

إنّ فقرة الثقلين هي جزء ثابت من خطبة الغدير، إذ وردت فيها بالطرق الصحيحة والموثوقة، كما صحّ عن زيد بن أرقم على ضوء ما تقدم، بل صرّح غير واحد بأنّها متواترة، بل هناك من اقتصر عليها في متن خطبة الغدير فلم يذكر فقرة الولاء أصلاً، كما في اللفظ الذي اختاره مسلم في صحيحه لخطبة الغدير على خلل في نقله لهذه الفقرة سبق بيانه[٢]، وينبغي الانتباه في شأن هذه الفقرة إلى أمور:

١. قد جاءت هذه الفقرة قبل واقعة الغدير في مناسبة أخرى تقع في حجة الوداع أيضاً وقبل تسعة أيام، وهي خطبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعرفات كما جاء فيما أورده الترمذي[٣] وصحّحه هو وجمع من النقّاد، وهي أيضاً مناسبة جماهيرية إذ كان الحجاج جميعاً حضوراً فيها، وكان الحضور أوسع من الحضور في واقعة

---

(١) يلاحظ أنّ بعض هذه النقاط سيأتي مزيد بيان لها في إيضاحات مستقلة، إلا أنّ إيضاح المدلول الكامل لهذه الفقرة وتكميل الصورة الدلالية لها اقتضى التنويه بها ولو على وجه الإيجاز.

(٢) لاحظ: الإيضاح الأوّل والإيضاح الرابع العنصر ٢٤.

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٣٢٩.

الغدير؛ لأنّ هذه الواقعة كانت بعد خروج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مكة فلم يحضرها أهل مكة أو أهل الطرق.

وقد صحّ في الحديث أنّه وقعت فيها ضوضاء عند تطرّق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لكون الأئمة من قريش أو بني هاشم وهم اثنا عشر إماماً، والراجح أنّ إحداث الضوضاء حال دون سماع الحاضرين لصوت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وفهمهم لكلامه، ويرجح أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان بصدد الوصية بالولاء للإمام (عليه السلام) في تلك الخطبة، إلا أنّ ترقّب بعض الحاضرين وحدسهم لذلك وحيلولتهم دونه أدّى إلى تأجيلها إلى خطبة الغدير، كما سيأتي توضيح ذلك في الإيضاح الثالث عشر حول واقعة الغدير وسبب تأجيلها عن اجتماعات الحج في مكة قبل يوم الغدير.

وفي بعض الروايات أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ذكر ذلك بعد رجوعه من الطائف في السنة الثامنة للهجرة[1]، وإذا صحّ ذلك فيكون هذا أوّل مورد مأثور بدأ (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه بالوصية بالتمسك بأهل بيته، وذلك قبل وفاته بسنتين، وليس قُبيلها بشهرين ونصف كما هو الحال لو كان قد صدر منه في خطبة عرفات ثمّ في خطبة الغدير.

ولكن لا بدّ من مزيد استيثاق من صدور هذا الحديث منه آنذاك، لأنّ

(١) المصنف لابن أبي شيبة ٧/٤٩٨، وإن كان في صحته خلاف.

مضمون هذا الحديث ليس مقام بيان لأهل البيت (عليهم السلام)، بل هو وصية منه (صلى الله عليه وآله وسلم) متعلّقة بما بعد موته تتضمن إحلال أهل بيته (عليهم السلام) محل نفسه حيث لم يذكر التمسك بنفسه الكريمة على ما بيّناه من قبل[١]، وهذا الأمر يلائم صدور هذا الحديث منه قبيل وفاته كما في خطبة عرفات ثمّ الغدير، والله أعلم.

وفي بعض آخر من الروايات[٢] أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) ذكر ذلك لأصحابه في مرض موته وهو في حجرته، وهو بطبيعة الحال تأكيد منه على ما ذكره في خطبة الغدير وفي خطبة عرفات.

٢. إنّ الذي يبدو بحسب القرائن هو أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد أن يوصي بهذا القول كتباً في مرض موته فيما عرف برزية يوم الخميس[٣]، وهو حادث متفق عليه مروي في الكتب المنتقاة جميعاً كالصحيحين[٤]، إذ قال (صلى الله عليه وآله وسلم): ائتوني بقلم ودواة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده أبداً، فمنعه عمر وأنصاره، واتهموه بالهجر، وكان ابن عباس يبكي عند ذكر ذلك ويسميها برزية يوم الخميس، وقد توفي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الاثنين الذي بعده.

---

(١) لاحظ: الإيضاح الثالث العنصر ٢٥.

()٢ لاحظ مثلاً: أخرجه القندوزي عن ابن عقدة في كتابه: ينابيع المودة: ١/١٢٤، و٢/٤٠٣.

(٣) سيأتي في القسم الثاني من الكتاب إيضاح مخصص لهذا الموضوع بعنوان (واقعة الغدير وسعي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى تدوين ما أوصى به فيها كتباً في مرض وفاته).

(٤) لاحظ: صحيح البخاري: ٤/٣١، ٤/٦٥، صحيح مسلم: ٥/٧٥.

وينبّه على أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) قصد بذلك الوصية بالتمسك بالثقلين من بعده وحدة الفكرة والتعبير بين ما أراد أن يكتبه وهو: (ما لا يضلون بعده أبداً)، وبين ما ورد في فقرة الثقلين في خطبة الغدير وفي خطبة عرفات أيضاً حيث إنّه أوصى بالتمسك بالكتاب والعترة ما إن تمسكوا بهما لن يضلوا أبداً، ثمّ فرّع عليه عقد الولاء للإمام (عليه السلام).

كما أنّ جواب عمر رغم أنّه اتهام للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالهجر ـ وهو الكلام غير المعقول ـ يدلّ على أنّه فهم أيضاً أنّه أراد الوصية بالتمسّك بأهل بيته حذراً عن الضلالة والفتنة، ولذلك قال: (حسبنا كتاب الله)، ولو لم يعلم بذلك لم يكن هذا الجواب ملائماً، إذ ربما أراد (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يوصي بأمر خاص مما ورد في الكتاب يوجب التمسّك به صيانة الأمّة عن الضلالة.

وأنّ المسلم ليذكر موقف عمر هذا من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيتعجّب من هذه الجرأة والفظاظة مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وانتصار جماعة في محضر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعمر في مقابل أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو منبّه وموقظ لطبيعة تعامل هؤلاء مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومدى جرأتهم في الخروج عمّا يأمر به، وتزول بذلك بعض الافتراضات الخاطئة عن استبعاد تخلّف هؤلاء عن وصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بشأن أهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٣. إنّ هذا القول ـ نعني حديث الثقلين ـ روي على وجه مستقل في أخبار

أخرى، بمعنى أنّه لم يذكر في تلك الأخبار أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) ألقاه في سياق خطبة محددة، أوفي زمان أو مكان خاص، وقد يحتمل أن يكون نقلاً لما جاء في خطبة عرفات أو في خطبة الغدير، ولكن الرواة لم يذكروا ذلك، فإنّ الرواة ليسوا مقيدين بذكر زمان الحدث ومكانه كما هو ظاهر، وقد روي مكرراً في الأخبار فقرة الولاء (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) من غير ذكر كون ذلك في خطبته (صلى الله عليه وآله وسلم) في يوم الغدير، وعلى ذلك فليس هناك في هذه الروايات ما يقتضي تكرر هذا القول من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في غير الموارد المنصوصة.

فالحاصل إذاً أنّ الراجح هو صدور هذا الحديث من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجة الوداع في خطبة عرفات، ثمّ خطبة الغدير، ثمّ تأكيده عليه بعد شهرين وأيام في مرض وفاته وسعيه إلى تثبيته كوصية مكتوبة للأمة، وقد حيل بينه وبين ذلك.

٢- دلالة هذه الفقرة على امتياز أهل البيت (عليهم السلام) عن سائر الأمّة بعدم وقوعهم في ضلالة أبداً.

النقطة الثانية:

إنّ هذه الفقرة واضحة وصريحة في امتياز أهل البيت (عليهم السلام) عن سائر هذه الأمّة بعدم وقوعهم في ضلالة أبداً، فهم (عليهم السلام) لا يبتلون بالشبهة ولا يقعون في الفتنة، بل يبصرون الحق على وجه اليقين.

والمراد بالضلالة: أنّ يضل المرء عن الحق ويقع في الباطل، وهو يكون على

وجوه ثلاثة:

١. أن يتعمد الباطل فيصيبه، كما في القيادة المؤسسين للعقائد الخاطئة والفرق الضالّة.

٢. أن يشتبه عليه الأمر، فيغلب عليه هواه أو يتسرع دون تثبت، فيقع في الباطل، كما يقع فيه بعض العامة من الناس ممن يتبع أصحاب العقائد الخاطئة والقيادات الضالّة.

٣. أن يقع في الباطل من جهة قصوره وليس من جهة تقصيره، فهو أراد الحق ولكن شُبّه عليه ذلك، فلم تسعفه مداركه بأكثر مما وقع فيه، وقد قال الإمام عليّ (عليه السلام) في بعض كلامه (مَا كُلُّ مَفْتُونٍ يُعَاتَبُ)[1]، وهذا مما يقع فيه فريق من عامة الناس ممن لم يملك البصيرة اللازمة فيما اشتبه فيه ولا عرف صاحب بصيرة يتبعه ويأخذ بحجزته.

فهذا الحديث يدلّ على صيانة أهل البيت (عليهم السلام) عن الوقوع في الضلالة المستتبعة للهلاك في شيء من الموارد بتاتاً.

فهناك عصمة لهم عن الضلالة، وضمان لهم في إصابة الهدى وتأمين للأمة إذا تمسّكت بهم وبهديهم، وهذه تزكية لهم في الدين.

كما أنّه يدل على أنّ هذه الخاصية لأهل البيت (عليهم السلام) بين هذه الأمّة

(١) نهج البلاغة: ٤٧١.

حصراً، فكل من عداهم من أفرادها هم عرضة للوقوع في الضلالة، فلا تزكية في الدين لغيرهم بتاتاً، لا صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا أزواجه، ولا سائر قرابته، ولا من تصدى للخلافة، بل تلك خاصة لأهل بيته لا تعدوهم.

وكذلك يدل الحديث على أنّه لا بدّ أن تكون نسبة سائر هذه الأمّة إلى أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هي نسبة من تمسك بالشيء ـ كالعروة الوثقى ـ إلى ذلك الشيء، فهم محور هذه الأمّة ومركزها وملجؤها وهداتها، وإذا اختلف الناس في الرأي وجب على المسلم الانحياز إليهم والاستظلال برايتهم فإنهم راية الهدى.

وقد كرّر هذه المعاني كثيراً[1] الإمام عليّ (عليه السلام) بعد توليه للخلافة وقد هجر ذكرَها مَن قَبْله في زمان الخلفاء طيلة خمسة وعشرين عاماً هجراً تاماً.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في خطبة له (عليه السلام) خلال حرب صفّين أو بعدها يذكر فيها تقاعس أصحابه عن نصرته وتمسّك أصحاب معاوية به، تعرّض فيها لموقعه وموقع أهل البيت (عليهم السلام)، ثمّ أثني على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في عبادتهم وخوفهم من الله تعالى، قال: (وإِنِّي لَعَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، ومِنْهَاجٍ مِنْ نَبِيِّي، وإِنِّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ، أَلْقُطُه لَقْطاً. انْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ، فَالْزَمُوا

(١) لاحظ نماذج أخرى في إيضاح لاحق بعنوان (واقعة الغدير وإحياؤها من قبل الإمام عليّ (عليه السلام) في الكوفة).

سَمْتَهُمْ، واتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى، ولَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا، وإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا، ولَا تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، ولَا تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا، لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم)، فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً..)[1].

٣- مساوقة عصمة أهل البيت (عليهم السلام) من الضلالة مع اصطفائهم في الدين.

النقطة الثالثة:

إنّ عصمة أهل البيت (عليهم السلام) من الضلالة تساوق اصطفاءهم في الدين ونيلهم التسديد الخاص من الله سبحانه كما هو شأن المصطفين.

ولنذكر لبيان ذلك مقدمة: وهي أنّ الاصطفاء الإلهي يعني تفضيل الله سبحانه من يصطفيه على سائر الناس بهدايته سبحانه إياه وتسديده له ورعايته في أموره، حتى يسلم عن الخطأ والخطيئة.

وهذا الاصطفاء قد يكون في مستوى النبوة، وقد يكون من دونها نظير اصطفاء مريم بنت عمران، إذ جاء عنها قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾[2].

---

(١) نهج البلاغة: ١٤٢.١٤٣.

(٢) سورة آل عمران: آية ٤٢.

ومن صفات المصطفين المأمورين بهداية الناس:

أوّلاً: إيتاؤهم علم الكتاب المنزل، فإن كان المصطفى هو صاحب الكتاب كالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الإسلام فهو، وإن كان ممن يليه فإنه يؤتى علم الكتاب قسماً بالتعلم، وقسماً متمماً له بالإلهام والتسديد، ولذلك لا يصح للناس أن يكونوا في موضع التعليم لهم بحالٍ.

وثانياً: سلامتهم عن الشبهات والأهواء التي تؤدي إلى الزيغ في خياراتهم واتجاهاتهم في الحياة، فهم يكونون على بصيرة من أمرهم، مصونين من الزلة فيه، لأنّ هناك تأميناً إلهياً لهم عن الخطأ والزلل بخضوعهم لله تعالى وعبادته وسؤالهم إياه واستمدادهم منه، فهو يوجههم في مظان الزيغ والزلل كما قال سبحانه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾(١) وقال تعالى عن يوسف: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾(٢).

ولذلك لا يصحّ للناس أن يخطئوهم في شيء من اتجاهاتهم واختياراتهم في الأمور الاجتماعية والسياسية والقضائية، فإنهم إذا استقروا على شيء ولم ينبّهوا

---

(١) سورة الحج: آية ٥٢.

(٢) سورة يوسف: آية ٢٤.

على خلافه من قبل الله سبحانه بإلهام أو بسبب خارجي فهم مصيبون ومسددون لا محالة.

وهذه المنزلة تثبت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بحسب القرآن الكريم، فهو معلم الناس دينهم ومحدد الاتجاه الصائب لهم في دنياهم، فلا يصح للناس أن يخالفوه في شيء مما ذكره من أمور الدين في نفسه، أو الوظائف العملية كالحرب والسلم وغير ذلك.

وفي ضوء ذلك يُعرف أنّ مفاد فقرة الهدى في خطبة الغدير هو اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام)، وذلك لدلالة الحديث على أنهم ملازمون للهدى ومصونون عن الخطأ والخطيئة، وهذه صفة إذا تمّ تأمينها لأحدٍ في الدين فإنها علامة الاصطفاء.

بيان ذلك: أنّ وجوب طاعة شخص يكون على وجهين:

الأوّل: أن يكون على سبيل التأصيل فحسب بمعنى أنّه يكون ضرباً للقاعدة.

وفي هذا الوجه يكون وجوب طاعة الشخص في الدين محدوداً بما لم يحرز خطؤه، وهذا كما هو الحال في قول من تجب طاعته من جهة خبرته فحسب كالطبيب والفقيه، وكذلك من تجب طاعته لأنه مخوّل بموقعٍ ما كالقائد العسكري، فهنا يقال يجب على المرء أن يطيع الخبيرَ والمسؤول إلا فيما كان في معصية وضلالة.

الثاني: أن يكون على سبيل التشخيص، بمعنى أنه تجب طاعته لأنه لا يأمر إلا بالهدى ولا يتطرّق إليه الخطأ والخطيئة، وحينئذٍ فلا حاجة في تحديد طاعته في الدين بأن لا يوجِّه إلى ضلالةٍ سواء كانت الضلالة عن خطأ أو عن إثم، لأنه لا يفعل ذلك بطبيعة الحال، فهو ملازم للهدى.

ولا ينافي ذلك طبعاً أن يحتاج إلى التوجيه والتسديد الإلهي العام أو الخاص، ولا أن يجب على بعضهم التحري والمشورة مع بعض الناس في شيء، لأنّ الله سبحانه قد يضمن الهدى للمرء من عباده المصطفين إذا تمسّك بأسباب العلم المعتادة والمناسبة للموضوع، كما هو الحال في رصده للعدو واطلاعه على أحوال الناس ونحو ذلك مما لا محيص له من الاطلاع عليه بأسبابه الاعتيادية، ولكن إذا انتهى رأيه إلى شيء واستقر عليه كان مسدداً.

وهذا هو الحال في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنه لم يكن هناك مجال لمخالفته على أساس الاجتهاد.

وهذا الوجه يختص في الدين بالمصطفين فيه، بمعنى أنه لا يحكم على شخص في الدين بالسداد الدائم والأمن من الخطأ والخطيئة إلا إذا كان من المصطفين بحسب الدين.

نعم، يذكر في نصوص الدين أنّ العالم المتقي ينظر بنور الله سبحانه ولا يشتبه عليه الأمر في شيء، ولكن هذا توصيف عام، وقد يبلغ بعض الناس فيما بينه وبين الله سبحانه هذه الدرجة بنفسه، أو يظن الناس في حقه أنه بلغها،

ولكن لا يكون هناك شهادة في ضمن الدين في حق شخص بأنه ملازم للهدى ومصون عن الخطأ والخطيئة إلا وتكون هذه الشهادة دليلاً على اصطفاء الله سبحانه إياه في الدين.

وإذا عرفت ذلك تجد أنّ خطبة الغدير تضمّنت الأمر بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) على الوجه الثاني؛ لثلاثة وجوه:

١. إنّها ضمنت ملازمتهم للهدى وصيانتهم عن الضلالة صريحاً.

٢. إنّها قرنتهم بالقرآن الكريم، بل أناطت تحقق التمسك بالقرآن وبلوغ الهدى به بالتمسك بهم معه، وهذا معنى عظيم جداً، وهو يدل على اصطفائهم، فإنّ قرن الشخص بالمصطفين من عباد الله وذكره معهم وفي عدادهم دليل على اصطفائه، فما بالك بقرنه بالرسالة الإلهية نفسها التي بعث بها المصطفون من الرسل والأنبياء، وسيأتي مزيد توضيح لذلك في النقطة التالية.

٣. إنّها أمرت الأمّة بالتعلم منهم (عليهم السلام) ونهت عن تعليمهم لأنّهم أعلم من الأمّة.

إذاً اتضح وضوحاً لا لبس فيه أنّ هذه الخطبة تدل في فقرة الثقلين منها على اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الدين.

٤- عظمة قرن أهل البيت (عليهم السلام) بالقرآن الكريم

النقطة الرابعة:

إنّ قرن أهل البيت (عليهم السلام) بالقرآن الكريم ـ وهو معنى كبير وعظيم جداً ـ ينبئ عن مكانة عظيمة لأهل البيت (عليهم السلام) للغاية؛ وذلك لوجهين:

الوجه الأوّل: أصل هذا القرن، بأنّ القرآن الكريم هو الرسالة الإلهية بعينها التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وهي أسّ الإسلام ورسالة الله تعالى في هذا الدين إلى الخلق المشتمل على تعاليم الدين وبه كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) رسولاً إلى الأمة، وهو النور المبين، والذكر الحكيم، والآيات البينات، إلى عشرات الأوصاف التي جاءت عنه في القرآن نفسه، فقرن أهل البيت (عليهم السلام) به ـ وهو بهذه المنزلة ـ يُنبئ عن مكانة عظيمة، ويدل على أنّهم صفوة الله من هذا الخلق والمصطفون من هذه الأمة، والمسددون من عند الله تعالى في العمل وفق منهاج القرآن الكريم كما عمل به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حياته، ولذا كان مسارهم هو مسار الهدى الذي يقي المسلم من الشبهات والضلالات.

وإذا كان (صلى الله عليه وآله وسلم) قد وصف القرآن الكريم بالثقل الأكبر وأهل بيته بالثقل الأصغر ـ كما في بعض ألفاظ الحديث ـ فإنّ أصل هذا القرن يبقى مُنبّهاً على المكانة الخطيرة جداً لأهل البيت (عليهم السلام).

وقد جاء تأكيد هذا القرن بالتعبير عن القرآن الكريم وأهل البيت (عليهم السلام)

بالثقلين، وهو من جملة تعابيره (صلى الله عليه وآله وسلم) الفصيحة والبليغة التي عرف (صلى الله عليه وآله وسلم) بها، كما أوضحنا ذلك من قبل(١).

وقد بقي هذا التعبير لخصوصيته وغرابته محفوظاً في الحديث ورمزاً باقياً لأهل البيت (عليهم السلام) في لغة المسلمين والأدب الإسلامي.

الوجه الثاني: أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أناط الاهتداء بالكتاب والتوقي به عن الضلالة بالتمسك معه بالعترة، ومعنى ذلك أنّ المسلم لن يتوقى من الضلالة بالقرآن وحده، بل لا بدّ من التمسك معه بالعترة، وهذا أمر عظيم، فإنّ الكتاب موصوف في القرآن الكريم بأنه هدى ونور وبصائر، فاشتمل كلامه (صلى الله عليه وآله وسلم) على أنّ حصول الاهتداء بالكتاب من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) منوط بالتمسك بالعترة، فلا يجدي التمسك بالكتاب وحده للوقاية عن الضلالة والهلاك ونيل الهدى والصلاح، أو قل لا يحصل التمسك به من دون العترة، وليس الوجه في ذلك إلا أنّ العترة هم ترجمان علم الكتاب ودليل اتجاهه في حوادث الحياة وما يعرض فيها من الشبهات والفتن والأهواء، كما كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حياته كذلك.

٥- التأكيد البالغ في الخطبة على التمسّك بأهل البيت (عليهم السلام)

النقطة الخامسة:

---

(١) لاحظ الإيضاح الثالث، العنصر ٢٣.

إنّ خطبة الغدير اشتملت على مؤكّدات بالغة وأكيدة للغاية على التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما يتضح ذلك من خلال الإيضاح العام المتقدّم لمدلول الحديث، وما تقدم في النقاط السابقة.

ومن جملة تلك الأدوات والأساليب المؤكدة في هذه الخطبة:

١. قرن العترة بالقرآن الكريم مع موقعه العظيم في الدين، وذلك أنّ التمسّك بالقرآن لم يذكر في الخطبة لذاته، فإنّ الخطبة كما يرشد سياقها معقودة لبيان استخلاف أهل البيت (عليهم السلام) في الأمّة كهداة واستخلاف الإمام عليّ (عليه السلام) كمولى للأمة.

وينبّه على ذلك سياق الخطبة فإنّه يرشد إلى أنّها مسوقة لذلك، وساعد على ذلك وضوح مبدأ وجوب التمسّك بالقرآن للأمن من الضلالة، فلم يكن مثله غرضاً لعقد الاجتماع بنحو مفاجئ في الطريق، وعليه فلم يكن ذكر القرآن وضمّه إلى العترة إلّا لبيان أنّ التمسك بالقرآن وحده لن يغني في ضمان الهدى والأمن من الضلالة في الدين، بل الضامن لذلك التمسك بالقرآن وبالعترة معاً.

٢. إنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أكّد تأكيداً بالغاً على عدم افتراق الكتاب والعترة أبداً حتى يوم القيامة وورود الأمّة عليه الحوض ليسقيهم من معينه، وقد أسند ذلك إلى الله تعالى كي لا يتوهم متوهم أنّ ذلك انحياز منه لعترته فقال: (وإن اللطيف الخبير نبّأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، وسألت ذلك لهما ربي).

وقوله: (وسألت ذلك لهما ربي) تأكيد على أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) يتمسّك بموقفه هذا حتى يوم القيامة، فلا يقبل الإعراض عن أهل بيته (عليهم السلام) بتاتاً، ولن يشفع (صلى الله عليه وآله وسلم) لأحد في هذا الشأن أبداً؛ لأنّه هو الذي سأل ذلك ربّه من قبل.

٣. إنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) فصّل أنحاء الانفصال عن العترة والذي يقع في مقابل التمسك بهم، وذلك اهتماماً منه بالموضوع، وهما اثنان:

الأوّل: التقدم عليهم، ومعنى ذلك أن تسبق الأمّة أهل البيت (عليهم السلام) في اتخاذ موقف أو اتجاه في شيء من الأحوال، بل لا بدَّ أن يكونوا تابعين لأهل البيت (عليهم السلام) في الأمور كلها، وفي حادثة السقيفة مثال واضح من التقدم على أهل البيت (عليهم السلام) في القرار.

والتقدم تعبير قرآني في أدب التعامل مع الله تعالى ونبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1].

الثاني: التقصير عنهم، ومعناه أن يتركوا الأخذ بقول العترة فيما علموه.

٤. إنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) عبّر في شأن الكتاب والعترة بالتمسك بهما، دون طاعتهما أو ولائهما، والتمسك هو أخذ الشيء بقوة فهو أقوى تعبير لغوي عن التعلّق بشيء ما، ويدل على الحذر الأكيد من الإفلات منه، ومثله الاعتصام بهما في لفظ آخر

(١) سورة الحجرات: آية ١.

للحديث.

٥. إنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) شبّه أهل البيت (عليهم السلام) والقرآن الكريم بالأمانة التي يودعها عند وفاته لدى الأمّة والتي سوف يسأل (صلى الله عليه وآله وسلم) عنها يوم القيامة، إذ يجب حفظ الأمانة وردّها إلى صاحبها، حيث قال: (فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين)، وحفظ الأمانة في الكتاب والعترة إنما يكون بالتمسك بهما، وإلا كان ذلك تضييعاً لهما.

فهذه بعض الأساليب المؤكدة التي استُعملت في الخطبة للتعبير عن خطورة هذا الأمر والضرورة القصوى فيه وارتهان أمر دين المسلمين ودنياهم بذلك.

٦- دلالة الخطبة على وقوع الفتن التي كان قد أخبر بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من بعده جرّاء عدم التمسك بأهل بيته (عليهم السلام)

النقطة السادسة:

إنّ خطبة الغدير تدلّ على أنّ وقوع الفتن التي أخبر بها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الأمّة من بعده ـ وقد وقعت فعلاً ـ كانت جرّاء عدم التمسك بأهل بيته.

بيان ذلك: أنّه قد تواتر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إخباره عن مخافته على أمته الفتن التي تقع بينهم، وأخبر عن أنّ أصحابه سوف يرتدّون القهقرى إلا مثل همل النعم، بل تضمنت الروايات الواردة عنه ـ فضلاً عن خوفه عليهم من الفتن ـ

التنبُّؤ بوقوعها، كما أنّه أخبر عن فتن بخصوصها بوجوه مختلفة، أغلبها يتعلّق بما وقع في زمن الإمام (عليه السلام) مثل قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) المشهور: (ويح عمار تقتله الفئة الباغية)[١]، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لنسائه: (أيّتكنّ تنبحها كلاب الحوأب)[٢]، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) إشارة إلى ذي الثدية ـ وكان من الخوارج على الإمام (عليه السلام) في النهروان ـ: إنّه يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرميّة[٣].

والفتنة تتقوّم بعنصرين:

أحدهما: سبَب، وهو ضلالة بعض الناس عن الحق، وقبولهم بالباطل.

والآخر: مُسبَّب، وهو هلاك الناس في أثر الاختلاف في الرأي وتمسّك كل فريق برأيه.

وخطبة الغدير في فقرة حديث الثقلين ذكرت كلًّا من الضلالة والهلاك، فهي تدل على أنّ الضلالة التي كان يخافها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الأمّة والهلاك الذي كان يخشاه ينشأان عن عدم التمسك بأهل بيته (صلى الله عليه وآله وسلم)، لأنّ الأمّة لو تمسّكت بأهل البيت (عليهم السلام) لم تقع في الضلالة والهلاك.

وهذا المعنى يرشد إلى تحليل أساس الفتن التي حدثت بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في المجتمع الإسلامي لعدم التمسّك بأهل البيت (عليهم السلام).

---

(١) صحيح البخاري: ١/١١٥، ٣/٢٠٧، ٣/١٨٦، مسند أحمد ٢/٢٠٦، ٣/٢٢.

(٢) لاحظ مثلاً: مسند أحمد: ٦/٥٢، والمستدرك على الصحيحين: ٣/١٢٠.

(٣) لاحظ مثلاً: صحيح البخاري: ٤/١٧٩، مسند أحمد: ١/٨٨.

وقد ابتدأت هذه الفتن بشكلٍ واضحٍ من أواخر زمان عثمان عندما ثار عليه الناس بسبب إيثاره قومه (بني أمية) بالأموال والمناصب وتقريبهم ليكونوا خاصته وأعوانه ومستشاريه حتى وإن كانوا فسّاقاً ومطرودين من قبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فأدّى ذلك كله إلى مقتله.

ثمّ تلت ذلك الفتن الثلاث التي وقعت في عهد الإمام عليّ (عليه السلام) وقُتِل فيها الآلاف من المسلمين، ثم سائر الفتن المتعاقبة بعد ذلك التي استمرت بشكل دائم تقريباً في زمان بني أمية ثمّ في زمان بني العباس وما بعده كما جاء في التاريخ.

فالمنشأ لهذه الفتن وفق حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا هو عدم التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) من بعده، فلو أنّ الأمّة تمسكت بأهل البيت (عليهم السلام) بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) لضمنت الهدى ووقيت الفتنة وسلمت من الضلالة، وعليه فحيث إنها وقعت في الفتنة دلّ ذلك على أنّها لم تتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذا التحليل هو صادق ومشهود بالفعل بأدنى نظر في التاريخ، فلو أنّ الأمّة تمسكت بأهل البيت (عليهم السلام) لبايعت الإمام عليّاً (عليه السلام) الذي يتفق الجميع على أنّه صرّح بأنّه كان أولى بهذا الأمر وبخطأ ما وقع في السقيفة، ولم يبايع أبا بكر لعدة أشهر، ثم بايع خوفاً على الإسلام، ولو بايعوا الإمام (عليه السلام) لعدل بين الناس كما فعل أيام خلافته وفعله الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في أيامه، فلم

ينتفض الناس ضد الاستئثار بالأموال والمناصب كما وقع في آخر زمان عثمان، ولا قتل الخليفة حتى تقع الفتنة بين مواليه وبين الثائرين عليه، ولم يكن حينئذٍ محل لفتنة طلحة والزبير وعائشة الذين رفعوا راية مظلومية الخليفة المقتول، ولا فتنة معاوية ـ الذي ولّاه وأطلق يده عمر ثمّ عثمان ـ رافعاً شعار المطالبة بقتلة عثمان، لأنّ الإمام (عليه السلام) لم يكن يولّي معاوية بتاتاً، ولم تقع فتنة الخوارج في أثر ما نشؤوا عليه من الجهل مع العبادة في زمان الخلفاء، فكفّروا الإمام (عليه السلام) من جهة موافقته ـ بإكراههم إياه ـ على التحكيم في حرب صفين، ولا سقط الإمام (عليه السلام) شهيداً بسيف الخوارج، ولا تولى الأمر معاوية مِن بعده حتى يقتل شيعة الإمام (عليه السلام) ويشرّع سبّه على المنابر، ثم يستخلف يزيد المستهتر بفسقه، والذي لم يستسغ الإمام الحسين (عليه السلام) مبايعته بحالٍ فأدّى إلى شهادته (عليه السلام) في فاجعة أليمة مهولة، فهذه أصول الفتن التي وقعت في المجتمع الإسلامي، وقد ولّدت الفتن التي بعدها بطبيعة آثارها.

وكل ذلك لم يكن يقع لو تمسّك الناس بأهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد وفاته، بأن استدعى الأنصارُ في اجتماعهم في السقيفة الإمامَ علياً (عليه السلام)، وسألوه ـ مثلاً ـ عن الرأي والموقف بعد هذه الحادثة الأليمة وغياب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الأمة، بدلاً من أن يسعوا لعقد الأمر لأحدهم من غير إطلاع الإمام (عليه السلام)، ولو أخبر المهاجرون الثلاثة (أبو بكر وعمر وأبو عبيدة) الذين علموا باجتماع السقيفة الإمامَ (عليه السلام) بالأمر، وقالوا للأنصار: إنّنا لن نبتّ في هذا الأمر الذي

يؤسس لما بعده ويكون عرضة لإيجاد الفتنة إلا بالرجوع إلى أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأخذ بقولهم كما أمر به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الغدير، ولو فعلوا ذلك لسقطت حجة الأنصار، ولم يستطيعوا أن يبرموا الأمر من دون قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته (عليهم السلام)، وعند رجوعهم إلى الإمام (عليه السلام) فإنّه يرشدهم إلى أنّه الأولى بالأمر فيطيعه الجميع، فيقوم (عليه السلام) فيهم بالعدل والتعليم والتزكية بسيرته المعروفة وخطبه المأثورة، ولعمّر (عليه السلام) فيهم ما شاء الله، ثم ولي بعده ذريته الذين هم على مثاله ومثال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الشرف والعلم والأخلاق والنبل والزهد والعبادة.

إذاً ما تضمّنته فقرة الثقلين ـ من حديث الغدير من أنّ الأمّة لو تمسّكت بأهل البيت (عليهم السلام) وُقيت من الضلالة والهلاك ـ يطابق المشهود.

وبذلك تدلّ هذه الخطبة دلالة ذكية على عدم مشروعية ما جرى عليه الأمر بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الإعراض عن أهل البيت (عليهم السلام).

٧- عدم تمسّك الأمّة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأهل البيت (عليهم السلام)

النقطة السابعة:

إنّ الأمّة لم تتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وفق ما وجّه إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة الغدير التي صدرت منه قبيل وفاته بشهرين وأيام، كما بيّنا ذلك بمناسبة النقطة السابقة.

ومزيد توضيح ذلك: أنّ الذي يدلّ على ذلك وجهان:

الوجه الأول: ـ دليل غير مباشر ـ من باب استكشاف المؤثر من أثره مثل استكشاف النار من رؤية الدخان، وذلك أنّ هذا الحديث اشتمل على أنّ الأمّة إن تمسّكت بأهل البيت (عليهم السلام) لن تضلّ أبداً ولم تتعرض للهلاك.

وحيث إنّنا لاحظنا أنّ الأمّة تعرضت للضلال والهلاك منذ أواخر زمان عثمان ـ بعد عقدين من خطبة الغدير ووفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ دلّ ذلك على أنّها لم تتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإلّا وُقيت تلك الفتن.

وقد يقول قائل: إنّ وقوع الفتنة أواخر زمان عثمان يدل على أنّها لم تتمسك آنذاك بأهل البيت (عليهم السلام) فوقعت في الفتنة، ولا يدلّ على عدم وقوع التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) منذ وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

والجواب: أنّ الفتنة في أواخر زمان عثمان كانت نتيجة للأمور من قبل، ولم يكن معنى للتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) حين ذاك بعد أن لم يكونوا أصحاب قرار في المشهد، فقد انتهى ترتيب الأمور بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى تولي عثمان ـ الذي كان من بني أمية وهم أهل دهاء ومكر وسياسة وطموح بالغ للجاه ـ، وقد كان عثمان عند اعتراض الناس عليه بإيثاره عشيرته بالأموال والمناصب هو صاحب القرار في الأمة، وكان الثوار يبلّغون رسائلهم إليه من خلال الإمام (عليه السلام)، فيبلغها الإمام (عليه السلام) لعثمان فلا يستجيب عثمان لمطالب الثوار، فلو كان هناك التزام من الأمّة بوظيفتها من التمسّك بأهل البيت (عليهم السلام) لكان

ذلك منذ بداية الأمر عند وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولا معنى لتوصيتها ـ أي الأمّة ـ بالتمسك بهم بعد أن تأسست الأمور على اتجاه مختلف وأصبحت القيادة الشرعية ـ وفق موازين الاتجاه السائد ـ بيد شخص آخر وفئة أخرى، فلا معنى لتوصية الأمة إذ ذاك بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام).

الوجه الثاني: أنّ من الظاهر أنّه لم يكن هناك تمسّك بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأهل البيت (عليهم السلام)، إذ كانت أهم قضية وقعت بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ والذي كان تأسيساً لمنهج الحكم في المجتمع الإسلامي إلى الأبد ـ هو مسألة تعيين الخليفة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن الواضح باتفاق جميع المؤرخين والمحدّثين أنّ الإمام (عليه السلام) لم يكن مطّلعاً على مجريات تعيين الخليفة في سقيفة الأنصار، بل كان الأنصار قد اجتمعوا اجتماعاً داخلياً سرياً لتعيين الخليفة منهم، فاطّلع المهاجرون الثلاثة (أبو بكر وعمر وأبو عبيدة)، فسارعوا إلى الاجتماع من غير إخبار الإمام عليّ (عليه السلام) وبني هاشم بتاتاً، وانتزعوا الخلافة على أساس أولوية قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، حيث بادر عمر إلى الصفق على يد أبي بكر على أنّه الخليفة إلى آخر ما وقع فيها.

كما أنّ من الواضح بالاتفاق أيضاً أنّ الإمام عليّاً (عليه السلام) امتنع من مبايعة أبي بكر لمدّة ربما بلغت أشهراً، رغم الضغوط عليه، وقال إنّه أولى بالأمر، كما

روى ذلك البخاري ومسلم وغيرهما من المحدثين(١)، وهو دليل في العرف العربي والعام على أنّه لم يكن يقرّ بخلافة أبي بكر، ثم بايع لاحقاً بعد وفاة زوجته فاطمة (عليها السلام) خوفاً على الإسلام.

فأيّ تمسّك في ذلك بأهل البيت (عليهم السلام)؟!

ثم أوصى أبو بكر إلى عمر مستبدّاً في ذلك من غير استشارة للإمام (عليه السلام) ولا غيره، ويتضح عدم قبول الإمام (عليه السلام) لهذا التعيين أيضاً من موقفه من بيعة أبي بكر، وهكذا عيّن عمر ستّة الشورى للأمر من بعده دون مشورة للإمام (عليه السلام) وخطط فيها لرجحان كفّة عثمان، فأيّ تمسك وقع بأهل البيت (عليهم السلام)؟!

على أنّ الإمام (عليه السلام) كان معترضاً على سنن الخلفاء في العطاء والخمس وأمور أخرى كثيرة كما يتضح بملاحظة سيرته ومواقفه وما أُثر عنه في التاريخ.

كما أنّ الخليفتين منعا فاطمة (عليها السلام) ـ وهي من أهل البيت (عليهم السلام) بالاتفاق ـ ميراثها من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وردّا قولها بأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نحلها فدكاً(٢)، كما ردّا شهادة الإمام (عليه السلام) في ذلك حتى ماتت وهي غاضبة عليهما، وأمرت أن

---

(١) لاحظ: صحيح البخاري: ٥/٨٢ ـ ٨٣، وصحيح مسلم: ٥/١٥٣ ـ ١٥٤، ومسند أحمد: ١/٥٥.

(٢) لاحظ: المواقف (الإيجي): ٣/٦٠٩، شرح المواقف (القاضي الجرجاني): ٨/٣٥٦، الدر المنثور (السيوطي): ٤/١٧٧، تفسير الآلوسي: ١٥/٦٢.

لا يُمكَّنا من الصلاة على جنازتها وأن يُخفى قبرها، ولم يزل مجهولاً شاهداً على مباغضتها.

نعم، ربما استشار الخلفاء الإمام (عليه السلام) في بعض الأمور العسكرية أو غيرها من جهة ما علموه من خبرته وليس على أساس اعتقادي في شأن أهل البيت (عليهم السلام)، فأشار الإمام (عليه السلام) عليهم في ذلك ناصحاً لله سبحانه، ووقاهم بذلك من الضلال فيما استشير فيه خاصةً، وليس في ذلك ما يصدق عليه التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) بعد مخالفته في القضية الأمّ التي هي نظام الخلافة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وفي قضايا كبرى قد سُنّ فيها ما يخالف العدل والدين، وأُلغيت فيها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

إذاً من الواضح جداً عدم وقوع التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بتاتاً.

وقد يقول قائل: إنّ هذا المعنى لهذه الخطبة يجعلها معارضة لما رواه أهل السنة من أحاديث كثيرة في فضل أهل الحل والعقد من الصحابة من الخلفاء وغيرهم، فكيف تحصل الثقة بها؟

والجواب: أنّ مستوى ثبوت هذه الخطبة التي اشتملت على حديث الثقلين وحديث الولاء لهو فوق مستوى ثبوت عشرات بل مئات الأحاديث التي حكيت عن آحاد الصحابة في تزكية بعضهم، وذلك لأنّ واقعة الغدير هي حدث اجتماعي تاريخي كبير حضره عشرات الآلاف من الناس، ونقلها العديد

من الصحابة في محضر الإمام عليّ (عليه السلام) بالرحبة وفيما بعد ذلك، فهي من جملة الأحداث الكبار في السيرة النبوية على حد الغزوات المهمة مثل غزوة بدر وأحد وغيرهما، ومن ثمّ فهي بطبيعتها عصية على التزوير في أصلها وما ألقي فيها بشأن مكانة أهل البيت (عليهم السلام) والولاء للإمام (عليه السلام)، وهذا ظاهر بالتأمّل في مجموع نصوصها مهما تحذّر بعضهم من ذكرها أو سعى إلى تحجيمها، فلا يقاس مستوى ثبوت هذه الخطبة بأحاديث وردت عن آحاد من الصحابة أو التابعين أو من بعدهم رويت فيها أقوال عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في شأن بعض الصحابة ادعي أنّه (صلى الله عليه وآله) قد خاطب بها هذا الصحابي أو ذاك، أو تفرد الراوي بزعم أنّه قاله بين جماعة من أصحابه، فإنّ كل هذه الأحاديث يمكن أن تكون موضوعة من قبل الصحابة أو التابعين، لأنّ المجتمع أصبح منذ زمان عثمان مفتوناً استحلّ فيه الصحابة ومن تبعهم حرمات بعضهم بعضاً من دماء وأموال فما بالك بوضع الحديث، فلا يُؤمن على هذه الأحاديث بتاتاً أن تكون وليدة الفتن واتجاهات أهلها، فلا يقاس وزنها، بل وزن العشرات والمئات منها بمثل حادثة الغدير عند التأمّل.

فالنبي (صلى الله عليه وآله) بتدبيره لهذه الحادثة نظر إلى آفاق المستقبل والتزوير المتوقع للتاريخ من بعده فألقى مكانة أهل البيت (عليهم السلام) والولاء للإمام (عليه السلام) في مجتمع يُعَدّ حضوره بالآلاف استيثاقاً له ومنعاً عن تزويره أو تزوير ما يعارضه.

ولقد لاحظت بسبر السيرة النبوية وسيرة أهل البيت (عليهم السلام) في مواقفه

(صلى الله عليه وآله وسلم) وكلماته وكذلك مواقف أهل البيت (عليهم السلام) دائماً النظر إلى صياغة الأحداث والأقوال على وجه يكون عصياً على الإنكار والمعارضة، كما في موقف فاطمة (عليها السلام) من الشيخين، والذي يسعى بعض المسلمين من مدرسة الخلافة إلى إنكار ثباتها عليه، وإثبات رضاها عن الشيخين نفياً للصدام بين أهل الحل والعقد من الصحابة وبين أهل البيت (عليهم السلام) لما ثَبُتَ مِن أنّها سيدة نساء العالمين، لكن لم يكن لهذا الإنكار قيمة؛ لأنّها (عليها السلام) خلّدت موقفها بالوصية بدفنها سراً وإخفاء قبرها وعدم صلاتهما عليها، فكان ذلك معلماً تاريخياً لا يقبل الترقيع والتزوير، ونظير ذلك استشهاد الإمام (عليه السلام) في اجتماع أهل الكوفة بالرحبة وفيهم وجوه من الأنصار ورجال من المهاجرين وقد حضره المئات أو الآلاف حيث استشهد بحديث الغدير، فكان ذلك كقنبلة تنفجر في الكوفة بعد طول كتمان لهذه الواقعة في عصر الخلفاء، فكان من المتعذّر محو هذا الحدث ومسح آثاره في المجتمع الكوفي، ولا يسع هذا المقام توضيح لذلك.

٨- دلالة لحن الخطبة على أجواء غير مستجيبة بين الحضور للتمسك بأهل البيت (عليهم السلام)

النقطة الثامنة:

إنّ لحن الخطبة يدلّ على وجود أجواء غير مستجيبة للخطاب بين الحضور للتمسك بأهل البيت (عليهم السلام).

وهو موضوع تؤيده شواهد توقيت الخطبة وحوادث سابقة عليها أو لاحقة لها، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

أمّا عن دلالة لحن الخطبة فبيانه يقتضي لفت النظر إلى نكتة بلاغية ظاهرة ومعروفة، وهو أنّ صياغة الكلام تختلف ـ لا سيما فيما كان المتكلم بليغاً وحكيماً ـ وفق اختلاف المخاطبين، فإذا كان المخاطب مسترسلاً يتقبل الخطاب ويستجيب له، كانت صياغة الكلام اعتيادية من دون استخدام أدوات التأكيد، وأمّا إذا كان المخاطب لا يستجيب للخطاب ولا يذعن به أو يصعب عليه تقبله واستساغته أو يغيظه ويغضبه ويثير مخاوفه أو يصطنع الشبهة في شأنه وينظر إلى الكلام بشك وريبة فإنّ المتكلم حينئذٍ يعمد إلى استخدام أدوات التأكيد مثل القسم وحروف التأكيد مثل (إنّ) ولام الابتداء والتكرار اللفظي أو المعنوي (مثل ذكر اللوازم ونفي الأضداد) والتأكيد النحوي (بالنفس وأخواتها)، وتزكية المتكلم لنفسه، وإبراز نعمه على المخاطب، وأخذ الإقرار من المخاطب مسبقاً على ما يوجب تصديقه إياه، وتعليل ما يذكره على وجه ملائم، وربط الفكرة بأمور مطلوبة للمخاطب أو معلومة ومعترف بها لديه، واستخدام المفردات المؤثرة بدلالاتها ووقعها الصوتي، واستعمال المعاني الإنسانية مثل الاستفهام بوجوهه من الإقراري والإنكاري، والتمني والترجي، والدعاء والنداء والتعجب، وأنواع المجاز والاستعارة والتشبيه والتنزيل، مضافاً إلى كيفية الحركات والسكنات وملامح الوجه والنبرات

الصوتية التي تعبّر عن الحماس والاندفاع، وإبداء المتكلم طوراً الرفق واللين والتواضع، وطوراً آخر الحزم والثبات والإصرار، وسوق المخاطب إلى التفاعل بالسؤال، أو ربط الفكرة أو تصديقها بشخصيته ليكون الشك فيها مساساً به والانطلاق من موقع حقه ومعروفه، وذكر وجوه من التحذير والترغيب والتنبؤ بالعواقب والآثار، وحسن البداية والختام.

وهذا أمر يجده كل واحد منا في مشهد الاعتذار على سبيل المثال، فإذا أراد الإنسان الاعتذار عن تصرف وقع منه ـ كما لو نسي موعداً فغاب عنه فأراد أن يعتذر لصاحب الموعد بأنّه قد غلبه النوم ـ فإنّك تجد أنّه إذا كان الآخر مسترسلاً يتقبل منه هذه الدعوى ويتلقاها عذراً مقبولاً فإنّ الإنسان يقتصر على أخباره بذلك، وأمّا إذا كان ذلك مما يغيظ المخاطب (صاحب الموعد) ويثير في نفسه الشك والريبة ويتهمه بالتقصير والإهمال، أو يحتمل في حقه الكذب والتعمد، فإنّك تجد أنّه يطنب في الاعتذار ويستخدم أدوات للتأكيد فيحلف عليه ويعلل ما ذكره بتوضيح ملابسات ما حدث، ويبدي شكه في تصديق المخاطب إياه فيقول: (إن كنت تصدقني كذا وكذا)، إلى غير ذلك من المؤكدات المتقدمة.

وكذلك الحال في مقام نصيحة الغير بما يثقل عليه الاستجابة له، مثل نصيحة الآباء والأمهات للأطفال والمراهقين والمعلمين للتلاميذ فهو يحاول تأكيد الفكرة بمختلف الأدوات المؤكدة المتقدمة.

وبالالتفات إلى هذه المقدمة يظهر أنّ لحن خطبة الغدير عند استنطاقها يدل على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الخطبة كان يجد صعوبة في تقبّل قسم من المخاطبين للفكرة وثقلها عليهم، أو يشعر بهواجس الاتهام له والريبة في قوله، فيسعى إلى التأكيد على الفكرة بمختلف الأدوات والأساليب.

هذا، وقد لاحظنا في إيضاح سابق حول هذه الواقعة وفهم معاريض القول وملاحنه استخدامه (صلى الله عليه وآله وسلم) لمعظم الأساليب والأدوات المتقدمة التي تستخدم في مثل هذه الحالات.

ومع أنّه قد لا يكون قد تمّ نقل هذه الخطبة بجميع خصائصها أو حدث بعض النقصان أو الزيادة فيها، إلا أنّه تبقى الثقة بأنّ الطابع العام للخطبة إنّما كان في هذا الاتجاه، ولذلك تتفق العديد من الروايات التي تتحد في الراوي المباشر للخطبة أو تختلف فيه في حكاية جملة من أدوات التأكيد المذكورة أو بدائلها.

فيدلّ ذلك على صعوبة تقبّل فكرة امتياز أهل البيت (عليهم السلام) على سائر هذه الأمّة وتزكيتهم على وجه خاص واعتبارهم أعلام هداية في هذه الأمّة وقادة لها على فريق معتدّ به من الحاضرين على أقلّ تقدير.

وإن قيل: إنّ هذه المؤكدات لن تعبّر عن أجواء عدم الاستجابة بين الحاضرين، إذ يمكن تفسيرها بأهمية الموضوع ـ أي التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) ـ في الدين، والأمر المهم يعتني المتكلم في بيانه بالتأكيد والإصرار.

فيجاب: بأنّ هذا القول ليس دقيقاً، فالأمر المهم يستوجب التأكيد قطعاً، وهذه المؤكدات تعبّر عن أهمية بالغة للتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) في الدين، ولكن مع ذلك فإنّه متى كان المخاطبون مسترسلين في الاستجابة للخطاب المتعلق بالأمر المهم فإنّ المتكلم يقتصر على التعبير عن أهميته، فيقول مثلاً إنّه من دعائم الدين وأركان الإيمان، ولا يتفنّن في استخدام المؤثرات البلاغية والأسلوبية بهذا الحجم المتمثل في هذا الخطاب.

وقد يُتساءل عن السبب المتوقع لهذا الأمر، فلماذا يثقل على الحاضرين أو فريق غير قليل منهم أن يتقبلوا ذلك، وهم يؤمنون بالله ورسوله وقد تحملوا ما تحملوا من المشاق كالاضطهاد من قبل المشركين والهجرة من الأوطان والجهاد بالأنفس والأموال.

والجواب عن هذا التساؤل على الإجمال: أنّ عدم معرفة السبب ابتداء لا يؤدي إلى إنكار دلالة لحن هذه الخطبة على ثقل مضمونها على قسم من الحاضرين، فإنّ ملاحن الكلام من هذا القبيل لهي على حدّ الصراحة أو هي أعلى مراتبها، وهي حقاً ممّا عبّر الإمام (عليه السلام) عنه في بعض كلامه؛ إذ قال: (الْيَوْمَ أُنْطِقُ لَكُمُ الْعَجْمَاءَ ذَاتَ الْبَيَانِ)(١).

وعلى المرء أن يستشف مبررات ما تدلّ عليه ملاحن الأقوال فيما وراء

---

(١) نهج البلاغة: ٥١.

المشهد بالتأمّل في طبيعة الحاضرين والاتجاهات المحتملة والمتوقعة في حقهم.

وأمّا الجواب المشروح عن التساؤل المذكور فهو باختصار: أنّ من المتوقع أنّ مسألة امتياز أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمّة كانت تثير ثلاث طوائف من العرب..

الطائفة الأولى: سائر فروع قريش ـ غير بني هاشم ـ من جهة المنافسة والحسد بينها وبين بني هاشم وفق العصبيات القبلية، لارتقاء بني هاشم عليها بالنبوة، فلم تكن تحتمل امتياز بني هاشم عليها أبداً، وقد كانت هذه العصبية من أسباب امتناع معظمها عن قبول الإسلام، كما قال سبحانه: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا**﴾[١]، وإنّما قصّ الله تعالى في سورة يوسف قصة يوسف وإخوته للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو في مكة يعاني من رجال قبيلته الأم قريش لتسكين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وليعلم أنّ بعد الشدة فرجاً، وأنّه سيأتي اليوم الذي يقول فيه ما يشبه قول يوسف: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾[٢].

(١) سورة النساء: آية ٥٤.

(٢) سورة يوسف: آية ١٠١.

وقد علم أنّ عامة قريش ـ عدا قليل منهم هاجر من مكة وآخرين بقوا فيها لتعذّر الهجرة عليهم ـ كانوا على الكفر ومحاربة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى فتح مكة حيث أسلموا كُرهاً، ومن كان قد هاجر من قبل أيضاً كان متحسساً من امتياز الإمام عليّ (عليه السلام) حسب دلالة الشواهد التاريخية كما بيّناه في موضع آخر[١].

فهذه مشاعر فعلية متوقعة في أوساط القبائل في منافساتها ونتائجها كما يعلمه أهل الاطلاع على طباع الناس والشخصيات القبلية.

والطائفة الثانية: الأنصار، فإنّهم كانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق دون قبيلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى بني هاشم، لأنّهم حموا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وآووه ولم يكونوا يتقبلون أن يكون هؤلاء الغرباء في المدينة سادتهم ويكونوا هم تبعاً لهم أبداً، فهذه مشاعر متوقعة أيضاً في الأوساط العامة فضلاً عن القبيلة من جهة البناء على استحقاقات النصرة وحب الرئاسة في الوطن.

الطائفة الثالثة: المنافقون الذين كانوا يكرهون هذا الدين بالرغم من أنّه أصبح أمراً واقعاً، ولكنهم يضمرون عداء خاصاً لقادته، وحيث إنّه لم يمكن توجيه العداء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فإنّهم كانوا يوجهون عداءهم إلى أهل بيته لا سيما الإمام (عليه السلام) لكونه عضد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ البعثة ووزيره وأخاه فهو الرجل الثاني بين المسلمين بلا منازع، وقد لوحظ في الحياة الاجتماعية أنّ الناس

---

(١) لاحظ الإيضاح الخامس عشر.

إذا أبغضوا قائداً ما فإنّهم لا يتقبلون امتياز أهل بيته من بعده، بل يسعون إلى سحقهم ما أمكن.

فهذه طوائف ثلاث كانت تتحسس من تصدي الإمام عليّ (عليه السلام) للأمر بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

وأمّا عامة العرب غير هذه الطوائف فلم يكن لها موقف سلبي خاص تجاه الإمام (عليه السلام) بل إنّ تولي قرابة الشخص الأمر من بعده هو محل إذعان في الحياة القبلية على وجه عام.

وعليه فلا وحشة من البناء على عدم تقبل هذه الطوائف الثلاث لامتياز أهل البيت، وقد كانوا جميعاً موجودين ضمن حضور واقعة الغدير، فقد كان قد رافق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجة الوداع عامة المهاجرين والأنصار وكثير من عامة المسلمين بما فيهم المنافقون من أهل المدينة ومن حولها.

وأمّا الشواهد الخارجية على عدم تقبل هذه الطوائف امتياز أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فهي متعددة.

أمّا كراهة المنافقين لأهل البيت (عليهم السلام) فإنّ الشاهد عليه هو ما عرف بالسيرة النبوية ونصوصها من كراهة المنافقين لعلي (عليه السلام) حتى روي عنه

(صلى الله عليه وآله وسلم): أنّ حب عليّ إيمان وبغضه نفاق[١]، وممّا جاء في السيرة النبوية أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لمّا خلف الإمام علياً (عليه السلام) في غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة ـ أي قبل سنة من وفاته فقط ـ طعن المنافقون على الإمام (عليه السلام)، وأشاعوا أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رغب عنه فجاء (عليه السلام) متأثراً إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له قولته المعروفة المتفق عليها: (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي).

وأمّا الشواهد التاريخية على طمع سائر فروع قريش والأنصار بالأمر ممّا يوجب كراهة تميز أهل البيت، فيكفي أن نذكر هنا موقفهم في السقيفة إذ ترك الفريقان جنازة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمجرد وفاته، وأسرعوا إلى عقد الاجتماع لتعيين خليفته وإبرام الأمر لواحد منهم من غير إخبار أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالأمر ومشورتهم فيه، مع أنّه لو كانت مشروعية الحكم بعد النبي بالشورى ـ ولم يكن هناك تعيين لأهل بيته ـ فإنّ الأعراف السائدة في المجتمع العام ـ ولا سيما في المجتمع القبلي الذي يعي مثل هذه الاستحقاقات فيها عدا أساس الانتماءات القبلية أو النصرة ـ أن لا يتم إبرام شيء من دون حضور أهل بيته سيّما وفيهم ربيبه وعضده وأخوه ووزيره وابن عمه وصهره وحامل رايته وناصره المميز

(١) لاحظ مثلاً: خصائص أمير المؤمنين (عليه السلام) (للنسائي): ١٠٤، المعجم الكبير (الطبراني): ٢٣/٣٧٥، تاريخ مدينة دمشق: ٤٢/٢٨٠.

الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، ولا يسع هنا تفصيل الموضوع بأكثر من ذلك.

فتبين ممّا تقدّم أنّ فقرة الثقلين بمقدماتها ومتمماتها في خطبة الغدير تدلّ على وجود أجواء غير مستجيبة لخطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها، وهذا يفسر كيفية صياغة هذه الخطبة.

٩- دلالة الخطبة على وجود إمام هدى حيّ من أهل البيت (عليهم السلام) دائماً

النقطة التاسعة:

إنّ الخطبة تدلّ على وجود إمام هدى حيّ حاضر من أهل البيت (عليهم السلام) دائماً حتى القيامة يكون قرين القرآن.

والوجه في ذلك دلالتها على أمرين:

١. إنّها نصّت على عدم مفارقة أهل البيت (عليهم السلام) للقرآن حتى القيامة.

٢. إنّ نظرها في التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) ليس هو التمسك بتراثهم بعد مماتهم فحسب، بل التمسك بإمام حي منهم بحيث يقيهم من الشبهات والفتن في كل حين.

والدليل الواضح على ذلك: أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يذكر نفسه مع الكتاب والعترة، مع وضوح لزوم التمسك بسيرته وسنته بعد وفاته كما في حياته.

فهذا يدل على أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) نظر إلى التمسك بإمام هدى حيّ، كما أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)

كان ناظراً إلى ما بعد وفاته، وعليه فلم يكن هناك محل لذكر نفسه بجنب الكتاب والعترة(١).

كما أنّه يدلّ أيضاً على أنّ التمسك بأهل بيته (صلى الله عليه وآله وسلم) ينطوي على التمسك بسنته على الوجه الكامل، ولذلك لم يكن هناك حاجة إلى ذكر التمسك بسنته بجنب التمسك بأهل بيته (عليهم السلام)، كما سيأتي إيضاح ذلك في النقطة اللاحقة.

١٠- دلالة الخطبة على مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) في معرفة سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسيرته

النقطة العاشرة:

إنّ خطبة الغدير تدلّ من خلال هذه الفقرة ـ حديث الثقلين ـ على أنّ أهل البيت (عليهم السلام) هم المرجع في معرفة سيرة الرسول وسنته، فهم ترجمان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا يدلّ على كمال علم أهل البيت (عليهم السلام) كمالاً يستغنون به عن

---

(١) وقد يُسأل عن أنّ مثل هذا الإمام ليس موجوداً بالوجدان في مثل هذا العصر إلا أن يكون إماماً غائباً، والإمام الغائب لا يتيسر الرجوع إليه للاستهداء.

والجواب عن ذلك بإيجاز: أنّ الله سبحانه جعل الأئمة من آل البيت (عليهم السلام) لاهتداء الأمة، لكن بعد تعرض أحد عشر منهم للقتل والاضطهاد والإعراض غيّب الثاني عشر منهم وقاية له عن ذلك، ولو أنّ الأمة الآن كانت مستعدة للاهتداء به لأذن في ظهوره حينئذٍ، ولله سبحانه حكمته في أفعاله، وسيأتي توضيح أكثر لذلك في إيضاح حول استمرار الإمامة في القسم الثاني من الكتاب.

الأمة، بينما لا تستغني الأمّة عنهم.

والوجه في ذلك: أنّه لا شك في أنّ من الواجب على الأمّة أبداً ـ مضافاً إلى الإيمان برسالة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ التمسك بمنهاج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وسيرته وسنته أبداً، ولكن بالرغم من ذلك نجد أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يذكر وجوب التمسك به (صلى الله عليه وآله وسلم) فيجعل الأثقال ثلاثة ويجعل سنته ثقلاً ثالثاً، وهذا يدلّ دلالة ذكية وظاهرة على أنّ التمسك بأهل بيته (صلى الله عليه وآله وسلم) ينطوي على التمسك به، وذلك لإيداع سنته لديهم على الوجه الكامل والصحيح المأمون من النقص والتحريف والخطأ، وهم المؤتمنون عليها من بعده والمرجع فيما أُبهم منها.

وينبّه على ذلك ما جاء في ضمن الخطبة من نهيه (عليه السلام) عن تعليم العترة (عليهم السلام)؛ لأنّهم أعلم من سائر الأمة، فإنّ هذه الفقرة تدل على أنّ أعلميتهم من الأمّة هي على وجه لا يحتاجون معه إلى علم الأمّة في شيء، وذلك لأنّ أعلمية شخص في حقل طوراً تكون وفق التوصيف الغالب فلا ينافي انتفاعه بعلم غيره في بعض الموارد، وطوراً آخر تكون على وجه مطّرد بحيث لا يحتاج إلى انتفاعه بعلم غيره أبداً، وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم)[1] يفيد الأعلمية على وجه مطّرد كما هو ظاهر، فلا حاجة بهم إلى أحاديث يرويها بعض الصحابة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

---

(١) لاحظ مثلاً: المعجم الكبير: ٥/١٦٧.

وهذا الذي دلّت عليه الخطبة في شأن علم أهل البيت (عليهم السلام) بسنة الرسول وإحاطتهم بها، وهو الذي يظهر من لحن كلمات أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، كما تجد مثالاً لذلك في لحن كلام الإمام عليّ (عليه السلام) في خطبه أيام خلافته مما جاء في نهج البلاغة وغيره من مصادر أقواله.

وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) بذلك ينظر بنظره الثاقب إلى دفع شبهة جعل السنّة في قبال أهل البيت (عليهم السلام) كما جعل القرآن الكريم في مقابلهم، وقد وقع ذلك فعلاً، فادعي الاستغناء عن أهل البيت (عليهم السلام) بسنّة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى حُرّف حديث الثقلين من (الكتاب والعترة) إلى (الكتاب والسنّة) كما سنبيّن ذلك.

١١- دلالة الخطبة على أنّ خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إنّما هي في أهل البيت (عليهم السلام)

النقطة الحادية عشرة:

إنّ فقرة الثقلين من الخطبة تدلّ على أنّ خلافة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الأمّة هي في أهل البيت (عليهم السلام) أبداً.

بيان ذلك: أنّ المدلول الأوّلي لهذه الفقرة هو نصب الأئمة (عليهم السلام) أعلام هدى في هذه الأمّة وأماناً من الضلالة فيها؛ وذلك لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر بالتمسك بهم مع القرآن للأمان من الضلالة.

ولكن هذا يستبطن الدلالة على أنّهم أحق بالأمر من وجهين:

الوجه الأوّل: أنّه متى كان في الأمّة أعلام هدى مصونون من الضلالة بالعلم والصلاح والتسديد الإلهي فسيكونون مرجعاً في قضايا الأمّة، ويجب عليها التمسك بهم، فهم يكونون أولى بالأمر بطبيعة الحال فيها ممن هو عرضة للخطأ والاشتباه والضلالة، وهذا أمر ظاهر عند تأمّله جيداً.

وينبّه على ذلك أنّ المفهوم من سياق الحديث أنّ ما جاء بعد هذه الفقرة من عقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) إنّما كان مبنياً على كونه من جملة أهل البيت (عليهم السلام) الذين هم مناط الهدى والأمان من الضلالة.

الوجه الثاني: أنّ أهل البيت (عليهم السلام) بأنفسهم أرشدوا الأمّة إلى أنّهم أولى الأمّة بأمرها كالذي اتفق الجميع على روايته عن الإمام عليّ (عليه السلام) فيما أبداه في قوله لأبي بكر بعد امتناعه مبايعته لأشهر وقد رواه المحدثون كالبخاري(١).

وعليه فإنّ إيجاب التمسك بهم ـ وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلم أنّهم سوف يبلغون الأمّة بأنّهم أولى بالأمر ـ يستبطن بنحو غير مباشر جعل الأمر من بعده فيهم، فلاحظ.

١٢- إنّ أهل بيته (عليهم السلام) في الحديث هم الإمام عليّ (عليه السلام) ورجال متعاقبون من ذريته وذرية الرسول (صلى الله عليه وآله)

النقطة الثانية عشرة:

---

(١) تقدم تخريجه.

إنّ المراد بأهل البيت (عليهم السلام) في هذه الفقرة هم الإمام عليّ (عليه السلام) ورجال من ذرية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من نسله ولا يشمل أزواجه ولا سائر قرابته من بني هاشم.

توضيحه: أنّه لا ينبغي الشك أنّ مراده (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهل بيته (عليهم السلام) ليس مطلق ذويه، وذلك ما لم يكن يفهمه الحاضرون أيضاً، لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الفقرة زكّى أهل بيته (عليهم السلام) وجعلهم أعلام هدى، ومن المعلوم أنّه لا يكون قرابة أي شخص إلى الأبد أعلام هدى، حتى لو كان هذا الشخص رسولاً لله سبحانه.

وقد علم ببداهة من تاريخ الأديان والقرآن الكريم أنّ السلالات المصطفاة مثل آل إبراهيم وآل عمران إنّما اصطفى الله رجالاً منهم، وكان فيهم آخرون من عامة المؤمنين، بل كان فيهم من الظالمين كما قال سبحانه عن ابن نوح (عليه السلام): ﴿**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾(١)، وقال سبحانه عن إبراهيم (عليه السلام): ﴿**قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾(٢).

إذاً فمراده (صلى الله عليه وآله وسلم) بأهل بيته إنّما هم رجال متعاقبون فيهم يكونون هداة

---

(١) سورة هود: آية ٤٦.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٤.

للأمّة.

وقد أفصح (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الحلقة الأولى في هذه السلسلة وهو الإمام عليّ (عليه السلام) بفقرة الولاء حيث أحضره أمام جمهور الناس وهم بالآلاف ورفع يده وقال: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

وقد دلّ الحديث النبوي المشهور المتفق عليه على حصر (أهل بيته) من ذويه الموجودين في عصره (صلى الله عليه وآله وسلم) في الإمام عليّ وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)(١)، كما يؤكّد ذلك سائر أحاديثه (صلى الله عليه وآله وسلم) التي أثنت على هؤلاء ثناء مميزاً يشير إلى امتيازهم عن هذه الأمة.

ولكن حديث الثقلين يدلّ على أنّ أهل بيته (صلى الله عليه وآله وسلم) لا ينحصر بهم بدليل أنّه يقتضي وجود أهل البيت (عليهم السلام) مع القرآن الكريم أبداً إلى يوم القيامة، ومن المعلوم أنّ الله سبحانه لم يكتب الخلود لأحد من هؤلاء، فدلّ ذلك على أنّ هناك رجالاً من بعد هؤلاء، ويكون هؤلاء الرجال من ذريتهم بطبيعة الحال.

ولا شك أنّه أحال الدلالة على سائر رجال أهل بيته الذين قصدهم بحيث يعيّن السابق منهم اللاحق، فأحال الدلالة على تعيين الإمام عليّ (عليه السلام) لهم من

(١) لاحظ مثلاً: صحيح مسلم: ١٢٠/٧، مسند أحمد: ١٨٥/١، سنن الترمذي: ٢٩٣/٤ و٣٠/٥، المستدرك على الصحيحين: ٤١٦/٢، السنن الكبرى (البيهقي): ٦٣/٧ و١٤٩/٢، وفي الصواعق المحرقة ٤٢١/٢، قال ابن حجر: (أكثر المفسرين على أنّها [آية التطهير] نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين لتذكير ضمير عنكم وما بعده).

بعده، وهكذا يعيّن الإمام السابق منهم اللاحق مثل تعيين الإمام الحسين (عليه السلام)لابنه عليّ بن الحسين (عليهما السلام) من بعده، وتعيين الإمام عليّ بن الحسين (عليهما السلام) لابنه محمد الباقر (عليه السلام) من بعده، لأنّ الإمام السابق (عليه السلام) يكون مطّلعاً على من اصطفاه الله سبحانه من بعده بالعلم المأثور والتسديد الإلهي فيكون بيان مَن يليه في هداية الناس مِن وظائفه[1].

١٣- مكانة أهل البيت قبل خطبة الغدير.

النقطة الثالثة عشرة:

إنّ مكانة أهل البيت (عليهم السلام) عند الله وعند رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم تحدث عند واقعة الغدير، ولكن هذه الواقعة أعلنت عن اصطفائهم ونصبهم هداة للأمة من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم).

توضيح ذلك: أنّ واقعة الغدير حدثت قبيل وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد أعلن بنفسه في خطبتها عن قرب وفاته، وكانت قبلها بنحوٍ من شهرين ونصف.

وعليه يقع السؤال عن مكانة أهل البيت (عليهم السلام) في الدين قبل هذه الواقعة.

(١) وقد ذكرنا مزيداً من التوضيح حول عنوان أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الخطبة في مواضع أخرى من هذه الأبحاث، لاحظ الإيضاح السابق العنصرين الثاني والسادس والعشرين، وسيأتي في القسم الثاني مزيد توضيح.

والاحتمالات التي تخطر في الذهن بدواً ثلاثة:

الاحتمال الأوّل: أنّ هذه الخطبة أسست لمكانة أهل البيت من غير أن يكون لهم مكانة سابقة قبل ذلك.

الاحتمال الثاني: أنّ هذه الخطبة كانت مجرد تأكيدٍ ـ ولكن في المشهد الجماهيري العام ـ لنصوص سابقة متلاحقة تفيد مفاد هذه الخطبة في حق أهل البيت (عليهم السلام) والإمام (عليه السلام).

والوجه في ذلك أنّ ما يدل على اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) لا يختص بحديث الثقلين في ضمن خطبة الغدير، فهناك آيات وأحاديث أخرى تدل على اصطفائهم بمستويات متعددة من الدلالة من جملتها على سبيل المثال ما تكرر ذكره من النصوص الثابتة:

١. آية التطهير التي نزلت في السنة الخامسة للهجرة على الأغلب، وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[(١)] بضميمة الحديث المتفق عليه في تحديد أهل البيت (عليهم السلام) بالإمام عليّ (عليه السلام) وفاطمة والحسنين (عليهم السلام)[(٢)].

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٣.

(٢) سنن الترمذي: ٣٠/٥، المستدرك على الصحيحين: ٤١٦/٢، السنن الكبرى (البيهقي): ١٤٩/٢، وغيرها، وفي الصواعق المحرقة ٤٢١/٢، قال ابن حجر: (أكثر المفسرين على أنّها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين لتذكير ضمير عنكم وما بعده).

٢. حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في تعليم صيغة الصلاة عليه[١] عند نزول قوله تعالى ـ في السنة الخامسة للهجرة على الأغلب ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[٢]، حيث تضمّن سؤال الله سبحانه أن يصلي ويترحّم ويبارك عليه وعلى آله معاً كما صلّى سبحانه وترحّم وبارك على إبراهيم وآل إبراهيم، وقد علم أنّ صلاة الله سبحانه ورحمته وبركاته على آل إبراهيم كانت اصطفاءهم وإتيانهم الكتاب والحكم والملك، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيماً﴾[٣].

٣. آية المباهلة التي نزلت على الأغلب في السنة الثامنة للهجرة النبوية، وقد خصّت المباهلة بـ(أنفسنا وأبنائنا ونسائنا)، وعلم من السنة النبوية أنّها تعني الإمام علياً وفاطمة والحسنين (عليهم السلام)[٤].

ومنها ما جاء في شأن آحاد أهل البيت (عليهم السلام) والتي اختصت بالإمام عليّ (عليه السلام) أو بفاطمة الزهراء أو بالحسنين (عليهما السلام)، وجملة منها متفق عليها، وقد تضمّنت قرن هؤلاء بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو جعلهم من نفسه أو قرنهم بالمصطفين

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٥٦.

(٣) سورة النساء: آية ٥٤.

(٤) تقدم تخريجه.

من الأمم السابقة، أو الثناء عليهم أو التوصية لهم بشكل مميز، ولذكرها وتوضيحها موضع آخر.

والاحتمال الثالث: ـ وقد يرجح على الاحتمالين الأوليين ـ أنّ هذه الخطبة لم تؤسس لمكانة أهل البيت (عليهم السلام) واصطفائهم، فهم كانوا قد اختيروا من قبل الله ورسوله كالمصطفين من قبل بدليل النصوص التي وردت في حقهم قبل خطبة الغدير وخطبة عرفات ـ على ما يعلم بالنظر إلى التاريخ المتوقع لها من خلال أحداث السيرة وآيات القرآن الكريم ـ إلا أنّ خطبة الغدير ـ ومن قبلها خطبة عرفات ـ تميزت بأنّها تضمّنت الإعلان الصريح عن اصطفائهم وعن نصبهم هداة للأمة في الدين، وإيجاب التمسك شرعاً بهم من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا المعنى ـ أي تعيينهم هداة للأمّة من بعده ـ لا يفي به شيء من النصوص المؤرخة أو التي يتوقع تاريخها بما قبل حجة الوداع[1].

وعليه كانت هناك مرحلتان في شأن مكانة أهل البيت (عليهم السلام):

المرحلة الأولى: هي مرحلة الثناء المميز على أهل البيت (عليهم السلام) بمعنى أنّ الله عز وجلّ ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) أثنيا عليهم ثناء خاصاً وبمفردات وجمل مميزة لهم عن سائر الأمّة من الأصحاب والأنصار والقرابة بما يلوّح باصطفائهم من هذه

(١) اللّهم إلا ما جاء عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في بعض الروايات من حديث الثقلين بعد رجوعه من الطائف، وقد سبق بعض القول في ذلك.

الأمّة من غير أن يكون هناك تكليف خاص للأمة بالتمسك بهم والاهتداء بهديهم، وإنّما كان هذا النصب ـ التكليف ـ بالنظر إلى قرب وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأحلّهم (صلى الله عليه وآله وسلم) محلّه وألزم بالتمسك بهم.

وقد كان هذا الثناء المميز على أهل البيت (عليهم السلام) طوراً بعنوان أهل البيت، وطوراً آخر بآحادهم وهم الإمام عليّ وفاطمة والحسنان (عليهم السلام).

أمّا الثناء على أهل البيت (عليهم السلام) بهذا العنوان أو بما معناه، فإنّه بدأ تقريباً منذ السنة الرابعة للهجرة؛ وذلك لأنّ هذا العنوان الذي كان يعني هؤلاء الأربعة إنّما نشأ بعد ولادة الحسن والحسين (عليهما السلام) كما نشهد ذلك في آية التطهير التي تقع في سورة الأحزاب والتي نزلت على الأرجح في السنة الخامسة للهجرة تقريباً، وقد طبّقها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديثه المعروف حول الآية على الإمام عليّ وفاطمة والحسنين (عليهم السلام)(١)، ويلائم ذلك ما جاء في آية المباهلة التي نزلت على الأغلب في السنة الثامنة للهجرة وجعلت المباهلة مع (أنفسنا ونسائنا وأبنائنا) وقصرتهم على هؤلاء الأربعة دون سائر قرابته (صلى الله عليه وآله وسلم) وأزواجه وأصحابه(٢).

وعليه فإنّ كل النصوص التي تتحدث عن أهل البيت (عليهم السلام) أو ما بمعناه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وتُثني عليهم ثناءً خاصاً ومميزاً أو تدل على خصوصيتهم بين هذه الأمّة ـ مثل آية التطهير وآية المباهلة وحديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في صيغة الصلاة عليه ـ تقع منذ السنة الرابعة للهجرة تقريباً.

فهذا عمّا جاء من الثناء المميز والخصوصية الخاصة لعنوان أهل البيت (عليهم السلام) على سائر الأمة.

وأمّا الثناء المميز على آحاد أهل البيت (عليهم السلام) وهم الأربعة المذكورون:

فالثناء على الإمام عليّ (عليه السلام) يبدأ منذ بعثته (صلى الله عليه وآله وسلم) كما حكاه الإمام عليّ (عليه السلام) في خطبه في نهج البلاغة[1]، كما أنّ الإخاء والاستيزار اللذين تحققا منذ البداية مضافاً إلى مضمونهما الخاص يدلان على الثناء المميز على الإمام (عليه السلام)، وقد استمر الثناء على الإمام عليّ (عليه السلام) في العهد المدني بوجوه مختلفة وفي مناسبات مختلفة مثل المواقف المميزة للإمام (عليه السلام) في نصرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حروبه أو غير ذلك، ومنها على سبيل المثال:

١. قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم غزوة خيبر: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كراراً غير فرار، لا يخيبه الله)[2].

---

(١) لاحظ مثلاً: ص٣٠٠ وما بعد.

(٢) لاحظ مثلاً: تاريخ مدينة دمشق: ٤١/ ٢١٩. وفي روضة الواعظين: ص١٢٧ (فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله لا يرجع حتى يفتح الله على يديه).

٢. وقول جبرئيل عندما بعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا بكر بسورة البراءة في السنة الثامنة: (لا يؤدي إلا أنت أو رجل منك)[١].

كما كان هناك ثناء مميز من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على ابنته فاطمة (عليها السلام) ولا سيما منذ تزويجها من الإمام عليّ (عليه السلام)، وهو ثناء يبدو أنّه كان يزداد كلما اقترب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أواخر أيامه[٢].

وكذلك صدر منه (صلى الله عليه وآله وسلم) ثناء مميز وأوامر خاصة بالمودة في شأن الحسنين (عليهما السلام) منذ ولادتهما[٣].

وهكذا كانت المرحلة الأولى في شأن أهل البيت (عليهم السلام) إبراز مكانتهم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لاحظ: صحيح البخاري (باب مناقب فاطمة): ٤/٢١٩، المستدرك على الصحيحين: ٣/١٥١، (ذكر مناقب فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)، مجمع الزوائد: ٩/٢٠١، عمدة القاري: ١٦/٢٤٩، وغيرها.

(٣) هناك نماذج كثيرة، منها:

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)، سنن الترمذي: ٥/٣٢١، صحيح ابن حبان: ١٥/٤١٢، المستدرك على الصحيحين: ٣/٣٨١.

ومنها قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (اللّهم إني أحبهما فأحبهما) سنن الترمذي: ٥/٣٢٢، المجموع (النووي): ١٥/٣٥٤، مجمع الزوائد: ٩/١٧٩.

ومنها قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من أحبني فليحب هذين) صحيح ابن خزيمة: ٢/٤٨، صحيح ابن حبان: ١٥/٤٢٧، مسند أبي يعلى: ٩/٢٥٠، وغيرها.

وهي تميزهم عند الله تعالى وعند رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وأمّا المرحلة الثانية: فكانت الإعلان عن نصب أهل البيت (عليهم السلام) أعلاماً للهداية وإيجاب التمسك بهم كسبيل منحصر للوقاية من الضلالة والتأكيد على أنّ المرء غداً مسؤول عند الحوض عن التمسك بهم من عدمه.

وذلك ما تحقق بعد حجة الوداع في يوم الغدير قبيل وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) بشهرين وأيام.

وعليه فالفارق بين حديث الثقلين في خطبة الغدير وسائر ما يدل على امتياز أهل البيت (عليهم السلام) من قبل أنّ سائر ما ورد في حقهم قبل واقعة الغدير كان يقتصر على ذكر امتيازهم وقد يوصي بحبهم، ولكن خطبة الغدير فرّعت على هذا الامتياز إيجاب التمسّك بهم ونصبهم أعلاماً هداةً للأمة.

هذا، وإنّ الالتفات إلى سائر النصوص في حق أهل البيت (عليهم السلام) قبل هذه الواقعة يساعد على فهم فقرة الثقلين في خطبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويكون قرينة على المقصود بها، فإنّ الأقوال المتعلّقة بموضوع واحد يكون بعضها قرينة على بعض، ويرفع عنها شوائب الشك والإبهام.

١٤- إحياء الإمام عليّ (عليه السلام) في خلافته لمبدأ صيانة أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمّة من الضلالة وجريان عترته على ذلك.

النقطة الرابعة عشرة:

إنّ الإمام علياً (عليه السلام) ـ على ما ذكرناه من قبل ـ عند توليه الخلافة اجتهد في إحياء هذه الوصية النبوية في خطبه التي ألقاها في الكوفة على مسامع المسلمين وقد أُثِر جملة منها في التاريخ بشكل واضح وبيّن ورواه الثقات، وجمع الشريف الرضي في نهج البلاغة جملة منها، وأحاديثه (عليه السلام) هذه هي التي أدت إلى انتشار التشيع في الكوفة والبناء على مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) في الدين وفي الحكم، ثمّ انتشر ذلك منها إلى سائر الأمصار.

وعلى ذلك جرت عترته من بعده، وقد اتفقوا على الرجوع بعده إلى الإمام الحسن (عليه السلام) ثمّ الإمام الحسين (عليه السلام) بالنظر إلى التنصيص على مكانتهما في الأحاديث النبوية المعروفة عند المسلمين، واختلفوا من بعدهم بين فريق بنى على أولوية الثورة، فمن ثار ضد الحكم كان أولى، وبين فريق يرى أولوية العلم والسداد، وهو ما جرى عليه الإمام الباقر والصادق وذريتهم من الأئمة القادة الذين يرجع إليهم الشيعة الإمامية.

فالإمام (عليه السلام) يكرر دائماً ـ بمناسبات مختلفة مثل حثّ الناس على مطاوعته في تعامله مع الشبهات والفتن واختياره للحرب والسلم ـ على أنّ من الواجب على الأمّة أن يلزموا سمت أهل البيت (عليهم السلام) واتجاههم في الأمور، لأنّهم لن يحيدوا عن الهدى والحق ولن يقعوا في الباطل والضلالة.

ومن نماذج ذلك قوله (عليه السلام) في خطبة له ـ وهي بعد خلافته واستقرار الأمور له في الكوفة ـ بعد حمد الله سبحانه في الثناء على رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (أَرْسَلَه

بِأَمْرِه صَادِعاً، وبِذِكْرِه نَاطِقاً، فَأَدَّى أَمِيناً، ومَضَى رَشِيداً، وخَلَّفَ فِينَا رَايَةَ الْحَقِّ، مَنْ تَقَدَّمَهَا مَرَقَ، ومَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا زَهَقَ، ومَنْ لَزِمَهَا لَحِقَ، دَلِيلُهَا[١] مَكِيثُ الْكَلَامِ، بَطِيءُ الْقِيَامِ، سَرِيعٌ إِذَا قَامَ، فَإِذَا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَه رِقَابَكُمْ، وأَشَرْتُمْ إِلَيْه بِأَصَابِعِكُمْ، جَاءَه الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِه، فَلَبِثْتُمْ بَعْدَه مَا شَاءَ الله، حَتَّى يُطْلِعَ الله لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ ويَضُمُّ نَشْرَكُمْ، فَلَا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، ولَا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزِلَّ بِه إِحْدَى قَائِمَتَيْه، وتَثْبُتَ الأُخْرَى فَتَرْجِعَا حَتَّى تَثْبُتَا جَمِيعاً، أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ، إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ الله فِيكُمُ الصَّنَائِعُ، وأَرَاكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ)[٢].

١٥- مساعي المناقشة والتحريف في فقرة الثقلين من خطبة الغدير

النقطة الخامسة عشرة:

إنّ اعتبار فقرة الثقلين في حديث الغدير ودلالتها على امتياز أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمّة واضحان للغاية، ولا صارف حقيقي لهما عدا أنّ الواقع بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يجر على التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) ولا على التعامل معهم كقرين للقرآن الكريم ولا على كونهم شرطاً في وقاية الأمّة عن الضلالة.

ومن غير الوارد بتاتاً حمل الحديث على وجوب محبة أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) يعني بذلك نفسه.

(٢) نهج البلاغة: ١٤٥-١٤٦.

وإكرامهم فحسب، فإنّ هذا الحديث صريح في وجوب التمسك بهم وقاية عن الضلالة والهلاك، وليس على حدّ قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[1].

ولكن ربما يُناقش في ثبوت هذا الحديث بوجهين هما في الحقيقة من المجادلة بغير الحق، ولا قيمة لهما لدى المحققين والنقّاد:

الوجه الأوّل: معارضة هذا الحديث بحديث حكي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تضمن أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمر بالتمسك بالثقلين كتاب الله وسنته.

وهذا الوجه خطأ ظاهر، وذلك:

أوّلاً: أنّ هذا الحديث غير ثابت على الصحيح وفق المقاييس النقدية السائدة، ولذا أعرض عنه البخاري ومسلم في صحيحيهما رغم أنّ مدلوله يلائم مذاق المحدثين جداً، لأنّه يمثل منهجهم في البناء على الكتاب والسنة.

وثانياً: أنّ مستوى ثبوت خطبة الغدير التي هي حدث تاريخي حضره آلاف الناس لن يقاس بمستوى رواية رويت من قبل بعض الرواة في طبقات متأخرة عن بعض الصحابة تضمّنت أنّ الثقلين هما الكتاب والسنة، بل تنبّه مثل هذه المعارضة على أنّ حدوث هذه الرواية (كتاب الله وسنتي) إنّما كان في ضمن مساعي معارضة خطبة الغدير، وهي تندرج ضمن ظاهرة التعامل

---

(١) سورة الشورى: آية ٢٣.

السلبي مع الأحاديث الواردة في شأن أهل البيت (عليهم السلام)، وسيأتي مزيد توضيح لذلك في محله.

وهناك من قال إنّه لا تنافي بين الحديثين، لأنّ حديث (كتاب الله وسنتي) لم يتضمّن أنّه جاء في ضمن خطبة الغدير، ولا مانع من تعدّد القول، ويكون كل من الحديثين ناظراً إلى اعتبار غير ما ينظر إليه الآخر.

وهذا القول ضعيف بعد وحدة التعبير في الجملتين تماماً(١).

الوجه الثاني: أنّ لفظ مسلم في حكاية خطبة الغدير لم يشتمل على الأمر بالتمسك بالعترة، بل على التوصية بهم، وذلك يعني محبتهم وإكرامهم دون ما يزيد على ذلك.

وهذا الوجه أيضاً خطأ ظاهر وذلك:

أوّلاً: أنّ الطريق الصحيح للحديث لا ينحصر بطريق مسلم في صحيحه حتى يُعتبر بلفظه فحسب، بل صحّ الحديث بطرق وألفاظ أخرى منها ما يصح على شرط مسلم نفسه وبرواية رجاله الذين اعتمد عليهم، ومن جملتها ما اشتمل صريحاً على ذكر التمسك بهم أو ما في معناه كما في رواية زيد بن أرقم عند الطبراني المصرح بصحتها من قوله: (فلا تقدموهما [الكتاب والعترة]

---

(١) لاحظ في توضيح ذلك إيضاح لاحق في القسم الثاني من الكتاب بعنوان (واقعة الغدير ومساعي الكتمان والتحريف والمعارضة).

فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا)[١].

بل يصحّ القول إنّ اللفظ الأشهر في الطرق الصحيحة والحسنة وشواهدها هو الأمر بالتمسك بالثقلين، وأما لفظ مسلم الذي خلا عن ذكر التمسك وما بمعناه فهو نقل نادر.

وثانياً: أنّ المحدّث النابه والناقد لا يخفى عليه أنّ الراجح اشتمال أصل الحديث على الأمر بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) بملاحظة مجموع جهات:

١. إنّ الأمر بالتمسك ـ كما عرفته ـ ورد في أكثر الطرق الصحيحة والموثوقة عند عامة النقّاد، والخلو عنه حالة قليلة أو نادرة.

٢. إنّ الأحاديث المتعلّقة بأهل البيت (عليهم السلام) التي وردت من طريق أهل السنّة قد اتفق فيها ـ حسب ما يظهر بالمقارنة ـ تغيير ألفاظها بما يخفف دلالتها على مكانتهم انسجاماً مع الاتجاه العام لدى أهل السنّة من شرعية الخلافة، وتصحيحاً لسيرة الخلفاء في إبعاد أهل البيت (عليهم السلام) عن التصدّر والمرجعية في هذه الأمة، ألا ترى أنّ جميع النقاد يعترفون بأنّ حديث الغدير بجزأيه ـ فقرة الهدى وفقرة الولاء ـ يصحّ على شروط البخاري ومسلم في صحيحيهما بوضوح ومن طرق متعددة، بل عده جماعة من أهل العلم الأشداء في الرد على الإمامية كالذهبي من الأحاديث المتواترة، ولكن البخاري أهمل الحديث تماماً

(١) المعجم الكبير: ١٦٧/٥.

ولم يذكرها في فضائل عليّ (عليه السلام)، بينما لم يهمل مثله ودونه في الإسناد في فضائل أبي بكر وعمر، كما أنّ مسلم ترك ما يشتمل على جملة (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) مع اتفاق الجميع عدا البخاري على روايته وعلى تصحيحه، وكم لذلك من أمثلة يجدها أي باحث ناقد مهما تكلف في توجيه صنيع المحدثين.

والواقع أنّ بعض المحدثين إنما يروي الحديث مجزّأً أو بألفاظ أخف لامتصاص زخم ثبوت الحديث على الوجه الكامل والأثقل، كي يعطي اعتباراً إضافياً للفظه الخفيف والمجزّأ، لأنه يجد أنّ الإهمال المطلق قد يؤدي في النهاية إلى تقوية اللفظ الكامل والأقوى، وليس ذلك منّي ـ عَلِم الله سبحانه ـ سوء ظن، ولكنه أمر يشاهده الممارس على وجه المعاينة في موارد عديدة، ولا أعني أنّ جميع من أورد الألفاظ المجزأة والخفيفة متّهم في ذلك، ولكن هناك من يتصدى لذلك فيتبعه آخرون من غير تعمد.

ولذلك فإنه متى صحت وكثرت الأحاديث الواردة في حقهم بالألفاظ المؤكدة كانت الألفاظ المخففة مريبة ومشكوكة حقاً.

٣. إنّ قرن القرآن الكريم و(أهل البيت) والتعبير عنهما بالثقلين مع ما فيه من التفخيم إنما يناسب الأمر بالتمسك بهما سواء، لا الأمر بمحبتهم وإكرامهم الذي غايته أن يكون أحد الواجبات الكثيرة في الدين، كما يجب محبة الوالدين وإكرامهما والإحسان إليهما، وكما تجب صلة الأرحام وتحرم قطيعتهم، إلى غير

ذلك.

بل يثق الأديب الناظر في هذه الخطبة أنّ ذكر الكتاب فيها إنّما كان دعماً للأمر بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) الذي هو موضوع هذه الخطبة، ولولا ذلك لم يعقد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الخطبة بعد مغادرة مكة وبعد خطبه المتعددة فيها، وليست الغاية منها بيان أمر بديهي وواضح هو أساس الدين كله وأساس النبوة والرسالة وهو الأمر بالتمسك بالقرآن الكريم.

فخطبة الغدير بمقدماتها مسوقة لبيان اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمّة وعقد الولاء الخاص للإمام عليّ (عليه السلام) على حدّ ولاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

بل كان عقد خطبة الغدير بعد الخروج من مكة وتخصيصها بالحديث عن مكانة أهل البيت والإمام عليّ (عليهم السلام) حصراً لأجل أن يكون لها تميّز في المكان والزمان والاجتماع والعناء، فإنّها لو ألقيت في ضمن خطبه (صلى الله عليه وآله وسلم) في مكة لكان أمراً طبيعياً غير ملفت ولذهبت أدراج الرياح كبعض خطبه (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجة الوداع التي لم تؤثر مضامينها، ولكن ترتيبها على نحو مفاجئ وغير اعتيادي ساعد على الحفاظ عليها، وذلك من تدبير الله سبحانه فيما أذن فيه لرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكم لذلك من نظائر عند التمعّن في خصوصيات المواقف في السنة النبوية، ولعل الله سبحانه يسهل التأليف فيها وإبراز مكامنها والمعاني الظريفة والذكية وراء أحداثها.

١٦- كلمات علماء المسلمين في دلالة حديث الثقلين على امتياز أهل البيت (عليهم السلام)

النقطة السادسة عشرة:

أنّ جمعاً غير قليل من علماء أهل السنة الذين تصدوا لشرح حديث الثقلين استوضحوا دلالته على امتياز أهل البيت (عليهم السلام) ومرجعيتهم للأمّة، وقد اعتنى بعض أهل العلم بجمع جملة منها[1]:

(قال محمد بن عبد الباقي الزرقاني في شرح المواهب اللدنية في شرح حديث الثقلين:

١- قال الحكيم الترمذي: حضّ على التمسك بهم؛ لأنّ الأمر لهم معاينة فهم أبعد عن المحنة، وهذا عام أريد به خاص وهم العلماء العاملون منهم، فخرج الجاهل والفاسق، وهم بشر لم يعروا عن شهوات الآدميين ولا عصموا عصمة النبيين، وكما أنّ كتاب الله منه ناسخ ومنسوخ فارتفع الحكم بالمنسوخ، كذلك ارتفعت القدوة بغير علمائهم العظماء الخ.

٢- قال السمهودي في جواهر العقدين في ضمن التنبيهات التي أوردها بعد ذكر حديث الثقلين: ثانيها الذين وقع الحث على التمسك بهم من أهل البيت النبوي والعترة الطاهرة هم العلماء بكتاب الله عز وجل؛ إذا لا يحث

---

(١) جامع أحاديث الشيعة: ١ / ٤٥ وما بعدها.

صلى الله عليه وسلم على التمسك بغيرهم وهم الذين لا يقع بينهم وبين الكتاب افتراق حتى يردا الحوض، ولهذا قال لا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، وقال في الطريق الآخر في عترته لا تسبقوهم فتهلكوا ولا تعلّموهم فهم أعلم منكم، واختصوا بمزيد الحث عن غيرهم من العلماء لما تضمّنته الأحاديث المتقدمة، ولحديث أحمد ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم قضاء قضى به عليّ رضي الله عنه فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم وقال: الحمد لله الذي جعل الحكمة فينا أهل البيت، انتهى.

٣- وقال ابن حجر في الصواعق بعد ذكر حديث الثقلين في ضمن تنبيه: ثمّ الذين وقع الحث عليهم منهم إنّما هم العارفون بكتاب الله وسنة رسوله، إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلى الحوض ويؤيده الخبر السابق ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم، وتميزوا بذلك عن بقية العلماء، لأنّ الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وشرّفهم بالكرامات الباهرة والمزايا المتكاثرة، وقد مر بعضها، وسيأتي الخبر الذي في قريش وتعلّموا منهم فإنّهم أعلم منكم، فإن ثبت هذا لعموم قريش فأهل البيت أولى منهم بذلك لأنّهم امتازوا من بينهم بخصوصيات لا يشاركهم فيها بقية قريش، وفي أحاديث الحث على التمسك بأهل البيت إشارة إلى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسك إلى يوم القيامة كما أنّ الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض كما يأتي، ويشهد لذلك الخبر السابق في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي إلى آخره، ثمّ أحق من

يتمسك به منهم إمامهم وعالمهم عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه لما قدمناه من مزيد علمه ودقائق مستنبطاته، ومن ثمّ قال أبو بكر عليّ عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذين حث على التمسك بهم فخصّه لما قلناه، ولذلك خصّه صلى الله عليه وسلم بما مر يوم غدير خم.

٤- وقال أحمد بن عبد القادر العجيلي في ذخيرة المآل في بيان محصّل حديث الثقلين: ومحصله ما تقدم في محصّل حديث السفينة من الحثّ على إعظامهم والتعلّق بحبلهم وحبهم وعلمهم والأخذ بهدى علمائهم، إلى أن قال والذين وقع الحث عليهم إنّما هم العارفون منهم بالكتاب والسنة؛ إذ هم لا يفارقون الكتاب إلى وروده الحوض، ويؤيده حديث تعلّموا منهم ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم، وتميّزوا بذلك عن بقية العلماء لأنّ الله أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً وشرّفهم بالكرامات الباهرة والمزايا المتكاثرة.

٥- وقال ولي الله اللكهنوئي في مرآة المؤمنين بعد ذكر حديث الثقلين: ثمّ الذين وقع الحث عليهم منهم إنّما هم العارفون بكتاب الله، وذكر مثل ما نقلناه عن العجيلي.

٦- وقال الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، وقوله ما أن أخذتم به لن تضلوا واقع على الأئمة منهم السادة لا على غيرهم.

٧- وقال عبد الرؤوف المناوي في فيض القدير في شرح الحديث المنقول

عن زيد بن ثابت: وعترتي أهل بيتي تفصيل بعد إجمال بدلاً أو بياناً وهم أصحاب الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

٨- وقال عليّ بن سلطان محمد الهروي المعروف بالقاري في المرقاة شرح المشكاة في شرح حديث الثقلين المنقول عن زيد بن أرقم: الأظهر هو أنّ أهل البيت غالباً يكونون أعرف بصاحب البيت وأحواله فالمراد بهم أهل العلم منهم المطلعون على سيرته الواقفون على طريقته العارفون بحكمه وحكمته، وبهذا يصلح أن يكونوا مقابلاً لكتاب الله سبحانه كما قال: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾، ويؤيده ما أخرجه أحمد في المناقب عن حميد بن عبد الله بن زيد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ذكر عنده قضاء قضى به عليّ بن أبي طالب فأعجبه وقال الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت، وأخرج ابن أبي الدّنيا في كتاب اليقين عن محمد بن مسعر اليربوعي قال: قال عليّ للحسن: كم بين الإيمان واليقين، قال: أربع أصابع، قال: بيّن، قال: اليقين ما رأته عينك والإيمان ما سمعته أذنك وصدقت به، قال: أشهد أنك ممن أنت منه ذرية بعضها من بعض، وفارق الزهري (وقارف الزهري ذنباً) فهام على وجهه، فقال زين العابدين: قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم عليك من ذنبك، فقال الزهري: الله أعلم حيث يجعل رسالته فرجع إلى أهله وماله.

٩- وقال بدر الدين محمود بن أحمد الرومي في تاج الدرة في شرح الشعر (دعا إلى الله فالمتمسكون به مستمسكون بحبل غير منفصم): المعنى يقول

ذلك الحبيب هو الذي دعا أهل التكليف قاطبة من جن وإنس وعرب وعجم في زمانه وبعده إلى يوم القيامة إلى دين الله وما فيه رضاه إذ ترجى شفاعته داعياً إلى الله بأذنه المعتصمون بدينه والمجيبون لدعوته اعتصام حق وإجابة صدق معتصمون بسبب من الله تعالى متصل إلى رضوانه الأكبر من غير أن يطرأ عليه انفصام أصلاً وذلك السبب ليس إلا كتاب الله تعالى وعترة نبيه من أهل العصمة والطهارة الواجب على غيرهم مودتهم بعد معرفتهم إيماناً بقوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ وتصديقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، وفي رواية: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وعترتي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، وهذا نص في المقصود فمن تمسك بكتاب الله تمسك بهم ومن عدل عنهم عدل عن كتاب الله من حيث لا يدري الخ.

١٠- وقال الجهرمي في البراهين القاطعة ما ترجمته بالعربية..: واعلم أنّ من وقع الحث والترغيب على الاقتداء والتمسك بهم من أهل البيت ليس إلا من كان منهم عالماً عارفاً بكتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وهم الذين لا يفارقون الكتاب إلى ورود الحوض ويؤيده هذا قوله صلى الله عليه وسلم: لا تعلموهم فإنّهم أعلم منكم.

١١- وقال الشيخ عبد الحق الدهلوي في شرح الحديث: أهل بيتي بيان لعترتي وعترة الرجل نسله ورهطه وعشيرته الأدنون ممن مضى وعبّر ونبّه (ص)

بأهل بيتي تشريفاً وتكريماً لهم بكونهم أهل بيته ومخالطين ومقتبسين من أنواره فائزين بأسراره) انتهى.

والواقع أنّ دلالة الحديث على مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) في الدين أمر واضح، إلّا أنّ هؤلاء ظنوا أنّ المنظور عامة من اتصف بالعلم من عترة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وذريته، وهو طبعاً غير مناسب، لأنّ مؤدى الحديث أنّ الأمّة إذا رجعت إليهم لن تضل ولن تهلك أبداً، وهذا لا ينطبق على عامة أهل البيت (عليهم السلام) وذريتهم وإن كانوا من أهل العلم، لوضوح أنهم عرضة للخطأ كغيرهم من العلماء، وهو أمر ظاهر بملاحظة أحوالهم في التاريخ الماضي والحاضر، على أنّ ضمان الصيانة عن الخطأ لن يكون إلا بتسديد من الله تعالى، وهو لا يعقل أن يحصل لكل واحد منهم، فإنه لا يوافق سنن الله تعالى في هذه الحياة والتي جرى عليها في الأمم السابقة، وإنما يعقل أن يكون ذلك في شأن رجال معدودين بأعيانهم كما هو فحوى كلمات الإمام عليّ (عليه السلام) في خطبه المأثورة كالتي جاءت في نهج البلاغة، وهو الذي جرى عليه الشيعة الإمامية.



الإيضاح الخامس

في واقعة الغدير وعقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام)

عقد أمرين:

الأمر الأوّل: توضيح معنى الولاء في اللغة والعرف والاستعمالات، وفيه نقاط

١. معنى الولاء وأنواعه

٢. تقسيم الولاء إلى الولاء المتكافئ والولاء المختلف



٣. تفسير اللغويين للولاء

نقد تفسير الولاء بالمحبة

نقد تفسير الولاء بالنصرة

الأمر الثاني: وضوح كون الولاء المذكور للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) في خطبة الغدير في ولاء الحكم

نقد الاحتمالات الأخرى المتكلفة في المراد بالولاء في الحديث

تفصيل القرائن اللفظية الدالة في الخطبة على إثبات ولاء الحكم للإمام (عليه السلام)

قرائن أخرى متنوعة غير لفظية

قرائن من خلال الملابسات الحاضرة للكلام

قرائن على مدلول الخطبة من خلال الحوادث قبل هذه الواقعة

قرائن أخرى على مؤدى الخطبة من خلال الحوادث التي اتفقت بعد هذه الواقعة

أمور موهمة لعدم دلالة الخطبة على عقد الولاء

الإيضاح الخامس

في واقعة الغدير وعقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام)

قد عرفنا أنّ خطبة الغدير تتضمن فقرتين أصليتين مختلفتين موضوعاً ومضموناً:

الفقرة الأولى: فقرة الثقلين ومقدماتها وتوابعها، وتتضمن جعل أهل البيت (عليهم السلام) أعلاماً للهداية في الأمّة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وموضوعها هو أهل البيت (عليهم السلام)، وهو عنوان أعمّ يشمل الإمام عليّاً (عليه السلام) وسائر أفراد أهل البيت (عليهم السلام)، كما أنّ مضمونها المباشر كونهم (عليهم السلام) أعلاماً للهدى، ويكون التمسك بهم واقياً من الهلاك والضلالة، فهم القُوّام على هذه الأمّة في مسيرتها واتجاهها في دينها ودنياها كما كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حياته، وقد تأمّلنا مفاد هذه الفقرة ودلالاتها في الإيضاح السابق، ولاحظنا أنّها تفيد اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الأمة، فالله سبحانه وتعالى اصطفى محمداً وآل محمد من هذه الأمّة كما اصطفى الأنبياء وسلالاتهم في الأمم السابقة مثل اصطفاء إبراهيم وآل إبراهيم.

الفقرة الثانية: ما نعبّر عنها بفقرة الولاء ومقدماتها وتوابعها، وهي قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، ونعني بمقدماتها إقراره (صلى الله عليه وآله وسلم)

الناس على أنّه أولى بالمؤمنين من أنفسهم بقوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، كما نعني بتوابعها قوله: (اللّٰهم وال من والاه وعاد من عاداه) و(انصر من نصره واخذل من خذله).

وموضوع هذه الفقرة يختص بالإمام عليّ (عليه السلام) ولا يشمل غيره من أهل البيت (عليهم السلام)، ومن حيث مضمونها تتضمن إثبات الولاء وليس التميز في الهدى كما في فقرة الثقلين، فالفقرتان مختلفتان موضوعاً ومضموناً، ولكن الثانية متفرعة عن الأولى.

والسؤال الواقع في هذا السياق هو عن معنى الولاء، فهل يعني هذا الولاء الذي أثبته النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام عليّ (عليه السلام) في هذه الخطبة ولاء الحكم بمعنى كون الإمام عليّ (عليه السلام) ولي الأمر بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، أو يعني ولاء آخر غير ذلك؟

وهذا الولاء الآخر أحد ولاءات ثلاثة:

١. الولاء العام القائم بين المؤمنين المذكور في القرآن الكريم بمثل قوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾[1]، فيكون المراد بالحديث تأكيد هذا الولاء في حق الإمام عليّ (عليه السلام).

٢. ولاء خاص للإمام (عليه السلام) يقتضي محبة المسلمين له فحسب دون مزيد

(١) سورة التوبة: آية ٧١.

على ذلك.

٣. ولاء خاص للإمام (عليه السلام) يقتضي نصرة المسلمين إياه (إذا اعتدي عليه) فحسب.

والواقع أنّ الاستحضار الحي لمشهد واقعة الغدير يؤدّي إلى الانتباه إلى الدلالة الواضحة والمؤكدة لهذه الواقعة على إثبات مثل الولاء الثابت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على جماهير المسلمين للإمام عليّ (عليه السلام).

وإنني أعتقد يقيناً أنّ التأمّل الصادق من جمهور المسلمين لهذه الواقعة كما لو كانوا قد حضروها في حينها كافٍ في الانتباه لدلالاتها ومفهوم الخطبة النبوية فيها.

ولكن الذي سلب دلالتها ودلالة النص الملقى فيها هو ما لحقها من الأحداث الذي مثّل غياب أمير المؤمنين (عليه السلام) عن مشهد الحكم، بل عن مشهد تعيين الحاكم في السقيفة، حيث إنّ أهل الحل والعقد من الصحابة ـ كما يعبّر عنهم ـ قد بتّوا بأمر تعيين الخليفة في السقيفة من دون إطلاعه (عليه السلام) ولا إخباره، وقد نقل الجميع عنه (عليه السلام) أنّه اعترض على ذلك، وامتنع (عليه السلام) من البيعة إلى عدة أشهر[1].

وقد يَسلب دلالةَ الوقائع والنصوص التاريخية ـ حتى إذا كانت واضحة

(١) تقدم تخريجه.

وصريحة ـ عدمُ ترتيب الأثر الملائم لها في مسرح الأحداث خارجاً في حينها، فتحجم دلالاتها بما يلائم ما اتفق من الأحداث المتراكمة لاحقاً، فتولّد الأحداث الخارجية المنافرة غباراً حاجباً لمدلول النصّ محدداً له وصارفاً له إلى ما ينسجم مع الواقع الجاري، ويذلل النص التشريعي للواقع على ما هو عكس المفروض من تحكّم النصّ في الواقع، وهذا أمر يكثر في الشأن السياسي وما شابهه عندما يقع الانقلاب على الشرعية الدستورية، ويتّفق ذلك في العالم المعاصر في دول العالم مكرراً، حيث نجد ليّ النصوص بفعل المؤثرات السياسية الغالبة، ويصبح الفهم المحوَّر لمدلول النص تدريجاً بحكم الواقع هو الفهم الطبيعي له.

وهذه ظاهرة وقعت كثيراً في شأن النصوص المأثورة في شأن أهل البيت (عليهم السلام) مثل فقرة الثقلين ـ الواردة في ضمن خطبة الغدير أيضاً ـ كما لاحظنا ذلك في الإيضاح السابق، حيث نزّلت مدرسة الخلفاء مؤداها إلى مستوى (محبّة أهل البيت)، بينما يفيد الحديث بوضوح بالغ ومؤكّد ـ من خلال قرنهم بالكتاب ـ أنّهم عصمة من الضلالة، وهو ما يقتضي وجود أفراد محدودين يكونون بهذه الصفة؛ إذ من غير المعقول ضمان صلاح وعلم وهدى عشيرة بكاملها على امتداد الأزمان، لكن لم يكن الموقع الذي أُحلّ فيه (أهل البيت) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ملائماً لهذا المعنى، فنزّله الجمهور على مستوى المحبة لعترة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهكذا أدّى تغييب أهل البيت (عليهم السلام) عن موقعهم الملائم للنصوص إلى تأويل دلالاتها وتوجيه مفاهيمها بما يلائم سير الوقائع بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على أساس اعتبار ما وقع هو الأصل المحكم الذي ينبغي أن تعرض عليه الأحاديث.

عقد أمرين

وبيان ذلك في ضمن أمرين:

الأمر الأوّل: في توضيح معنى الولاء في اللغة والعرف والاستعمالات، وقد بيّنا أنّ الولاء في اللغة إنّما هو بمعنى وشيجة رابطة تستوجب التكافل والتناصر وأوضحنا أنواع هذه الوشيجة من الولاء السياسي والاجتماعي والقبلي ونحوها، وذكرنا أيضاً تقسيم الولاء إلى الولاء المتكافئ بين طرفيه، والولاء المختلف الذي يكون أحد طرفيه أعلى والآخر أدنى، وعلّقنا في آخر هذا البحث على كلمات اللغويين في تفسير المولى والولاء، واهتممنا بشكل خاص بتفسير الولاء بالمحبة وبالنصرة وهما معنيان فسّر بهما المولى في الحديث في مقام مناقشة دلالة الحديث على ولاء الأمر بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

والأمر الثاني: في معنى المولى في خطبة الغدير، وبيّنا وضوح أنّ المولى في هذه الخطبة هو ولي الأمر، وتدل الخطبة على أنّ للإمام عليّ (عليه السلام) ولاء كولاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الأمّة من بعد وفاته؛ وذلك لقرائن حافة بهذه الكلمة توضح المراد بها، ولذلك فليس هناك من أهمية لما إذا كان المولى في اللغة يحتمل

غير هذا المعنى، وعليه كان التعرض للمعنى اللغوي نافلة من القول لمزيدٍ من الإيضاح.

وإليك التفصيل:

الأمر الأوّل: توضيح معنى الولاء في اللغة والعرف والاستعمالات: وفيه نقاط:

١- معنى الولاء وأنواعه

النقطة الأولى:

في ذكر معنى الولاء وأنواعه

والولاء ذو معنى واضح ومعروف في اللغة والعرف وشائع في الاستعمالات القرآنية وغيرها، ولا يزال يستعمل في العرف العام، وهو وشيجة اجتماعية(١) خاصة قائمة بين الطرفين تستوجب التعاون والتعاضد والتكاتف بينهما.

ويبدو أنّ الولاء في أصل اللغة من الاتصال، لكنّه كان يعني الاتصال الحسي حيث يقال: (هذا الشيء يلي هذا) إذا كان يقع بعده متصلاً به من غير فصل، ويقال: ولي فلان فلاناً إذا تبعه من غير فصل، وتواليا إذا تتابعا، ولكنّه

(١) والمراد بالاجتماع معنى أعم ولو على نحو التغليب فيشمل الولاء بين الله سبحانه وبين خلقه عامة والمؤمنين خاصة.

عُمّم إلى الاتصال المعنوي على قاعدة تدرّج اللغة مِن الأمور الحسيّة إلى الأمور المعنوية، فكأنّ بعض الأولياء متصل ببعض، فهو يلي أمره، ويكون عونه وظهيره وحاميه، وبذلك يكون أولى به مِن الآخرين.

ويتنوع الولاء بحسب مناشئه وما يترتب عليه من حقوق واستحقاقات إلى أنواع عديدة:

١. **ولاء الله سبحانه وتعالى لخلقه:** وهو على ضربين:

فمنه ولاء عام لجميع خلقه وإن كانوا كافرين بالله تعالى كما قال سبحانه: ﴿**وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ**﴾(١).

كما أنّ منه ولاءً خاصاً للمؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿**واللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(٢)، و﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ**﴾(٣)، و﴿**أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾(٤)، و﴿**بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ**﴾(٥)، و﴿**وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى**

---

(١) سورة يونس: آية ٣٠.

(٢) سورة آل عمران: آية ٦٨.

(٣) سورة محمد: آية ١١.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

(٥) سورة آل عمران: آية ١٥٠.

وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[١].

هذا وللمؤمنين أيضاً ولاء لله تعالى أيضاً، كما قال تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[٢].

٢. ولاية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على المؤمنين: وهو ولاء يستوجب طاعته ولو اقتضى بذل أنفسهم من دونه[٣]، قال تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿**مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ**﴾[٥]، كما أنّه يستوجب رحمته ورأفته (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمؤمنين، كما قال عزّ من قائل: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[٦].

هذا، والمؤمنون أيضاً أولياء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما قال سبحانه: ﴿**وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ**

---

(١) سورة الأنفال: آية ٤٠.

(٢) سورة يونس: آية ٦٢.

(٣) وهذا الولاء يمكن أن يدرج في الولاء السياسي للحاكم، ولكن قد يقال إنّه أعم منه إذ الظاهر ثبوته للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ نبوته (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ العهد المكي وإن لم يكن في موقع الحكم آنذاك، بل كان مستضعفاً مهدداً بالقتل والأذى.

(٤) سورة الأحزاب: آية ٦.

(٥) سورة التوبة: آية ١٢٠.

(٦) سورة التوبة: آية ١٢٨.

ظَهِيرٌ﴾(١)، وهذا الولاء قد يدرج تحت ولاء الحاكم.

٣. الولاء السياسي: كما يقال: إنّ فلاناً مدين بالولاء للدولة أو للجهة السياسية المعيّنة أو لدولة أخرى، ويترتّب على هذا الولاء وجود نحو من التعاون بين الطرفين في الأمور السياسية.

٤. الولاء القومي: وهو ولاء بين أهل قومية واحدة بلحاظ الأصل المشترك بينهم وهو على حد الولاء القبلي، ولكنّه أوسع نطاقاً ويترتب عليه حماية بعضهم لبعض بإزاء الآخرين.

٥. الولاء القبلي: وهو الولاء بين أفراد القبيلة الواحدة، ومعناه: أنّ بعضهم يتولى البعض الآخر، ويترتب عليه أن يكون حمىً له وعوناً وظهيراً، فيمنع الآخرين من التعدي عليه، ويستوفي حقه من المعتدي فيقتصّ ممن يعتدي عليه ويدفع الدية عنه إذا ارتكب جناية، كما قال سبحانه: **﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾**(٢)، وقال عزّ من قائل: **﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾**(٣).

٦. الولاء العَقْدي(٤): كما هو الحال في الولاء بالتحالف بين عدة من الدول

(١) سورة التحريم: آية ٤.

(٢) سورة الإسراء: آية ٣٣.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٨٢.

(٤) أي الذي منشؤه التعاقد بين الطرفين.

أو بين القبائل المتعددة، ويترتب عليه أن يكون بعضهم ظهيراً لبعض عند حاجته إلى العون من جهة خطر يهدد أمنه ومصالحه.

ومن هذا القبيل أن يلتحق شخص ما لا عشيرة له أو خلعته عشيرته بعشيرة أخرى فيواليها على أن يحموه ويكون كأحدهم فيما له وعليه بينهم.

٧. **الولاء الأسري أو شبهه:** كولاية الأب على الطفل.

٨. **الولاء بالملك:** وهو الولاء القائم بين المالك للعبد مع العبد المملوك له، فيعبّر عن المالك للعبد بمولى العبد كما يطلق على العبد أيضاً أنّه مولى المالك، وترتّب على ذلك وجوب طاعة العبد للمولى، كما أنّ على المولى أن يحمي عبده ويقيه من اعتداء الآخرين[1].

٩. **الولاء بالجوار:** وهو وشيجة تتحقق بين الجيران تقتضي توقي بعضهم من أذى بعض آخر وعدم مضارته، بل وإعانته ونصرته حسب مقتضى الحال، وعليه يترتّب ما أمر به في القرآن الكريم من الإحسان إلى الجار[2].

١٠. **الولاء الديني** بين أهل الدين الواحد: وهو حالة معروفة في مطلق

---

(١) وينبغي أن يُعلم أنّ الولاء بين المالك والمملوك كان يبقى في العرف القبلي حتى بعد عتق المالك للمملوك إلا إذا تخلى عن تعهده تجاهه بعد عتقه، وقال له: اذهب فأنت سائبة.

(٢) قال تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ (سورة النساء: آية ٣٦).

الأديان ويترتّب عليه نوع من التعاطف والتكاتف بين أهل الدين الواحد ومنه الولاء بين المؤمنين في الإسلام، كما قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾[1]، فالمراد أنهم كجماعة واحدة يتّصل بعضهم ببعض، ويتعاونون على الصلاح المشترك بينهم.

١١. **الولاء بين أولي الأرحام**[2]: كما قال سبحانه: ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي**

---

(١) سورة التوبة: آية ٧١.

(٢) يفترق هذا الولاء عن ولاء العصبة في أنّ ولاء العصبة هو ولاء ذكور عشيرة الشخص من جهة أبيه، فهو يشمل ـ مضافاً إلى ولاء الأب ـ ولاء الإخوة من الأب والأجداد والأعمام وأولادهم، ولا يشمل الولاء بين الأقارب فيما كان بين الشخص وبين قرابته من الأم مثل إخوته من الأم وأجداده من جهتها وأخواله وأولادهم، بل قد لا يشمل الولاء بين الشخص وبين الإناث من جهة الأب مثل الأخت من الأب والجدة والعمة وبناتها.

وأمّا ولاء أولي الأرحام فهو يشمل مطلق القرابة وإن كانوا قرابة من جهة الأم أو كانوا إناثاً، وهذا الولاء لم يكن يترتب عليه الميراث قبل الإسلام، ولكن الإسلام رتّب عليه الميراث، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ**﴾ (سورة النساء: آية ١٢)، والمراد بذلك كلالة الأم أي الأخ والأخت للأم وأمّا كلالة الأبوين والأب فقد تطرق له في آية آخر سورة النساء وهي قوله سبحانه: ﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (سورة النساء: آية ١٧٦).

كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾[١].

١٢. الولاء بالمصاهرة: فمن تزوج من قوم حدث نحو ولاء ووشيجة بينهم ـ وإن كان دون ولاء العصبة ـ ولذلك كانت العرب تعتني بالزواج من الأقوام الأخرى حتى إذا كانت بينهم حزازة أو عداوة من قبل لأجل التقارب بينهم، ولأجل ذلك نجد أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تزوج من سائر فروع قريش الذين عادوه بعد البعثة والدعوة، فتزوج من بني أمية أم حبيبة بنت أبي سفيان شيخ المشركين قبل فتح مكة وأشدهم عداوة للرسول، وتزوّج حفصة بنت عمر ـ بطلب من عمر ـ من بني عدي، وقد تزوج عائشة ابنة أبي بكر من بني تيم إلى غيرهما من النساء، كما يتوقع أن يكون زواج الإمام عليّ (عليه السلام) وابنيه الحسن والحسين (عليهما السلام) وذريته من سائر فروع قريش وقبائل أخرى لأجل إيجاد الصلة بين أهل البيت (عليهم السلام) وتلك القبائل، وهو من أسباب تعدد أزواجهم، كما أنّ بعض القبائل كانت تعرض عليهم الزواج ببعض بناتها للتشرف بالمصاهرة مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو أهل بيته (عليهم السلام) أو للتقرب إليهم، وذلك سبب آخر في تعدد أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته (عليهم السلام)، وربما تزوج بعض الأمراء بإصرارٍ من بنات بعض خصومه أو زوجهم بعض بناته لأجل ذلك كما زوّج المأمون العباسي ابنته أم الفضل من الإمام محمد الجواد (عليه السلام).

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٦.

١٣. ولاء المحكومين للقائد[1]: سواء كانت القيادة في مستوى الحاكم العام وهو ما يعبّر عنه أيضاً هذا العصر بالولاء للدولة، أو في مستوى دون ذلك مثل الحاكم على المدينة أو القائد العسكري، ولذلك يعبر عن الخليفة بولي الأمر ويعبّر عن حاكم المدينة بالوالي عليها وذلك تعبير شائع في العصر الأوّل.

هذا، وللحاكم أيضاً ولاء للمحكومين طبعاً ويندرج في هذا الولاء الولاء بين المطاع ومن تجب طاعته كالولاء بين شيخ العشيرة وسائر أفرادها.

١٤. ولاء قائم على الأسباب الخاصة: مثل الولاء الذي يحصل بالعشرة والصحبة والإحسان والتعلق بين الناس حيث يستتبع عرفاً حق الإعانة والنصرة والحماية.

فهذه كلها وجوه من الولاء، وكلها وشائج اجتماعية تستوجب رعاية ونصرة وحماية وطاعة بحسب ما يلائم المورد.

وقد يطلق الولاء على وجه جامع كما قال سبحانه: ﴿**يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾[2].

وكأنّ المراد ـ والله العالم ـ أنّه لن تغني الوشائج القائمة بين الناس غداً في يوم القيامة؛ لأنّهم لا يستطيعون إعانتهم ونصرتهم وحمايتهم من عذاب الله

(١) وهو أعم من الولاء السياسي الذي تقدم ذكره أوّلاً.

(٢) سورة الدخان: آية ٤١.



سبحانه.

هناك فرق بين كلمة (الولاء) و(الولاية) رغم أنّهما من فروع مادّة لغوية واحدة..

فالولاية تطلق في جانب من يُطاع ويُعان ويُنصر، للتعبير عن موقعه الذي يستوجب له ذلك، كما تستوجب عليه رعايته لمن يتولى أمره، ومنه ولي الأمر، كما يقال إنّ الرسول هو مولى المسلمين وولي عليهم.

والولاء يطلق في جانب من يطيع ويعين وينصر، فيقال: إنّ الناس أولياء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنّهم يطيعونه ويعينونه وينصرونه.

وبهذا العرض يتضح أنّ للولاء معنى واضحاً في اللغة، فهو وشيجة خاصة قائمة بين الطرفين، وهو معنى عام يشمل جميع موارد الولاء من الولاء بين الله ورسوله وبين المؤمنين والولاء للعشيرة والأرحام والولاء بين المالك وعبده والولاء بين المؤمنين أنفسهم والولاء بين الجيران والأصدقاء والولاء بين المتحالفين.

٢- تقسيم الولاء إلى الولاء المتكافئ والولاء المختلف

النقطة الثانية:

إنّ الولاء هو ـ نوعاً ـ علاقة متكررة، بمعنى أنّ كلاً من طرفي الولاء يوالي الطرف الآخر، وقد يطلق على كل منهما أنّه مولى الآخر ووليه.

ولكن قد يكون الولاء من الطرفين متماثلاً في مغزاه وآثاره وقد يكون مختلفاً.

ولذلك ينقسم الولاء إلى قسمين:

القسم الأوّل: الولاء المتكافئ، وهو الولاء الذي تترتب عليه آثار متماثلة في حق الطرفين، فيكون لكل من طرفي الولاء من الحقوق على الآخر مثل ما يكون للآخر عليه، كما في الولاء بين أفراد العشيرة، والولاء بين المؤمنين، وكل الولاءات العامة التي تثبت بصفة مشتركة كالولاء القومي والقبلي والتعاقدي[1] والديني والولاء بالجوار والقرابة والمصاهرة والصحبة.

وهذا القسم يشبه المعاني المتماثلة المتلازمة مثل الأخوّة فإنّ أخوّة شخص لآخر تلازم أخوّة ذاك الآخر للأوّل أيضاً، وكذلك ابن العمّ فإنّه متى كان شخص ما ابن عمّ لشخص آخر كان الآخر أيضاً ابن عمّه.

وهذا شأن جملة من العلائق الأخرى التي تقوم بين شيئين، مثل المساواة فإذا كان (أ) مساوياً لـ(ب) فإنّ (ب) أيضاً يكون مساوياً لـ(أ).

القسم الآخر: الولاء المختلف، وهو أن يختلف نوع الأثر المترتب على ولاء أحد الطرفين للآخر عن الأثر المترتب لولاء الآخر له، كأن يكون أحد طرفي

---

(١) هذا، في العقود التي لا تستبطن تبعية بعض لبعض، وأمّا التي تتضمن تبعية كالعقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم فهو من القسم الثاني.

الولاء أولى بالآخر من نفسه أو بمثابة ذلك، وأمّا الآخر فلا يكون كذلك، وإن كان للأوّل أيضاً علقة به تسمى ولاء وتستتبع وظيفة له تجاهه.

وهذا القسم يشبه العلائق المتفاوتة المتلازمة مثل الأبوّة والبنوّة فإنّ أبوّة شخص لآخر لا تستلزم أبوّة الآخر له كما في الأخوّة، بل بنوّة الآخر له، وكذلك معنى الأمّ والجد والحفيد والعمّ والخال وابن الأخ.

وكذلك الحال في جملة من العلائق التي تقوم بين شيئين مثل الزيادة والنقيصة فإنّهما ليسا كالمساواة، فإذا كان (أ) أزيد من (ب) فليس (ب) أزيد من (أ)، بل أنقص منه.

ومثال هذا القسم هو مورد الولاء بالملك بين السيد وبين العبد، ويعبّر عن كل من السيد والعبد في اللغة بالمولى لكن الولاء غير متكافئ بينهما؛ لأنّ على العبد أن يطيع السيد، وليس السيد ملزماً بطاعة العبد، نعم من وظيفة السيد أن يحمي عبده وينتصر له.

والظاهر أنّ التعبير عن كل منهما بالمولى باعتبار أنّ المولى في اللغة هو صاحب الولاء مع آخر سواء كان الطرف الأعلى فيه أم الطرف الأدنى، ويصدق على السيد أنّه صاحب ولاء العبد، وعلى العبد أنّه صاحب ولاء مع السيد.

ويمكن التعبير في هذا القسم من الولاء بأنّ أحد الطرفين يكون تابعاً والآخر متبوعاً، كما هو الحال في ولاء السيد والعبد، فالتابع والمتبوع متصلان

بالوشيجة الرابطة بينهما، ومن ثمّ يتحقق أصل معنى الولاء في كل منهما.

هذا، وقد يطلق الولاء في الطرفين في هذا القسم بمعنى متفاوت وليس بالمنظور الجامع، وذلك من جهة إشراب الولاء معنى التابعية والمتبوعية، فيصدق الولاء على المتبوع على أساس كونه قائداً وآمراً ومطاعاً، وعلى التابع باعتبار أنّه مقود ومأمور ومطيع للأوّل، وإن كان هناك حقوق للتابع على المتبوع من جهة أنّ الحقوق تتقابل دائماً كما جاء في كلام لأمير المؤمنين (عليه السلام) سيأتي نقله، وهذا شأن الولاء الذي يثبت لأحد الطرفين بصفة خاصة به.

هذا، وينطبق هذا القسم من الولاء على عدد من أنواع الولاء المتقدمة:

١. ولاء السيد المالك والعبد المملوك، وقد أوضحناه.

٢. الولاء الأسري: من قبيل ولاء الأب على الطفل، فإنّ الأب ولي الطفل في هذا النوع من الولاء، وليس الطفل ولي الأب، بل هو المولى عليه.

٣. ولاء الحكم والقيادة: فإنّ حقوق الحاكم على المحكوم تختلف عن حقوق المحكوم على الحاكم.

٤. وهكذا القول في ولاء الله سبحانه على الناس، فهو ولاء مختلف، فإنّ لله سبحانه من الحق على عباده غير ما للعباد على الله سبحانه، لكن للناس أيضاً ما يستوجبونه من لطف لله تعالى، من جهة أنّ الحقوق تتقابل دائماً، كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة له بصفين ـ يصف فيه حق الوالي وحقوق الرعية ـ: (أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَه لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً بِوِلَايَةِ أَمْرِكُمْ، ولَكُمْ

عليّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، فَالْحَقُّ أَوْسَعُ الأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ، وأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لَا يَجْرِي لأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْه، ولَا يَجْرِي عَلَيْه إِلَّا جَرَى لَه، ولَوْ كَانَ لأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَه ولَا يَجْرِيَ عَلَيْه، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لِلَّه سُبْحَانَه دُونَ خَلْقِه، لِقُدْرَتِه عَلَى عِبَادِه، ولِعَدْلِه فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْه صُرُوفُ قَضَائِه، ولَكِنَّه سُبْحَانَه جَعَلَ حَقَّه عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوه، وجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْه مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ، تَفَضُّلًا مِنْه وتَوَسُّعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُه.

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَه مِنْ حُقُوقِه حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا، ويُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، ولَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ)[١].

٥. ولاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الأمّة، حيث جاء قوله تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾[٢]، ممّا يعطي أنّه ولاء مختلف؛ إذ مِن المعلوم أنّ المؤمنين ليسوا كذلك بالنسبة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهم ليسوا أولى به (صلى الله عليه وآله وسلم) مِن نفسه، وإن كان لهم حقوق ملائمة لولايته (صلى الله عليه وآله وسلم) عليهم، من جهة أنّ ولاء المؤمنين للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إنّما هو بصفته الخاصة، وهي كونه رسولاً، بينما ولاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للمؤمنين إنّما هو لصفة أخرى وهي كونه المرسل إليهم، فلم تكن الصفة

(١) نهج البلاغة: ٣٣٣.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٦.

المستوجبة للولاء في الطرفين صفة واحدة مشتركة مثل الإيمان الجامع في الولاء بين المؤمنين.

ويترتب على كلا نوعي الولاء حقّ النصرة، ولكن مع تفاوت..

ففي الولاء المتكافئ: تكون نصرة بعض لبعض على نحو متكافئ.

وأمّا في الولاء المختلف: فيكون هناك تناصر أيضاً، إلا أنّه يكون بمحورية الطرف الأعلى في الولاء كالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهو أولى ببعض شؤون الطرف الآخر منه، ومِن ثَمَّ وجب على المؤمنين أن ينصروا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نصرة مميّزة مبنية على أولويته (صلى الله عليه وآله وسلم) لهم مِن أنفسهم؛ لأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) محور جبهة الحق وقائده وعَلَمه، كما قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ..**﴾[1].

كما أنّ العداء أيضاً للأعداء يترتّب على كلا نوعي الولاء، ولكن معاداة بعضهم لأعداء بعض يكون بنحو متماثل في الولاء المتكافئ، ومِن ثَمَّ فإنّ على المؤمنين أن يعادي بعضُهم أعداءَ البعض الآخر ويدفع العدوان عنه، وأمّا في الولاء المختلف فيكون محور العداء هو معاداة الطرف الأعلى في الولاء، ومِن ثَمَّ شدّد في الآيات على عدم موالاة المؤمنين لمن كفر بالله ورسوله[2].

---

(١) سورة التوبة: آية ١٢٠.

(٢) كما جاء في الآيات التالية:

١. قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة آل عمران: آية ٢٨).

٢. قوله سبحانه: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (سورة النساء: آية ٨٨ ـ ٨٩).

٣. قوله جلّ جلاله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (سورة النساء: آية ١٣٨ ـ ١٤٠).

٤. وقوله عزَّ شأنه عن المنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (سورة النساء: آية ١٤٤).

٥. قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (سورة المائدة: آية ٥١ ـ ٥٢).

٦. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة المائدة: آية ٥٧ ـ ٥٨).

٧.قوله سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (سورة المائدة: آية ٧٨ ـ ٨١).

٨. قوله جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (سورة التوبة: آية ٢٣ ـ ٢٤).

٩. قوله عزّ شأنه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (سورة هود: آية ١١٣).

١٠. قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (سورة الممتحنة: آية ١)، هذه السورة تقريباً كلها تدور حول الموضوع وتؤكد على المعنى نفسه، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة الممتحنة: آية ٩)، وقوله جلّ جلاله في الآية الأخيرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (سورة الممتحنة: آية ١٣)، فراجع.

هذا، ومما ذكرنا في تقسيم الولاء إلى متكافئ وغير متكافئ يظهر القول في جدل دار حول معنى الحديث، حيث إنّ هناك من ناقش في دلالة الخطبة على ولاء الحكم للإمام (عليه السلام) بأنّه يتوقف على أن يراد بالمولى الأولى بالناس، وقالوا إنّه لم يرد المولى بمعنى الأولى، وسعى آخرون في جواب ذلك إلى إثبات مجيء المولى بهذا المعنى.

فهذا الجدال لا موضع له أصلاً؛ لأنّ ولاء الحكم من قبيل الولاء غير المتكافئ، ولا ريب في أنّ الولاء والمولى والولي ترد في الولاء المتكافئ والولاء غير المتكافئ، وهذا هو منشأ استفادة الأولوية من كلمة المولى، لا كون المولى بمعنى الأولى، فلا حاجة إلى جعل المولى بمعنى الأولى لفظاً، وسيجيء مزيد إيضاح لذلك.

٣- تفسير اللغويين للولاء

النقطة الثالثة:

لقد ذُكِرَ للولاء وللمولى والولي في كتب اللغة معانٍ متعددة، ولكنها ليست معاني لها حقيقة، بل هي على ضربين:

١. ما يكون مصداقاً لها؛ مثل: جعل المولى بمعنى المالك والعبد والحليف والجار والابن والعمّ وابن العمّ وابن الأخت والصهر والقريب مطلقاً والصاحب، ففي كل من هذه الموارد وشيجة بين الطرفين من جهة الملك أو

التحالف أو القربى أو المصاهرة أو الصحبة أو الرحم.

٢. ما يكون من لوازم الولاء، مثل جعل المولى بمعنى الناصر والمحب، فإنّ النصرة والمحبة من لوازم تلك الوشيجة الرابطة بين الطرفين.

ولا حجة في ذكر اللغويين للأمور المذكورة في معاني المولى والولي والولاء على أنّها معان لهذه المادة وفروعها، لوجوه ثلاثة:

الأوّل: أنّنا ندرك من خلال ملاحظة النصوص والاستعمالات القديمة والحاضرة ومن خلال الوجدان اللغوي الناشئ منها أنّ الولاء لا يرد بهذه المعاني بخصوصياتها وإنّما هو معنى جامع بينها.

الثاني: أنّ الذي يظهر بالاطلاع على الكتب اللغوية وكلمات اللغويين في أسلوب تفسير المواد أنّهم لا يعنون بما يذكرونه من معانٍ للمادة اللغوية والكلمة أنّها هي معاني للكلمة بخصوصياتها بدليل أنّهم كثيراً ما يذكرون أموراً لا يحتمل أن تكون معاني للكلمة بحدها، نظير ذكر ابن العمّ والعمّ في معاني المولى والولي ولا شك أنّهما لا يردان مرادفين للعمّ ولابن العمّ، وإنّما يذكرون كثيراً من الأمور التي هي من مصاديق المعنى أو لوازمه وملزوماته للدلالة على طبيعة المعنى وحدوده فحسب.

الثالث: أنّ التتبع والممارسة في كلمات اللغويين يفضي إلى الوقوف على أنّهم أحياناً قد تأثروا في تفسير الكلمات باتجاهاتهم الدينية والمذهبية..

إمّا بشكل مباشر من جهة أنّ جماعة من اللغويين أو المتصدين للتأليف في

اللغة هم ـ بجنب علمهم باللغة ـ ذوو اتجاهات دينية ومذهبية وفقهية متعددة، بل إنّ جماعة منهم معدودون ـ بجنب كونهم من علماء اللغة والمصنفين فيها ـ من علماء الكلام والمذهب والفقه.

وإمّا بشكل غير مباشر من جهة تعويلهم على آخرين من أهل العلم قد تأثروا بتلك الاتجاهات كمن صنّف في غريب القرآن والحديث، فكانت تصنيفاتهم هذه مصدراً للغويين من بعدهم، وقد نبّه على هذا المعنى بعض المحققين(١) من الأصوليين من أساتذتنا في البحث عن حجية قول اللغوي في علم الأصول، وعلى ذلك شواهد كثيرة لا يسع المقام ذكرها.

ولا بأس هنا بالإشارة إلى تفسير الولاء بالمحبة وتفسيره بالنصرة لأنّهما مما فسر بهما المولى في خطبة الغدير.

نقد تفسير الولاء بالمحبة

لقد ذكر في كتب اللغة في ضمن معاني المولى والولي في اللغة (المحب)، وكذلك في معنى سائر فروع المادة، قالوا يقال: ولي فلان فلاناً ولاية إذا أحبه، وكذلك يقال والى فلاناً موالاة وولاء إذا أحبه.

ولكن الصحيح: أنّه لا يرد الولاء بمعنى ذات المحبة، بل لا بدّ أن تكون هناك وشيجة تستوجب ضرباً من الحماية والنصرة، ولكنها قد تنشأ عن المحبة

---

(١) سماحة السيّد الأستاذ السيّد السيستاني (مُدَّ ظِلُّهُ العالِي).

أو تستتبع المحبة بحسب اختلاف الموارد، ولذا نجد أنّه لا يطلق الولاء على محبة غير الإنسان، فلو أحببت بيتاً أو حيواناً أو متاعاً لم يصح القول: إنّك وليته أو واليته، ولذا عبّر أهل اللغة أنّه يقال: (ولي فلاناً ووالاه) فكلمة (فلان) قد تشير إلى أنّه لا بدّ أن يكون المحبوب شخصاً.

وينبّه على عدم كون الولاء بمعنى المحبة أنّك لو أحببت طفلاً أو بالغاً لجماله أو أحببت صاحب محل لأنّه يبيعك الشيء بقيمة مناسبة لم يصدق أنّك وليته أو واليته بتاتاً، وليس ذلك إلا لأنّ الولاء هنا لا يعبّر عن وشيجة من شأنها أن تستتبع النصرة.

ومما ينبه على ذلك ملاحظة حال العداء بالالتفات إلى أنّ العداء ضد للولاء ـ كما هو ظاهر ـ بحسب الوجدان اللغوي، ويشهد له المضادة بينهما في الاستعمالات مثل ما في خطبة الغدير (اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه)، ومن المعلوم أنّ العداء لا يطلق على صفة شخص يكره شخصاً آخر أو يبغضه إلا إذا كانت كراهته إياه أو بغضه له بمستوى يكون من شأنه أن يتعرض له بالأذى والعدوان.

نعم، قد يكون الولاء ناشئاً عن المحبة بمعنى أنّ الإنسان إذا أحب شخصاً عقد معه وشيجة تستوجب الدفاع عنه وحمايته، وقد تنشأ هذه المحبة عن الولاء فهو يوالي عشيرته ومن ثمّ يحبهم.

ولذلك نجد ذكر المحبة في موارد الولاء في جملة من آيات القرآن الكريم،

كما نصّ سبحانه على النهي عن اتخاذ المؤمنين للمنافقين بطانة، وهو في معنى النهي عن توليهم، ثمّ ذكر أنّهم يحبّون هؤلاء المنافقين ولكن المنافقين لا يحبونهم(١)، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ

---

(١) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (سورة آل عمران: آية ١١٨ ـ ١٢٠).

أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[١].

لكن التأمّل في هذه الآيات يقتضي أنّ المحبة والمودة لم تذكر على أنّها هي الولاء، بل على أنّها من مظاهره في المورد، وينبّه على ذلك أنّ الولاء في هذه الآيات ليس بمعنى المحبة والمودة قطعاً، بل هو وشيجة كان يقيمها المؤمنون مع الكفار والمنافقين من عشائرهم الذين يرتبطون بهم بالولاء القبلي وهو ليس ولاء محبة فقط؛ وذلك خشية أن يضطروا إليهم يوماً إذا ما خسر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنون، كما يظهر هذا المعنى من سائر الآيات الناهية عن موالاة الكفار والمنافقين، ولذا قال سبحانه: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.

(١) سورة الممتحنة: آية ١ ـ ٩.

وانفكاك الولاء ـ بمعنى الوشيجة ـ عن المحبة والمودة أمر ظاهر، فالمرء قد يوالي عشيرته ورجالها رغم كراهته قلباً لها أو لبعض رجالها، ولكنه يحافظ على الوشيجة معهم من جهة مصلحته كما هو ظاهر.

إذاً اتضح بما ذكرنا أنّ الولاء لا يرد بمعنى المحبة بتاتاً.

نقد تفسير الولاء بالنصرة

وأمّا تفسير الولاء بالنصرة فليس صحيحاً، بل هو وشيجة تستتبع النصرة، ويكون ذلك من شأنها، ولكن قد تتخلف النصرة، فترى تخلف أولياء الشخص عن نصرته.

والذي يوهم كون الولاء بمعنى النصرة هو لصوق النصرة بالولاء في العرف والاستعمالات، ومن الآيات التي تمثل هذا الارتباط:

١. قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾[(١)]، فهذه الآية تشير إلى أنّ شأن الولي أن يرجى نفعه أو دفعه الضرر عمّن يتولاه.

٢. وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ**

---

(١) سورة الرعد: آية ١٦.

يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾[١]، فهذه الآية تدل على أنّ شأن الولي أن ينصر من يتولاه.

٣. وقوله تعالى: **﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**[٢]، وهذه الآية تدل على أنّ شأن الولي أن ينصر من تولاه ويدفع عنه الضرّ.

٤. وقوله تعالى: **﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾**[٣].

٥. وقوله تعالى: **﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾**[٤].

٦. وقوله تعالى: **﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾**[٥]، ومساق هذه الآية ذكر الولاء بالنظر إلى معنى النصرة.

٧. وقوله تعالى: **﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ**

---

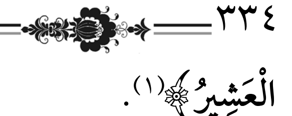
(١) سورة الشورى: آية ٤٦.

(٢) سورة الجاثية: آية ١٠.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٥٠.

(٤) سورة التوبة: آية ٥١.

(٥) سورة التحريم: آية ٤.



الْعَشِيرُ﴾[١].

٨. وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾[٢].

وقد تكرر اقتران الولاء بالنصرة وما ينتمي إليها مثل العزة.

ولكن يدل سياق كثير من الآيات على أنّ النصرة إنّما هي من آثار الولاء.

ومن هذه الآيات:

١. قوله سبحانه: ﴿**الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾[٣]، والملاحظ في هذه الآية أنّهم اتخذوا الكافرين أولياء طلباً للعزة التي تحصل بالحماية والنصرة، فالعزة غاية للولاء وليست مساوقة معه، فالولاء أمر فعلي والعزة أمر مرجوّ.

٢. وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾[٤]، والملاحظ في هاتين الآيتين أيضاً توصيف بعض المؤمنين باتخاذهم

---

(١) سورة الحج: آية ١٣.

(٢) سورة الدخان: آية ٤١.

(٣) سورة النساء: آية ١٣٩.

(٤) سورة المائدة: آية ٥١ ـ ٥٢.

اليهود والنصارى أولياء رجاء أن يحموهم إذا أصابتهم دائرة، فكان الولاء فعلياً والحماية مرجوّة في حال الحاجة إليه مستقبلاً.

٣. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[١]، ومن الملاحظ في هذه الآية أنّها تفصل بين المؤمنين المهاجرين والأنصار وبين المؤمنين غير المهاجرين وبين نصرتهم إذا استنصروهم، فجاء عن غير المهاجرين: ﴿**مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ**﴾ وهو ليس نفياً للولاية معهم، ولكن المراد أنّه لا يترتب على الولاية أثر من آثارها عدا النصرة في الدين.

٤. وقوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[٢]، وهذه الآية ترتب على الولاء أثراً غير النصرة وهو الصيانة عن الوقوع في الإثم.

٥. وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ**

(١) سورة الأنفال: آية ٧٢.

(٢) سورة التوبة: آية ٧١.

﴿دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾[١]، فهذه الآية تشير إلى أنّه لا يترتب على الركون للظالمين والولاء لهم ما يرجى من نصرتهم.

٦. ومن ذلك قوله تعالى في دعاء المؤمنين الله سبحانه: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٢]، والملاحظ في هذه الآية أنّها تفرّع طلب النصرة على الولاء، وهو يناسب المغايرة بينهما.

٧. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٣].

٨. وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٤]، والملاحظ في هذه الآية تكرار التعبير بالمولى والنصير، وهو يدل على المغايرة بينهما.

ومن خلال هذه الآيات يظهر أنّ النصرة أثر يرجى ترتبه على الولاء وليست عين الولاء.

فظهر مما تحصّل أنّ تفسير الولاء بمطلق المحبة مسامحة بيّنة؛ لأنّ من الخطأ أن يعبّر المرء عن محبة بعض الناس لبعض بالولاء إذا لم يكن مستعداً لإعانته

(١) سورة هود: آية ١١٣.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

(٣) سورة الأنفال: آية ٤٠.

(٤) سورة الحج: آية ٧٨.

وحمايته ونصرته، فلا يقول القائل بدل (أحبك): (إنني أواليك)، وإذا لاحظنا أنّه قد يعبر عن المحب بالموالي فلأنّ له علاقة به شأنها أن توجب حمايته ونصرته.

كما أنّ مجرد نصرة شخص لآخر في موقف خاص اتفاقاً مثل شجار ونحوه لا يوجب صدق كونه وليه، بل لا بدّ في صدقه أن يفرض لنفسه علاقة خاصة به، فيقوم بنصرته تفريعاً على ذلك.

هذا عن أصل معنى الولاء في الحديث.

وضوح كون الولاء المذكور للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) في خطبة الغدير في ولاء الحكم

الأمر الثاني: حول معنى ولاء المسلمين للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وللإمام (عليه السلام).

إنّ المفهوم من خطبة الغدير بوضوح إثبات ولاء الحكم للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام عليّ (عليه السلام)، فقد قام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بين المسلمين قرب وفاته ونبّه (صلى الله عليه وآله وسلم) على اقتراب أجله وقال: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله).

ولو أنّ مثل هذا الموقف صدر من أي شخص في موقع القيادة لجماعة ـ ولو في مستوى شيخ العشيرة ـ قرب وفاته، فاختار شخصاً مؤهلاً للقيادة واجداً لمقوماتها العرفية في المورد، كأن يكون أقرب الناس إليه، فقام بين جماهير

الناس، وأخبر عن قرب وفاته، وقال: (ألست أنا أولى بكم، فقالوا نعم، فقال فمن كنت مولاه فهذا الشخص مولاه)، لم يشك أحد في أنّه قد عيّن ذلك الشخص لموقعه القيادي من بعده.

وليس من المعقول بحال إثارة التشكيك في هذا الشأن بمجادلات لغوية وفنية.

أمّا بالنظر إلى ذات الجملة التي تتضمن أنّ الإمام (عليه السلام) مولى المؤمنين، فالوجه فيه أنّ المدار الحقيقي لدلالة الحديث في قوله: (فعليٌّ مولاه) على ولاء الحكم للإمام (عليه السلام) من عدمها هو أنّ هذا الولاء إن كان من قبيل الولاء المتكافئ بين الإمام وبين المؤمنين لم يدل الحديث على ولاء الحكم طبعاً، إذ يكون المؤمنون موالي الإمام (عليه السلام) كما أنّه مولى لهم، ويكون ذكر ولائه خاصة على سبيل التأكيد.

والولاء المتكافئ بين الإمام (عليه السلام) وبين المسلمين ليس إلا ولاء الإسلام والإيمان، إذ لا سبب آخر هنا للولاء المتكافئ مثل القرابة والجوار والمصاهرة ونحو ذلك.

وإن كان الولاء المذكور في قوله: (فعلي مولاه) هو الولاء غير المتكافئ ـ بمعنى كون الإمام هو محور الولاء فهو قائد متبوع والمسلمون تبع له كما هو الحال في ولاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ فإنّ المفهوم منه حينئذٍ هو ولاء الحكم، كما هو المفهوم في شأن ولاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ إذ ليس للإمام (عليه السلام) صفة أخرى تجاه

عامة المؤمنين يكون بها قائداً ومتبوعاً، فيكون مفاد الكلام جعله مولى للمسلمين من بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

هذا، ومن المعلوم أنّ المفهوم من جعل الشخص بعينه مولى للناس كافة هو أنّه المحور للولاء والناس في موقع التبعية له، وليس ولاؤه معهم بولاء متكافئ؛ وذلك لوجهين:

الأوّل: أنّ الولاء العام المتكافئ بين الإمام (عليه السلام) وبين المؤمنين ليس هو ولاء له بشخصه، بل بصفة كونه مؤمناً مثلهم، ومن الظاهر أنّ المفهوم من جعله (عليه السلام) مولى للمؤمنين أنّه مولى لهم بشخصه لا بصفة زائدة هي الإيمان.

الثاني: أنّ التركيز على الشخص في الولاء على كل حال يناسب خصوصيته في الولاء بالقياس إلى سائر الناس، والولاء العام هو ولاء مشترك بينه وبين الناس ولا خصوصية له في الولاء وهذا خلاف المفهوم من الكلام.

ولكننا سوف نثير الشك في ذلك بدواً بذكر الاحتمالات الأخرى في مؤدى الحديث ونقدها لننهي الشك باليقين ثمّ نفصل القرائن الدالة على إرادة ولاء الحكم بالحديث.

نقد الاحتمالات الأخرى المتكلَّفة في المراد بالولاء في الحديث

فنقول: إنّ الاحتمالات الأخرى الواردة في الولاء الذي تمّ إثباتها للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وللإمام (عليه السلام) بقوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) غير إرادة ولاء الحكم ثلاثة:

الاحتمال الأوّل: أن يكون المراد بالولاء الولاء المتكافئ الثابت بين كل من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) وبين المؤمنين بالنظر إلى صفة الإيمان الجامع بينهم، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض كما جاء في القرآن الكريم.

وكلمة المولى تستعمل في كل من الولاء المختلف والولاء المتكافئ، وتستعمل كذلك في الأعم منهما كما يتمثل ذلك في القرآن الكريم.

فمن استعمال المولى في الولاء غير المتكافئ في طرفه الأعلى موارد متعددة، جاء منها في القرآن الكريم موردان:

١. ما ورد من إطلاق المولى على الله تعالى مضافاً إلى المؤمنين كما قال تعالى: ﴿**بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ**﴾(١)، ومثله آيات عديدة أخرى، وقد حكى ذلك من قول المؤمنين أنّهم خاطبوا الله سبحانه بأنّه مولاهم، كما في قوله تعالى: ﴿**أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾(٢)، وربما ذكر أنّه تعالى المولى الحق للكفار كما في قوله تعالى: ﴿**وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ**﴾(٣).

٢. إطلاق المولى على السيد كما قال سبحانه: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا**

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٥٠.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

(٣) سورة يونس: آية ٣٠.

أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾[١].

وقد يطلق على العبد أنّه مولى السيد وهو الطرف الأدنى في الولاء المختلف، كما في قوله تعالى عن الأدعياء: ﴿**ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ**﴾[٢].

وقد يطلق المولى في الولاء غير المتكافئ على كل من الطرف الأعلى والأدنى وقد يجعل من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[٣]، فإنّ الله سبحانه هو الطرف الأعلى في الولاء والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنون هم الطرف الأدنى.

ومن استعمال المولى في الولاء المتكافئ إطلاقه على العصبة في قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ**﴾[٤]، وقوله سبحانه عن زكريا (عليه السلام): ﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا**﴾[٥].

ومن إطلاق الولاء على ما يشمل الولاء المتكافئ والمختلف قوله تعالى:

---

(١) سورة النحل: آية ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٥.

(٣) سورة التحريم: آية ٤.

(٤) سورة النساء: آية ٣٣.

(٥) سورة مريم: آية ٥.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا﴾[١]، فإنّه يشمل مطلق المولى الذي شأنه أن ينفع، فيشمل الولاء المتكافئ والمختلف جميعاً.

وهكذا يتضح أن كلمة المولى تستعمل في الولاء المتكافئ كما تستعمل في الولاء المختلف، وبذلك يصبح مفاد قوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) مجملاً في الولاء المقصود إثباته للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام)؛ إذ كما يجوز إرادة ولاء الحكم ـ وهو ولاء غير متكافئ ـ تجوز إرادة الولاء المتكافئ المبني على الإيمان.

ويلاحظ على هذا الاحتمال: أنّ الولاء المتكافئ معنى صحيح لمادة الولاء ولكلمة المولى، ولكن هذا لا يلائم هذه الخطبة، فإن التركيز في الولاء للإمام (عليه السلام) على الشخص وقرنه بالولاء للرسول الظاهر فيه الولاء غير المتكافئ يجعل الجملة واضحة جداً في الولاء غير المتكافئ الذي يملي على الأمّة وظيفة خاصة تجاه الإمام (عليه السلام) كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

الاحتمال الثاني: أن يكون الولاء في الحديث من قبيل الولاء غير المتكافئ، ولكن لا في مستوى ولاء الحكم والقيادة، بل يكون وشيجة معنوية بين الناس وبين الإمام عليّ (عليه السلام) يترتب عليها وجوب محبتهم فحسب، كما تجب محبة قرباه (صلى الله عليه وآله وسلم) بوجه عام لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي

---

(١) سورة الدخان: آية ٤١.

الْقُرْبَى﴾(١)، وذلك ولاء غير متكافئ؛ لأنّها وشيجة خاصة مع الإمام عليّ (عليه السلام)، وليست وشيجة مشتركة بين أهل البيت (عليهم السلام) وسائر الأمّة كما في وشيجة الإيمان والنصرة بين المؤمنين حيث أنّ الجميع سواء في ذلك.

وهذا المعنى ينبغي أن يكون هو مراد من فسر المولى في الحديث بالمحبّ فيكون المراد بذلك إثبات وشيجة للمؤمنين مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) تقتضي محبتهم لهما فهو يريد بذلك إثبات ولاء المحبة بينهما وبين المؤمنين.

ولا يصحّ أن يكون المراد بهذا القول تفسير المولى في الحديث بكلمة (المحب)؛ إذ يكون معنى الكلام أنّ من كنت محبّه فهذا عليّ محبّه، فتفيد أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) يحبّان المسلمين، ومن المعلوم أنّ هذا غير مراد بالكلام، وإنّما المراد أنّه يجب على المسلمين محبتهما ونصرتهما، فالمناسب أن يفسر بالمحبوب لا بالمحبّ، والمراد أنّهما (عليهما السلام) يرتبطان مع المؤمنين بوشيجة تقتضي محبة المؤمنين لهما.

هذا تقرير هذا الاحتمال.

ولكن هذا الاحتمال خاطئ لوجهين:

١. أنه لو صحّ ورود الولاء بهذا المعنى لم يكن ملائماً للحديث؛ لأنّ

(١) الشورى: آية ٢٣.

المفهوم من الحديث في إثبات الولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) هو أنّه من سنخ الولاء المعروف بين الناس في القبائل لوحدة الانتماء القبلي أو التحالف والذي يستتبع الحماية والنصرة ونحو ذلك.

٢. على أنّ الصحيح أنّ جعل الولاء بمعنى المحبة أو الوشيجة المستوجبة للمحبة فحسب أمر خاطئ من أصله لما تقدّم من قبل، وخلاصته أنّ الولاء في اللغة والعرف وشيجة من شأنها أن توجب التكاتف والعون والحماية والنصرة، كما يظهر بتأمل الآيات التي عرضناها والتي يظهر منها الآثار المختلفة للولاء، وعليه لا تكفي في صدقه المحبة ولا الوشيجة الموجبة للمحبة فقط، كما أنّ ضده وهو العداء لا يكفي في صدقه مجرد كراهة شخص وبغضه، بل ما كان من شأنه أن يستوجب إيذاءه والعدوان عليه في الحقيقة.

والواقع أنّ العرف لا يعتبر مجرد محبة شخص لآخر وشيجة بينهما، فمن أحب طفلاً لجماله أو طبيباً لحذاقته لا يصدق أنّ له وشيجة معه وولاء، فإن الوشيجة هي نحو من الاتصال بين الطرفين حتى كأنهما جزء من كل بحيث يقتضي وحدة مصيرهما، فيكون أحدهما حامياً للآخر وواقياً له ومتحملاً للأذى معه.

هذا ومن المتوقع أنّ ذكر الولاء بمعنى المحبة في الأصل نشأ عن أحد أمرين:

١. طرح هذا المعنى من قبل أوساط مذهبية بداعي صرف ما ورد في ولاء

الإمام عن الولاء المفهوم المستوجب للنصرة والمحبة.

٢. حالة مشهودة وهي عندما يختلف الناس في شأن شخصية بين محب ومبغض، كما وقع في شأن عثمان بعد مقتله، وفي شأن الإمام عليّ (عليه السلام) أيضاً حتى جاء عنه أنّه قال (عليه السلام): (هلك فيَّ رجلان: محب غال، ومبغض قال)[١]، فكان يطلق على محبيه أنّهم مواليه وعلى مبغضيه أنّهم أعداؤه.

ولكن هذه الحالة قد تفسّر بأحد تفسيرين:

الأوّل: أنّ واقع الحال أنّ هذا الإطلاق ليس لمجرد المحبة، بل على أساس الشعور بوشيجة تستوجب النصرة لو أتيح لصاحبها، ولذلك يطلق على موالي الإمام (عليه السلام) أنّهم شيعته، والشيعة في اللغة من يتولى وينصر، وشيعة الرجل أنصاره، لكن ينبغي أن يُعلم أنّ النصرة في كل مقام بحسبه فقد يكون النصر بالدعاء والتشجيع والثناء والدفاع باللسان والقول، كما يتحقق في انحياز الناس إلى الفرق الرياضية في العصر الحاضر.

الثاني: أن يكون ذلك إطلاقاً حادثاً تدريجاً في أثر انتشار إطلاق الولاء والعداء في شأن شخصيات معروفة حتى بعد وفاتهم استمراراً للثنائية التي حدثت في المجتمع الإسلامي بين أنصارهم وأعدائهم.

الاحتمال الثالث: أن يكون الولاء في الخطبة بمعنى النصرة أو الوشيجة

---

(١) نهج البلاغة: ٣١.

المستوجبة للنصرة فيكون من قبيل الولاء غير المتكافئ؛ إذ يجب على المؤمنين نصرة الإمام (عليه السلام) فيما لا يجب عليه نصرتهم فيه فهو محور في هذا الولاء.

وقد يلائم ذلك قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ذلك: (وانصر من نصره واخذل من خذله)، والظاهر أنّ هذا الاحتمال هو مراد من فسّر المولى في الحديث بالناصر، فالمراد به ولاء يستوجب نصرته، وإلا أفاد القول المذكور أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) ناصران للمؤمنين، وليس ذلك بمقصودٍ، وإنّما المقصود أنّه ينبغي نصرتهما من قبل المؤمنين فهما منصوران لا ناصران، بمعنى أنّ هناك وشيجة معهما تقتضي نصرتهما.

ويلاحظ على هذا الاحتمال: أنّ الولاء لا يرد بمعنى النصرة ذاتها كما أسلفنا بيان ذلك، كما لا يرد المولى والولي بمعنى المنصور، وإنّما هو بمعنى الوشيجة التي من شأنها النصرة وأمور أخرى مثل سائر وجوه الإعانة والحماية.

ولكن إرادة الولاء غير المتكافئ بمعنى النصرة يقتضي اعتبار المولى الذي يجب نصرته ولي أمر من يتولاه وينصره بمستوى من الولاية، فإنّ ولاية أمر شخص لآخر على مراتب، منها: ولاية أمر الحاكم على الأمّة، وولاية رئيس مجموعة كالعشيرة على أفرادها، وولاية الآباء على الأطفال، وما يناسب مورد ولاء المؤمنين للإمام (عليه السلام) إنّما هو ولاء الحكم والإمامة، وليس الولاء القبلي ولا الأسري كما هو ظاهر.

وبالجملة فعندما يتمّ إثبات ولاء خاص غير متكافئ لشخص، ويفيد كونه

محوراً للنصرة فمعنى هذا إثبات موقع ووشيجة له تستوجب نصرته، وليس هناك موقع ملائم لهذا القول إلا موقع ولاية الأمر بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ إذ لم يكن للإمام (عليه السلام) خصومة خاصة تعرف في مشهد الخطاب حتى يفيد الخطاب وجوب نصرة الإمام فيها.

إذاً اتضح مما ذكرنا أنّ الحديث ظاهر في الولاء غير المتكافئ المختلف للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وللإمام (عليه السلام) على المسلمين، وهو ولاء يكونان فيه قادةً ومتبوعين، وتكون الأمّة تبعاً لهم تقتفي أثرهما وتحميهما وتنصرهما، وهو بمعنى ولايتهما لأمر الأمة.

هذا وهناك من جادل في صحة أن يراد بالمولى في الخطبة ولاء الحكم على أساس أنّ ذلك قد يبتني على استعمال مولى الشخص بمعنى الأولى به، ولا يرد المولى في اللغة بمعنى الأولى، فإنّ (مفعل) لا تأتي لغة بمعنى أفعل التفضيل، مع أنّ أولى يستوفي الجار والمجرور ـ أي به ـ دون المولى، فلا يكون قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) بمعنى الأولوية المذكورة في قوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم).

وأجيب عن ذلك بجوابين:

الجواب الأوّل: أنّ (المولى) يرد بهذا المعنى كما صرّح به جمع من علماء اللغة والتفسير وبه فسر قوله تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**

مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(١) فالمراد هي أولى بكم.

الجواب الثاني: بأنّ الولاء مطلقاً يعني أولوية صاحبه بالآخر من الآخرين، فالحليف والقريب والرحم والجار وغيرهم أولى بذويهم من الآخرين.

والصحيح: أنّ مبنى دلالة الحديث ليس هو كون المولى بمعنى الأولى لفظاً بحيث يكون مفاده مثل مفاد أفعل التفضيل وإن لم يكن بلفظه كما في كلمتي (خير وشر)، بل هو إفادته الولاء المختلف بمحورية الإمام ممّا يعطي قيادة للمولى بالنسبة إلى من هو مولاه، وهذا يوجب أولويته بأمر من يتولاه منه ـ أي ممّن يتولاه ـ فتكون هذه الأولوية لازمة لمعنى الولاء المختلف وليس وليد صيغة (مولى).

ومن المعلوم أنّه لا يمكن إنكار صدق الولاء في موارد الولاء المختلف، فإنّ إطلاق المولى على الله سبحانه وعلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى السيد (المالك للعبد) وعلى الحاكم كله من باب الولاء المختلف بمحورية هؤلاء كما هو ظاهر.

إذاً تفسير المولى بمعنى الأولى يمكن أن يكون على وجهين:

١. دعوى أنّ مفاد المولى هو أفعل التفضيل وإن لم يكن بصيغته، فهذا غير صحيح إذ لا شاهد عليه في اللغة.

---

(١) سورة الحديد: آية ١٥.

٢. أن يكون من جهة كون الولاء مختلفاً بمحورية أحد طرفيه وقيادته وبتبعية الآخر له؛ لأنّ ذلك يستبطن أولوية المولى بأمر من يتولاه منه، وهذا أمر لا يمكن الشك فيه لما ذكرناه من الموارد المعروفة للولاء المختلف في العرف واللغة والاستعمالات القرآنية.

ومن الفوارق بين الوجهين أنّ الوجه الأوّل يختص بلفظ مولى وصيغته، وأمّا الوجه الثاني فهو يجري في المادة بفروعها المختلفة من المصدر (الولاء والولاية) والفعل (ولي، تولى، يتولى) والأوصاف والأسماء المشتقة مثل الولي والمولى.

وبذلك يظهر وقوع الخلط في مناقشة دلالة الحديث على ولاء الحكم للإمام (عليه السلام) بعدم مجيء المولى بمعنى (أولى).

وعليه لا حاجة إلى الجوابين المذكورين عن هذه المناقشة[1]، ولا يسعنا في

---

(١) على أنّ في الجوابين المذكورين نظراً:

أمّا الجواب الأوّل: ـ وهو أنّ المولى يأتي بمعنى الأولى في اللغة كقوله تعالى عن النار: ﴿**هِيَ مَوْلَاكُمْ**﴾ أي أولى بكم ـ فهو في أصله صحيح إذا أريد به إفادة (المولى) للأولوية على الوجه الثاني دون الأوّل.

وأمّا قوله تعالى عن النار: ﴿**هِيَ مَوْلَاكُمْ**﴾ فكأنّه وقع الاعتماد في تفسير المولى فيه بالأولى بقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا**﴾ (سورة مريم: آية ٧٠)، لكن لا يتوقف معنى هذه الآية على تفسير المولى فيها بالأولى، فلو كانت بمعنى الولي أيضاً صح معناها.

على أنّ الصحيح أنّ كلمة المولى والولي لا يطلقان في اللغة إلا على العاقل، وإطلاقها في المورد على النار إنّما هو على سبيل التنزيل والمشاكلة، بمعنى أنّ النار نزّلت بالنسبة إلى الكافرين منزلة المولى الذي يلتجئ إليه الشخص لنصرته، وإذا بها تحرقهم، وقد جاء في بعض الآيات تنزيل النار منزلة العاقل كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (سورة ق: آية ٣٠)، وبذلك ينطوي الكلام على نحو من السخرية والاستهزاء، كقوله تعالى في ذكر ما يلقاه الكفار من العذاب في النار: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (سورة الدخان: آية ٤٩)، فالتعبير بالمولى هنا على حد التعبير عن النار بالمأوى في الآية نفسها؛ لأن المأوى هو ما يأوي إليه الإنسان مثل: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (سورة النازعات: آية ٣٧ ـ ٣٩)، وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (سورة العنكبوت: آية ٢٥)، وفي آيات أخرى عديدة قوله سبحانه: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ (سورة آل عمران: آية ١٥١)، وغيرها مع الواو أو من دونها.

ولعل من وجوه خطابهم على نحو السخرية أنّهم كانوا يستهزئون بآيات الله سبحانه ويسخرون من الذين آمنوا في الحياة الدنيا، لاحظ مثلاً قوله تعالى فيما يأتي: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (سورة النساء: آية ١٤٠)، و﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة البقرة: آية ٢١٢)، و﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة الأنعام: آية ١٠)، و﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة الأنبياء: آية ٤١)، و﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (سورة الصافات: آية ١٢)، و﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ (سورة الصافات: آية ١٤)، وقد قال الله سبحانه في بعض كلامه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ

هذا البحث الموجز مزيد الخوض في الأبحاث اللغوية والأدبية بعد عدم توقف

وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة التوبة: آية ٧٩).

وأمّا المشاكلة فالمراد بها الإتيان بلفظ توسعاً على سبيل المشاكلة للفظ آخر على وجه الحقيقة كقول الشاعر: (قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه * قلت اطبخوا لي جبة وقميصا)، فعبّر بالطبخ عن الخياطة، وقد تأتي المشاكلة لمعنى مفهوم من الكلام وإن لم يصرح به، وله أمثلة في الاستعمالات.

ووجه المشاكلة في الآية أنّ المنافقين فيما يبدو كانوا يعتبرون أنفسهم أولياءً للمؤمنين ويخاطبونهم مخاطبة الأولياء بعضهم لبعض، كما جاء في الآيتين السابقتين على تلك الآية: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (سورة الحديد: آية ١٣ ـ ١٤)، فكأنّ المراد بالآية هي أنّ مولاكم النار دون المؤمنين، أو تكون المشاكلة بالنظر إلى أنّهم كانوا يتخذون أولياء من دون الله سبحانه، فتشير الآية إلى أنّه لم يكن هؤلاء أولياء لكم فعلاً، إذ لم تجدونهم فتلجؤون إليهم ـ كما صرح بذلك في آيات كثيرة أخرى وردت في خطاب الكفار في النار ـ وإنّما كان مولاكم النار.

وأمّا الجواب الثاني: ـ وهو أنّ المولى دائماً بمعنى الأولى لوجود معنى الأولوية في المعاني التي ذكرت للمولى فإنّ الحليف أولى بحليفه من غير الحليف والقريب أولى بقريبه من الأجنبي وهكذا ـ فهو محل نظر؛ إذ المراد بالأولوية هي الأولوية بالشخص من نفسه وليس من الآخرين، وأمّا الأولوية من آخرين فاقدين للصفة فهو يتحقق في الولاءات المتكافئة كولاء الإيمان، فالمؤمن أولى بالمؤمن من غير المؤمن، وتعميم المولى للولاءات المتكافئة لا يساعد على تمام الاستدلال لحديث الغدير على ولاء الإمام (عليه السلام) على المسلمين.

الموضوع عليها والله الهادي.

تفصيل القرائن اللفظية الدالة في الخطبة على إثبات ولاء الحكم للإمام (عليه السلام).

أمّا **القرائن اللفظية:** فهي ملء الخطبة وما أحاط بها من ملابسات مقامية وخارجية:

وتفصيل القول في دلالة هذه الخطبة على إرادة ولاء الحكم بما ذكر من أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) هما موليا المؤمنين: أنّ هناك قرائن متعددة لفظية ومقامية تدلّ على ذلك، أمّا القرائن اللفظية فهي كثيرة حتى أنّه يمكن القول أنّ هذه الخطبة بكل أجزائها من أوّلها إلى آخرها على ذلك إذا أحسن الناظر استنطاقها وتأمّلها، وذلك أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لو اقتصر على جملة واحدة اعتيادية قائلاً: (إنّ علياً مولى المؤمنين) أو (إنّ علياً مولاكم)، مجرداً عن أية ملابسة أخرى لجاء احتمال أن يريد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالولاء تأكيد الولاء الإيماني العام في شأن الإمام (عليه السلام) أو مجرد الحث على محبته أو نصرته (إذا اعتدي عليه)، لكنه (صلى الله عليه وآله وسلم) صاغ الخطبة صياغة كان هذا المعنى ـ نعني ولاء الحكم ـ قد ملأها في سياقها ومفرداتها:

القرينة الأولى: التركيز على شخصه (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى الإمام (عليه السلام) في الولاء في قوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه).

فإنّ التركيز على الشخص بجعله مولى للناس والمؤمنين يقتضي إثبات موقع أعلى له منهم يكون هو فيه محوراً لولائهم ولا يلائم ولاء الإيمان الذي يتكافأ فيه الجميع.

وليس هناك موقع خاص يُفرض للإمام (عليه السلام) إلا ولاء الحكم.

وقد أوضحنا ذلك فيما سبق.

القرينة الثانية: صدور هذه الخطبة على سبيل الوصية منه (صلى الله عليه وآله وسلم) لما بعد مماته، فإنّ ذلك يوجب ظهور الخطاب في النظر إلى عقد الولاء للإمام (عليه السلام) لما بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) كما لو قال: (علي مولى المؤمنين من بعدي).

وهذه القرينة مبنية على مجموع أمرين:

الأمر الأوّل: صدور هذه الخطبة على سبيل الوصية، ويدلّ عليه أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) بدأ هذه الخطبة ـ في فقراتها الأولى الممهدة لما بعدها ـ بقوله أنّه يوشك أن يدعى فيجيب، وهذا يدلّ على أنّ ذلك وصية منه للحاضرين.

ويلائم ذلك ما عقّب (صلى الله عليه وآله وسلم) به في هذه الفقرة من إقرارهم على إبلاغ الدين تماماً من الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر ونصحه لهم في تبليغ ذلك، وسياق ذلك أيضاً سياق مودّع لهم موصٍ بحفظ اعتقادهم بذلك، كما جاء عن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ**

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١].

ثمّ جاءت الفقرة الثانية الآمرة بالتمسك بالثقلين، وقد صرّح فيها بالنظر إلى ما بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين)[٢]، فالاستخلاف يعني تعاملهم مع الكتاب والعترة خلفه (صلى الله عليه وآله وسلم) أي بعد وفاته، كما أنّ عدم جعله (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه ضمن الثقلين يدل على غيابه عن المشهد فلا يتيسر لهم التمسك به فيما يحتاجون إليه.

كما أنّ سياق سائر جمل هذه الفقرة يدلّ على النظر فيها إلى ما بعد وفاته حيث قال في توضيح الثقلين: (كتاب الله طرف بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلوا والآخر عترتي)، ومن الواضح أنّ المراد بالتمسك بعترته إنّما هو فيما بعد موته لا فيما بقي من حياته التي ذكر أنّها شارفت على الانتهاء.

ثمّ جاء: (وإنّ اللطيف الخبير نبأني أنّهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض)، والمراد طبعاً لن يتفرّقا بعدي، إذ كانت الحجة في حياته هو القرآن مع شخصه الكريم دون عترته.

ثمّ جاء: (سألت ذلك لهما ربي)، وهو يدلّ على غيابه عن المشهد.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) المعجم الكبير: ٥/١٦٧.

ثم جاء: (فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا)، ومن الظاهر أنّ المراد أن لا يتقدموا ولا يقصروا عنهما بعده لما ذكرنا من أنّ التكليف في حياته إنّما يتوجه بذلك تجاه القرآن وشخصه الكريم، كما أنّ المراد بالهلاك هو هلاكهم بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) وليس في حياته.

وجاء: (ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم)، وهذا أيضاً ظاهر في النهي عن تعليمهم بعد وفاته إذا تصدروا الأمّة بعده، وأمّا في زمانه فليس هناك من يسعى إلى تعليمهم، على أنّ من أهل بيته الحسن والحسين (عليهما السلام)، وقد كانا في حياته صغيرين فهما على الترتيب حين واقعة الغدير في السابعة والسادسة.

إذاً من الواضح أنّ نظره (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الفقرة إلى ما بعد حياته.

وأمّا **الفقرة الثالثة** فقد جاءت معطوفة على الفقرة الثانية حيث ورد في الخطبة ـ في لفظٍ ـ: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فقالوا: نعم، فقال: فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم والِ من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله).

وإذا لم يكن هناك تصريح في هذه الفقرة بأنّها ناظرة إلى ما بعد وفاته فإنّ سياق الخطبة من أوّلها يدل على ذلك بوضوح، بل في هذا الدعاء منه ما يشير إلى ذلك، فإنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) لغيابه عن المشهد من بعده دعا لمن استجاب له في حينه ودعا على من خالفه ولم يتول الإمام (عليه السلام)، ومن المتعارف في الوصايا دعاء الموصي على من تخلف عن وصيته ولم يعمل بها.

يضاف إلى ذلك أنّ الظاهر بالتأمّل أنّ عقد الولاء للإمام (عليه السلام) ـ الذي هو سيّد أهل بيته (عليهم السلام) ـ متفرّع على ما ذكره في الفقرة السابقة من ملازمة أهل بيته للهدى، كما أنّ موالاته ونصرته تندرج في التمسك بهم، وما يترتب عليهما من موالاة الله ونصرته مصداق لعدم ضلالهم وهلاكهم ـ المفاد من سياق كلامه ـ إن تمسكوا بهم، كما أن معاداته وخذلانه يندرج في التقصير والتفرق عنهم الذي نهى (صلى الله عليه وآله وسلم) عنه وما يترتب عليه من معاداة الله وخذلانه، وهو من مصاديق ما أخبر به من هلاكهم إن قصروا أو تقدموا عليهم.

إذاً من الواضح أنّ نظره إلى عقد الولاء للإمام (عليه السلام) بالنظر إلى ما بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم).

والأمر الثاني: أنّ عقد الولاء للإمام (عليه السلام) بالنظر إلى ما بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) يوجب ظهور الولاء في الولاية على الأمّة من بعده كما لو صرّح قائلاً: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه من بعدي)، كما جاء في بعض الأحاديث ـ التي يرجح أنّها نقل بالمعنى لما جاء في حديث الغدير أو هي بعده ـ أنّ (علياً ولي كل مؤمن بعدي)(١).

يضاف إلى ذلك أنّ سائر وجوه الولاء بين الإمام (عليه السلام) وبين المسلمين لا تختص بها بعده (صلى الله عليه وآله وسلم).

---

(١) سنن الترمذي: ٥/٢٩٦، المصنف (ابن أبي شيبة): ٧/٥٠٤، فضائل الصحابة: ص١٥.

إذ عمدتها ولاءان:

١. أن يكون مراده (صلى الله عليه وآله وسلم) تأكيد الولاء العام بين المسلمين في حق الإمام (عليه السلام) ومن المعلوم أنّ هذا الولاء العام قائم في حياته (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ولا يتوقف على مماته، وقد كان بعض المسلمين بظاهر الإسلام في المدينة ـ وهم في الحقيقة من المنافقين ـ يبغضون الإمام (عليه السلام) ويكرهونه كما دلت عليه السيرة والروايات، وبيّناه في موضع آخر من هذا البحث.

٢. أن يكون نظره (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى ما بعد وفاته مع إرادة إثبات ولاء المحبة لأهل البيت (عليهم السلام) والإمام (عليه السلام)، وهذا الولاء أيضاً جاء في حياته، وقد ورد في أحاديث عديدة أمره ودعاؤه لمن أحب الحسنين (عليهما السلام) ونهيه عن إبغاض بضعته فاطمة[١].

إذاً يظهر مما ذكرنا أنّ الخطبة في قوة التصريح بأنّ من كان (صلى الله عليه وآله وسلم) مولاه فإنّ علياً مولاه بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو واضح في ولاء القيادة والحكم.

ومما ذكرنا ظهر أنّ من الخطأ أن يتوقف أحد في دلالة الحديث على هذا المعنى بأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) لو يشاء لأضاف (من بعدي) ليكون الكلام واضحاً في أنّه أحلّ الإمام محله في الولاء.

ووجه الخطأ أنّ الكلام واضح في ذلك، فالخطبة تنطق صدراً وذيلاً على أنّه

---

(١) تقدم تخريجها.

أحلّ أهل بيته ـ ومنهم الإمام عليّ (عليه السلام) ـ محله في الهدى، وأحلّ الإمام عليّاً (عليه السلام) محله في الولاء.

القرينة الثالثة: فقرة الثقلين في الحديث التي جاءت قبل فقرة الولاء.

بيان ذلك: أنّ فقرة الثقلين كما شرحناها من قبل تتضمن نصب أئمة أهل البيت أعلام هدى في هذه الأمّة لا يضلّون أبداً لا ضلال خطأ ولا ضلال خطيئة، فلو اتبعتهم الأمّة لسلمت عن الضلالة وإن تخلّفت عنهم ضلّت وهلكت، ومرجع ذلك إلى اصطفائهم (عليهم السلام) من هذه الأمة.

والاحتجاج بهذه الفقرة من وجهين:

الوجه الأوّل: أنّ اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) من هذه الأمّة في الهدى يدلّ بملاحنه على اصطفائهم للحكم أيضاً؛ إذ لا معنى لأن يكون في الأمّة مثلهم، ويكون القائد فيها لهم ولسائر الناس مَن يكون عرضة للضلالة عن خطأ أو هوى، وقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة له: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْه، وأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّه فِيه)[1]، وقد مرّ توضيح ذلك.

وعليه فإنّ قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في عقد الولاء للإمام (عليه السلام) إنّما هو تخصيص بعد تعميمٍ، وتصريح بعد لحنٍ وتلويحٍ، فقد عمّم في فقرة الثقلين التولي لأهل البيت، وهو يستبطن تلويحاً إلى أنّ الأمر فيهم بعده، ثمّ خصّص الإمام (عليه السلام)

(١) نهج البلاغة: ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

بالذكر في فقرة الولاء وصرح بالولاء له.

وبذلك يتضح أنّ مفاد فقرة الولاء هو ولاء الحكم والقيادة.

الوجه الثاني: أنّنا لو غضضنا النظر عن أنّ فقرة حديث الثقلين التي تسبق فقرة عقد الولاء تفيد عقد الولاء لأهل البيت (عليهم السلام) من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) فلا شك في أنّ سياق الكلام وملاحنه يفيد بناء الولاء للإمام (عليه السلام) على ما ذكرناه في فقرة الثقلين من كون أهل البيت (عليهم السلام) أعلاماً للهدى، بمعنى أنّ كونهم أعلاماً للهدى هو بمثابة التعليل لعقد الولاء للإمام (عليه السلام)، فذاك هو المبنى، والولاء هو البناء الذي عقد على ذاك المبنى.

وتتضح إفادة سياق الكلام لهذا المعنى بالالتفات إلى مجموع أمور:

١. إنّ فقرة حديث الثقلين الآمرة بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) للأمن من الضلالة والهلاك مذكورة قبل فقرة الولاء.

٢. إنّ فقرة الثقلين هي نحو تمهيد لفقرة الولاء، لأنّ سياق الحديث يشير إلى أنّ الغاية الأساس من الخطبة ما ختمت به من ذكر الولاء كما أسلفنا ذلك.

٣. إنّ هناك ترابطاً بين موضوع الحديث في الفقرتين، فقرة حديث الثقلين التي تتحدث عن أهل البيت (عليهم السلام)، وفقرة الولاء التي تتحدث عن الإمام عليّ (عليه السلام)، وهو (عليه السلام) سيد أهل البيت (عليهم السلام) وأوّلهم.

٤. كما أنّ هناك ترابطاً بين مضمونيهما؛ لأنّ فقرة حديث الثقلين تتضمن إثبات ملازمتهم للهدى وإيجاب التمسك بهم على الأمّة للأمن من الضلالة،

وفقرة الولاء تتضمن إثبات الولاء لهم، وهناك ارتباط بين الهدى والولاء طبعاً، لأنّ أولى الناس بتولي أمر الأمّة أهداهم.

ولذلك كله يُعلم أنّ المراد بكون الإمام (عليه السلام) مولى المؤمنين إنّما هو ولاء الحكم، وليس الولاء العام بين المؤمنين، ولا ولاء المحبة لأهل البيت (عليهم السلام).

والحاصل: أنّ هنا علاقة معنوية بين فقرة الهدى في خطبة الغدير وفقرة الولاء؛ لأنّ الظاهر أنّ فقرة الهدى جاءت تمهيداً وتعليلاً لفقرة الثقلين، لأنّ الكلام المعلل أوقع في النفس، فالمقصود أنّ جعل الولاء للإمام (عليه السلام) إنما جاء ضماناً للهدى ووقاية عن الضلالة وتطبيقاً للتمسك بالكتاب.

وعليه فيكون ذكرُ ولاء المؤمنين للإمام (عليه السلام)فرعاً مِن كون أهل البيت (عليهم السلام) بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) هم الثقل المتمم للكتاب، وتلك خصوصية لا يشاركهم أحد غيرهم من الأمة، فكيف يلتبس على أيّ ناظر في هذه الخطبة وفاؤها بالولاء الخاص للإمام عليّ (عليه السلام)؟!.

القرينة الرابعة: إفراده (صلى الله عليه وآله وسلم) الإمام عليّ (عليه السلام) بالذكر بعد ذكر أهل البيت (عليهم السلام) مثبتاً له معنى جديداً وهو الولاء، ممهداً لهم بإقرار جديد: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، ثمّ قال مفرّعاً عليه: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، فلو أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد أن يثبت للإمام (عليه السلام) ولأهل البيت (عليهم السلام) معنى واحداً وهو ولاء المودة والمحبة لذكرهما في سياق واحد، لكنه أثبت لأهل البيت (عليهم السلام) العصمة من الضلالة، وأوجب التمسك بهم وعدم

مفارقتهم وعدم التقدم عليهم أو التخلف عنهم، وأثبت للإمام (عليه السلام) الولاء وأوجب موالاته ونصرته ومنع من معاداته وخذلانه.

القرينة الخامسة: تمهيده (صلى الله عليه وآله وسلم) لإثبات الولاء للإمام (عليه السلام) بقوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، ثمّ قال: (فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

ووجه الدلالة في ذلك أنّ هذا التمهيد يتضمن إثباته (صلى الله عليه وآله وسلم) لولائه على الأمّة مقدمة لإثبات الولاء للإمام (عليه السلام) بقوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، فكأنّه قال: (ألست مولى لكم فقالوا: نعم، فقال: فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

لكنّه عدل عن أن يقول: (ألست مولى لكم)؛ لأنّه أراد أن يعبّر تفصيلاً عن الولاء الخاص المنظور له وهو ولاء الحكم، وليس الولاء العام الثابت بينه وبين أمته باعتبار اشتراكهم في الإيمان، كي لا يشتبه مفهوم كلامه، أو يحرّف لاحقاً، وذلك من بلاغة المتكلّم بأن يعمد إلى صياغة النصّ الحساس على وجه يقيه من الشبهة في دلالته.

وبذلك يظهر أنّ المراد بقوله في إثبات الولاء للإمام (عليه السلام) إنّما هو الولاء الذي أثبته لنفسه بقوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم).

والحجة على نظره (صلى الله عليه وآله وسلم) في مولويته للمؤمنين إلى ما ذكره أوّلاً من أولويته بهم وجهان:

الوجه الأوّل: دلالة كلمة (أولى) في قوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم).

بيان ذلك: أنّ (أولى) يرد بمعنيين:

أحدهما: معناه الأصلي، وهو أن يكون أفعل تفضيل من الولاء بمعنى الوشيجة المستخدم في كلمة (مولى) في توصيف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام) في قوله: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

واستعمال (أولى) في هذا المعنى شائع في النصوص، ومنه قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿**وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾[1]، والمراد أنّ ولاءهم آكد من ولاء غير الأرحام من المؤمنين والمهاجرين كما صرّح به في آية الأحزاب التي نزلت بعد الآية المتقدمة من سورة الأنفال حيث جاء فيها قوله تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ**﴾[2]، وكان هناك ولاء بين المؤمنين عامة وبين المهاجرين والأنصار خاصة، لكن ذكرت الآية أنّ ولاء أولي الأرحام آكد من ولاء غيرهم، وقد جاء أنّ آية الأنفال نزلت في نسخ التوريث بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[3]، حيث إنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد

---

(١) سورة الأنفال: آية ٧٥.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٦.

(٣) لاحظ: تفسير الرازي: ٩/ ٢٠٣، والبرهان في تفسير القرآن: ٤/ ٤١٦.

انتقاله وأصحابه إلى المدينة آخى بين واحد من المهاجرين وواحد من الأنصار ليدفع العُدْم عن المهاجرين، وترتّب عليه توريثهم إذا توفي أحد المتآخين، ولكن يبدو أنّه بعد معركة بدر وما حصل عليه المسلمون من الغنائم اختلف الأمر فأُلغي التوريث بالمؤاخاة، واعتبر الرحم أولى برحمه كما كان عليه الأمر من قبل.

والآخر: أولى بمعنى الأجدر والأنسب أو ما يقرب من ذلك كما يقول القائل: (الأولى أن تفعل كذا) و(زيد أولى بأن يكلف بكذا من عمرو).

وهذا المعنى فيما يبدو ثانوي نشأ من التوسع في استعمال اللفظ.

ومن المعلوم أنّ (أولى) في قوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم) إنّما هو بالمعنى الأوّل فهو تفضيل في الولاء، لأنّ الحديث يتعلق بالولاء مضافاً إلى أنّه قد فرّع عليه ذكر الولاء بقوله: (فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)[1]، فإنّ

---

(١) **إن قيل:** ولكن ليس هناك مفاضلة بين ولاءين، لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإن كان صاحب ولاء على المؤمنين، لكن لا معنى لوجود ولاء للإنسان لنفسه أو وجود ولائه على نفسه حتى يقال إنّ ولاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) آكد.

والجواب:

أولاً: أنّه لا يبعد النظر في أفعل التفضيل إلى إثبات الولاية للإنسان على نفسه ولو على سبيل التنزيل تعبيراً عن كون كل إنسان مسلطاً على نفسه، ومن المتعارف التعبير بأنّ الإنسان ولي نفسه.

وثانياً: أنّ أفعل التفضيل قد تستعمل لمحض المقارنة وإن كان المعنى موجوداً في الفاضل دون المفضول، أو لم يكن موجوداً في الفاضل أيضاً أصلاً فيقال: (هذا الحاكم أعدل من ذاك) رغم أنّ

كلمة المولى مشتقة من الولاء.

الوجه الثاني: دلالة سياق الكلام ـ في قوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) ـ على أنّ ما أُخذ الإقرار عليه في الجملة الأولى هو الذي فرضه في موضوع الجملة الثانية لقوله: (فمن كنت مولاه)، بمعنى أنّه في الجملة الأولى أقرهم على أنّه مولاهم وفي الثانية فرّع عليه أنّ علياً مولاهم أيضاً.

وبذلك يظهر أنّه لو فرض أنّ كلمة (مولى) لا تدلّ على أولوية الموصوف به من الآخر بنفسه، فإنّ الكلام يدلّ على أنّ المراد بالمولى هو المولوية على نحو الأولوية، ولا مانع من دلالة الكلام بقرينة إضافية على معنى زائد على ما يقتضيه مدلول (المولى) وضعاً[1]، ومن الخطأ أن يظن ظانّ أنّ إنكار ورود (المولى) في اللغة بمعنى (الأولى) يجرد المولى في الحديث عن معنى الأولوية، ولو بقرينة إضافية.

والحاصل من ذلك: أنّ الجملة المذكورة، وهي قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (ألست أولى

ذاك ليس بعادل أصلاً، بل قد يكون هذا الحاكم أيضاً غير عادل لكنه أقرب إلى العدالة، وهذا شائع في الاستعمالات والنصوص.

(١) ويعبّر عن ذلك علماء الأصول في العصر الحاضر بتعدد الدالّ والمدلول، فالكلمة تدلّ على أصل المعنى والقرينة دالّ آخر يدلّ على قيد له، كما في موارد التصريح بالقيد مثل (أكرم الفقير العادل)، حيث يدلّ الفقير على معناه ويدلّ العادل على تقييده.

بالمؤمنين من أنفسهم) تدلّ بوضوح على أنّ مراده بالولاء الذي أثبته للإمام (عليه السلام) هو ولايته على الأمّة وأولويته بالمسلمين من أنفسهم كالذي يثبت للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) سواء كان النظر في هذه الجملة إلى إثبات صلاحيته (صلى الله عليه وآله وسلم) لعقد الولاء، أو إلى إثبات الولاء لنفسه.

وهنا نكتة أخرى لتمهيد إثبات الولاء للإمام (عليه السلام) بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، وهي أنّه تمهيد لإثبات صلاحيته في عقد الولاء للإمام (عليه السلام)، فإنّه متى كان (صلى الله عليه وآله وسلم) أولى بالمؤمنين من أنفسهم ـ كما نصّ القرآن الكريم ـ فإنّه يحق له أن يثبت الولاء للإمام (عليه السلام).

وهذه النكتة أيضاً تقتضي أن يكون الولاء هو ولاية الأمر، دون الولاء العام من المؤمنين، لأنّ هذا الولاء كما قلنا كان ثابتاً في الدين من قبل ومتكرراً في القرآن الكريم، ولو أثبته كان تأكيداً ولم يكن أمراً جديداً بتاتاً.

وأمّا ولاء المحبة لأهل البيت (عليهم السلام) فهو أيضاً قد دلّ عليه القرآن الكريم من قبل، وهو على كلٍّ لا يحتاج إلى إثبات هذه المنزلة لنفسه، وهو أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أولى بأنفسهم منها بحيث لو أمرهم لوجب بذلها بأمره ومن دونه.

والواقع أنّه لا منافاة بين هذه النكتة والنكتة الأولى، فقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم) من جهة يثبت صلاحيته في عقد الولاء للإمام (عليه السلام)، ومن جهة أخرى فإنّه إثبات لولائه على الأمّة ليثبت مثله للإمام،



فلاحظ[١].

ويحسن أن نشير هنا إلى أمرين يتعلقان بالمقام:

١. أنّ هناك نكتة ملحوظة في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، وهي الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ**﴾، وقد اهتمّ (صلى الله عليه وآله وسلم) باقتباس الجملة بلفظها من الآية حيث لم يبدل

---

(١) والوجه فيه مجموع أمرين:

الأوّل: أنّ مبنى هذه النكتة الثانية ـ وهي بيان صلاحيته (صلى الله عليه وآله وسلم) لعقد الولاء ـ على أن يكون الله سبحانه قد أمر رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يعقد (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه الولاء للإمام (عليه السلام) كحكم منه (صلى الله عليه وآله وسلم)، فيكون هو المخوّل في هذا التشريع، وأمّا إذا كان الله سبحانه هو الذي جعل هذا الولاء للإمام (عليه السلام) وكان دور النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تبليغه إلى الناس فحسب فلا تصح هذه النكتة طبعاً.

الثاني: أنّ الأقرب بحسب الأدلة أن يكون ولاء الإمام (عليه السلام) تبليغاً من الله تعالى لا جعلاً منه (صلى الله عليه وآله وسلم)، وذلك لوجهين:

١.مناسبة آية التبليغ لذلك والتي جاء أنّها نزلت بمناسبة الغدير، وهي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة المائدة: آية ٦٧)، وسيأتي توضيح ذلك لاحقاً، فإنّ المتراءى من الآية أنّ التبليغ إنّما هو لولاء الإمام (عليه السلام) لا للأمر بولائه.

٢.أنّ حديث الثقلين مبني على الوحي من الله سبحانه إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، لقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (وإنّ اللطيف الخبير أنبأني أنهما لن يفترقا)، وهذا الحديث يفيد على الصحيح إثبات الولاء لأهل البيت (عليهم السلام) على ما أوضحناه من قبل.

كلمة (المؤمنين) في الآية إلى ضمير الخطاب كما كان يتكلم به مع الحاضرين، فكأنّه قال: (ألستم تقرون بما قاله الله سبحانه في القرآن الكريم ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾، فهذا ليس مقاماً أثبته أنا لنفسي، بل أثبته الله لي).

وهذا الأسلوب يشير إلى مدى صعوبة تقبّل ما أراد إثباته من الولاء الخاص للإمام (عليه السلام) على فريق معتدّ به من الحاضرين، حتى أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى أنّ من المناسب أن يلوّح إلى الاحتجاج بالقرآن الكريم لإثبات موقعه في هذه الأمّة تمهيداً لإثبات مثله للإمام (عليه السلام)، فلاحظ.

٢. أنّه قد يظن ظان أنّ من المستبعد أن يكون المراد بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم) إثبات هذا المقام للإمام عليّ (عليه السلام)، لأنّ هذا المقام ليس مجرد ولاية سياسية على الناس، بل هو أمر عظيم، وهذا مما يختصّ بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذا الظن غير صحيح، والوجه فيه أن مؤدى هذه الجملة (وهي أولويته بالمؤمنين من أنفسهم) هو أنه لو أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) شخصاً بما يوجب ذهاب نفسه، كالمشاركة في حربٍ ما لوجب عليه أن يمتثل ذلك، ولو اقتضى موقفٌ أن يفدي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه ويقيه بها بأن يدافع عنه ويكون وقاء له وجب ذلك عليه، كما جاء في الآية الأخرى المتقدمة في أنّه لا يجوز للمؤمنين أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذا الأمر في أصله يثبت لكل قيادة سياسية، فإنّ على الناس أن يحموا

القائد بنفوسهم رعاية للمصلحة العامة التي تقتضي الحفاظ عليه، بل قد يثبت ذلك للقيادات العسكرية أو بعضها، بمعنى أنه يجب على الجنود حماية القائد بنفوسهم.

وإذا كان المفهوم من الآية ثبوت مستوى أعلى من الاستجابة والتضحية والفداء والحماية والدفاع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مما يتعارف لدى العقلاء في شأن القادة ـ ولا يبعد ذلك ـ فإنّه لا استبعاد في ثبوت مثله للإمام عليّ (عليه السلام)، لاسيما أنّ الولاء السياسي الذي يستفاد إثباته للإمام (عليه السلام) هو من قبيل الولاء السياسي الاصطفائي والذي يثبت للعباد المصطفين من الأمّة للحكم كما يفيد ذلك ذكر الولاء عقيب الأمر بالتمسك للأمن من الضلالة، لأنّ الأمن من الضلالة شأن المصطفين، وقد ذكر بيان ذلك في إيضاح آخر.

القرينة السادسة: تفريع ولاء الإمام (عليه السلام) على المؤمنين على ولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) عليهم في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، فإنّ هذه الجملة بنفسها ـ ولو لم تكن مسبوقة بقوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم) ـ تدلّ على أنّ الولاء للإمام (عليه السلام) من قبيل الولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذه دلالة ظاهرة.

ومن المعلوم أنّ المفهوم من كون الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مولى للمؤمنين إنّما هو الولاء الخاص الذي يوجب طاعته عليهم وانقيادهم له والاستجابة لتدبيره لأمورهم، لأنّ الموصوف بهذا الوصف يلقي بحسب شخصيته دلالة على نوع

الولاء، فإضافة الولاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كان حين نزول الآية المذكورة وحين واقعة الغدير هو الحاكم في شؤون الأمّة والمدبّر لها الذي تجب طاعته بحسب القرآن الكريم في شؤون الحكم مضافاً إلى شؤون النبوة والرسالة، لتكليفه من الله سبحانه بإدارة أمور المسلمين، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ**﴾(١)، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾(٢)، ولذلك وجبت الاستجابة له والاستئذان منه كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ**﴾(٤)، ومن شؤون حكم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) استحقاقه للأنفال والفيء والخمس كما قال سبحانه: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾(٥)، وكما قال تعالى: ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى**﴾(٦)، وكما قال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ**

---

(١) سورة الأنفال: آية ٦٥.

(٢) سورة التوبة: آية ٧٣.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٧٢.

(٤) سورة النور: آية ٦٢.

(٥) سورة الأنفال: آية ١.

(٦) سورة الحشر: آية ٧.

وَلِلرَّسُولِ﴾(١).

وعليه فيكون مفاد قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) إثبات الولاء الثابت للرسول على المؤمنين للإمام عليّ (عليه السلام).

ومن الملفت عناية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في صياغة هذه الجملة على نحو بليغ ومؤكّد جداً، لأنّه يفيد عقد الملازمة بين ولائه على الأمّة وولاء الإمام عليّ (عليه السلام) عليها، فلا يتحقق الولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من مؤمن ولا مؤمنة من دون ولائه للإمام عليّ (عليه السلام)، فمن كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مولى له فإنّ الإمام (عليه السلام) يكون مولاه لا محالة.

ومفهوم هذه الجملة: أنّ مَن لم يكن عليّ مولاه فلست مولى له، بل من مفهومها أنّ من آمن وأقرّ بأنّي مولى له فالمفروض أن يؤمن ويقرّ بأنّ علياً (عليه السلام) مولى له.

بل كأنّ مفاد هذه الجملة جعل الولاء لعلي (عليه السلام) من الولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فالولاء للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ينطوي على الولاء للإمام (عليه السلام)، كما ورد في النصوص ما يفيد أنّ علياً (عليه السلام) من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، كقول جبرئيل ـ عندما بعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا بكر بآيات البراءة ـ: (لا يؤدي إلا أنت أو رجل منك)، وقد ورد نظير هذا التعبير في شأن سائر أهل البيت (فاطمة بضعة مني)،

---

(١) سورة الأنفال: آية ٤١.

(حسين مني وأنا من حسين).

وهنا نكتة حول اختيار التعبير بالمولى على التعبير بالولي، وهو أنّ التعبير بالمولى أقرب إلى إفادة ولاء القيادة من لفظ الولي، لأنّ الولي يستخدم أكثر في الولاء المتكافئ، والمولى يستخدم أكثر في الولاء غير المتكافئ، نعم يطلق المولى في الولاء غير المتكافئ على السيد المطاع والمقود المطيع، ولذا يعتبر من الأضداد في اللغة فيطلق مثلاً على السيد المالك للعبد، وعلى العبد المملوك أيضاً، فإذا أطلق على السيد فهو إطلاق على (من ساد)، وإذا أطلق على المسود فهو إطلاق على (من سِيد)، ويجمعهما معنى السيادة، ولذلك عدّ من الأضداد.

ولذا إذا قيل لشخص (مولانا) كان كما لو قيل (سيدنا)، وإذا قيل لشخص أنت (ولينا) لم يكن المنصرف منه مثل ذلك، بل أصل الولاء الجامع بين الولاء المتكافئ والولاء المختلف.

وقد ذكر في بعض ألفاظ الحديث الأكثر تفصيلاً ولاء الله سبحانه مع ولاء الرسول أيضاً، والمفهوم مِن كونه سبحانه مولى المؤمنين أيضاً هو الولاء المختلف، فإنّه سبحانه هو محور الولاء مع المؤمنين، فهم يوالون مَن والاه سبحانه ويعادون من عاداه، وفي ذلك أيضاً ما يساعد على فهم الولاء الخاص للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

القرينة السابعة: قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد فقرة الولاء: (اللّهم والِ من والاه وعادِ

من عاداه)[١]، وكذا ما جاء بعده من قوله: (وانصر من نصره واخذل من خذله)، فإنه ظاهرٌ في أنّ الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) هو محور الولاء والعداء والنصرة والخذلان في علاقته بالمؤمنين وعلاقة المؤمنين به، وهو الطرف الأعلى فيها، وليست العلاقة بينه وبين المؤمنين هي علاقة التكافؤ كما في ولاء المؤمنين بعضهم مع بعض، فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أفاد بهذا القول أنّه حيث جعله مولى للمؤمنين فقد صار بذلك في موقع يقتضي موالاة المؤمنين له ونصرتهم إياه وتجنّب عدائه وخذلانه وهذا هو موقع الحكم.

وليس من الملائم أن يجعل الواحد من المسلمين مهما عظمت مكانته في الخطاب العام للناس بهذه المثابة ويوجه الناس إلى التزام جانبه، فلولا أنّ الخطاب فرض للإمام (عليه السلام) موقعاً يقتضي وجوب موالاته ونصرته وحرمة معاداته وخذلانه لم يكن هناك مناسبة لهذا القول في حقه أصلاً، بل الملائم أن يذكر (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك ـ بعد أن أعلن عن قرب وفاته ـ في شأن من يخلفه فيوصي المسلمين باتباع من يخلفه بحق ويتولى أمورهم فيوالونه وينصرونه ولا يعادونه ويخذلونه.

القرينة الثامنة[٢]: أنّ النصّ من أوّله إلى آخره يمثل اهتماماً خاصاً وبالغاً لا

---

(١) لاحظ مثلاً: المعجم الأوسط (الطبراني): ٢/٢٤.

(٢) لاحظ في بيانها الإيضاح الثالث المتقدّم.

يلائم النظر إلى إثبات الولاء العام للإمام (عليه السلام) أو نحو ذلك.

بيان ذلك بذكر أمرين:

١. إنّ هذا الولاء العام بين المؤمنين كان أمراً معروفاً في الدين منذ العهد المكي، حيث كان المسلمون قلة يساعد بعضهم بعضاً، وتأكّد ذلك بشكل واضح منذ بداية هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة وتكوّن المجتمع المسلم، حيث عقد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة الولاء العام بين المسلمين فيها، وذلك في وثيقة المدينة، ثمّ جاءت الآيات تترى في التأكيد على هذا الولاء العام بين المؤمنين من سورة البقرة التي هي أوّل سورة نزلت بالمدينة إلى آخر سورة فيها وهي سورة المائدة والتي نزل العديد من آياتها قبل واقعة الغدير، بل قيل إنّ كلها كذلك عدا ما استثني.

نعم كان بعض الناس في المدينة يعادون الإمام (عليه السلام) بشكل خاص، وقد برز ذلك منهم في غزوة تبوك التي اتفقت في السنة التاسعة بطعنهم في الإمام (عليه السلام) لعدم اصطحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إياه في هذه الغزوة، وقد قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (يا عليّ لا يبغضك إلا منافق ولا يحبك إلا مؤمن)[١]، فليس في هذا الولاء أمر جديد على المسلمين عامة ولا في شأن الإمام الخاص.

٢. إنّ بيت القصيد من هذه الخطبة كلها هو ما انتهت إليه من عقد الولاء

(١) مسند أحمد: ١/٩٥، تاريخ بغداد: ١٤/٤٢٦، شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد): ٤/٨٣.

للإمام (عليه السلام) والدعاء لمن والاه وعلى من عاداه، وهو أمر واضح من سياقها.

ولكنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يبدأها بذكر الولاء، بل بدأ مع المسلمين من الصفر ـ إذا صح التعبير ـ ونعني بذلك أنّه بدأ بذكر أوّليات الدين من الإيمان بالله والرسول والدار الآخرة مقرّراً إياهم على ذلك سائلاً إياهم عن نصحه لهم في ذلك، ثمّ أوصى بالتمسك بأهل بيته (عليهم السلام) وقاية عن الضلالة والهلاك توصية أكيدة، ثمّ انتقل إلى ذكر كون الإمام (عليه السلام) مولى كل مَن يكون الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مولاه.

وهذا يعبّر عن أنّ هذا أمر عظيم في الدين مؤثر في مصير المسلمين وهو أمر جديد يبلّغه (صلى الله عليه وآله وسلم) تبليغاً عاماً لأوّل مرة، وليس أمراً مسبوقاً ومكرراً ومؤكداً في نصوص الدين منذ انعقاد الدولة.

ولا سيما أنّ توقيت الخطبة ـ وفق تصريحه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها بنعيه نفسَه إلى المسلمين ـ جاء قبيل وفاته، وهو الزمان الملائم لتحديد الأمر فيما بعده.

وهذا الأمر كافٍ في أن ينتقل من يلتفت إلى ملاحن الكلام إلى أنّ نظره في إثبات كون الإمام (عليه السلام) مولى للمؤمنين إلى إثبات الولاء القيادي، وليس الولاء العام بين المؤمنين.

ولو نظرنا إلى ما يطرح أحياناً من احتمال تفسير الخطبة بعقد ولاء لأهل البيت (عليهم السلام) خاصة يترتب عليه وجوب المودة لهم لجرى في شأنه ما ذكرناه من عدم ملاءمته مع الاهتمام المتمثل في هذه الواقعة وخطبتها، فإنّ وجوب

المودة لهم في حدّ نفسه ليس بتلك المثابة من التأثير في حياة المسلمين، كما نلاحظ ذلك في حياة كثير من أهل السنة، نعم، حرمة المعاداة لأهل البيت (عليهم السلام) أعظم، ولكنّ النص اعتنى أصالة بالولاء.

القرينة التاسعة: أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) اعتنى في هذه الخطبة بإثبات نصحه للأمة ونفي الاتهام عن نفسه، كما جاء التصريح بذلك في كلامه، وهو الذي يفيده لحن الخطبة كما تقدم تفصيلاً.

وليس في إثبات الولاء العام بين المؤمنين في حق الإمام (عليه السلام) والنهي عن العداء المحظور بينهم ما يقتضي اتهامه (صلى الله عليه وآله وسلم) في شيء.

وكذلك الحال لو كان مفاد الكلام إثبات ولاء تترتب عليه المحبة لأهل بيته فحسب، فإنّ مجرد وجوب المحبة القلبية لأهل بيته (عليهم السلام) لا يقتضي مثل هذا الاتهام وهو مصرح به في حق قرابته في القرآن الكريم من قبيل قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾(١)، بل فرض الله سبحانه لقرابته في آيتي الخمس والفيء منذ السنة الثانية من هجرته إلى المدينة سهماً وميّزهم بذلك عن غيرهم.

وعليه فالذي يمكن أن يُتّهم (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه هو إثبات الولاء الخاص لأهل بيته وللإمام (عليه السلام) بما يقتضي ولايتهم على الأمة، وهذه القرينة من قبيل دلالة

(١) سورة الشورى: آية ٢٣.

ملاحن الخطاب على مؤداه.

إذاً لا ينبغي الشك في أنّ هذا الخطاب قد رفع الإمام عليّاً (عليه السلام) بين جماهير المسلمين في مشهدهم العام إلى موقع أعلى من موقعهم جميعاً، وأمر المسلمين بموالاته ونصرته وحذّرهم من معاداته وخذلانه كما كانوا يسيرون عليه في حياة الرسول، فهو يفيد إحلال عليّ (عليه السلام) محل نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهكذا نلاحظ من خلال ما تقدم أنّ جميع فقرات الحديث بلحنها ومنطوقها دليل على أنّ الولاء للإمام (عليه السلام) هو ولاء القيادة كولاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الأمّة.

وقد يقع الخطأ في فهم الحديث، إذ قد يُظن أنّ الحديث لو كان ناظراً إلى عقد الولاء للإمام (عليه السلام) بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لاستعمل الحديث صيغة الخلافة وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): (إنّ علياً هو الخليفة عليكم من بعدي) وحينئذٍ لم يقع التباس في مدلول النص بتاتاً.

وهذا الظن خاطئ بالنظر إلى مجموع أمور:

١. إنّنا عرفنا في القرينة الأولى أنّ قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) واضح للغاية في أنّ المراد (أنّ علياً مولاه من بعدي) لسوق الخطبة من بدايتها على سبيل الوصية لما بعد موته (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتصريحه باستخلافه الكتاب والعترة، وتفريعه على ذلك عقد مثل ولائه للإمام (عليه السلام)، وهذا يكون على حد تعبيره بأنّه (خليفتي).

كما أننا عرفنا في القرائن الأخرى أنّ جملة المعاني الثانوية التي جاءت لبيان المقصود الأصلي بالخطبة ـ وهو إثبات الولاء للإمام (عليه السلام) كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ كانت موجهة للدلالة على أنّ المراد بهذا الولاء هو ولاية الأمر بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

٢. إنّ المفردة التي اختارتها الخطبة للتعبير عن موقع الإمام (عليه السلام) بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وهي المولى المشتق من الولاء ـ هي مفردة متعارفة في القاموس اللغوي والاختيارات اللغوية المناسبة والمتداولة بين العرب آنذاك للتعبير عن الوشيجة الموجبة للنصرة بكل من شقيها، وهما الولاء المتكافئ والولاء غير المتكافئ الذي يقوم بين القيادة ومن يتبعها، وقد دلت الخطبة بأجزائها دلالة بليغة ومؤكدة على النظر إلى الولاء غير المتكافئ وهو ولاء القيادة وأبلغ ما فيها هو بيان الرسول لولائه الخاص على الأمّة بقوله: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، ثمّ إثبات مثل هذا الولاء للإمام (عليه السلام) (فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

وليس هناك إبهام في هذه الصيغة بتاتاً.

٣. إنّ الذي اقتضى استعمال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لمفردة الولاء هو الآية الكريمة التي نظر إليها ولوّح بالاستشهاد بها على ولائه وهي قوله تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾، وفرّع عليها أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) مولى المؤمنين، فكان من الطبيعي وهو يريد أن يجعل لعلي (عليه السلام) مثل ما كان له أن يعبّر عن مكانة عليّ

بالولاء كما يعبّر عن مكانته بقول: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، ولم يكن من المستحسن أن يقول مثلاً: (من كنت مولاه فهذا عليّ خليفتي عليه).

وهذا الأسلوب المؤكّد يشبه ما ورد في القرآن الكريم في شأن من يوالي الأعداء من قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾[١]، وقوله عن قومٍ آخرين: ﴿**وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾[٢].

٤. إنّ الاقتراحات التفضيلية لصياغة النص وفق المنظور الذي يتراءى للباحث بعد عصر النص ليست أدوات ملائمة لاكتشاف معنى النص في جميع الأحوال، وقد يتمسك بها قوم في شؤون اعتقادية وتشريعية على وجه غير مناسب، مثل أن يتمسك من يثبت لله سبحانه يداً أو وجهاً أومجيئاً ومكراً ونحو ذلك بحقيقتها بأنه لو شاء سبحانه لم يعبّر بها، إذ قال: ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾[٣]، و﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾[٤]، و﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾[٥]، و﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[٦].

---

(١) سورة المائدة: آية ٥١.

(٢) سورة المائدة: آية ٤٣.

(٣) سورة الفتح: آية ١٠.

(٤) سورة الرحمن: آية ٢٧.

(٥) سورة الفجر: آية ٢٢.

(٦) سورة آل عمران: آية ٥٤.

وقد يكون التعبير المفضّل والمتوقع في زمان مختلفاً عنه في زمان سابق وفق التغيرات الدلالية والعادات التعبيرية الحادثة، وذلك أمر معلوم لمن تأمّل سير اللغة والاستعمالات اللغوية والعرفية.

ولمزيد توضيح ذلك نقول: إن القرينة المذكورة هي من قبيل الاستدلال بعدول المتكلم عن التعبير الأولى لو كان يقصد المعنى المقترح على أنّه لم يقصد ذلك المعنى، وهذه قاعدة معروفة في نفسها، حيث كثيراً ما يدل عدول المتكلم عن تعبير ما إلى تعبير آخر على حقيقة مقصوده، كما حكي أنّ رجلاً من الخوارج ـ الذين يعادون الإمام عليّاً (عليه السلام) وعثمان ـ لقي شيعياً في الطريق وطلب منه أن يتبرّأ منهما، فقال الشيعي: (أنا من عليّ ومن عثمان بريء)، فتركه الخارجي وظن أنّه استجاب لما طلبه منه، ولكن كان مراد الشيعي أنّه من عليّ (عليه السلام) ويتبرّأ من عثمان، ولو كان الشيعي مسترسلاً في كلامه وعنى البراءة منهما لقال: أنا بريء من عليّ وعثمان، ولا موجب لتأخير (بريء) ولا تكرار (من).

ولكن شرط انطباق هذه القاعدة ـ أي قاعدة دلالة العدول ـ هو أن يخرج الكلام في مقام التعبير عن الاسترسال والتعبير المعتاد فيه بالنظر إلى زمان الخطاب وبيئته، كما نلاحظ ذلك في المثال المذكور، حيث إنّ المتكلم لو قصد التبرّؤ من الإمام عليّ ومن عثمان لم يقدم الجار والمجرور (وهما من عليّ ومن عثمان) على المعنى الذي تعلق به وهو (بريء)، ولم تكن حاجة إلى تكرار كلمة (من) قبل (عثمان).

وهذا الشرط لا ينطبق في الموضوع، لأنّ التعبير بالولاء هو تعبير متعارف وملائم آنذاك، ولا يثير أيّة إشارة غامضة أو دلالة مختلفة عمّا يفهم من الكلام.

إذاً يتضح مما تقدم كله أنّ دلالة هذه الخطبة على عقد الولاء الخاص للإمام على حد الولاء الثابت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لهو أمر واضح.

هذا كله عن القرائن اللفظية التي تدل على أنّ مفاد هذه الخطبة هو عقد ولاء الحكم والقيادة للإمام عليّ (عليه السلام) من بعده.

قرائن أخرى غير لفظية

إنّ القرائن الدالة على معنى الكلام لا تنحصر بالقرائن اللفظية، لأنّ الكلام تفاعل ذهني واجتماعي بين المتكلم والمخاطب، والظواهر الذهنية والاجتماعية بطبيعتها تعتمد على معهودات ومرتكزات سابقة أو حاضرة أو متوقعة في أجوائها، وهي تتفاعل معها وتتشكل في ضوئها.

ولذلك يكون الوقوف على ملابسات الكلام الحاضرة والحوادث السابقة لها مساعداً على فهم معنى الكلام، كما أنّ تفاعلات الكلام والأحداث التي تليه أيضاً تصلح عوامل مساعدة على فهمه، كما هو الحال في الخطوات التي يتخذها المتكلم مما يتصل بموضوع الخطاب أو الحوادث التي أخبر عنها في خطابه.

والمراد بالقرينية طبعاً ليست الحجة التامة والبرهان التام، وإنّما هي أمور ملائمة لهذا المعنى أو ذاك وفق سنن الدلالة في اللغة والعرف.

وهناك في شأن الخطبة قرائن غير لفظية ذكية ذات أنواع مختلفة:

١. ما كان من باب التفاعل الدلالي للخطاب مع ملابساته، حيث إنّ هذا المعنى يلائم المشهد الجماهيري للخطاب، كما أنّه يفسر مفاجأة الحدث في وسط الطريق.

٢. ما كان من باب التفاعل الدلالي للخطاب مع الهواجس المتوقعة للمخاطبين التي يثيرها ما أخبر عنه الخطاب، كما في ملائمة ذكره (صلى الله عليه وآله وسلم) لقرب وفاته مع هذا المعنى لأنّه يثير هاجس الولاء لعلي.

٣. ما كان من باب ملاحظة الشخصية التي وقعت محلاً للكلام، وهي شخصية أهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام).

٤. ما كان من باب تفاعل الخطاب مع سائر أقوال المتكلم ومواقفه مثل ملائمة هذا المعنى لسائر الأحاديث النبوية كالأحاديث الواردة في حق أهل البيت (عليهم السلام) قبل الواقعة، وكذلك ملائمة ما جاء فيه من الإخبار بضلال الأمّة وهلاكها إن لم تتمسك بهم مع أخبار الفتن التي أخبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بها.

٥. ما كان من باب المنبهات الخارجية كفهم أهل البيت (عليهم السلام) والصحابة الحاضرين، وغياب بديل عن تعيين الإمام (عليه السلام) في أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لتدبيره لما بعده.

٦. ما كان من باب ملائمة ذلك مع الخطوات اللاحقة من المتكلم، كالتي هي بمثابة تنفيذ الخطاب وتوثيقه، ومن هذا القبيل تجهيزه (صلى الله عليه وآله وسلم) جيش أسامة

الذي ضمّ إليه عامة وجوه المهاجرين والأنصار ـ لتغييبهم عن المدينة ـ عدا بني هاشم والإمام عليّ (عليه السلام)، وكذلك محاولته (صلى الله عليه وآله وسلم) كتابة الوصية بما عرف برزية يوم الخميس.

وهذه القرائن على أقسام مختلفة:

١. فمنها ملابسات حاضرة في أجواء الخطاب.

٢. وظواهر أو حوادث سابقة على الواقعة.

٣. وأمور وقعت بعد هذه الواقعة.

وعقدنا لكل واحدة منها إيضاحاً في الأقسام المقبلة للكتاب نظراً لحاجتها إلى مزيد من البيان والتوضيح والتوثيق، إلا أنّنا ننبه عليها هٰهنا لإحاطة الباحث في هذا البحث بمجمل العناصر الدلالية المساعدة على فهم الخطاب.

قرائن من خلال الملابسات الحاضرة للكلام

فمن القرائن الكامنة في ملابسات الكلام[1]:

القرينة الأولى: ملاءمة إرادة ولاية الأمر مع فهم أهل البيت (عليهم السلام) والصحابة الحاضرين لهذا المعنى من خطبة الغدير، كما يدل عليه في شأن أهل البيت (عليهم السلام) كلمات الإمام (عليه السلام) في خطبته التاريخية في الكوفة في إثبات المكانة المتميزة لأهل البيت (عليهم السلام) وذكر كون الوصية فيهم، وتوصيف نفسه

(١) سيأتي توضيح هذه القرائن وفق الترتيب المذكور في القسم الثاني من الكتاب.

(عليه السلام) بالوصي، وهو ما تدل عليه آثار وردت عن سائر أهل البيت (فاطمة (عليها السلام) والحسنين (عليهما السلام) وذريتهما).

ويدل عليه في شأن الصحابة تصريح كثير من الصحابة بين يدي الإمام (عليه السلام) في حروبه أنّه وصي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونصوص حكيت في شأن هذه الواقعة في مشهدها بعد ذلك.

وهذه القرينة من قبيل المنبهات الخارجية، لأنّ فهم الحاضرين منبّه على الدلالات الحية والمسترسلة للخطاب في أذهانهم، إذ لا يعقل فهمهم الخطاب على وجه آخر غير ما أريد به.

والقرينة الثانية: ملاءمة إرادة إثبات ولاية الأمر للإمام عليّ (عليه السلام) ما يتوقعه الحاضرون بطبيعة الحال عند إخبار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقرب وفاته من تحديد من يلي الأمر بعده.

وهذه القرينة كما تقدم من قبيل تفاعل الخطاب مع الهواجس التي يثيرها كلمات المتكلم.

ومن المعلوم أنّ اطلاع الحاضرين على قرب وفاة القائد ـ كما أخبر عنه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بل احتمال ذلك يثير في نفوس الناس التفكير في الأمر من بعده، وما يتعرضون له من الضياع بعد فقدانهم لهذا الولاء الجامع بينهم الذي هو أساس الكيان القائم الواحد.

وهذا الأمر بطبيعة الحال يساعد على فهم ولاية الأمر البديلة عن ولاية

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد وفاته من هذه الخطبة.

والقرينة الثالثة: ملاءمة إرادة ولاية الأمر للإمام (عليه السلام) لغياب أي إرشاد آخر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى من يلي الأمر بعده رغم وضوح خطورة ترك هذا المجتمع القبلي المتفرق الملتئم بوجوده بثقل الوحي من دون رسم ولاء جامع، وقد أخبر (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه عن إقبال الفتن من بعده على المسلمين، فمن غير المعقول أنّ يترك الأمّة من دون توجيه قبيل وفاته.

وخطبة الغدير هي النص الفريد الذي أخبر به عن وفاته وتعرض فيه للولاء من بعده.

وهذه القرينة من قبيل المنبهات الخارجية على مدلول الخطاب.

والقرينة الرابعة: هي إلقاء هذه الخطبة في المشهد الجماهيري العام الذي يتجاوز الحضور فيه من الحضور المعتاد لكلماته (صلى الله عليه وآله وسلم) في المدينة إلى الحضور الجماهيري العام من مختلف البلاد.

وهذه القرينة هي من قبيل مؤشرات ملابسات الخطاب على طبيعة مضمون الخطاب، حيث إنّ من الملائم أن يكون الإعلام عمّن يستخلف خطاباً عاماً يتجاوز الخاصة والبيئة المحدودة إلى المجتمع العام حتى لا يكون عرضة للكتمان والإخفاء أو التحريف.

والقرينة الخامسة: ملاءمة إرادة ولاية الأمر للإمام (عليه السلام) لدلالات تأخير هذه الخطبة عن الاجتماعات العامة للحج التي كان يجتمع فيها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

مع الحجاج وسائر أهل مكة، حيث يدل هذا التأخير على نبأ مفاجئ وغير معتاد من السماء اقتضى مبادرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى جمع الناس المتفرقين في الطريق وإعدادهم لخطاب جامع، فألقى فيهم هذه الخطبة البليغة العظيمة، وهي حالة فريدة في سيرته (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذا الأمر يلائم النظر إلى معنى خطير جداً وهو ولاية الأمر.

وهذه القرينة أيضاً من قبيل تأشير ملابسات الخطاب على طبيعة مضمونه.

والقرينة السادسة: ملاءمة إرادة إثبات ولاية الأمر للإمام (عليه السلام) لما أثير من ضوضاء عند خطبته (صلى الله عليه وآله وسلم) بعرفات عند ذكر الأئمة من بعده، فلم يفهم باقي كلامه في أثر الضوضاء التي أحدثها الحاضرون، فإنّ المتوقع أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) اقترب من ذكر من يلي الأمر من بعده، فحدس به بعض الحاضرين، وحالوا دون ذلك، فحذر من الفتنة حتى جاءه الوحي بإبلاغ ذلك في الطريق بعد غياب بعض أدواتها، فكانت خطبة الغدير استدراكاً لخطبة عرفات.

وهذا ينبّه على أنّ ما أراد بيانه (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة عرفات وبينه في خطبة الغدير هو أمر على حد عقد الولاء للإمام (عليه السلام) من بعده، وليس في مستوى وجوب المودة له (عليه السلام) ونحو ذلك.

وهذه القرينة من قبيل المنبهات الكامنة في الحوادث السابقة على مشهد الخطاب مما يتعلق بالخطاب، وقد ذكرناها في الملابسات الحاضرة للكلام من جهة علاقتها بالقرينة السابعة.

والقرينة السابعة: ملاءمة إرادة إثبات ولاية الأمر للإمام (عليه السلام) لغياب أي سبب خاص في ملابسات الحادث يوجب التذكير بالولاء الإيماني العام القائم بين المؤمنين في حق أهل البيت (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام (عليه السلام)، أو وجوب المودة لهم أو نصرتهم، وذكر مثل هذه المعاني يحتاج إلى سبب يستدعي ذلك بخلاف عقد ولاية الأمر للإمام (عليه السلام).

وهناك من سعى إلى أن يجعل سبب هذه الواقعة شكوى بعض مرافقي الإمام (عليه السلام) في سرية اليمن منه إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو أمر خاطئ لعدم وجود مؤشر تاريخي على ذلك، بل هناك اختلاف بين حادث الشكوى وواقعة الغدير زماناً ومكاناً، مع أنّ شكوى نفر معدود لا يوجب إيقاف ألوف الناس لغرض تنزيه الإمام (عليه السلام).

القرينة الثامنة: أنّ لحن الخطبة يدل على صعوبة مضمون الخطبة جداً على فريق معتد به من الحاضرين كما أوضحنا ذلك من قبل.

وهذا الأمر أيضاً لا ينطبق على الولاء العام بين الإمام وبين المؤمنين، ولا على الولاء الخاص الذي يترتب عليه مجرد وجود المودة والمحبة له (عليه السلام)، وإنّما الأمر الثقيل على خاصته من أهل الحل والعقد ـ من رجال قبيلته الأبعدين (قريش) ومن الأنصار الذين آووه ونصروه ـ هو جعل الأمر لعلي من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنّ ذلك هو الذي يكون صعباً عليهم للغاية كما بيّنا ذلك من قبل، وهذه القرينة من قبيل دلالة ذهنيات الحاضرين على المعنى مع ملاحظة ملاحن

الكلام التي يتفطن لها اللبيب على المراد الذي يومي إليه الكلام.

القرينة التاسعة: التي تساعد على إفادة الخطبة العامة ولاية الأمر للإمام (عليه السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هي الفتن التي وقعت بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، والأحاديث التي رويت عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في التنبؤ بها والإخبار عنها.

فإنّ في ذلك ما يلائم نظر هذه الخطبة إلى نصب أهل البيت (عليهم السلام) هداة للأمة ونصب الإمام (عليه السلام) ولياً من بعده (صلّى الله عليه وآله وسلّم) من وجهين:

الأوّل: أنّ هذه الخطبة صرحت بأنّه إذا وقع التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) ـ وبما يتفرع عليه حسب سياق الحديث من الولاء للإمام (عليه السلام) ـ لم تضل الأمّة ولم تهلك بالوقوع في الشبهات والفتن.

وحيث إنّ الأمّة وقعت في الشبهات والفتن بعده (عليه السلام) لاسيما منذ أواخر زمان عثمان فما بعد دلّ ذلك على أنّهم لم يعملوا بموجب هذه الخطبة، وهذا إنّما يتمّ إذا أريدت ولاية الإمام عليّ (عليه السلام) للأمر بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو الذي كان يحول دون وقوع هذه الفتن والشبهات.

وقرينية هذا الوجه لدلالة الخطبة على إثبات الولاء للإمام (عليه السلام) من قبيل قرينية صدق الكلام على مدلوله بالنظر إلى الحوادث الخارجية المنبهة على مدلول الخطاب، وهذا أشبه بدلالة الملابسات الحاضرة للكلام، ولو نظرنا إلى وجود مبادئ التفرق والتنافس القبلي في مشهد الخطاب الشامل للحاضرين

لكان ذلك من قبيل دلالة ملابسات الخطاب فعلاً.

الثاني: أنّ هذه الخطبة تضمّنت التنبؤ بالوقوع في الضلالة والفتنة إذا لم يتمّ التمسك بأهل البيت (عليهم السلام)، وما يتفرع عليه من الولاء للإمام (عليه السلام)، وبذلك تلتقي هذه الخطبة مع إخبار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن افتتان أصحابه بعده، وعن فتنة البغاة التي يقتل فيها عمّار، وعن فتنة بعض نسائه، وعن فتنة الخوارج.

وهذا وجه آخر للدلالة على عدم عمل الأمّة بالحديث.

وقرينية هذا الوجه لدلالة الخطبة على إثبات الولاء للإمام (عليه السلام) يكون من باب مساعدة الأحاديث النبوية بعضها على فهم بعض آخر، وتحصيل صورة متكاملة عن مرامي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمجموع كلماته المرتبطة بموضوع واحد.

القرينة العاشرة: ملاءمة مكانة أهل البيت (عليهم السلام) والإمام (عليه السلام) عند واقعة الغدير وفق نصوص الكتاب والسنة السابقة على هذه الواقعة لإرادة إثبات الاصطفاء لأهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذه الأمّة والولاء للإمام عليّ (عليه السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

فالنصوص والتشريعات الواردة في شأن عنوان أهل البيت (عليهم السلام) وفي شأن آحادهم وهم الإمام عليّ وفاطمة والحسنان (عليهم السلام) وفي شأن بني هاشم عصبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تدل على امتياز أهل البيت بالعلم والتسديد الإلهي، فهم

من السلالات المصطفاة، وقد ميز الشرع عصبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بني هاشم بالتكريم والتخصيص بسهم في الخمس والفيء أبداً ليكونوا عصبة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته، وذلك يلائم نصبهم في نهاية الأمر أعلام هدى للأمة وولاة للأمر.

كما أنّ الإمام عليّاً (عليه السلام) كان له مع سائر بني هاشم قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولاء خاص بنصرته في أمر الرسالة، كما أنّه تبوّأ قبل هذه الواقعة مواقع خاصة هي موقع الحليف معه حيث عقد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) معه في اجتماع بني هاشم عند إظهاره لبعثته رسولاً عقد مناصرة على أن يؤازره ويكون ظهيره ووصيه ووارثاً وخليفته من بعده، ثمّ موقع الوزارة له كوزارة هارون لموسى وموقع الإخاء الخاص مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذه القرينة هي من قبيل قرينية سوابق الرجال الذين هم موضع الحديث في مضمون الخطاب الوارد بشأنهم، وتكون هذه السوابق نوعاً من الملابسات الحافة بالخطاب، لأنّها يمثل عناصر شخصيتهم حين الخطاب.

فهذه قرائن متنوعة مساعدة على كون المراد بالخطبة مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) للأمّة وعقد الولاء للإمام (عليه السلام)، وسيأتي بيان كل واحدة منها في إيضاح مستقل في هذا القسم نظراً إلى حاجتها إلى مزيد من البيان والشرح والتوضيح.

قرائن على مدلول الخطبة من خلال الحوادث قبل هذه الواقعة

وهناك قرائن أخرى من خلال الحوادث والظواهر التي كانت قبل هذه الواقعة وخطبتها[١].

القرينة الحادية عشرة: على دلالة خطبة الغدير على ولاء الإمام (عليه السلام) هي ما نزل بشأنها من الآيات حسب المأثور عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وروي عن بعض الصحابة أيضاً، وذلك آية التبليغ: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[٢]، وتدل هذه الآية على أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنبأ عظيم قيل عنه إنّه إنْ لم يبلّغه فإنّه لم يبلّغ رسالته سبحانه، لكنه كان يخشى من ممانعة القوم وفتنتهم وينتظر فرصة عسى أن يهتدي هؤلاء، فجاء دعمه في إبلاغه لذلك عاجلاً، وبُيّن له (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه لا يرجى اهتداء هؤلاء بتاتاً؛ لأنّ معارضتهم لذلك هو شعبة من شعب الكفر، وهو سبحانه لا يهدي من كفر بعد قيام الحجة عليه في الدين، وهذه الخصائص لا تنطبق إلا على تعيين الإمام عليّ (عليه السلام) لما بعده،

(١) يأتي توضيح هذه القرائن في القسم الثالث من الكتاب.

(٢) سورة المائدة: آية ٦٧.

وكذلك الحال في آية إكمال الدين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾(١)، ولم يحدث في ذلك اليوم ما يلائم إكمال الدين عدا تعيين نظام الحكم من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولذلك توضيحات تأتي في محلها ودفع الالتباسات المطروحة في شأنها.

القرينة الثانية عشرة: موافقة الولاء للإمام مع قواعد توريث الولاء بحسب الارتكاز العرفي والقبلي، وهي القواعد التي احتج بها المهاجرون الثلاثة من قريش (أبو بكر وعمر وأبو عبيدة) على الأنصار حيث قالوا: إنّ قوم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أولى بتراثه ومن ذا ينازعنا سلطانه، فقد كان الإمام عليّ (عليه السلام) ابن عمّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وربيبه وقرينه وعضده الأيمن وأخاه بالتآخي ووزيره وصهره، ولم يكن هناك ما يدانيه قرباً وخصوصية بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومثله في العرف العام يتعين لوراثته (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذا يساعد على فهم عقد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الولاء له (عليه السلام) بعد التنبيه على قرب وفاته على أنّ المقصود هو ولاء الأمر.

القرينة الثالثة عشرة: عقد المناصرة والتوريث للإمام عليّ (عليه السلام) بمحضر بني هاشم، حيث روي في السيرة النبوية أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما أراد أن يعلن دعوته بدأ بقومه حتى يضمن حمايتهم له، ولا يتقدم عليهم غيرهم بخطوته

(١) سورة المائدة: آية ٣.

هذه، ويدعوهم إلى الإيمان به ويتّخذ منهم بشكل خاص وزيراً، وقال: (أيّكم يؤازرني فيكون أخي ووزيري وخليفتي ووارثي ووصيي)، فلم يستجيب وقتها أحد منهم عدا الإمام عليّ (عليه السلام)، فقال له: (أنت أخي ووزيري وخليفتي ووارثي ووصيي)، فهذا يعتبر عرفاً من قبيل عقد المناصرة مع الإمام (عليه السلام) على مؤازرته الخاصة له (صلى الله عليه وآله وسلم) فيكون خليفته من بعده، وهذه الواقعة ثابتة في السيرة، وصحح النقّاد الخبر الوارد بها من بعض طرقه كما جاء عن ابن عباس(١).

القرينة الرابعة عشرة: ملاءمة اصطفاء أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الإسلام للحكم مع سنة الله سبحانه في الأمم السابقة في شأن الأنبياء الذين تولوا الحكم مثل موسى (عليه السلام) في اصطفاء سلالتهم في الحكم والعلم والتسديد، وهي سنّة تتمثل في القرآن الكريم مما يعطي إيحاء بأنّه النموذج المعتمد في الإسلام أيضاً، لا سيما مع دلالة آية المباهلة على تقديس أهل البيت (عليهم السلام)، ودلالة آية التطهير على عنايته تعالى بأهل بيوت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الإجمال كعنايته بأهل بيت الأنبياء السابقين، وكذلك ثناء جملة من الآيات على الإمام عليّ (عليه السلام) على وجه مميز جداً مثل آية التصدق راكعاً.

وهذه القرينة أيضاً من قبيل دلالة الأحداث السابقة على الحدث والخطاب

---

(١) تاريخ الطبري: ٦٣/٢، وغيره.

على مدلول الخطاب.

القرينة الخامسة عشرة: هي مساعدة سيرة الإمام عليّ (عليه السلام) مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ ولادته وحتى وفاته، حيث إنّه (عليه السلام) كان من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بمثابة الولد من والده تماماً كما أنّ الاختلاف بين سنه وسن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان كذلك، فقد كان أصغر من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بثلاثة وثلاثين عاماً، فقد أوكل أبو طالب ـ لظرف طارئ في مكة ـ الإمامَ وهو طفل صغير إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فنشأ في بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتربى عنده، وكان يذهب معه إلى غار حراء، وكان كما حدّث (عليه السلام) يتبع أخلاق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسلوكه خطوة بخطوة فيقتدي بها[١]، وعندما بعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان أوّل من اطلع على ذلك وصدقه، وكان يسمع ما يسمعه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنه لا يراه، فحكى ذلك للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: إنك تسمع ما أسمع ولن ترى ما أرى وإنك وزير ولست بنبي[٢]، وكان

---

(١) لاحظ مثلاً: نهج البلاغة: ٣٠٠.

(٢) لاحظ: نهج البلاغة: ٣٠١، وقد ورد فيه هكذا: (إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ ولَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ)، ولم أقف على اختلاف بين نسخ النهج في ذلك، حتى ما كان مع الشرح كشرح ابن ابي الحديد، وقد يرجح أن يكون الاصل(ولا ترى ما أرى)،كما يناسب السياق، بتقريب أنّ الإمام (عليه السلام) لم ير الشيطان، بل سمع رنة الشيطان فحسب، ويبدو أنّ النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) سمعه ورآه، ولذلك تعرض (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لذكر الرؤية، ويؤكده شواهد خارجية، منها أنّه لم يذكر رؤية الإمام (عليه السلام) لجبرئيل (عليه السلام) في أيّ نص آخر بالرغم من كثرة نزول جبرئيل (عليه السلام) على النبي (صلّى الله عليه

يصدقه في مجالسه مع قريش وغيرها كما كان هارون يصدق موسى (عليه السلام) كما طلب (عليه السلام) من الله تعالى[١]، ولم يجد رسول الله له خطلة في فعل ولا كذبة في

وآله وسلّم) وكثرة تواجد الإمام (عليه السلام) عنده (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ولا ينتقض ذلك بعدم ذكر سماع الإمام (عليه السلام) للقرآن عند نزول جبرئيل به على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لا في مقام ذكر نزول القرآن ولا في مقام ذكر فضائله، و ذلك لأنّ من غير الواضح أنّ جبرئيل (عليه السلام) كان يقرأ القرآن على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قراءة صوتية، بل ربما كان ينزل به على قلبه فحسب، ولعل ذلك سبب كونه ثقيلاً على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) إذ جاء في الأثر أنّه كان يعتوره حالة خاصة، علماً أنّ رؤية جبرئيل (عليه السلام) وسائر الملائكة أمر عظيم، كما يظهر من لحن القرآن في سورة النجم والتكوير في ذكر رؤية النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لجبرئيل (عليه السلام) بالأفق الأعلى وعند سدرة المنتهى، فلا يثبت إلا بدليل قوي، ومنها ما روي عن الأئمة من آل البيت (عليهم السلام) في الفرق بين الرسول والنبي والمحدث أنّ (الرسول الذي يظهر له الملك فيكلمه، والنبي هو الذي يرى في منامه، وربما اجتمعت النبوة والرسالة لواحد، والمحدّث الذي يسمع الصوت ولا يرى الصورة)، الكافي للكليني: ١/١٧٧. إلّا أن يجاب بأنّ عدم رؤية المحدَّث صورة الملك عند حديثه معه لا ينافي رؤيته إياه عند حديث الملك مع غيره، وقد جاء في القرآن الكريم أنّ الملك تمثل لمريم (عليه السلام) بشراً، ويظهر من سياقه أنّها رأته، لكن التفصي لا يخلو عن بعد، وأمّا رؤية مريم (عليه السلام) للملك فهو إنما كان عندما تمثل لها، ولعل رؤية الآخرين له حينئذٍ لا إشكال فيها، كما روى الجمهور عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أنّ جبرئيل كان ينزل بصورة دحية الكلبي عليه، وأنّه قال إذا رأيتم دحية الكلبي عندي فلا تدخلوا عليّ، والمسألة محل تأمّل.

(١) حيث قال: ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ**﴾ (سورة القصص: آية ٣٤).

قول كما حدّث (عليه السلام) بذلك[١].

وكان معه طوال مسيرته في مكة، ومنها السنوات الثلاث العجاف عندما حاصرت قريش بني هاشم في شعب أبي طالب، ثمّ بات في مكانه تمويهاً على قريش لمّا عزمت على قتله، ثمّ أدى أماناته وحمل أهله إلى المدينة مسرعاً وقد تورمت قدماه، وانتظره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فلم يدخلها من دونه، وبكى لما رأى تورم قدميه، ثم جعل بيته بين بيوته حول مسجده، ثم زوّجه من ابنته، ثمّ كان صاحب رايته في حروبه ورجل المهمات الصعبة عنده سواء..

١. كانت المهمة عسكرية كما في حروب بدر وأحد والأحزاب وحنين.

٢. أم كانت المهمة أمنية كما في استكشاف الرسالة التي حملتها امرأة ترجع إلى مكة عند قصد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) العمرة في السنة السادسة.

٣. أم كانت المهمة إبلاغ ما نزل من القرآن إلى من خوطب به أداء للرسالة كما أمر جبرئيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بإرسال عليّ (عليه السلام) لإبلاغ آيات أوّل البراءة إلى مشركي قريش في مكة.

٤. أم كانت المهمة دعوية كما بعثه إلى اليمن ـ بعد عجز خالد بن الوليد عن إقناع أهلها بالإسلام ـ فَوُفِّق في ذلك.

٥. أم كانت المهمة قضائية كما بعثه إلى اليمن للقضاء، فأبدى الإمام (عليه السلام)

---

(١) لاحظ نهج البلاغة: ٣٠٠.

تهيّباً للأمر فدعا (صلى الله عليه وآله وسلم) له أن يسدده الله، فذهب فترة وعاد، وحكيت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعض قضاياه فسّر بذلك.

ولمّا جاء من اليمن أشركه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هديه في حجة الوداع، وأمره بحج القران من دون سائر من لم يكن ساق هدياً حيث أمرهم بحج التمتع، وكان من أمره يوم الغدير ما كان، وكان مرافقه في مرض موته حتى مات (صلى الله عليه وآله وسلم) ورأسه (صلى الله عليه وآله وسلم) في حضن الإمام (عليه السلام) وانشغل بتجهيزه، وكان (عليه السلام) كما حدّث حيث يرافق النبي يبتدئه بالسؤال فإن سكت بدأه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكان (عليه السلام) ثاني شخصية بين المسلمين عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأقربهم إليه وأطوعهم له، وأكثرهم تأسياً به واقتداء به بفارق كبير عن الآخرين.

فهذه المسيرة تصلح قرينة مساعدة على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قصد بعقد الولاء له بعد إخباره بقرب موته أن يحل محله، لأنّ شخصية الشخص تساعد على تحديد مدلول الخطاب الذي تعلق به.

القرينة السادسة عشرة: هي مؤهلات الإمام عليّ (عليه السلام)، وقد تبيّنت مؤهلات الإمام (عليه السلام) التي انفرد بها عند توليه للخلافة حيث ظهر بوضوح من خلال سيرته وأقواله المأثورة في التاريخ الإسلامي أنّه كان على حد المصطفين من عباد الله المميزين بالعلم والتسديد والبصيرة واليقين والإلهام والحكمة والزهد والعبادة والعدل والقضاء وفصل الخطاب، فلم يعد يمكن أن يقاس بأحد من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في شيء، وأنّ مثل الخلفاء الذين تولوا

الأمر قبله بالقياس إليه مثل الواحد من عامة الناس ممن تصدى لشأن مهم فاقتضى وقوفه على بعض الأمور بالمقارنة مع الأوحدي من أجلة أهل العلم والعمل في الدين الذي يحمل العدة الكاملة للحكم في علمه وسلوكه وخصاله كلها، بل مثل سائر الصحابة إليه كمثلهم بالنسبة إلى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، إلا أنّه (عليه السلام) لم يكن نبياً، ولكنه كان محدّثاً وملهماً، فلا يقاس أحد من الصحابة به في شيء بتاتاً.

ولذلك فإنّ المرء إذا وقف على ذلك سوف يعتقد أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يستحيل أن يفرط بتعيينه ولو على سبيل الإرشاد إليه، فأمّا وقد ورد النص بعقد الولاء له فلا مجال للتشكيك في دلالته على ولايته الأمر من بعده.

قرائن أخرى على مؤدى الخطبة من خلال الحوادث التي اتفقت بعد هذه الواقعة.

وهناك قرائن متعددة من خلال الحوادث التي اتفقت بعد هذه الواقعة[1] تنضم إلى القرائن السابقة:

القرينة السابعة عشرة: هي أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مرضه بإنفاذ جيش أسامة للقتال في مؤتة وقد جعل فيه عامة وجوه المهاجرين والأنصار ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم، مستثنياً منهم على غير عادته خصوص بني هاشم

(١) ويأتي ما يوضح هذه القرائن في القسم الرابع من الكتاب.

والإمام علياً (عليه السلام)، ولو أُنفذ هذا الجيش لغاب وجوه الصحابة عن المدينة لعدة أشهر، وقد توفي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واستقر الأمر من بعده للإمام (عليه السلام) تماماً.

ويدل الإمعان في هذا الحدث على أنّ هذه الخطوة من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت خطوة تنفيذية لواقعة الغدير وربما لغاية توثيقها كتباً أيضاً، فأراد أن يُغيّب هؤلاء عن المدينة قبيل وفاته وبعدها عند تعيين ولي الأمر من بعده.

ولو نفّذ الصحابة أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا لم يمنع أحد الرسول من كتابة الوصية، ولا كان معارضٌ في الباقين في المدينة لتولي الإمام عليّ (عليه السلام).

القرينة الثامنة عشرة: سعي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى توثيق الوصية بأهل البيت (عليهم السلام) وعقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) كتابةً في مرض موته في الحادثة المتفق عليها المعروفة برزية يوم الخميس، حيث إنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) طلب من الحاضرين أن يأتوه بقرطاس وقلم لكي يكتب لهم كتاباً لا يضلون بعده أبداً.

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا يطابق ما جاء في خطبة الغدير فكرة وتعبيراً، ويبدو أنّ عمر انتقل إلى مقصوده (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال ما معناه: دعوه إنّ الرجل يهجر، وانتصر له قوم من الحاضرين فتأذى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وترك ذلك.

ولو تيسر أن يكتب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما أراد لأصبحت هذه الوثيقة مقدسة مأثورة عند المسلمين لا يتأتى لأحد أن يعدل عنها، لكن تشكيك عمر في عقل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ معاذ الله من ذلك ـ أبطل ما سعى إليه (صلى الله عليه وآله وسلم).

وهذه القرينة من باب دلالة الحوادث المتفرقة على الحدث والخطاب فيه

على مدلول الخطاب.

القرينة التاسعة العشرة: إحياء الإمام عليّ (عليه السلام) لواقعة الغدير ومضامين خطبتها، فقد بدأ الإمام عليّ (عليه السلام) في مستهل خلافته ودخوله إلى الكوفة باستشهاد الصحابة على واقعة الغدير في ساحة مسجد الكوفة في حادثة متفق عليها[١]، ونشر مكانة أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمة، وأفصح عن وصايته عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبه في صلواته وحروبه على وجه أثر جملة منها بشكل واضح في التاريخ، وجاءت مختارات منها في نهج البلاغة، حتى صار ذلك منشأ لانتشار التشيع في الكوفة، ومنذ عهده عرفت الكوفة بالتشيع متميزة في ذلك عن سائر البلاد، وانتشر فيها نقد الخلفاء الثلاثة، ورجع الناس بعد شهادته إلى ابنه الإمام الحسن (عليه السلام)، ثمّ الحسين (عليه السلام) وذريته (عليهم السلام).

فهذه قرينة على مضمون واقعة الغدير، إذ لا يحتمل أحدٌ من المسلمين أن يقول الإمام (عليه السلام) عن اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) واستحقاقهم الولاء في هذه الأمّة قولاً يزيغ فيه الدين.

القرينة العشرون: هي صدق التنبؤ الذي وقع في هذه الخطبة، وهي أنّ الأمّة إن لم تتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) وبما يتفرع عن هذا التمسك من الولاء للإمام (عليه السلام) بأن تقدمت عليهم مثلاً فإنّها سوف تضل وتهلك، وإن تمسكت

---

(١) يوم الرحبة، وقد تقدم تخريجها.

بهم سلمت من الضلالة والهلاك.

وقد لوحظ في الأحداث بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما أدى إليه أمر هذه الأمّة من مبادئ الفتن في السقيفة، ثمّ تمحصت نتائجها عن الفتن في أواخر زمان عثمان، وتوالدت هذه الفتن حتى بلغ وضع المسلمين إلى ما نشهده في الزمان الحاضر.

فهذه قرينة على أنّ مؤدى الحديث هو التمسك بأهل البيت (عليهم السلام)، وما يتفرع عنه من الولاء لهم بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولهذه القرينة أكثر من بُعد[١].

وهي بالنظر إلى بعض أبعادها من قبيل تفاعل الخطاب المتضمن للتنبؤ بحدث ما مع ما يتفق خارجاً.

أمور موهمة لعدم دلالة الخطبة على عقد الولاء

إنّ هناك أموراً قد توهم عدم دلالة الخطبة على عقد الولاء، وتمنع من وضوحها في تلقي الناظر فيها، وهي أيضاً على أنواع مختلفة، منها ملابسات حاضرة للخطاب، وثانية حوادث سابقة عليه، وثالثة أمور وقعت بعده، وقد تعرّضنا لها إمّا في ضمن الإيضاحات المتعلقة بالقرائن السابقة، أو على وجه مستقل في القسم الرابع من الكتاب، فلنشر إليها حتى تكتمل الصورة الدلالية للنصّ والعناصر المؤثرة فيها، وتتميّز عن العناصر الموهمة والخادعة التي قد

---

(١) وقد تقدم ذكرها بالنظر إلى بُعدٍ من أبعادها في القرينة التاسعة.

تؤثر في تلقي المخاطب ولو على نحو لا شعوري.

الأمر الأوّل: عدم ذكر اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الإسلام في القرآن الكريم، رغم أهمية هذا الموضوع في الدين، حيث إنّه بمثابة تتمة الرسالة.

والجواب عن ذلك بإيجاز[١] بالنظر إلى مجموع أمور ثلاثة:

الأوّل: أنّ القرآن الكريم تضمّن إشارة إلى هذا الأمر على وجوه مختلفة:

١. ما جاء بشأن واقعة الغدير من آيتي البلاغ وإكمال الدين.

٢. ما دلّ على عناية الله بسلالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أسوة بسلالات الأنبياء السابقين، وذلك آية التطهير بضميمة ما ورد في الحديث النبوي المتفق عليه من جمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الإمام عليّاً (عليه السلام) وفاطمة والحسنين تحت الكساء وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (اللّهم إنّ هؤلاء أهل بيتي فطهرهم تطهيراً).

وتدل على هذه العناية أيضاً آية المباهلة التي تتضمن تقديس أهل بيته خاصة واعتبار الحسنين (عليهما السلام) أبناء للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن أهل بيته بالرغم من أنّهما أبناء بنات.

الثاني: أنّ من الجائز أن يكون هناك حكمة باعثة عن على عدم تضمين القرآن ما يزيد على المقدار المعلوم، وهو تعالى أعلم بها، وقد يتوقع أن تكون

---

(١) ذكرنا تفصيله في الحديث عن واقعة الغدير والقرآن الكريم في القسم الثالث الإيضاح الأوّل.

الحكمة أنّ شدة مقاومة المجتمع القبلي آنذاك لهذا الأمر كان بدرجة يؤدي ذكره إلى ارتداد كثير من المسلمين وحدوث الفتنة ـ كما أوضحنا ذلك في بعض أبحاث الكتاب ـ فجاءت الدلالة على ذلك في القرآن الكريم بالمستوى المتقدم.

ولا شك أنّ الله سبحانه كان قادراً على فرض هذا المبدأ بأي وجه كان على الصحابة والمسلمين، ولكن لله سبحانه وتعالى حكمته في الأمور، والتي قد لا توافق توقعات الإنسان، كما قال: ﴿**إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾(١)، ولا يسع الإنسان المسلم المتأمّل في خطاب الله سبحانه وسننه أن يثق بأن الدين إذا كان يشتمل على اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) وولاء الإمام (عليه السلام) فالمفروض أن يرد بأسلوب صريح يزيد على ما تقدم.

الثالث: أنّنا لا نستطيع من خلال طرح هذا السؤال أن نتحدى وقائع ونصوصاً تاريخية ومتواترة وموثوقة متفق عليها، مثل خطبة الغدير التي تمثل حادثة كبرى في سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وحديث الكساء، وصيغة الصلاة، وحديث فاطمة سيدة النساء، وحديث المنزلة (أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنّه لا نبي بعدي)، و(الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)، وهما (سبطان من الأسباط).

---

(١) سورة الشعراء: آية ٤.

وقد قرر القرآن الكريم مبدأ طاعة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأخذ ببيانه للتعاليم القرآنية في تفاصيلها، وهي كثيرة في باب الصلاة والصوم والحج والتجارات والأنكحة والأطعمة والمواريث والقصاص والدماء والقضاء.

غايته أن يمثّل هذا السؤال إبهاماً في الموضوع، ولا يمكن أن تجعل كل نقطة إبهام في الموضوع تحدياً للحقائق المشهورة، وسبيلاً إلى إنكارها أو التكلف في تأويلها بما لا تحتمله بتاتاً.

الأمر الثاني: أنّه لو أراد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بخطبة الغدير نصب أهل بيته أعلام هدى في الأمّة وعقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) من بعده لذكر ذلك في الاجتماع الجماهيري في الحج، ولم يؤخره إلى أثناء الطريق بعد أن غاب عن المشهد أهلُ مكة وكثير من الحجاج الذين كان يختلف مسير بلادهم عن اتجاهه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الطريق.

والجواب عن هذا الأمر بإيجاز بمجموع أمرين:

١. إنّه أبلغ اصطفاء أهل البيت في خطبة عرفات بذكر حديث الثقلين وفق بعض الروايات المعتمدة، ولكن حدثت ضوضاء في أثناء خطابه عند ذكر الأئمة من بعده حتى لم يُفهَم كلامه، وكان الناس يقومون ويقعدون في إشارة إلى استعدادهم لإثارة الفتنة، فكان ذلك ممانعة من تبليغه لولاء الإمام (عليه السلام) وسعياً في إثارة الفتنة إن فعل ذلك، فلذا ترك (صلى الله عليه وآله وسلم) الأمر لفرصة أنسب حتى إذا كان في الطريق أمر بتبليغ ذلك، وقد أوضحنا شواهد ذلك في بعض

الإيضاحات الآتية(١).

٢. إنّنا لا يسعنا أن ننكر وقوع حادثة بحجم الغدير، ولا إنكار اختصاصها ببيان مكانة أهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام) في الدين بعد بلاغة الخطاب ودلالاته المؤكدة على ما سبق توضيحه لمجرد التأخير في إبلاغ هذا الأمر عن الموعد الملائم عمّا نتوقعه.

ولقد نزلت على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في السنة التاسعة آيات البراءة من المشركين لإبلاغها إليهم، وهم في مكة، فأرسل أبا بكر بذلك، حتى إذا خرج أبو بكر من المدينة جاء جبرائيل يقول له (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا يؤديها إلا أنت أو رجل منك)، فبعث علياً (عليه السلام) بها، وأقال أبا بكر من إبلاغها، ومن المعلوم أنّ أمر جبرائيل هذا يبدو تأخيراً عن الوقت الملائم ـ وهو قبل أن يأمر النبي أبا بكر بإبلاغها أو قبل أن يخرج أبو بكر ـ ولكن هذا لم يتفق فعلاً.

ويبدو أنّ السرّ فيه العناية بتفهيم صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّ امتياز عليّ (عليه السلام) ليس هوى للرسول فيه لقرابته، وإنّما هو متميّز عند الله سبحانه.

ومثل ذلك وارد في المقام، فلو أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) بلّغ ما جاء في هذه الخطبة في مكة ربما اتهم بأنّه لهوى نفسه في أهل بيته (عليهم السلام) وفي عليّ (عليه السلام)، فلما جاءت هذه الواقعة كحالة اضطرارية أُفْهِم أنّ الأمر من الله تعالى، وليس ذلك تدبيراً من

(١) لاحظ الإيضاح السادس والسابع.

الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

الأمر الثالث: أنّ من الممكن أن يكون السبب لإلقاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خطبة الغدير هو ما روي من شكوى جماعة ـ ممن كان مع الإمام عليّ (عليه السلام) في اليمن ـ إلى الرسول من الإمام (عليه السلام) فعقد هذا الاجتماع لتزكية الإمام (عليه السلام) ودفع الشوائب عنه.

والجواب عن هذا الأمر بإيجاز[١]: أنّه لم يرد في شيء من أخبار تلك الشكوى أنّ الجماعة التقوا بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشكوا إليه في الطريق، بل الذي تشمل عليه تلك الأخبار المصرّحة بمحل الشكوى أنّ محلها كان هو المدينة بعد رجوع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إليها، وربما ورد في بعضها أنّ محلها كان مكة، وعليه فلا علاقة للشكوى بخطبة الغدير لا زماناً ولا مكاناً.

على أنّ عقد اجتماع مهم بهذا الحجم لأجل رد شكوى نفر ممن كان مع الإمام (عليه السلام) أمر غير ملائم.

الأمر الرابع: أنّه إذا كان مفاد حديث الغدير اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) وعقد الولاء للإمام (عليه السلام) فهو أمر قد يتأتى الالتزام به في شأن الحسنين، ولكن لا يمكن البناء على استمرار ذلك من بعدهما ولا سيما في العصر الحاضر، حيث لا إمام مصطفى من عند الله حاضر باتفاق المسلمين، ولا يجدي الإمام

(١) لاحظ الإيضاح السابع من القسم الثاني.

الغائب في دفع الضلالة والهلاك، وهذا ينبّه على أنّ من البعيد أصالة أن تفيد خطبة الغدير اصطفاء أهل البيت والولاء للإمام (عليه السلام) لأنه يكون أمراً محدوداً لفترة ثم ينقطع، وهذا أمر بعيد.

والجواب عن ذلك بإيجاز[١] بمجموع أمرين:

١. إنّ الاصطفاء مستمر بعد الإمام الحسين (عليه السلام) في الأئمة المميزين من ذريته الذين رجع إليهم الإمامية، وهم عند المسلمين عموماً من العباد الصالحين الذين لا استبعاد في اصطفائهم إذا اقتضى الدليل وجود مصطفين من ذرية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من بعده أبداً.

٢. ويبقى الأمر في شأن الإمام الثاني عشر (عليه السلام) وما أثير من الإشكال في غيبته، لأنّ شأن الإمام (عليه السلام) المنصوب من أهل البيت (عليهم السلام) أن يكون مرجعاً للأمة كي تسلم من الضلالة والهلاك، وتتوقى من الشبهات والفتن، ويتولى أمرها، وهذا لا يتأتى من الإمام الغائب كما يدعي المستشكل.

ويرتفع هذا الإشكال بأنّ الإمام وإن جعل في الأصل للهداية، إلا أنّ من الجائز أن يغيّبه الله سبحانه عن العباد بعدما تعاملوا مع الأئمة بالاضطهاد والقتل والظلم الفظيع، حتى إذا تهيأت أسباب استجابة الأمّة أظهره بينهم، وحفْظُهُ تعالى إياه حياً موجوداً إشارة للناس بأنّ حجته موجودة بين ظهرانيهم

---

(١) لاحظ تفصيله في القسم الرابع في إيضاح بعنوان واقعة الغدير واستمرار الإمامة.

فمتى استعدوا رفع الستر عنه، وقادهم إلى الهدى ووقاهم عن الضلالة والهلاك، وتولى أمرهم كما تولاه العباد الصالحون من قبل كجده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وبعد، فإننا لن نستطيع من خلال إثارة هذه النقطة واستبعاد وجود إمام غائب أن نتحدى خطبة الغدير في مكانتها التاريخية ودلالتها الواضحة، وقد اشتملت صريحاً على الأمر بالتمسك بالكتاب والعترة أبداً للتوقي من الضلالة والهلاك وعدم افتراقهما حتى يردا عليه الحوض، فاقتضى وجود إمام حي حاضر من أهل بيته (عليهم السلام) إلى يوم القيامة، وقد تقدم أنّ نقاط الإبهام لا تصلح أن تزيح الحقائق الثابتة من هذا القبيل.

الأمر الخامس: أنّ البناء على دلالة خطبة الغدير على اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الدين، ونصبهم أعلام هدى للأمة وعقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) ليَلِيه من بعده رجال متعاقبون من ذرية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يؤدي إلى محاذير لا تطاق بحال، فلا بدّ من تأويلها بوجهٍ ما، وأهم تلك المحاذير اثنان:

المحذور الأوّل: أنّ ذلك يعني انقلاب أهل الحل والعقد من الصحابة وتآمرهم على أهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام)، وهذا يخالف ما علم من مكانتهم في الدين بحسب نصوص عامة من الكتاب حول السابقين من المهاجرين والأنصار، ونصوص أخرى صريحة عامة وخاصة في السنة النبوية تتضمن تزكية الصحابة أو فئات منهم مثل أهل بدر وآحاد منهم مثل أبي بكر

وعمر وعائشة.

المحذور الثاني: أنّ سقوط اعتبار أهل الحل والعقد من الصحابة يؤدي إلى سقوط السنة النبوية المفصّلة للكتاب، في العقائد والسيرة والفقه والأخلاق والتفسير وسائر شؤون المعارف الدينية فلا يبقى شيء من الدين.

والجواب عن هذا الأمر بإيجاز:

أمّا في شأن المحذور الأوّل:

فبمجموع أمور:

١. إنّ واقعة الغدير ونحوها من أحاديث فضائل أهل البيت (عليهم السلام) الواردة في مناسبات تاريخية وروايات موثوقة لا يمكن مواجهتها بأحاديث مروية عن آحاد من الصحابة في تزكيتهم لأنفسهم أو لمن ينتمي إلى مدرستهم، لأن تلك الواقعة هي واقعة تاريخية كبرى لا مجال للتزوير والوضع فيها، كما أنّ بعض أخواتها قد وردت في مواقف تاريخية مشهورة كقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة تبوك: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي). ثمّ هي منقولة من قبل الرجال من الصحابة التابعين ومن بعدهم ممن لم يجر على ثبوت تلك المكانة لأهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام).

وأمّا النصوص التي تزكي الصحابة فما كان من الآيات فلا دلالة له على تزكيتهم أبداً بتاتاً، بل غايتها أن تدل على تزكيتهم في حين الثناء، وليس من مذاق الدين ضمان التزكية لأحد إلى آخر عمره، كما أنّ الصحابة بأنفسهم لم

يفهموا منها ذلك كما سيأتي.

وأمّا نصوص السنة الواردة بتزكية بعض آحاد من الصحابة بأعيانهم فهي نصوص مريبة، لأنّها رويت من قبل رجال هذه الفئة نفسها، ولم ترد في وقائع تاريخية كبيرة ولا ثابتة، بل هي أقوال مفردة حكاها بعض المتأخرين عن التابعين عن الصحابة.

٢. إنّ هناك أحاديث مستفيضة متّفق عليها تدلّ على افتتان الصحابة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورجوعهم القهقرى، كما أنّ هناك ما دلّ على أنّ هذه الأمّة تقتفي أثر الأمم السابقة أو بني إسرائيل، حتى أنّهم لو كانوا قد دخلوا جحر ضب لدخلته هذه الأمّة، ومن المعروف ما وقع في بني إسرائيل من قتل الأنبياء وإيذائهم من جهة الخلافات العشائرية بين فروع بني إسرائيل ومن قبل الحكام، فلا عجب إن وقعت في هذه الأمّة تنحية أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وما جرى عليهم، وفي بعض تلك الأحاديث إشارة إلى الفتن الثلاث التي وقعت في عصر الإمام عليّ (عليه السلام)، وقد كان كلا طرفي الفتنة من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كحديث (عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار)[1] وحديث نباح كلاب الحوأب على بعض نسائه، وحديث مروق بعض أصحابه عن الدين وهو إشارة إلى الخوارج.

---

(١) تقدم تخريجه.

٣. إنّ ملاحظة الحوادث التي اتفقت في عصر الصحابة يوضح أنّ الصحابة بأنفسهم لم يكن ينزّه بعضهم بعضاً عن الوقوع في الفتنة والشبهات، فإنّهم قد تقاتلوا وتسابوا وتضاربوا واتهم بعضهم بعضاً، ومن ذلك ما ورد في صحيح مسلم من قول عمر للعباس عمّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإمام عليّ (عليه السلام) (فرأيتماه [يعني أبا بكر] كاذباً آثماً غادراً خائناً... فرأيتماني [يعني نفسه] كاذباً آثماً غادراً خائناً)[1]، ورواه البخاري أيضاً، ولكن استبدل هذه الألفاظ (بكذا وكذا)، وهذا يدلّ على أنّهم لم يفهموا من الآيات العامة ضمانة عن الوقوع في الخطيئة والافتتان في الدين، كما أنّه يدل على أنّه لم يكن في البين أحاديث يمكن أن يحتجّ بها في تزكية بعضهم لبعض.

٤. إنّ تنحية أهل البيت (عليهم السلام) إنّما كان عملَ جماعة من الصحابة أساساً، وكان موقف الآخرين مدارة وخضوعاً أو حسن ظن بهم.

بيان ذلك: أنّ المسلمين ينقسمون إلى الخاصة والعامة، كما هو الحال في شأن الحكام والملوك، بل وشيوخ العشائر في كل عشيرة، فالخاصة كانوا هم الأنصار والمهاجرين الذين كانوا يُعتبَرون أهل الحل والعقد في القضايا الاجتماعية، وكانوا مقرّبين من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بحسب طبيعة ما أفضت إليه الأمور، وهؤلاء كانوا هم الأساس في صرف الأمر عن أهل البيت (عليهم السلام).

(١) صحيح مسلم: ٥/١٥٢، وغيره.

وأمّا عامة العرب فيبدو أنّهم كانوا سلماً لهؤلاء، ويفترضون أنّهم أدرى بمقتضيات الأمور، وحضورهم واقعة الغدير لا يعني أنّهم تعمدوا ممانعتها، ولكنهم لم يكونوا يَعُون ويستوعبون حقيقة الاصطفاء، ويظنون أنّ الخاصة إذا اتفقوا على أمر كان جائزاً فهم أدرى بالأمر.

وأمّا الخاصة فهم كانوا ينقسمون أيضاً إلى القيادات والأتباع، كما نجد ذلك في العشائر، فالأتباع وإن وافقوا القيادات، لكنهم لا يملكون حقيقة قراراً غير المطاوعة حفظاً لوحدة كلمة العشيرة والقبيلة، وقد يكون بعضهم موافقين للقيادات أو متأثرين بهم، ولكنهم عموماً لا يملكون قرارهم بأنفسهم.

وأمّا القيادات فهم أيضاً يكونون على قسمين: قسم يكونون هم الأساس الصلب للقرار، وقسم آخر يكونون مضطرين إلى الموافقة معهم لحفظ وحدة القرار في العشيرة، وحذراً من الانشقاق، ولو انشقوا اعتبر انشقاقهم خيانة للصلاح الجمعي للعشيرة.

فالأنصار مثلاً كانوا كالقبيلة الواحدة، وكان قرار السعي إلى التصدي بعد الرسول قراراً جمعياً مطروحاً لصالح القبيلة، وكان الأساس الصلب لهذا القرار بعضهم، ولم يكن يستطيع الباقي إبداء الخلاف؛ لأنّه يعني عدم الولاء للقبيلة وقد لا ينفع عملاً، بل يكون الغالب عملاً قرار المتشددين لأنّهم يستطيعون تحريك عامة القبيلة. ويحتمل أن يكون قرار بعضهم في السعي إلى جعل الخليفة منهم مبنياً على الاطلاع على أنّ مهاجري قريش ـ من غير بني هاشم ـ عازمون

على صرف الأمر عن بني هاشم، كما اتضح من تصرّف عمر وأنصاره في مرض موت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في رزية يوم الخميس، ومن قبل ما اتفق من التخلف عن جيش أسامة، وقبل ذلك ما وقع منهم من الضوضاء في خطبة عرفات عند تعرض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها للأمر من بعده.

وكذلك المهاجرون وقريش ـ غير بني هاشم ـ في المدينة كانوا كالقبيلة الواحدة ولا يبعد أنّ قرارهم في عدم الخضوع لولاية بني هاشم كان جمعياً، وكان أبو بكر وعمر وأبو عبيدة هم الأشداء والمصرّين والواجهة والمقدمين على هذا القرار، وعليه ينبغي أن يحمل كل فريق مسؤولية ما وقع بمقدار ما كان دخيلاً فيه ومتاحاً له.

وقد انحاز عشرات من قيادات الأنصار ووجوههم وعامتهم إلى الإمام عليّ (عليه السلام) في زمان خلافته، وهتف غير واحد منهم صريحاً بوصايته للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)[١]، واستشهد بعضهم بين يديه مثل خزيمة ذي الشهادتين، ولعلهم لم يكونوا الأساس الصلب لقرار صرف الأمر عن الإمام (عليه السلام)، ولئن زلوا أوّلاً في عدم الإقرار عليه فقد آبوا إلى الحق، فلا بدّ من ملاحظة ذلك كله على الوجه المناسب في الحديث عن الصحابة.

وأمّا في شأن **المحذور الثاني:**

---

(١) لاحظ الإيضاح السادس.

فرفع اليد عن الوثوق العام بالصحابة لا يؤدي إلى سقوط السنة النبوية، فإنّ مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) التي عليها الشيعة الإمامية تصلح بديلاً موثوقاً عن مدرسة الصحابة.

وبعد، فإنّنا نؤكّد على أنّه لا يمكن رفع اليد عن خطبة الغدير الكبرى ومضمونها المؤكد باستبعادات من هذا القبيل هي في الحقيقة من قبيل التراكمات المجتمعة في أثر تصدي بعض الصحابة للخلافة وتحقق الفتوحات واقتناع الناس بصلاح الساسة وأتباعهم له.

فهذا موجز القول في أمور تمثّل حواجز عن التصديق بواقعة الغدير ومؤداها.



الإيضاح السادس

وضوح دلالة الخطبة عند اختبار مؤداها

على وجه المعايشة مع الحدث



وفيه نقطتان:

١. توضيح عام لتأثير حيوية المشهد على فهم الكلام

٢. في تأثير اختبار المعايشة الحية لواقعة الغدير أو مثلها على فهم دلالتها

الإيضاح السادس

وضوح دلالة الخطبة عند اختبار مؤداها على وجه المعايشة مع الحدث

وفيه نقطتان:

١. توضيح عام لتأثير حيوية المشهد على فهم الكلام.

٢. كيفية اختبار مؤدى الخطبة على وجه المعايشة مع الواقع.

١. توضيح عام لتأثير حيوية المشهد على فهم الكلام

أمّا عن **النقطة الأولى:**

فتوضيح القول فيها أنّ من العوامل المؤدية إلى الغفلة عن مؤدى الكلام ودلالته[1] هو عدم ملاحظة الكلام على وجه حيّ وفي بيئة صدوره، وذلك لأنّ للكلام دلالات لا ينتبه الإنسان إليها إلا إذا كان معايشاً لمشهده محاطاً بأجوائه، كما نجد ذلك بأنفسنا في شأن فهم الخطابات العرفية التي نُبتلى بها، حيث نجد أنّه قد لا ينتقل بعض الناس إلى مدلول الكلام؛ لأنّه لا يعايش مشهده وأجواءه في ذهنه.

وعليه فإنّ مِن الضروري عند التعامل مع نصّ اجتماعي تاريخي أن يسعى

(١) كما أشرنا مكرراً في طي الإيضاحات السابقة.

المرء إلى معايشة المشهد الذي ألقي فيه النص حتى كأنّه حاضر فيه، واختبار دلالته من خلال ذلك؛ لأنّ اختبار الكلام بهذه الطريقة يحفّز دلالاته في ذهن الإنسان ووجدانه، كما أنّ النظر إلى الكلام نظرة مجرّدة ـ كنصّ ألقي في زمان سابق إلى قوم آخرين ـ يؤدي إلى عدم شعور الإنسان بتمام دلالات النص، وغياب بعض عناصره الدلالية عن ذهنه، بما قد يوجب غفلته عن الرسالة التي أراد النص إيصالها إلى المخاطبين به والمنظورين له، وهذا معنى واضح ومشهود في تأمل الأقوال التاريخية بشكل عام، وكذلك في بعض الأقوال الواقعة في بيئات غائبة عن الإنسان وإن كانت معاصرة له.

ولذلك كانت الاستعانة بالاختبارات الذهنية وتأمّل السياقات المماثلة والنظائر المتداولة أداةً رائجة بين أهل العلم لمعرفة مدلول الكلمة والكلام كما يظهر بملاحظة الأساليب العلمية المعروفة في علمي الفقه والأصول.

وغياب المشهد يكون أكثر تأثيراً في سلب الدلالات الحقيقية للكلام لخفاء عناصر كثيرة من أجوائه والبيئة التي ألقي فيه.

ولنذكر عدة توضيحات لهذا الموضوع ملائمة لحديثنا حول واقعة الغدير وأخواتها فيما يتعلّق بفضائل أهل البيت (عليهم السلام):

التوضيح الأوّل: أنّ غياب المشهد يكون على وجهين:

الأوّل: أن يتفق المشهد في الزمان الحاضر، ولكن لا يكون الناظر في مؤدى

الكلام الملقى فيه حاضراً في ذلك المشهد، فيؤدي هذا الغياب إلى اختفاء أجواء المشهد والعناصر الكامنة فيه، ويختلف مستوى ما يخفى منه بمقدار قرب الإنسان أو بعده من أجواء الكلام، فكلما كان الناظر في الكلام أقرب إلى بيئة الكلام كان ما يخفى عليه أقل، حتى يكون بعض الناس ممن لم يحضر المشهد على حد الحاضرين فيه لانتباهه إلى بيئة الكلام، وكلما كان الناظر في الكلام أبعد عن تصور المشهد كان ما يخفى عليه أكثر، وقد يساعد حاجز اللغة على مزيد من البعد عن فهم الكلام.

الثاني: أن يكون المشهد تاريخياً قد اتفق في زمان سابق، وهذا الوجه من الغياب نوعاً يساعد على مزيد من اختفاء أجواء الكلام وعناصره المؤثرة في مدلوله، لا سيما مع اختلاف الأجيال وتباعد الزمان.

ويمكن أن يُشبّه الكلام الذي يجتث من بيئته بالشجرة التي تقلع من منبتها وتربتها، لتنقل إلى مكان آخر حيث قد يفقدها ذلك حيويتها ونشاطها لاختلاف بيئتها والعناصر المقوّمة لها.

التوضيح الثاني: أنّ ما يخفى من عناصر الكلام وأجوائه بالغياب على أقسام:

القسم الأوّل: حدوث الإجمال في المفردات في إثر تغير معاني المفردات في اللغة أو العرف.

وقد لا يختلف أصل معاني المفردات، ولكن تختلف التفضيلات التعبيرية

السائدة والملائمة، وهو يؤثر على فهم معنى الكلام.

ومما يتّصل بذلك ما ذكره بعض المحققين من الأصوليين[١] من أنّ طريقة فهم النصوص التاريخية من حيث معاني مفرداتها تتوقف على الممارسة الكافية من الباحث لهذه النصوص حتى كأنّه يعيش في ذلك الزمان كي يحصل له أنس بالمفردات من خلال استعمالاتها، ولا يصح أن يعوّل على أصالة تطابق الدلالة المعاصرة مع الدلالة السابقة كما اقترحه بعض الأصوليين.

القسم الثاني: عدم الشعور بالدلالات الأسلوبية المرتبطة بكيفية صياغة الكلام، وهي دلالات قد يعبّر عنها بملاحن الكلام.

فهذه الدلالات كثيراً ما تخفى لأنّها دلالات ظريفة وذكية وحيوية، وسرعان ما تختفي في حال غياب المحفّز للشعور.

وقد ذكرنا في الإيضاح الثالث ملاحن خطبة الغدير، والتي تؤثر في الفهم الصحيح لها، ولنذكّر ببعض أبرز الدلالات الأسلوبية التي وقعت الغفلة عنها:

١- إنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما ذكر في الخطبة أنه استخلف الثقلين في الأمّة حددهما بالكتاب والعترة، ولم يذكر سيرته وسنته معهما كثقل ثالث، فدلّ على أنّ نظره إلى التمسك بإمام حيّ من العترة في الشبهات والفتن، وليس بتراث مأثور، وهو ما يدل على أنّ في العترة إماماً حيّاً دائماً يكون التمسك به صائناً من

---

(١) هو سماحة السيد الوالد (مُدَّ ظِلُّهُ العالي).

الهلاك والضلالة.

٢- إنّه قبل أن يذكر ولاء الإمام (عليه السلام) قال: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم)، فقالوا: نعم، ثمّ قال: (فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، ومن الواضح من هذا السياق أنه أقرّ الحاضرين بقوله أوّلاً على ولائه، ثمّ جعل للإمام (عليه السلام) ولاء مثل ولائه (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا واضح في أنه عنى بالولاء ولاية الأمر، لكن هناك من رأى أنّ قوله: (من كنت مولاه) لا يعني (من كنت أولى به)؛ وذلك غفلة واضحة عن السياق إن لم يكن مجادلة متكلفة في الإذعان بالحق.

القسم الثالث: غياب المرتكزات والمعهودات الذهنية التي تكون حاضرة في أذهان المخاطبين الحاضرين في مشهد الخطاب، وتتألّف هذه المرتكزات من حوادث وأقوال سابقة، وخصائص المتكلم وشخصيته وأخلاقه، ونفسيات المخاطبين وهواجسهم تجاه الموضوعات المختلفة، وغير ذلك.

وهذه المرتكزات هي ركائز للكلام يعوّل عليها المتكلم وتؤثّر في تفضيلاته اللغوية والأسلوبية.

ونجد هذه الحالة بوضوح عندما ينقل كلام المتكلم مع أسرته إلى آخرين، فيتراءى له دلالات غير مقصودة، أو يغيب عنهم ما قصد به من جهة تعويل المتكلم عند الحديث في منزله ومع أسرته على ركائز ذهنية خاصة، وقد يصحّ العكس أيضاً فإذا نقل كلام الشخص في خارج المنزل إلى أسرته قد يختلف



فهمها للكلام.

ويجد صنّاع الأفلام التاريخية في الزمان الحاضر هذه المعاني على وجه واضح لمعاناتهم في صياغة ملابسات الأحداث والأقوال على وجه ملائم.

ولنذكر عدة أمثلة للعناصر المؤثرة في مشهد واقعة الغدير وفهم خطبتها مما قد يغيب عمّن يتأمل تلك الخطبة من الأجيال اللاحقة مثلنا:

١- إنّ من الهواجس الطبيعية المحيطة بخطبة الغدير هو هاجس المصير بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن الذي يتولى الأمر بعده، فهذا هاجس يتولد بطبيعة الحال بمجرد أنّ ابتدأ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خطبته بالإخبار عن قرب وفاته وأنّه يوشك أن يُدعى فيجيب، فهذا القول يحرّك ذهن المخاطبين ونفوسهم إلى تلقي ما يذكره (صلى الله عليه وآله وسلم) على أنّه ناظر إلى المستقبل.

وهذا الهاجس يختفي في الناظرين من بعد بطبيعة الحال، لأنّهم يعيشون حياتهم المعاصرة وفي بيئاتها، ولا يعيشون لحظة التحوّل بوفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي كان الثقل الضابط لحركة المجتمع، ولذلك نجد أنّ بعض أهل العلم جادلوا في دلالة الموت بأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يقل (فعليّ مولاكم بعدي) مع أنّ سياق الخطبة يرشد إلى نظره إلى ما بعد حياته كما مرّ توضيح ذلك.

٢- ومن جملة المرتكزات والمعهودات الذهنية المؤثرة في واقعة الغدير هي شخصية الإمام عليّ (عليه السلام) قبل واقعة الغدير، فقد كانت شخصية الإمام عليّ (عليه السلام) ـ رغم تجنبه عن إبراز نفسه في غير مقام أداء وظيفته على ما يعلم من

سيرته في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ هي الشخصية الثانية بين المسلمين بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد كانت له صفتان رسميتان تربطانه بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ مضافاً إلى كونه ربيبه وقرينه وأوّل من أسلم له وصدّقه ثمّ صهره وأبا أبنائه ـ:

إحداهما: أنّه كان أخاه بالمؤاخاة، وهو أمر يتكرر في النصوص النبوية في حقه منذ بداية إظهاره (صلى الله عليه وآله وسلم) للدعوة يوم جمع عشيرته في السنة العاشرة قبل الهجرة، وقد أكّد ذلك قبل الهجرة عندما آخى بين أصحابه في مكة المكرمة فآخى بين نفسه وبين عليّ (عليه السلام)[1]، وأيضاً في السنة الأولى من الهجرة عندما آخى بين المهاجرين والأنصار، فآخى بين نفسه وبين عليّ (عليه السلام)[2]، رغم أنّهما كانا مهاجرين معاً، لكنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد تأكيد هذه الأخوة، وأكّد (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك أيضاً في أواخر حياته (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في قوله في السنة (٩ هـ) في غزوة تبوك: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي)، وكانت الصلة الحميمة والوثيقة والدائمة بينهما أمراً مشهوداً حتى جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بيته (عليه السلام) بين بيوته (صلى الله عليه وآله وسلم).

والصفة الأخرى: الوزارة، بمعنى أنّه كان ظهير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعونه في أداء الرسالة يعينه ويصدقه مثل دور هارون مع موسى، وهذا قرار اتخذه النبي

---

(١) لاحظ مثلاً: الاستيعاب (ابن عبد البر): ٣/١٠٩٨ـ١٠٩٩.

(٢) لاحظ مثلاً: الاستيعاب (ابن عبد البر): ٣/١٠٩٨ـ١٠٩٩.

(صلى الله عليه وآله وسلم) علناً في أوساط بني هاشم عند اجتماعه معهم، وأعلنه في غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة قبل واقعة الغدير بقوله المتقدم، وقد كانت لهذه الوزارة مظاهر في نصرته (عليه السلام) النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مبيته مكانه، ثمّ تضمينه بنفسه في سائر المواقف الصعبة.

ولقد كان (عليه السلام) صهر الرسول وصاحب رايته والقائد العسكري الأبرز في ركابه ومحل الثناءات المميزة في طول حياته، كقول جبرئيل الذي أبلغه للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علناً في إرجاع أبي بكر في إبلاغ آيات البراءة: (لا يؤديها إلا أنت أو أحد منك)[1] فبعث علياً (عليه السلام) ولم يقرنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أبداً بغيره، مع أنّه قد قرن عمه حمزة وأخاه جعفراً في المؤاخاة، ولا جعله تحت قيادة غيره كما صنع بأبي بكر وعمر وغيرهما من المهاجرين والأنصار.

وعليه فإنّ قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حول الإمام في خطبة تختص به: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) فإنّما هو حديث عن شخصية بهذه المثابة، ولم يكن عقد الولاء تأسيساً لهذا الموقع من الصفر، بل هو ترقية أخيه بالتآخي الخاص من المؤاخاة والوزارة في حياته إلى القيادة فيما بعد وفاته.

القسم الرابع: أن يحتفّ الكلام في ذهن الناظر بعناصر وأجواء وهواجس جديدة إمّا هي منتزعة من حكايات تاريخية غير صحيحة أو مستمدة من البيئة

---

(١) تقدم تخريجه.

المعاصرة بدلاً من التي اقترن بها الكلام في الأصل، فيؤدي ذلك إلى إضفاء دلالات زائفة عن الكلام وحجب دلالات الكلام الحقيقية أو تثبيطها؛ لأنّ تلك الأجواء تصبح ركائز للكلام بدلاً عن الأجواء الحقيقية.

وبذلك تصبح التراكمات الفكرية والسياسية والاجتماعية والاعتقادية والمذهبية واللغوية عوامل جديدة مؤثرة في صياغة مدلول جديد للنص وإزاحة المدلول الأصلي.

فمثلاً قد يسود واقع مخالف لاتجاه النص المعتمد فيعتبر هذا الواقع صحيحاً ومشروعاً بل ومثالياً، ويتلقى ذلك من الثوابت التي ينبغي تفسير النص في ضوئه وبما لا يمسّه، فيحجب النص عن مدلوله الحقيقي.

وقد ذكرنا من قبل أنّ النصوص الواردة في شأن أهل البيت بعد أن حجب أصلها في زمان الخلفاء إلى حدود ربع قرن لم يَعُد يُفْهَم العديد منها وفق دلالاته الأصلية، لأنّ شرعية الخلافة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واقع تكرس لمدة ربع قرن إلى خلافة الإمام عليّ (عليه السلام)، ولاسيما بالنظر إلى الفتوحات التي دخل معها في الإسلام أقوام من غير العرب، لم تكن هذه الأقوام تجد الإسلام إلا معروضاً من خلال الخلفاء، وعندما أحيا الإمام عليّ (عليه السلام) ـ وفق الشواهد التاريخية ـ عدداً من هذه النصوص كانت توجه بما يلائم مشروعية الخلافة، بل وما يلائم أفضلية الخلفاء من الإمام عليّ (عليه السلام)، فهي كانت تُفهم بما يلائم الواقع الجديد الذي تكرّس خلال ربع قرن.

بل إنّ كلمات الإمام (عليه السلام) عن امتياز أهل البيت (عليهم السلام) في هذه الأمّة والتي وردت في التاريخ وفي نهج البلاغة لم تكن تفهم إلا في سياق تلك الثوابت رغم أنّها واضحة في هذا الامتياز، ولا يزال حالها كذلك، فتجد أنّ كثيراً من أهل العلم بالتاريخ والسيرة كالعلامة الشيخ محمد عبده يعتمدها ويثق بها، ولكنه مع ذلك لا يجدها نافية لشرعية خلافة غير أهل البيت (عليهم السلام).

ومن الأمثلة التاريخية لذلك:

تَلَقِي أهل الشام لحديث أنّ (عماراً تقتله الفئة الباغية)، وهو قولٌ كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قاله في أوّل هجرته إلى المدينة عندما كان عمار يعين على بناء مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فكلّفه بعض الصحابة، فقيل إنّ هذا الصحابي يريد أن يقتل عماراً، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (ويح عمار تقتله الفئة الباغية)، وأصبح هذا النص مشهوراً بين الصحابة، إذ لم يعلم أحد أنّه يكون لمن وضد مَن، حتى إذا بلغت الخلافة الإمام عليّاً (عليه السلام) كان عمار من جملة أعوانه وأنصاره وخواصه، وقد قاتل معه في صفين حتى استشهد فظهر أنّ هذا القول كان علامة على حقانية الإمام (عليه السلام) قد زرعها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل ما يقرب من (٣٧) سنة، لتحديد جبهة الحق في هذه الفتنة، فأثار ذلك طمأنينة في نفوس جيش العراق وأثار زلزالاً في جيش الشام، ولـمّا بلغ ذلك معاوية قال: إنّ علياً هو الذي قتل عمار لأنّه جاء به إلى الحرب.

ومن المعلوم أنّ الكلام لا يحتمل هذا المعنى، فقاتل الشخص هو من باشر

قتله، وليس القائد الذي قُتِلَ الشخص المقتول من دونه ولأجل ولائه، نعم، يمكن أن يطلق على القائد الذي قُتِل الشخص من دونه أنه هو الذي قتل هذا الشخص وذلك على سبيل التنزيل مثل قول القائل: (زيد أسد) إذا كان قد أغواه، ولكن مثل هذا الإطلاق التنزيلي إنما يُفهم في مقام التصريح به، وأما إذا أطلق (قاتل فلان) فالمفهوم هو من باشر قتله، وذلك واضح.

ولكن أهل الشام كان قد رسخ في أذهانهم منذ عشرين سنة من ولاية معاوية على الشام في زمان عمر ثمّ عثمان حقانية معاوية، فلم يستطيعوا استيعاب مدلول النص رغم أنّه واضح للغاية.

ولذلك لاحظت بالمتابعة أنّ تراث أهل السنة في الحقيقة يشمل على طائفتين متناقضتين من الأحاديث:

فطائفة تدل على امتياز أهل البيت (عليهم السلام) واصطفائهم مثل خطبة الغدير وحديث الثقلين الآمر بالتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) للأمان من الضلالة.

وطائفة أخرى تدل على تزكية الصحابة والخلفاء أو آحاد منهم، رغم أنّهم أزاحوا أهل البيت (عليهم السلام) عن مواقعهم التي دلت عليها الأحاديث النبوية.

وعامتهم مع ذلك لا يجدون تناقضاً بين الطائفتين، وليس ذلك إلا من جهة أنّ الواقع الذي جرى بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واعتبروه من الثوابت والذي كان هو الأساس في ولادة الطائفة الثانية حجب دلالة الطائفة الأولى عن أذهانهم تماماً.

وهذا الأمر في الحقيقة هو الذي سمح بنقل تلك الطائفة رغم عدم

انسجامها مع عمل الخلفاء وأهل الحل والعقد والمؤثرين في الأمور من الصحابة، ولو أنّهم انتقلوا إلى دلالاتها حقيقة لشككوا في صدورها، وكأن هذا هو السبب الحقيقي في تحرّز بعضهم عن نقل بعضها.

ولذلك فإنّ المهمة الأساسية الملقاة على عاتق جمهور المسلمين هي التأكّد من الدلالات الحقيقية للنصوص الواردة في شأن أهل البيت (عليهم السلام) من طرق أهل السنة على وجه يتفق عليه المحدثون النقّاد من أكابر علماء الحديث والجرح والتعديل.

وكان الإمام (عليه السلام) قد أشار في كلماته عند خلافته ـ بقوله: إنّ الحق لا يعرف بالرجال، بل يعرف الرجال بالحق[1] ـ إلى أنّه ينبغي إزاحة الانطباعات الزائفة عن شخصية الرجال وفق التقدير الاجتماعي لهم بين الناس على أساس أنّ فعلاً هذا صحابي صاحب سابقة، وتلك زوجةٌ للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، بل لا بدّ من تحرّي الحق على أحد أساسين..

١. النصوص النبوية التي تحدد جبهة الحق، ولم تكن في زمانه (عليه السلام) قد وضعت نصوص تزكّي الصحابة بعد، وإنما حدث ذلك بحسب القرائن التاريخية بعد تولّيه (عليه السلام) للخلافة أو بعد شهادته بالأحرى من قبل المعادين للإمام (عليه السلام) مثل معاوية وحزبه، ولذلك لو اعتمد الناس في عصره على

(١) الأمالي (المفيد): ٥، روضة الواعظين : ٣١.

النصوص النبوية في شأن أهل البيت (عليهم السلام)، وكذا في شأن بعض الصحابة مثل حديث نباح كلاب الحوأب على بعض نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحديث: (عمار تقتله الفئة الباغية)، وحديث مروق بعض الصحابة عن الدين رغم كثرة قراءة القرآن[1]، لعرفوا جبهة الحق وانزاح الستار عن وجه الباطل.

٢. النظر في دعاوى الطرفين بتبصّر وتثبّت بدلاً من الانقياد لكل راية مرفوعة تهيج مشاعر الناس، فهل دعوى طلحة والزبير وعائشة في وجه خروجهم على الإمام (عليه السلام) وهي المطالبة بالاقتصاص من قتلة عثمان والثأر لمظلوميته هي دعوى ذات مصداقية من هؤلاء؟ وهل هي محقة؟ ثمّ هل هي مبررة لمثل هذه الحركة والخروج على الحاكم؟

ومن أمثلة العوامل المستجدة المؤثرة على فهم خطبة الغدير:

١ - مسألة استمرار الإمامة، حيث قد يظن من يتأمّل هذه الخطبة في عصرنا أنّ ولاء أهل البيت (عليهم السلام) منقطع لا محالة لعدم وجود إمام حاضر منهم تجده الأمّة، وعليه فمن المستبعد أن يكون الحديث ناظراً إلى إثبات ولاء منقطع لأهل البيت (عليهم السلام).

ولذلك عقدنا بحثاً يأتي في محله حول (واقعة الغدير واستمرار إمامة أهل

(١) وهو إشارة إلى الخوارج وقد نقله الإمام (عليه السلام) لأصحابه في حرب النهروان وجاء عنه في الصحاح.

البيت (عليهم السلام))، فضلاً عما مضى التعرض له من إجابة هذه الشبهة.

٢- حصول انطباع متجدد عن الصحابة بأنّ من المستحيل عليهم أن يخالفوا أمراً للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا الحجم.

وهذا أمر طارئ على أساس المكانة التي اكتسبها الصحابة بعد الخلافة وما تحقق من الفتوحات، وهو ينشأ عن عدم الاطلاع على حوادث السيرة النبوية من قبيل التخلف عن جيش أسامة ورزية يوم الخميس وأخواتها، كما قد ينشأ من تصور أنّ مخالفة الصحابة لهذا الأمر يعني أنّهم كانوا غير معتقدين بالدين أصلاً فهم يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام، وليس ذلك صحيحاً، فمثل هذا التخلف لا يعني عدم اعتقادهم بأصل الإسلام ولا عدم ممارستهم لشعائره وفرائضه ولو في خلواتهم، ولكنهم يقيّمون الدين ويسلّمون ببعضه دون بعض، ويصطنعون لأنفسهم الشبهة، كما أنّ أهل الكتاب الذين علموا حقانية الإسلام بقوا على الإيمان بدينهم وممارساتهم لشعائرهم وفي خلواتهم، ولكنهم مع ذلك لم يتقبلوا هذا الدين.

٣- هواجس فقدان الطريق إلى السنة النبوية في حال خطأ الصحابة في العدول عن أهل البيت (عليهم السلام) والولاء للإمام (عليه السلام).

وهذه الهواجس منبهة على تصوّر أنّه لا طريق إلى تلقي الدين إلا من طريق الصحابة المعروفين، فلو صحّ القدح فيهم لزم فقدان الطريق إلى معارف الدين وسقوط السنة النبوية.

وهذا الانطباع ليس صحيحاً، فإنّ طريق أهل البيت (عليهم السلام) طريق متاح كما أنّه مأخذ الفقه الإمامي وهو فقه معقول ووافٍ، حتى احتجّ به ابن تيمية في إبطال الطلاق ثلاثاً دفعة واحدة في رسالة له في هذه المسألة(١).

فهذه أمثلة من الهواجس والانطباعات المستجدة التي تؤثر تأثيراً سلبياً على الفهم السليم للنصوص.

والمقصود بذلك كله الالتفات إلى تأثير العوامل المختلفة على دلالة خطبة الغدير وأخواتها، وبعضها مؤثر على وجه لا شعوري أو على وجه من الشعور الارتكازي الخفيف وليس الشعور الجلي على حد العناصر التالية المشهودة.

ولأجل ذلك حاولنا ضمن هذه الأبحاث رصد مختلف العوامل المؤثرة سلباً على دلالة الخطبة على عقد ولاء القيادة الثابت للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من بعده.

التوضيح الثالث: أنّ من العناصر المؤثرة في حسن تلقي الكلام ـ لاسيما الحيثيات الظريفة ـ هي فطنة الباحث وهي تنشأ عن استعدادات ذاتية ومحفزات منمّيّة لها من خلال الممارسة والخبرة المكتسبة، فإنّ الناظر الفطن والواعي ينتقل إلى ملاحن الكلام ودلالاته الأسلوبية، والقرائن الذكية الحافة به من خلال ثوابت المتكلم وأجواء القول، كما أنّ عدم فطنة الباحث لدلالات خصائص

---

(١) لاحظ: الفتاوى الكبرى: ٢٧٨/٣، قال: (يُرْوَى ذَلِكَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عليّ بْنِ الْحُسَيْنِ وَابْنِهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَلِهَذَا ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ مَنْ ذَهَبَ مِنْ الشِّيعَةِ).

الحديث والخطاب يؤدي إلى عدم انتباهه إلى الدلالة الحقيقية للخطاب.

التوضيح الرابع: أنّه في حال طروّ الخفاء على النص من جهة عدم حيوية المشهد يتقوى الجدال بالأدوات العلمية حول دلالة النص.

وقد تساعد قوة الجدل ـ من جهة الخبرة الفنية في طرح هذه الأدوات واستخدامها حتى وإن كانت في غير موضعها ـ على إزاحة المعنى الحقيقي للنص وسلبه لدلالته، لأنّ النص الذي لا يشهده المرء يصبح كجسم لين يُشكّله المجادل كيفما أحب ويطرح تنظيرات مختلفة في شأن مدلوله، فيفشل النص في الإيفاء بالمراد به وأداء رسالته في أثر ذلك.

فهذه نبذة نافعة حول تأثير حيوية المشهد على فهم الكلام.

٢. في تأثير اختبار المعايشة الحية لواقعة الغدير أو مثلها على فهم دلالتها

النقطة الثانية:

إنّ واقعة الغدير وخطبتها يشتمل على عناصر وافية بدلالاتها على عقد الولاء الخاص للإمام (عليه السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فلو أنّ الباحث عن الحق تأمّلها بشكل حقيقي بافتراض معايشة المشهد الذي ألقيت الخطبة فيه أو ما يشبهه لوجدها ذات دلالة واضحة على عقد الولاء الخاص للإمام (عليه السلام) على المسلمين على حدّ ولاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عليهم.

وفي مقام الاختبار الحي المقترح هناك أسلوبان:

١- أسلوب الحضور الافتراضي في الواقعة بالاستحضار التاريخي لها.

٢- افتراض وقوع مثل هذه الواقعة في هذا العصر في بيئة مماثلة لبيئتها.

الأسلوب الأوّل: أن نفترض حضورنا آنذاك في مشهد واقعة الغدير وما بعدها حتى وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وما وقع من الحوادث بعدها، ونتأمل ماذا كنّا نفهم ونصنع في ضوء هذه الخطبة.

فلنفرض أنّنا كنّا في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحضرنا هذه الخطبة وهو في طريق رجوعه من الحج، فنعى (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه الكريمة إلينا، وأخبرنا عن قرب موته، وذلك ما يثير في نفوسنا بطبيعة الحال هواجس المصير من بعده وخوف الضياع والتفرّق في أوساط أمته التي كانت قبائل متفرقة متناحرة لقرون، فمن ذا الذي يكون خلفاً له، وكيف تجتمع الأمّة على رجل في غيابه، وما هو التدبير الذي قدره (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه لذلك.

ثمّ استمعنا إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يقول: إنّي تارك فيكم كتاب الله تعالى وأهل بيتي، فلا تفارقوهما؛ فإنّهما عصمة من الضلالة، وسوف يردان عليّ الحوض.

ثمّ أضاف (صلى الله عليه وآله وسلم): ألستُ الأولى بكم من أنفسكم؟ فقلنا: نعم، فأخذ بيد عليّ ـ وقد جعله بجنبه ـ ورفعه حتى نتعرف عليه جميعاً باسمه وشخصه، وقال: إذاً فمَن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللّهم والِ من والاه وعاد من عاداه.

فليتأمّل هذا المشهد ببساطة واسترسال واستحضارٍ جيدٍ، أيشك أحدنا في أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) قد حدّد الأمر في من بعده فأشار إلى أنّه في أهل بيته، وأنّه قد خلف

علياً على الأمّة وأكّد بالالتزام بموالاته ونصرته والتحذير عن معاداته وخذلانه؟

ثُمَّ لنفرض أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يمكث بعد وصوله إلى المدينة طويلاً فتوفّي بعد شهرين ونصف تقريباً كما كان ذلك هو واقع الحال، فإنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) خطب خطبة الغدير في الثامن عشر من ذي الحجة وتوفي في الثامن والعشرين من شهر صفر بعد ذلك، فلم يتجاوز من حياته بعد الخطبة أكثر من نيف وسبعين يوماً[(١)].

ولنفترض وقوع الفتنة والخلاف بين المسلمين، وانقسامهم إلى فرق وأحزاب وجماعات، يوالي كل فريق وحزب وجماعة غير من يواليه الآخر، ويعادي بعضهم بعضاً، فأراد قيادات الأنصار الأمر لأنفسهم، وقالوا إنّنا الذين آوينا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونصرناه عندما هجّره قومه وكادوا يقتلونه، وهو لا يجد مأوى دوننا، وقد ضحينا لأجله بكثير من رجالنا وأموالنا، فنحن أحق بالأمر من بعده.

وزعمت فئة من مهاجري قريش أنّ قريشاً أولى بالأمر من الأنصار، وسبقوا إلى عقد البيعة لأحدهم وكاد أن يكون بينهم وبين الأنصار فتنة وقتال، ولكن شاءت المقادير أن يتفرّق رأي الأنصار ويبايع بعضهم ويلحقه جمهورهم

(١) ولو كانت وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) في شهر ربيع الأول كانت المدة حدود ثلاثة أشهر، أي (٨٤) يوماً.

مع امتناع بعض قياداتهم.

ولم يطلع الإمام عليّ (عليه السلام) وأهل البيت ومن معهم على ما تمّ، فلما اطلعوا لم يتقبل (عليه السلام) ما وقع ورأى نفسه أولى بالأمر، وامتنع من بيعة أبي بكر والإقرار بشرعيته رغم تهديد عمر ومن يواليه لهم وإكراهه لبعض من كان معه كالزبير على بيعة أبي بكر، واستمر الإمام لمدة غير قليلة ممتنعاً عن مبايعة أبي بكر، وقد بايعه جمهور أهل المدينة، وتولى أبو بكر الخلافة وتصدى للصلاة في مسجد الرسول وخطب على منبره، وبيت الإمام (عليه السلام) متصل بالمسجد، وله باب منه، ولكنه لم يعبأ بكل ما حدث رغم قربه من سير الأمور بل وسماعه لما يجري في المسجد وبقي غير مبايع إلى أن حدثت أمور ووقائع.

وهكذا انقسم المسلمون إلى جماعتين: فكان الإمام (عليه السلام) وأهل البيت جماعة وحولهم جمع من المسلمين يتمسّكون به ويوالونه، بينما نصّب آخرون أنفسهم قادة وكان لهم أولياء آخرون يوالونهم من دونه، ويعترضون على الإمام عليّ (عليه السلام) ومَن معه، ويقولون إنّه (عليه السلام) أخطأ الرشد والحق والحكمة، وعدل عن السبيل السليم، فعليه أن يقبل بما قبل به جمهور المسلمين!

فإذا فرضنا ذلك كله، فما ترى كنا فاعلين حينئذٍ في هذا المشهد؟ أو قل ـ بتعبير أدقّ ـ: ماذا كنا سنفهم من الخطبة التي سمعناها بأسماعنا قبل شهرين وأيام من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في تحديد الموقف الراشد والسليم في هذا الاختلاف؟

وهل كان يشكّ أحدنا في أنّ مِن مقتضاها أن يسير المسلم خلف أهل

البيت (عليهم السلام) وعليّ (عليه السلام)، ويكون مع الجماعة التي يكونون فيها ويقودونها أيّاً كان الذين يقودون سائر الفئات ويوالونها وأيّاً كان عددهم؟

فهل كنّا نخطّئ الأنصار والمهاجرين من قريش في مبايعة غير الإمام (عليه السلام) وترك أهل البيت (عليهم السلام) في هذا الموقف المؤسس لأمور المسلمين بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ونرى أنّ ما وقع هو أمر مدبّر وهو انقلاب على الشرعية التي حددها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة الغدير؟

أم كنّا سنقول إنّ هذه الخطبة لا دلالة لها على وجوب الانضمام إلى أهل البيت والإمام عليّ (عليهم السلام) ومَن معه ومعهم؛ وأنّ الإمام (عليه السلام) مخطئ في الامتناع عن بيعة أبي بكر وادعاء أولويته بالأمر، فإنّ ذلك تنكّر لشرعية هذه البيعة، وتحريض على الفتنة وشق لوحدة كلمة المسلمين، وليس من مقتضى خطبة الغدير أن يُتمسّك بموقف الإمام (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام)، ولا أن نوالي الإمام (عليه السلام) بالرغم من أنّها أوجبت التمسك بأهل بيته من بعده، وبالولاء للإمام وبموالاته ونصرته وحذّرت من معاداته وخذلانه، لأنّ مدلول الخطبة لا يزيد على التمسك بمحبة أهل بيته والإمام (عليه السلام)، ولا نسعى أن نوالي الإمام (عليه السلام) ونتمسك به وبأهل بيته؟

لا أعتقد أنّ أحداً صوّر لنفسه هذا المشهد ـ وتأمّل الموضوع تأمّلاً حقيقيّاً منصفاً، متجرداً عن أيّ ميول أو اعتقادات مسبقة ـ إلّا وهو يستيقن أنّ مِن مقتضى هذه الخطبة أن يتمسك بأهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام) فيواليه

دون غيره من الشخصيات والفئات.

وعليه فليس المفهوم من هذه الخطبة هو التأكيد على الولاء العام الثابت بين المسلمين فقط في حق أهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام)، ولا إثبات ولاء المحبة والمودة لهم على المسلمين.

بل تفيد هذه الخطبة محورية الإمام وأهل البيت (عليهم السلام) في الهدى والضلال وفي الولاء والعداء، فهم علامة فارقة على الحق والعدل والرشد، وليس مثلهم مثل سائر المسلمين، فلا يحتمل في موقفهم أن ينطوي على ضلالة أو ينحاز إلى هوى، أو يبتني على الشبهة، أو ينشأ عن التيه والحيرة، وأنّ للإمام (عليه السلام) ولاء على الأمّة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كولاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عليها، فيجب من موالاته (عليه السلام) ونصرته ما وجب للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بحكم القرآن الكريم، كما يحرم من معاداته (عليه السلام) وخذلانه ما حرم مع الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بحكم القرآن الكريم.

هذا، على أنّ ما ذكرناه في هذا الأسلوب إنّما هو صيغة مصغرة عن مجريات هذه الخطبة من غير استيفاء مبادئها وملابساتها وأجوائها، ولو أنّ المرء أضافها على هذه الصورة لأصبحت أكثر تفصيلاً ووضوحاً.

ولو أنّ كل ذلك جاء في شكل فلم دقيق ومناسب لكان أقرب إلى حيوية المشهد.

وقد عرضنا في قسم برأسه من هذا الكتاب سيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير

المؤمنين (عليه السلام) منذ بداية حياة الإمام عليّ (عليه السلام) إلى بعثة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثمّ من هجرته إلى المدينة ثمّ إلى وفاته لتتضح مبادئ واقعة الغدير على وجه أجلى.

وقد يقول قائل: إنّ الانقسام الاجتماعي للصحابة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لو وقع لصحّ ما ذكر مِن أنّ المفهوم من الخطبة ضرورة الانحياز في الولاء إلى الإمام عليّ (عليه السلام) فعلاً، لكنه مجرد فرض، فإنّه لم ينقسم الصحابة إلى جماعات مختلفة في الولاء حتى يتوجه ما ذكر، بل كانوا على قلب واحد، يوالي بعضهم بعضاً، وما اتفق من الأنصار ابتداء من السعي إلى عقد الأمر لأحدهم موقف لم يثبتوا عليه، إذ انقادوا لمبايعة أبي بكر في اجتماع السقيفة ذاته عدا شيخهم المقدم على سائرهم سعد بن عبادة الذي لم يبايع أبا بكر، وغادر المدينة إلى الشام وقتل فيها، كما أنّ الإمام (عليه السلام) لم يثبت على موقفه من الامتناع عن بيعة أبي بكر والتمسّك بأولويته بالأمر، بل بايع أبا بكر ولو بعد أشهر، والتأم الشمل، فلم يكن هناك خلاف إلا في بادي الأمر.

والجواب عن هذا القول من وجهين:

الوجه الأوّل: أنّ ما ذكر من عدم انقسام الصحابة في الولاء بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خطأ بيّن وفق الحوادث التاريخية الواضحة والمتّفق عليها، فقد انقسم الصحابة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مباشرةً في شأن ولاية الأمر من بعده إلى ولاءات ثلاثة، إلا أنّ الأمر لم يؤل إلى القتل والقتال.

فقد كان ولاء الأنصار لأنفسهم حيث سعوا إلى مبايعة واحد منهم في

سقيفة بني ساعدة من دون إطْلاع المهاجرين، وكادوا يبايعون سعد بن عبادة شيخ الخزرج، وقد امتنع سعد لاحقاً من مبايعة أبي بكر حتى وفاته.

ثمّ دخل النفر الثلاثة من المهاجرين (أبو بكر وعمر وأبو عبيدة) وكان ولاؤهم لقريش قبيلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد سعوا إلى إبرام الأمر لأحدهم، وتيسر لهم ذلك بمفاجأة عمر بعد الجدال مع الأنصار بالضرب على يد أبي بكر ومبايعته، فاضطرب الجو وكادت الفتنة أن تقع، ولكنها مضت من جهة تفرّق الأنصار على أنفسهم في أثر خطوة عمر، وكان مرور ذلك دون قتال فلتة على خلاف ما تقضيه طبيعة الأمور.

وكان ولاء بني هاشم وجماعة من المهاجرين كالزبير للإمام عليّ (عليه السلام)، وقد امتنعوا من مبايعة أبي بكر أوّلاً، ثُمَّ بايعوه مِن بعد أن أكرهوا ويئسوا من تصحيح الأمور، وبقي الإمام عليّ (عليه السلام) باتفاق الجميع ممتنعاً عن البيعة إلى عدة أشهر حتى وفاة فاطمة الزهراء (عليها السلام) فبايع، فلم يكن اختلاف الرأي بين هذه المجموعات الثلاث في بادي الرأي فقط، بل كان رأياً مستقراً وتدبيراً مقصوداً، وإنّما ارتفع الخلاف على أساس عوامل من قبيل الرضوخ للأمر الواقع والخضوع للإكراه والخوف على أصل الإسلام.

وقد تتالى التفرّق والانقسام في الأمّة، فلم يكن رأي المهاجرين والأنصار مع تعيين أبي بكر لعمر، وكذلك الحال في شأن أهل البيت (عليهم السلام) والإمام عليّ (عليه السلام) إذ لم يكن يختلف الأمر شيئاً عن يوم السقيفة الذي اختلف اتجاههم

عمّن يتولى الأمر، ولكنهم بايعوا رضوخاً للأمر الواقع، وكذلك كان الحال عند وفاة عمر بعد تعيين ستة الشورى وإنهاء الأمر إلى عثمان.

وقد أبرز الإمام (عليه السلام) ما اضطر لإخفائه طيلة خلافة الخلفاء عند توليه للخلافة في الكوفة وأدى إلى انتشار الولاء له ولأهل البيت (عليهم السلام) بين أهلها، ولو أنّه كان كما يرى أهل السنة لكان حال أهل الكوفة في ولاء الإمام (عليه السلام) كحال أهل المدينة وسائر الأمصار، وهذا أمر ظاهر بتأمّل تاريخه وسيرته (عليه السلام) وخطبه في الكوفة.

ولكن من الناس من يسعى إلى تصوير الإجماع بين أهل البيت (عليهم السلام) وأهل الحل والعقد من الصحابة المسلمين في أمر الخلافة، ويرغب في إخفاء الخلاف الواقع بينهم حتى يَسِم المختلف عن مدرسة الخلافة من الشيعة بوسم البدعة، وهذا بالرغم من وضوح التاريخ في وجود خلاف حقيقي في البين، ولا يمكن إحراز الحق في قضايا تاريخية إلا بالاطلاع المناسب على حقيقة مجريات التاريخ دون الكتمان والتعمية والتجميل، مهما كانت نتيجة ذلك مرّة ومؤلمة.

وقد برز اختلاف الرأي ووقعت الفتنة السياسية والاجتماعية في أواخر زمان عثمان عندما آثر قومه حتى الفسّاق المستهترين منهم بالمناصب والأموال، فعاداه العديد من الصحابة والمسلمين وحرّضوا عليه ومنهم طلحة والزبير وعائشة وغيرهم، وخرج جمهور من الناس على عثمان، وكان الإمام (عليه السلام)

ينصح عثمان بإصلاح الأمور ويستجيب (عليه السلام) لطلبات الثوار درءاً للفتنة وتحقيقاً لبعض العدل، ولكن عثمان لم يستجب حتى قتل.

ثُمَّ في زمان الإمام عليّ (عليه السلام) وقع التفرق والانقسام، فقد بايعه جمهور المهاجرين والأنصار والثوار، ولكن امتنع من مبايعته جماعة من مهاجري قريش منهم سعد بن أبي وقاص أحد ستة الشورى وعبد الله بن عمر، وعاداه بنو أمية والرجل القوي فيهم معاوية بن أبي سفيان والي الشام، ولحق به بعض رجال قريش كعبيد الله بن عمر بن الخطاب، والتحق طلحة والزبير وعائشة لاحقاً بالخط الذي يرفع شعار مظلومية عثمان ويرفض الإذعان بمشروعية الإمام (عليه السلام) قبل مقاصته من قتلته، وهو الخط الذي كان أساسه قوم عثمان من بني عبد شمس وأبرزهم جناح بني أميّة.

وعليه فقد وقع الانقسام بين الصحابة فعلاً، وسيأتي زيادة إيضاح لذلك.

الوجه الثاني: أنّ ما ذكرناه في هذا البيان لا يتوقف على وقوع خلاف فعلي بين الصحابة في الولاء؛ لأنّه عملية اختبار لدلالة الكلام فيما لو فرض وقوع الخلاف في الولاء بين الصحابة، والعملية الاختبارية لا تتوقف على حدوث التقدير الذي يفترض لأجل الاختبار؛ لأنه يهدف إلى اكتناه مدلول الكلام واستنطاقه بشكل عميق، فيكون الفرض تمهيداً لفهم دلالة الكلام فحسب ولا حاجة إلى وقوعه خارجاً.

وعليه فإذا كانت هذه الخطبة تقتضي اتباع الإمام عليّ (عليه السلام) في حال

اختلاف الولاءات فإنّه يكون منبهاً على أنّ مدلول الخطبة أعمق من حد تطبيق الولاء العامّ بين المسلمين في حق الإمام (عليه السلام) أو محبة الإمام (عليه السلام).

الأسلوب الثاني: ـ لاختبار دلالة حديث الغدير ـ أن يفترض الإنسان صدور مثل هذه الخطبة في موقف مماثل في عصرنا هذا.

وحيث إنّ الرئاسات الرسمية في الأنظمة غير الملكية في هذا العصر تكون بأسلوب مختلف، فلا بدّ من فرض صدور مثلها من الملك الذي يحق له تعيين من يخلفه على الملك، أو من زعيم قبيلة مؤلفة من عشائر متعددة، أو متحالفة فيما بينها، وليتأمل محتواها.

وهذه الصورة متاحة في الواقع السياسي والمجتمعي الحاضر في العديد من البلاد الإسلامية حتى الآن، حيث إن النظام السياسي في العديد من الدول الإسلامية هو نظام ملكي، كما أن النظام المجتمعي يجري وفق الانقسام القبلي، حيث نجد التماسك العشائري قائماً، وما زالت الزعامة تورث من زعيم قبلي سابق إلى وارث له لاحق، ويكون وارثه من أقرب الناس إليه.

كما أنّها قريبة من الواقع القائم في عصر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في صلاحياته بمثابة الملك الذي يحق له تعيين خليفته من بعده، ولو فعل لم يختلف أحد في أنّه فعل ما كان يحق له في الدين، كما أنّ المجتمع العربي قبل الإسلام كان مجتمعاً قبلياً، حيث لم يكن العرب منطوين مِن قبل تحت دولة توحدهم، ولكنهم ربما تحالفوا أو تعاهدوا فيما بينهم، ثُمَّ عندما هاجر النبي

(صلى الله عليه وآله وسلم) من مكة المكرمة إلى المدينة جمعهم على كيان واحد بقيادته مع حفظ خصوصياتهم فيما بينهم، كما يدل على ذلك وثيقة المدينة الصادرة منه (صلى الله عليه وآله وسلم) والمذكورة في عامة كتب السيرة النبوية[١]، والتي اشتملت على صيغة التعاقد بين القبائل في المدينة وما حولها، فلم يزالوا يجرون على النظام العشائري والذهنية القبلية في أمورهم إلى حد كبير، كما يتمثل بملاحظة تاريخ السيرة النبوية وسيرة الخلفاء بعدها.

ولذلك نجد احتجاج المهاجرين والأنصار يوم السقيفة لأولويتهم بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأعراف قبلية معروفة، فاحتج النفر الذي حضروا السقيفة من المهاجرين بأولويتهم بالأمر لأنّهم قبيلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقومه، كما احتج الأنصار بأنّهم نصروا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وآووه بعد أن عارضه قومه وكادوا يقتلونه، فإنّما قام هذا الكيان بهم.

إذاً فلنفترض أنّ ملكاً أو زعيماً قبلياً لا ولد له يخلفه على زعامة القبيلة قام في اجتماع جماهيري فأخذ بيد ابن عمّ له وكان صهره وساعده وكان دوماً يشيد به ويقول عنه إنّه وزيره وأخوه وما إلى ذلك، فنعى نفسه إلى الجمهور الحاضر مُبدياً جهوده في أداء ما كان عليه، وقال في شأن ابن عمه هذا مثل قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة الغدير عن الإمام عليّ (عليه السلام)، فذكر أنّ مَن كنت مولى له فهذا

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٣٤٨ـ٣٤٩، البداية والنهاية: ٣/٢٧٣ ـ ٢٧٤.

ابن أخي مولاه، فوالوه ولا تعادوه، ثم توفي بعد شهرين ونصف، فهل يشك أحد في نفسه أنّه دل بذلك على استخلافه والتزام رأيه؟

والمقصود بهذه المقارنة مجرد تقريب الأمر إلى ذهن الباحثين لمعايشته على وجه حيّ؛ تحفيزاً لدلالات الخطبة في أذهانهم من خلال هذا الاختبار وإن لم يكن أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع المسلمين من قبيل المُلك أو النظام القبلي بحالٍ كما هو ظاهر.

وبذلك يظهر أنّ اختبار دلالة الخطبة التي ألقاها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في يوم الغدير قبيل وفاته بأساليب حيّة يوضح مدى وفاء نص الخطبة وتأكده في الدلالة على الولاء الخاص الواجب على المسلمين لأهل البيت (عليهم السلام).



الإيضاح السابع

واقعة الغدير مشهد لوصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

إلى الأمّة حول الأمر من بعده

وقد تضمّن الخطبة رسم مبدأين لأجل ذلك عام وخاص عقد نقاط:

١- إنّ هذه الخطبة وصية إلى الأمّة لما بعد حياته (صلى الله عليه وآله وسلم)

٢- دلالة الخطبة على عقد مثل ولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام من بعده



٣- تنصيص الإمام عليّ (عليه السلام) وكذلك أصحابه في حرب الجمل وصفّين على أنّه وصي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

الإيضاح السابع[1]

واقعة الغدير مشهد لوصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الأمّة حول الأمر من بعده

إنّ من الضروري لفهم دلالة كل كلام يصدر في ملابسات معينة من حيث التوقيت والأحداث الحافة بذلك الكلام فهم تلك الملابسات، ولو دقق الإنسان فيما يصدر منه ومن الآخرين لوجد أنّ فهم الكلام على وجه دقيق يكون مرهوناً بالالتفات إلى ملابساته وتفاعله معها؛ ولذلك نجد أنّ الآخرين قد يخطؤون في فهم كلامنا إذا نقل لهم ولم يكونوا قد وقفوا على ملابساته.

ويتأكد ذلك بشكل خاص في الخطابات المتعلقة بالأمور الاجتماعية والسياسية، فلو تأملنا التصريحات المتعلقة بهذه الأمور الصادرة من الجهات الدينية أو السياسية لوجدنا أنّنا نفهم مغزاها بشكل واضح بسبب الاطلاع على ملابسات صدورها، ولذلك لا يسهل فهمها على وجه دقيق من آخرين بعد مرور قرن مثلاً، بل يتوقف على استحضار تاريخي لهذه المرحلة وملابساتها، وهذا أمر معروف للمعنيين بدراسة النصوص التاريخية، لا سيما الاجتماعية

(١) وقد ذكرنا هذا المعنى على وجه الإيجاز في الإيضاح الثاني في القرينة الثانية، ولأهميته تطرقنا لمزيد بيان في هذا التوضيح.



والسياسية.

ومن الملابسات والعناصر المهمة في دلالة واقعة الغدير وخطبتها والمؤثرة في فهم كلامه (صلى الله عليه وآله وسلم) هو مدى كون هذه الخطبة وصية ناظرة إلى ما بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم)، لأنّ ذلك يوجب توجيه جميع ما ذكره (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها إلى ما بعد وفاته، فكأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ في فقرة الولاء مثلاً ـ قال: (من كنت مولاه فعلي مولاه من بعدي)، و(اللّهم والِ من والاه من بعدي، وعادي من عاداه من بعدي، وانصر من نصره من بعدي، وأخذ من خذله من بعدي)، ومن الواضح أنّ ذلك يلائم عقد الولاء الخاص للإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) وليس الولاء العام.

وليس هناك من شك لمن تأمّل خطبة الغدير تأمّلاً جاداً أنّ هذه الخطبة تمثل وصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما يتعلق بترتيب أمور المسلمين لما بعده وصيانتهم عن الضلال والتفرق كما أنّ مشهد هذه الخطبة ـ ونعني واقعة الغدير ـ هو مشهد الوصية العامة للمسلمين، وهي الوصية إلى الإمام (عليه السلام) بمحضر المسلمين.

فهذه الخطبة هي في حقيقتها وصية عامة معلنة للأمة في حضور الجماهير المسلمة بعد الحج في آخر لقاء للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع هؤلاء الجماهير، كما يشير إليه نعيه لنفسه في الخطبة، وذلك لغرض أن يرشد الأمّة إلى البديل عنه الذي يقيهم من الضلالة والهلاك بعد غيابه.

ولذلك كان من الواضح لمن تأمّل الخطبة وسياقها أنّها إنّما تعني بالولاء

للإمام (عليه السلام) مثل ولائه (صلى الله عليه وآله) على الأمة، وليس الولاء العام بين المسلمين في حق الإمام ولا مجرد ولاء المحبة له أو لأهل البيت (عليهم السلام)، فإنّ محبة أهل البيت (عليهم السلام) لن تقي الأمّة من مخاطر فقدان النبي (صلى الله عليه وآله) الذي هو الثقل المؤسس لهذا الكيان والجامع لمكوناته، بل يحتاج إلى مرجعية واحدة وقيادة واحدة.

وقد تضمّنت الخطبة رسم مبدأين لأجل ذلك عام وخاص:

أحدهما: مبدأ عام، وهو تمسك المسلمين بأهل بيته كهداة للأمة لا يحيدون عن الحق ولا يخطئونه بتاتاً، وهم يحلّون محله (صلى الله عليه وآله) في ذلك، فإذا كان الناس الآن (في حياته) يتمسّكون في مسيرتهم الدينية بالقرآن والنبي (صلى الله عليه وآله) فإنّ عليهم أن يتمسّكوا غداً بعد وفاته بالقرآن وأهل البيت (عليهم السلام)، فيحل أهل بيته (عليهم السلام) محله في هداية الأمة، ولذلك لم يذكر التمسك به (صلى الله عليه وآله) ولا بسنته فيما يجب على الأمّة أن تتمسك به بعد وفاته، فلا يحصل الأمان من الضلالة إلا بإمام هدى حيّ عارف بالقرآن وسنة الرسول يتمسّك به الناس في أمور الدنيا والدين.

وثانيهما: مبدأ خاص، وهو اتّخاذ المسلمين الإمام (عليه السلام) مولى، كما اتّخذوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حياته مولى لأنفسهم، وتعاملوا معه على أنه أولى بهم من أنفسهم، ولذا قال: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه).

فهذا هو المعنى المفهوم من الخطبة بإيجاز.

وعلى هذا الأساس نجد أنّ الإمام (عليه السلام) ذكر مكرراً ولو تلويحاً بأنّه وصي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على غرار أوصياء الأنبياء في الأمم السابقة، كما أنّه تكرر ذلك في أراجيز أصحابه من صحابة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من المهاجرين والأنصار من البدريين وغيرهم ومن التابعين من بعدهم، وذلك بين يديه في حرب الجمل وصفين فيما ذكره المؤرخون في مجريات هاتين الواقعتين على وجه تاريخي مشهود[1].

عقد نقاط

والحديث في هذا الإيضاح يقع في نقاط ثلاث:

١. توضيح كون هذه الخطبة وصية إلى الأمّة لما بعد حياته.

٢. توضيح أنّ المفهوم في ضوء ذلك من الولاء المعقود للإمام (عليه السلام) بعد مماته هو ما يماثل الولاء الثابت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حياته.

٣. بيان تنصيص الإمام عليّ (عليه السلام) ـ وكذلك أصحابه في حرب الجمل وصفّين ـ على أنّه وصي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وذكر النقطة هذه يتضمّن بيان سعي بعض الصحابة إلى الرد على ذلك كما ورد في الصحيحين.

١- إنّ هذه الخطبة وصية إلى الأمّة لما بعد حياته (صلى الله عليه وآله وسلم)

النقطة الأولى:

---

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد): ١/ ١٤٤ وما بعد.

وتوضيحها أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) وإن لم يستعمل كلمة (الوصية) في اللفظ المنقول، إلا أنّ حقيقة الوصية هي تعهّد الشخص إلى المخاطب بشيء بعد وفاته، فلو قال شخص لآخر: (افعل كذا بعد مماتي)، أوقال (إنّني سوف أموت عن قريب فافعل كذا) كان ذلك وصية، وقد تقوم قرينة حالية تفيد أنّ نظر من يتعهد بالشيء هو إلى ما بعد وفاته، كما لو كان على فراش الموت، وتعهد إلى الشخص بفعل شيء مثل إعطاء شيء لأحد فيفهم بقرينة حال المتكلم وملاءمته مضمون كلامه للنظر إلى ما بعد وفاته.

وإذا رجعنا إلى مضمون الخطبة وجدنا أنها واضحة في كونها وصية من بدايتها إلى نهايتها:

١. ففي بداية الخطبة أخبر النبي (صلى الله عليه وآله) عن قرب وفاته، حيث قال: (أوشك أن أدعى فأجيب).

وابتداء المتكلم بالتنبيه على قرب وفاته يوجب ظهور الكلام في كونه وصيّة متعلقة بما بعد موته، إذ من المتعارف الاهتمام بالوصية عند قرب الوفاة، كما في قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ**﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أو آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ**

(١) سورة البقرة: آية ١٨٠.

أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾[١].

وعليه فإنّ ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أوّلاً لقرب وفاته يفيد كون كلامه هذا وصية عامة منه (صلى الله عليه وآله وسلم) للمسلمين لما بعد وفاته.

٢. ثم فيما بعد ذلك سأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الحاضرين عن قولهم عنه، فقالوا: نشهد أنك نصحت، ومساق هذه الجملة هو استشهادهم على أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) بلّغ إليهم الرسالة التي حملها من قبل الله تعالى فقد اتخذه الله سبحانه رسولاً إلى الناس، وها هو (صلى الله عليه وآله وسلم) قد بلغ آخر حياته، فهل وفّى لهم بالرسالة الإلهية ومستلزماتها، ويكون ذلك حجة له عند الله تعالى على أداء الرسالة عند لقائه لله سبحانه وفي يوم القيامة، وقد قال سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[٢].

وعليه فإنّ هذه الجملة تكون مؤكدة على أنّه قد وفى لهم فيما كان يجب عليه أداؤه في حياته ومفهوم الجمل الآتية في الأمر بالتمسّك بأهل بيته وعقد الولاء أنّ ذلك مما يتعلّق بما بقي له من الوصية به بعد مماته، فعلى الأمّة أن تعمل بها ناصحة له (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد مماته كما كان (صلى الله عليه وآله وسلم) ناصحاً لهم في حياته.

فهذه الجملة نظير ما قد يقول الذي يؤدي الأمانة إلى صاحبها: (هل أديتُ

---

(١) سورة المائدة: آية ١٠٦.

(٢) سورة الأعراف: آية ٦.

لك الأمانة، وكنتُ ناصحاً لك في حفظها وإيصالها)، فيقول صاحب الأمانة: (نعم)، فالرسالة الإلهية هي أمانة من الله تعالى على الرسول تسليمها إلى الناس، فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد استشهاد الناس في محضر الله تعالى على أداء الأمانة حق أدائها، فهذه الجملة تؤكّد أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) يعيش لحظة الوداع معهم، وهي اللحظة التي تلائم الوصية إليهم، علماً أنّ انفصال كثير من الناس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان غير بعيد؛ لأنّ مسيرهم كان يختلف، نعم الذين كان مقصدهم حوالي المدينة كانوا سيبقون معه أكثر، كما أنّ أهل المدينة ولا سيما من كان يصلي خلفه أو يكون بجواره كانوا أبقى معه في باقي حياته الكريمة.

٣. ثم بعد ذلك أقرهم على العقيدة الصحيحة في الدين، من الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر، قال: (أليس تشهدون أنّ لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ الجنة والنار حق، وأنّ البعث بعد الموت حق، قالوا: نشهد، قال: فرفع يديه فوضعهما على صدره، ثم قال: وأنا أشهد معكم)(١).

وهذا استيثاق منه (صلى الله عليه وآله وسلم) على إيمانهم بالعقائد الصحيحة التي هي لبّ الرسالة الإلهية، وقد بلّغها من خلال القرآن الكريم إلى الناس فأقرّوا له بإيمانهم بذلك، وبذلك يكون قد تمّ له (صلى الله عليه وآله وسلم) الحجة عليهم فيما بينه وبين الله سبحانه على أنّه تركهم على العقائد الصحيحة، فإن زاغوا عنها في شيء كانت

---

(١) المعجم الكبير: ٥/ ١٦٧.

المسؤولية عليهم، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[(١)].

وكأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أراد فضلاً عن الاستيثاق منهم في ذلك توصيتهم بالمحافظة على هذه العقائد، كما جاء في قوله تعالى عن نبي الله يعقوب (عليه السلام): ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[(٢)].

فهذه الجملة أيضا تؤكد أنه في لحظة وداع القوم، وهي اللحظة الملائمة للوصية.

٤. ثم قال: (ألا تسمعون، قالوا: نعم، قال: فإني فرطكم على الحوض فإنكم واردون عليّ الحوض وإنّ عرضه أبعد ما بين صنعاء وبصرى فيه أقداح عدد النجوم من فضة)[(٣)]، وهذه الجملة تعبير آخر عن الفراق، فكأنّه (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) سورة المائدة: آية ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) سورة البقرة: آية ١٣٣.

(٣) لاحظ: المعجم الكبير: ١٦٧/٥.

أنهى لقاءه معهم، وسوف ينتظرهم يوم القيامة على الحوض.

٥. لكنه (صلى الله عليه وآله وسلم) هنا توقف، وكأنه يقول: (بقي أمر يتعلق بها بعد حياتي سيكون استقبالي إياكم على الحوض مرهوناً به، وهو كيف تخلفوني في الثقلين، قال: (فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين، فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: كتاب الله طرف بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلوا والآخر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، وسألت ذلك لهما ربي فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم)[1].

وقوله في هذه الفقرة صريح في الوصية لمكان تعبيره بالاستخلاف، فهو طلب أن يخلفوه في الكتاب والعترة بالتمسك بهما، والمقصود من الاستخلاف هو أن يسيروا خلفه (أي بعد وفاته) بذلك، فأمرهم بالتمسّك بالثقلين لا يتعلّق بزمان حياته، بل يتعلق بما بعد وفاته، وهذه هي النكتة في أنّه لم يأمر بالتمسك بنفسه وجعل عترته محلها.

ومن يعلم أنّ قوله (لا تضلون) ظاهر في عدم ضلالهم من بعده، حيث لا يستطيع أن يهديهم حينئذٍ كما كان في حياته، كما أنّ قوله: (فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا تعلموهم)، كل ذلك ظاهر في غيابه (صلى الله عليه وآله وسلم) عن

(١) المعجم الكبير: ١٦٧/٥.

المشهد فأوصاهم بذلك، كما يوصي المرء بأمور مستقبلية ليس حاضراً عند اتفاقها لكي يتأتى له أن يأمر بها في وقتها.

إذاً أفاد (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذه الفقرة نصب أهل البيت (عليهم السلام) أعلام هدى في هذه الأمّة من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) كما كان هادياً لهم في حياته، وأنذرهم بهلاكهم إن لم تتمسك الأمّة بهم (عليهم السلام) من بعده.

٦. ثم كانت الوصية الثانية ثم (أخذ بيد علي، وقال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا: بلى، فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله).

وهو بمعنى إحلال عليّ (عليه السلام) محله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الولاء، فكأنه قال: (من كنت مولاه في حياتي فعلي مولاه من بعدي).

والمفهوم مما ذكره من الموالاة والمعاداة والنصرة والخذلان إنما هو من بعده، فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ لم يكن حاضراً عند ذلك اكتفى بالدعاء لمن استجاب له وعلى من تخلف عن ذلك.

٢- دلالة الخطبة على عقد مثل ولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام من بعده

النقطة الثانية:

إنّ صدور هذه الخطبة من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على وجه الوصية التي تتعلق بما بعد وفاته يوجب ظهورها في الولاء الخاص للإمام عليّ (عليه السلام) من وجوهٍ

ثلاثةٍ:

الأوّل: أنّ الولاء الخاص الذي يحلّ به (عليه السلام) محلّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)هو الذي يحين فعلاً عند وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) ويكون ذكره على سبيل الوصية بالمعنى الخاص، وأمّا الولاء العام بين الإمام (عليه السلام) وبين المسلمين فهو أمر كان قائماً فعلاً ومِن قبل، ولا يتعلق بها بعد مماته (صلى الله عليه وآله وسلم).

الثاني: أنّ جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) بمثابته في الولاء بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه) يفيد حينئذٍ قيام عليّ (عليه السلام) مقامه؛ لأنّ الموصي متى ذكر وصفه الذي يتصف به وأثبته لآخر يذكره في وصيته، فإنّه يعني أنّه قائم مقامه، وذلك أمر ظاهر بملاحظة الأمثلة العرفية.

الثالث: أنّ كون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في موقع القيادة للأمة سوف يجعل التنبيه على قرب موته محفّزاً للمخاطبين على استحضار فقدانه، والانتقال إلى السؤال عمن يخلفه بطبيعة الحال.

وذلك أنّ الناس متى علموا بقرب وفاة رئيس لا بُدَّ أن يخلفه أحد في مقامه لا محالة، فإنّه يتبادر إلى أذهانهم من يخلفه في موقعه، وهذا أمر طبيعي من جهة أنّ غياب الرئيس عن المشهد يوجب إثارة مشاعر القلق والخوف والترقب فيهم؛ لأنّه سوف يوجب تغييراً مهماً للوضع، ولذلك يريدون معرفة ما يحدث بغيابه، ومَن سيملأ الفراغ الحادث بسبب مماته، وما هي مواصفاته، وكيف تستقر الأمور بعده.

كما أنّ هناك من يثيره ذلك لسبب إضافي آخر، وهم الذين يرون أنفسهم من أهل الحل والعقد في المجتمع، فإنّهم يثيرهم ذلك من جهة طمعهم في أن يحلوا محل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، أو يُؤَثروا في اتجاه تولي الأمر مِن قِبَل مَن يكون مِن جماعتهم خاصة دون سواه.

وهذا المعنى أمر واضح يجده كل منّا في تأمّل أحوال العامة والخاصة عندما ينتشر نبأ مرض القادة السياسيين أو الدينين أو العشائريين بحيث تحتمل وفاتهم، فإنه يثير التفكير فيمن يخلفهم وآلية خلافتهم.

إذاً فإخبار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الناس بقرب وفاته يوجب انتقال الناس رأساً إلى التفكير فيمَن يحلّ محله؛ لخطورة هذا الحدث في المستوى الاجتماعي والسياسي.

وبذلك فإنّ تنصيص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ على كون عليّ (عليه السلام) مولى كلّ مَن كان هو (صلى الله عليه وآله وسلم) مولاه، وأمره المؤكد بموالاته، ونهيه المؤكد من العداء له ـ يوجب تفاعل كلامه مع هذه الذهنية العامة وانصرافه إلى تعيين مَن يحل محله في الولاء الخاص الذي يملأ هذا الفراغ.

وبذلك تفيد الخطبة كون الإمام (عليه السلام) وصي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الأمة.

وقد يسأل سائل أنّ المفهوم من صدر خطبته (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قد أتمّ تبليغ الرسالة فإذا أراد بهذه الخطبة نصب أهل البيت (عليهم السلام) أعلام هداية للأمة يجب التمسك بهم ونصب الإمام ولياً عليها من بعده، فإنّ ذلك يكون إضافة منه في مضمون الرسالة وهي إضافة نوعية مهمة للغاية.

والجواب: نعم تلك إضافة منه (صَلَّىٰٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) في مضمون الرسالة، ولا محيص عن ذلك بعد وضوح الخطبة في هذين الأمرين، ولم يصرح (صَلَّىٰٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) بأنّه أكمل بتبليغ الرسالة، ولكن ساق الكلام سوقاً يوحى بذلك، ثم استدرك ذكر استخلاف الثقلين والولاء للإمام (عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ)، والذي أوجب حسن الكلام أنّ ما بلّغه من قبل كان تعاليم عامة جارية في حياته ومماته، وأمّا الذي يأتي إضافة فهو يتعلّق بمن يحل محله في الهدى والولاء.

٣- تنصيص الإمام عليّ (عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ) ـ وكذلك أصحابه في حرب الجمل وصفّين ـ على أنّه وصي الرسول (صَلَّىٰٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)

النقطة الثالثة:

إنّ وفاء هذه الخطبة بالوصية للإمام عليّ (عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ) يطابق ويتأكد بما تكرر في كلمات الإمام عليّ (عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ) المعلنة بعد توليه للخلافة مِن خطبه العامة ورسائله إلى الآخرين من توصيفه (عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ) لنفسه بالوصي، بما يعطي كونه خليفة الرسول (صَلَّىٰٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وخلفه، وقد جاءت جملة منها في نهج البلاغة:

١. قال (عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ) حين ذمّ قوماً: (فَيَا عَجَباً، ومَا لِيَ لَا أَعْجَبُ مِنْ خَطَأِ هَذِه الْفِرَقِ، عَلَى اخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا لا يَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ، ولَا يَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ نَبِيٍّ، ولَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ ولَا يَعِفُّونَ عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ ويَسِيرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، الْمَعْرُوفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا والْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا،

مَفْزَعُهُمْ فِي الْمُعْضِلَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُهِمَّاتِ عَلَى آرَائِهِمْ، كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِه، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرًى ثِقَاتٍ وأَسْبَابٍ مُحْكَمَاتٍ)[1].

ومن الواضح أنه قد أشار (عليه السلام) بالوصي في هذا الكلام إلى نفسه الكريمة، فإنّه في مقام العتاب على عدم الاهتداء بهديه والاستجابة لكلامه وقوله، وقد جرى في ذلك على ما لوحظ في كلامه من الكناية كثيراً عن نفسه بالأسماء الظاهرة دون ضمير المتكلم، ومن النكات البلاغية فيه أنّه يمثّل نحو استحياء من ذكر المرء لنفسه، على أنّ التركيز على الوصف ينبّه على الحكمة في القول، فهو (عليه السلام) يشير إلى أنّه ينبغي أن يُهتدى به، ويُقتدى بعمله باعتبار كونه وصياً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

كما أنّ من الواضح أنّ مراده بالوصي إنّما الوصية على وجه الاستخلاف بقرينة قرن الوصي بالنبي، فالمراد أوصياء الأنبياء في أمر إقامة الدين، وليس في شؤونهم الشخصية إذ ليس من شأن الوصي الشخصي أن يُقتدى به من بعده.

ومن الملاحظ أنه يعتب على الذين أشار إليهم بعدم تمسكهم فيما ينبغي أن يرجعوا فيه إلى الإمام من تشخيص المعروف والمنكر وكشف المفصلات وإنجاز المهمات، بل رجعوا إلى أنفسهم دون إمامهم حتى كأن كل واحد منهم

(١) نهج البلاغة:١٢١.

إمام نفسه، وهذا المعنى بعينه هو المعنى الذي ذكره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبة الغدير من ضرورة التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) من دون تقدّم أو تخلف للسلامة من الضلالة والهلاك، فدلّ كلامه ككلام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على أنّ أهل البيت (عليهم السلام) هم أئمة الهدى وأعلامها في هذه الأمّة، وعن ذلك تفرع أولويتها بالأمر بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

٢. وقوله (عليه السلام) في كلام إنه أدّى إلى الناس ما أدّت الأوصياء إلى من بعدهم: (أَيُّهَا النَّاسُ...)[١]، وجاء ذلك في خطبة له في آخر أيامه حيث ذكر الرضي في نهج البلاغة: (رُوِيَ عَنْ نَوْفٍ الْبَكَالِيِّ، قَالَ خَطَبَنَا بِهَذِه الْخُطْبَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليّ (عليه السلام) بِالْكُوفَةِ، وهُوَ قَائِمٌ عَلَى حِجَارَةٍ، نَصَبَهَا لَه جَعْدَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْمَخْزُومِيُّ، وعَلَيْه مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ وحَمَائِلُ سَيْفِه لِيفٌ، وفِي رِجْلَيْه نَعْلَانِ مِنْ لِيفٍ، وكَأَنَّ جَبِينَه ثَفِنَةُ بَعِيرٍ فَقَالَ (عليه السلام): الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي إِلَيْه مَصَائِرُ الْخَلْقِ، وعَوَاقِبُ الأَمْرِ نَحْمَدُه عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِه، ونَيِّرِ بُرْهَانِه ونَوَامِي فَضْلِه وامْتِنَانِه)[٢]، إلى آخر ما ذكر في الثناء على الله سبحانه.

ثمّ قال: (أَلَا إِنَّه قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً، وأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللَّه الأَخْيَارُ، وبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ

(١) نهج البلاغة:٢٦٣.

(٢) نهج البلاغة: ٢٦٠.

الآخِرَةِ لَا يَفْنَى، مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وهُمْ بِصِفِّينَ، أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً يُسِيغُونَ الْغُصَصَ، ويَشْرَبُونَ الرَّنْقَ قَدْ واللَّه لَقُوا اللَّه فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وأَحَلَّهُمْ دَارَ الأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ، أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، ومَضَوْا عَلَى الْحَقِّ أَيْنَ عَمَّارٌ وأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ، وأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ، وأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ، وأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ).

قَالَ (نوف): (ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِه عَلَى لِحْيَتِه الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ، فَأَطَالَ الْبُكَاءَ ثُمَّ قَالَ (عليه السلام)، أَوِّه عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوه، وتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوه، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا ووَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوه، ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِه، الْجِهَادَ الْجِهَادَ عِبَادَ اللَّه، أَلَا وإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَومِي هَذَا، فَمَنْ أَرَادَ الرَّوَاحَ إِلَى اللَّه فَلْيَخْرُجْ قَالَ نَوْفٌ وعَقَدَ لِلْحُسَيْنِ (عليه السلام) فِي عَشَرَةِ آلَافٍ، ولِقَيْسِ بْنِ سَعْدٍ رَحِمَه اللَّه فِي عَشَرَةِ آلَافٍ، ولأَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ، ولِغَيْرِهِمْ عَلَى أَعْدَادٍ أُخَرَ، وهُوَ يُرِيدُ الرَّجْعَةَ إِلَى صِفِّينَ، فَمَا دَارَتِ الْجُمُعَةُ حَتَّى ضَرَبَه الْمَلْعُونُ ابْنُ مُلْجَمٍ لَعَنَه اللَّه، فَتَرَاجَعَتِ الْعَسَاكِرُ فَكُنَّا كَأَغْنَامٍ فَقَدَتْ رَاعِيهَا، تَخْتَطِفُهَا الذِّئَابُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)(١).

وفي هذا الكلام إشارة واضحة إلى أنّه (عليه السلام) وصي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على

---

(١) نهج البلاغة: ٢٦٣.

أمته، إذ مراده بالأوصياء إنما هم أوصياء الأنبياء (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) كما هو واضح، فقوله إنّه قد أدّى إليهم ما أدّت أوصياء الأنبياء إلى من بعدهم ـ أي ما بعد الأنبياء ـ إشارة إلى أنّه وصيّ النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وقد أدّى إلى أمته من بعده مثل ما يؤديه الأوصياء إلى أمم الأنبياء من بعدهم من غير تقصير منه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) في الاداء.

كما أن كلامه يدلّ على أنه القائد الذي ينبغي الوثوق به في الفتن والشبهات، فمن تبعه فإنه قد تلا القرآن فأحكمه، وتدبر الفرض فأقامه، وأحيا السنة، وأمات البدعة، وجاهد في سبيل الله، ولقي الله إذا استشهد فوفّاه أجره، وأحله دار الأمن بعد خوفه، وركب الطريق السالك، ومضى على الحق كما سار عمار وابن التيهان وذو الشهادتين، ومن تخلف عنه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كان بخلاف ذلك.

وفي لحن كلامه هذا كسائر كلماته ما يلقي إلى المخاطبين أنّه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) من عباد الله الصالحين، المسددين الهداة الذين لا يضلون السبيل، ولا يخطئون الحق ويعرفون مصير المجاهدين الشهداء، ولم يتكلم بمثل هذا اللحن أحد بعد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) من الخلفاء والأمراء، وغيرهم.

٣. وقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ) في خطبة له بعد انصرافه من صفين: (ومنها يعني آل النبي عليه الصلاة والسلام: هُمْ مَوْضِعُ سِرِّه ولَجَأُ أَمْرِه، وعَيْبَةُ عِلْمِه ومَوْئِلُ حُكْمِه، وكُهُوفُ كُتُبِه وجِبَالُ دِينِه، بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِه وأَذْهَبَ ارْتِعَادَ فَرَائِصِه.

ومِنْهَا يَعْنِي قَوْماً آخَرِينَ: زَرَعُوا الْفُجُورَ وسَقَوْه الْغُرُورَ وحَصَدُوا الثُّبُورَ، لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) مِنْ هَذِه الأمّة أَحَدٌ، ولَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ

نِعْمَتُهُمْ عَلَيْه أَبَداً، هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ وعِمَادُ الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي وبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، ولَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ والْوِرَاثَةُ، الآنَ إِذْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِه ونُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِه)[١].

وهذه الخطبة واضحة في إثبات الوصية لأهل البيت (عليهم السلام).

وكذلك تجد مثل ذلك في كلمات خواصّه من رجال الأنصار والمهاجرين من الصحابة الذين جاؤوا معه من المدينة إلى البصرة والكوفة وقاتلوا بين يديه، مثل: خزيمة بن ثابت الأنصاري البدري ذي الشهادتين، وعمّار بن ياسر، وكذلك سائر خواصه من التابعين مثل مالك الأشتر الذي قال (عليه السلام) عنه: (كان لي كما كنت لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم))[٢]، ومحمّد بن أبي بكر الذي قال (عليه السلام) عنه: (محمد ابني من صلب أبي بكر)[٣]، وغيرهما، وكذلك أقوال من بعث إليهم برسائله من شيوخ القبائل في العراق لمبايعته وإعانته في حربه مع طلحة والزبير، وكذلك أشعار جنده في ساحات القتال بين يديه في حروبه في كلٍّ من الجمل وصفّين.

فتجد أنّها مجموعاً مليئة بتوصيفه بأنّه وصيّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، بجنب أوصاف أخرى له مثل كونه أفضل المسلمين بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

---

(١) نهج البلاغة: ٤٧.

(٢) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد): ١٥/٩٨.

(٣) لاحظ: شرح نهج البلاغة (ابن أبي حديد): ٦/٥٣.

وجل ما حكي من أقوال هؤلاء مما يوثق به من المنظور التأريخي؛ لأنّها صدرت منهم في كلمات معلنة في ضمن حوادث اجتماعية تأريخية، مثل حربي الجمل وصفّين، فإنّهما كانتا حادثتين تاريخيّتين مشهورتين، ولا يسهل تزوير أو تغيير الطابع العامّ الذي تمثّل في أقوال طرفي الحرب وملابساتها فيهما، على أنّ المؤرّخين المشاهير الذين ذكروا ذلك أو أقروا به ليسوا من الشيعة القائلين بالإمامة بالنصّ عليها.

فمن أقوال أصحابه (عليه السلام) يوم الجمل ما ذكره أرباب التاريخ، منهم أبو مخنّف لوط بن يحيى في كتاب واقعة الجمل[1]، وهو كما قال ابن أبي الحديد: (من المحدّثين، وممّن يرى صحّة الإمامة بالاختيار، وليس من الشيعة، ولا معدوداً من رجالها).

وفيما يلي ذكر لبعض تلك الأقوال:

١ . قال أبو الهيثم بن التيهان وكان بدريّاً في يوم الجمل:

إنّ الوصيّ إمامنا ووليّنا   برح الخفاء وباحت الأسرار.

٢ . وقال عمر بن حارثة الأنصاريّ عن ابن الحنفيّة يوم الجمل:

سميّ النبيّ وشبه الوصيّ

٣ . وقال زياد بن لبيد الأنصاريّ:

---

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد): ١/١٤٧.

ولا نبالي في الوصيّ من غضب

٤. وقال خزيمة بن ثابت الأنصاريّ ذو الشهادتين وكان بدريّاً:

يا وصيّ النبيّ قد أجلت الحر　　　بُ الأعادي وسارت الأظعان

٥. وقال أيضاً لعائشة:

وصيّ رسول الله من دون أهله　　　وأنتِ على ما كان من ذاك شاهدة

٦. وقال حجر بن عدي الكنديّ:

فيــه فقد كان له وليّاً　　　ثمّ ارتضــاه بعده وصيّاً

٧. وقال ابن بديل الخزاعيّ:

حرب الوصيّ وما للحرب من آسي

٨. وقال عمرو بن أحيحة بعد خطبة الحسن بن عليّ (عليهما السلام):

وأبى الله أن يقـــوم بـــما قـــا　　　م به ابن الوصيّ وابن النجيبِ

إنّ شخصاً بين النبيّ ـ لك الخيـ　　　ـرِ وبين الوصيّ غير مشـــــوبِ

٩. وقال زحر بن قيس الجعفيّ يوم الجمل:

أضربكم حتّى تقرّوا لعليّ　　　خير قريش كلّها بعد النبيّ

من زانه الله وسمّاه الوصيّ

١٠. ومن قول آخر لخزيمة بن ثابت:

ألست أخاه في الهدى ووصيّه　　　وأعلم منهم بالكتاب وبالسنن

١١. وعن حذيفة بن اليمان الأنصاريّ أنّه لمّا بلغه أنّ عليّاً قد قدم ذي قار

يريد البصرة، واستنفر الناس في الكوفة، وقال: (الحقوا بأمير المؤمنين ووصيّ سيّد المرسلين).

ومن أشعار صفّين ما ذكره نصر بن مزاحم في كتاب صفّين المشهور، وهو كما قال ابن أبي الحديد من رجال الحديث أيضاً، ويعني أنّه ممّن يرى صحّة الإمامة بالاختيار، وليس من الشيعة الرافضين للخلافة:

١ .عليّاً عنيت وصـــيّ النبيّ   نجالد عنه غواة الأمـــــــم

٢ .رسول الوصيّ وصيّ النبي   له السبق والفضل في المؤمنينا

٣ .أتانا الرسول رسول الوصيّ   عليّ المهــــــذب من هاشم

٤ .وزير النبي وذو صهـــــره   وخير البريـــــة والعـــالم

٥ .وصى رسول الله من دون أهله   وفارسه الحامي به يضرب المثل

٦ .وممّا رُوي من شعر الإمام(عليه السلام) نفسه:

ما كان يرضى أحمد لو أخبرا   أن يقرنوا وصيه والأبترا

٧ .وقال النعمان بن عجلان الأنصاريّ:

كيف التفرق والوصي إمامنا   لا كيــــف إلا حيرة وتخاذلا

لا تغبننّ عقولكم، لا خير في   من لم يكن عند البلابل عاقلا

وذروا معاوية الغوي وتابعوا   دين الوصي لتحمــدوه آجلا

٨ .وقال المغيرة بن الحارث بن عبد المطّلب، من بني هاشم:

فيكم وصيّ رسول الله قائدكم   وصهــره وكتاب الله قد نشرا

٩ . وقال عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب، من بني هاشم:

وصيّ رسول الله من دون أهله　　　وفارسه إن قيل هل من منازل

وعن عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب مجيباً الوليد بن أبي معيط:

وإنّ وليّ الأمر بعد محمـــــدّ　　　عليّ وفي كل المواطن صاحبه

وصيّ رسول الله حقّاً وصنوه　　　وأوّل من صلّى ومن لان جانبه

وقال له عمرو بن الحمق في صفّين: (والله يا أمير المؤمنين إنّي ما أحببتك، ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك... ولكنّني أحببتك بخصال خمس: أنّك ابن عمّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ووصيّه..).

ومن شعر الفضل بن العبّاس بن عبد المطّلب:

ألا إنّ خير الناس بعد نبيّهـــم　　　وصيّ النبيّ المصطفى عند ذي الذكر

وأوّل من صلّى وصنو نبيّـــــه　　　وأوّل من أردى الغواة لدى بـــدر

وربما حكي عن محمّد بن أبي بكر ربيب الإمام عليّ (عليه السلام) أنه كتب إلى معاوية كلاماً يصف فيه الإمام بالوصي أيضاً[(١)]، والله أعلم.

ومن كلام مالك الأشتر كما نقله أبو مخنّف: (وأنت ابن عمّ نبيّنا، وصهره،

(١) (فكيف، يا لك الويل تعدل نفسك بعلي وهو وارث رسول الله ص، ووصيّه، وأبو ولده.. يخبره بسرّه، ويتركه في أمره.. وبالله وبأهل بيت رسوله عنك الفناء) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد): ٣/١٨٩.

ووصيّه، وأوّل مصدّق به..)[١].

وقال قرظة بن كعب بن عمرو الأنصاريّ أحد عمّاله (عليه السلام) في رسالته إليه: (أقول إنّه أمير المؤمنين (عليه السلام)، وسيّد البشر، ووصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..).

وقد قال ابن أبي الحديد بعد ذكر جملة منها: (والأشعار التي تتضمّن هذه اللفظة ـ يعني لفظة الوصيّ ـ كثيرة جدّاً، ولكنّنا ذكرنا منها هاهنا بعض ما قيل في هذين الحربين، فأمّا ما عداهما فإنّه يجلّ عن الحصر ويعظم عن الإحصاء والعدّ، ولولا خوف الملالة والإضجار لذكرنا مِن ذلك ما يملأ أوراقاً كثيرة)[٢].

ويبدو أنّ هذا التوصيف له قد اشتهر ـ بعد ارتفاع المحذور في ذكر مثله ـ عنه (عليه السلام) بعد توليه للخلافة.

وكأنّ اشتهار ذلك في المجتمع كان بدرجة أثار بعض الناس الموالين لمدرسة الخلافة فنفوا أن يكون النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أوصى أصلاً؛ على أساس أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لو كان قد أوصى لزم تآمر الصحابة على وصيّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

فقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين: (ذكروا عند عائشة أنّ علياً رضي الله عنهما كان وصياً، فقالت متى أوصى إليه، وقد كنت مسندته إلى

---

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد): ١/٣١٠.

(٢) شرح نهج البلاغة (ابن أبي حديد): ١/١٥٠، بعنوان: (ما ورد في وصاية من الشعر).

صدري أو قالت حجري فدعا بالطست فلقد انخنث في حجري فما شعرت)[(١)].

كما روى البخاريّ ومسلم أيضاً عن طلحة بن مصرف قال: (سألت عبد الله بن أبي أوفى: أوصى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

قال: لا.

قلت: فكيف كتب على المسلمين الوصية؟ أو كيف أمر بالوصية ولِمَ يوصِ؟

قال: أوصى بكتاب الله.

قال طلحة: ثُمّ قال ابن أوفى: ما كان أبو بكر يتآمر على وصيّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم))[(٢)].

هذا وقد جاء في حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في اجتماع قومه عند إنذارهم في بداية بعثته توصيفه الإمام (عليه السلام) بكونه وصيه، إلا أنّ ذلك كان تصريحاً خاصاً لقومه، بينما كانت خطبة الغدير إعلاناً عاماً بوصيته (صلى الله عليه وآله وسلم) له (عليه السلام)، وسيأتي ذكر الحديث المذكور وشرح مغزاه لاحقاً.

---

(١) صحيح البخاري: ٣/١٨٦، باب كتاب الوصايا. وصحيح مسلم: ٥/٧٥، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصى فيه.

(٢) لاحظ: صحيح البخاري: ٣/١٨٦، صحيح مسلم: ٥/٧٤، شرح نهج البلاغة (ابن أبي حديد): ٢/٥٤.

إذاً نلاحظ بما ذكرنا أنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد خطب خطبة الغدير على سبيل الوصية إلى عامة المسلمين، وكانت هذه الواقعة هي مشهد وصيته للأمة قبيل وفاته.

وذلك مما يدل بوضوح على الولاء الواجب للإمام (عليه السلام) على المسلمين في خطبة الغدير على سبيل الوصية منه للمسلمين، وهو قرينة واضحة على نظره (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى إثبات الولاء الخاص الذي يحل به الإمام (عليه السلام) بين المسلمين محل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، دون تأكيد الولاء العام الثابت بين كل مؤمن وآخر في حق الإمام، والذي هو من جملة الفرائض العامة في الدين كالصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان أحد هذه الفرائض الولاء بين المؤمنين، ودون ولاء المحبة لأهل بيته (عليهم السلام) الثابت لهم في حياته جميعاً، ولا يختص بالإمام (عليه السلام).



الإيضاح الثامن

حول واقعة الغدير ودلالات التركيز على الشخص في الولاء والعداء

عقد نقطتين:

١- دلالة خطبة الغدير على تقدير صرفها عن ولاء الحكم إلى الولاء الإيماني المطلق الموجب لاتّباعه (عليه السلام) عند التفرق وطرو الفتن والشبهات.

- الفرق في المعنى بين إثبات الولاء للنوع وإثبات الولاء لشخصٍ من أفراده
- دلالات خاصة في خطبة الغدير على جعل الإمام (عليه السلام) محوراً لولاء المؤمنين عند الاختلاف.
- أهمية دلالة الخطبة على الولاء المطلق للإمام (عليه السلام) في الفتن والشبهات

٢- استبطان الخطبة ـ في حال دلالتها على الولاء الإيماني المطلق للإمام (عليه السلام) ـ على الولاء السياسي له (عليه السلام).

الإيضاح الثامن

حول واقعة الغدير ودلالات التركيز على الشخص في الولاء والعداء

إنّ واقعة الغدير وخطبتها تدل دلالة واضحة وصريحة على تميّز للإمام (عليه السلام) في الولاء بالمقارنة مع سائر المؤمنين.

وقد عرفنا أنّ المفهوم من الولاء في هذا السياق هو الولاء غير المتكافئ، حيث يكون الشخص الموالي تابعاً لمن يواليه ويكون ذاك متبوعاً، كما في ولاء المؤمنين لله سبحانه ولرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وليس الولاء العام المتكافئ كما هو الحال في الولاء بين المؤمنين، وقد أوضحنا هذا المعنى فيما سبق تفصيلاً[١].

عقد نقطتين

لكن ينبغي الالتفات هنا إلى نقطتين أخريين هما:

١- إنّه لو افترض نظر الحديث إلى التأكيد على الولاء الإيماني العام بين الإمام (عليه السلام) وبين المؤمنين، فإنّه يفي بوجوب الولاء الإيماني المطلق له (عليه السلام)، وليس على حد الولاء المحدود الثابت بين سائر آحاد المؤمنين بعدم خروجهم عن جادة الحق، ولذلك فإنّه يقتضي الاتّباع المطلق له في موارد

(١) لاحظ الإيضاح الخامس.

الاختلاف والشبهة ومرجعيته فيها على كل حال.

٢- إنّ إثبات الولاء الإيماني المطلق ـ وفق ما تقدم في الأمر الأوّل ـ للإمام (عليه السلام) يستبطن دلالة على تعيين الإمام (عليه السلام) للإمامة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وذلك لوجهين:

١. بالنظر إلى أنّ مرجعية الإمام (عليه السلام) في الهدى في مواضع الشبهة والفتنة تقتضي تصدره للقيادة السياسية والاجتماعية الواجبة الاتباع بطبيعة الحال، ولا معنى لأن تكون القيادة في الموقف لشخص، ووجوب الاتّباع لآخر.

٢. بالنظر إلى ما اتفق المسلمون على روايته من أنّ الإمام (عليه السلام) كان يرى تعيينه للأمر بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتصريحه بأنّ إزاحته لذلك ظلم له وإجحاف بحقه، ولذلك لم يبايع أبا بكر مدة إلى أن استجد ما أوجب بيعته إياه مضطراً.

وهاتان النقطتان واضحتان عند التأمّل في الموضوع ملياً واستنطاق هذه الخطبة استنطاق مَن حضرها على وجه حيّ ومَن وعى مفادها.

فلنوضح ذلك:

١- دلالة خطبة الغدير على تقدير صرفها عن ولاء الحكم إلى الولاء الإيماني المطلق الموجب لاتّباعه (عليه السلام) عند التفرق وطرو الفتن والشبهات

النقطة الأولى: أنّ الحديث لو كان ناظراً بمدلوله إلى تأكيد الولاء الإيماني

العام في حق الإمام (عليه السلام)[١] مع المؤمنين فهو مع ذلك يدل على تميّزه في هذا الولاء بالنظر إلى أنّه يقتضي الانحياز له (عليه السلام) في الولاء في عموم الحالات التي تتعارض أو تختلف فيها الولاءات وتحدث فيها الفتن والشبهات، وهذا بخلاف الولاء القائم بين أفراد المؤمنين بوجه عام، فإنّه لا دلالة له على وجوب الانحياز لهذا المؤمن الخاص أو لذاك المؤمن الآخر في موارد التعارض والاختلاف والشبهة.

ولا تنتفي هذه الدلالة بافتراض نظر خطبة الغدير إلى شكاوى بعض من كان مع الإمام (عليه السلام) في اليمن منه إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)[٢] ـ كما سعى إلى حمل الخطبة عليها بعض أهل المذاهب في الأزمنة المتأخرة ـ بل نظر الخطبة إلى هذه الشكاوى ـ بالعكس ـ تؤكّد هذه الدلالة، لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دافع عن الإمام (عليه السلام) في مقابل الشبهات المذكورة، وأرشد الشكاة إلى أنّه لا ينبغي الاعتراض على الإمام (عليه السلام) وتخطئته في موقفه والشعور بالحزازة منه تجاه ذلك، فإنّه (عليه السلام) لم يقع في الخطأ، وعلى المؤمن موالاته (عليه السلام) في جميع الأحوال، لأنّه فوق الشبهة.

وأساس هذه الدلالة وجهان:

---

(١) وكذلك الحال لو فهم الولاء للإمام (عليه السلام) في الحديث ولاء المحبة كما يظهر بالتأمّل فيما ذكرناه.

(٢) وسيأتي مزيد توضيح في القسم الثاني.

الفرق في المعنى بين إثبات الولاء للنوع وإثبات الولاء لشخص من أفراده.

الوجه الأوّل: تأصيل عام في الفرق بين دلالة الكلام المتضمّن لتعلّق معنى بالنوع وبين دلالته عندما يتضمن تعلقه بالشخص الخاص.

بيان ذلك: أنّ إثبات الولاء للشخص المعين يفيد تأصيل الولاء له على وجه مطلق حتى في حالات التعارض والتشابه، لما في التركيز على الشخص من دلالة على تزكيته وسلامته وهداه، وأهليته للولاء في الحالات كلها.

وأمّا إثبات الولاء للنوع كالمؤمنين فهو لا يفيد مثل ذلك في حق من يشمله، بل يفيد ولاء محدوداً، إذ قد يتعذّر الولاء للمؤمن الخاص بالنظر إلى تعارضه مع الولاء لمؤمن آخر يعاديه وعدم وضوح الحق للناظر، أو من جهة كونه ظالماً ومتعدياً يجب قتاله، كما أمر الله تعالى بذلك في شأن الفئة الباغية بقوله سبحانه: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ**﴾[1].

وهذا الفرق بين مفاد الولاء للشخص والولاء للنوع أمر عرفي وواضح ينطبق في سائر المعاني المماثلة، فإنّ تعلّقها بالشخص يعطي معنى إضافياً على تعلقها بالنوع، فلو قيل لك مثلاً: (خذ بقول الأطباء ولا تخالف نصائحهم)، فإنّه لا يفيد الأخذ بقول طبيب معين ـ ولنفرضه زيداً ـ إذا عارضه قول طبيب

(١) سورة الحجرات: آية ٩.

آخر، أو وجد مؤشر عقلائي موجب للريبة فيه، وأمّا إذا قيل لك: (إذا عرض لك طارئ صحي فخذ بقول زيد الطبيب، ولا تخالف نصيحته)، فإنّه يفيد عادة الأخذ بقوله في مقابل قول أي طبيب آخر، كما أنّه بنفسه يوجب الثقة به، ويطرد الريبة عن قوله، ويدفع الشبهة عنه.

وبذلك نلاحظ أنّ التوصية بشخص معين تنطوي على معانٍ أزيد من التوصية بالنوع العام؛ لأنّ التوصية بالنوع تعطي تأصيلاً عاماً يكون له بطبيعة الحال حدود وشروط، ولذلك لا تفيد توصية مطلقة في حق أي شخص كزيد في المثال، وأمّا التوصية بالشخص الخاص ـ كزيد ـ فهي تفيد تشخيصاً ـ وليس تأصيلاً ـ في حق الشخص المعين.

وهكذا الحال فيما لو قيل للمكلف: (اتّبع العلماء ولا تخالفهم)، فإنّه يفيد تأصيلاً عاماً، ولا يفيد ترجيح عالم على عالم آخر في الاتّباع في حال اختلاف العلماء إلا في إحراز موافقة بعضهم للحق دون البعض الآخر، فيرجح قول المحقّ حينئذٍ، بينما لو قيل: (اتّبع العالم الفلاني ولا تخالفه)، فإنّه يفيد تشخيصاً لوجوب اتّباع هذا العالم حتى في حال اختلاف العلماء، وترجيح قوله في حال الاختلاف والشبهة.

ولذلك نجد في القرآن الكريم أنّه يرد مدح النوع كثيراً، ولا يرد مدح الشخص إلا نادراً؛ لأنّ له دلالات إضافية خاصة، فيرد في الآيات مثلاً مدح المؤمنين والمتقين والمحسنين والمجاهدين والسابقين إلى الإسلام والأنصار

والمبايعين للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونحو ذلك، ولا يرد مدح شخص بخصوصه على وجه مميّز إلا نادراً، كما عهد ذلك في شأن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في مواضع عدة، منها قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾(١).

وكذلك يرد ذم النوع مكرراً كذم الكفار والخائنين والمنافقين والقاذفين للمحصنات وغير ذلك، ولا يرد ذم شخص إلا نادراً نظير ذمّ أبي لهب وذمّ رجل أشير إليه في سورة القلم وغيرهما.

وكذلك الحال في السنة النبوية فإنّك قلما تجد الثناء على شخص بخصوصه بما يتضمن تزكيته أو لعنه وذمه بما يتضمن تسقيطه، بينما تجد الثناء أو اللعن أو الذم بالنسبة إلى النوع كثيراً.

ولأجل ذلك اشتهر بين أهل العلم أنَّ اللعن المطلق لا يستلزم لَعْنَ المعيَّن، لاحتمالِ أَنْ يقوم المعيَّن بما يحول بينه وبين لحوق اللعن به مِنْ فوات شرط أو ثبوت مانع، وعلى ذلك فإنَّ الحكم الذي يترتَّب على العموم من حيث عمومه قد لا يترتّب على الخاصّ مِنْ حيث خصوصه، فلعن جنس السارق أو الخمّار لا يقتضي جواز لعن خصوص هذا السارق أو الخمّار أو ما إلى ذلك من العصاة.

وقد استشهد على ذلك غير واحد من أهل السنّة بأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال:

---

(١) سورة المائدة: آية ٥٥.

(لَعَنَ اللهُ الخَمْرَ، وَلَعَنَ شَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا، وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا، وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا، وَحَامِلَهَا وَالَمحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَأَكِلَ ثَمَنِهَا)[١]، مع أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) نهى عن لعن رجلٍ كان في عهده (صلى الله عليه وآله وسلم) اسمه عبد الله، (وكان يُضحِك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً فأَمَر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، مَا أكثر مَا يُؤْتَى بِهِ! فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَ اللهِ ـ مَا عَلِمْتُ ـ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ)[٢]؛ فدلَّ هذا الحديث على أنَّ اللعن المطلق لا يقتضي لَعْنَ المعيَّن.

وبناء على هذا الأصل التزم جماعة أنّه لا يجوز اللعن الخاص لشخصٍ محدّد ارتكب خطيئة ما وإن ورد لعن المرتكب لتلك الخطيئة على وجهٍ عام في القرآن الكريم والأخبار النبوية.

ولعل عدم جواز اللعن الخاص لمن ورد اللعن العام بوصفٍ ينطبق عليه أمر واضح ومتّفق عليه لدى أهل العلم على وجه الإجمال؛ إذ هناك أفعال عديدة ورد في الأحاديث لعن فاعلها، وليس هناك مِن شكٍّ في عدم جواز لعن كل شخصٍ فعلها.

وعلى ضوء هذا التأصيل العام المتّفق عليه من أهل العلم والواضح للفهم

---

(١) مسند أحمد: ٢/ ٩٧.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ١٤، كتاب الحدود.

العرفي العام يظهر أنّ مفاد إيجاب الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) أوسع من مفاد وجوب ولائه بالعنوان النوعي وهو الإيمان، تطبيقاً لقاعدة وجوب ولاء المؤمنين فيما بينهم.

وذلك لأنّ الولاء النوعي الثابت له (عليه السلام) بعنوان الإيمان على أساس أنّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض لا إطلاق له لحالات التعارض والاشتباه، كما هو الحال في شأن ما يفيده من الولاء مع سائر آحاد المؤمنين.

ولكن الولاء الواجب له (عليه السلام) بشخصه كما تضمّنته خطبة الغدير ولاء مطلق، يفيد أنّه (عليه السلام) معيار الخطأ والصواب، والفاصل بين الحق والباطل، فيجب الالتزام بولائه فيما إذا اختلفت الولاءات في المجتمع، ووقعت الفتن، وراجت الشبهات، ووقع الاختلاف والخصام بين المؤمنين.

ولأجل ذلك لم يرد فيما ثبت من السنة النبوية الأمر بالولاء لأي شخص بخصوصه عدا الإمام (عليه السلام) لما في تخصيص الشخص بالذكر من دلالات خاصة غير توصية المؤمنين بشكل عام للولاء فيما بينهم.

إذاً يتبين مما تقدم على وجه واضح أنّ دلالة خطبة الغدير على إثبات ولاء مطلق للإمام (عليه السلام) يعني التزام جانبه واتجاهه وقوله في مطلق القضايا التي تختلف فيها الولاءات، وذلك بالنظر إلى إثبات الولاء له بشخصه؛ لأنّ إثبات المعنى للشخص المعين ظاهر في إثبات الخصوصية له في الولاء، ويعطي أهليته للولاء على الإطلاق كما سبق، ما لم تقم قرينة خاصة على أنّ المتكلم لم يكن له

عناية أصلاً بخصوص المذكور، وإنّما ذكر كنموذج ومصداق للنوع العام.

دلالات خاصة في خطبة الغدير على جعل الإمام (عليه السلام) محوراً لولاء المؤمنين عند الاختلاف.

الوجه الثاني: دلالات خاصة في الخطبة على النظر إلى جعل الإمام (عليه السلام) محور ولاء المؤمنين عندما تختلف الآراء والولاءات وتحدث الشبهة.

بيان ذلك: أنّ هذه الخطبة لهي واضحة وصريحة في إثبات الخصوصية للإمام (عليه السلام) في الولاء، بل هي في الحقيقة مسوقة لبيان ذلك، فإنّها تريد التأكيد على خصوصية الإمام عليّ (عليه السلام) في هذه الأمة، وجعله المقياس الذي يتعين ولاؤه إذا تفرّق الناس واختلفوا في الولاء والعداء.

وما يوجب وضوحها في ذلك جمل متعددة فيها، ومنها:

١- قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، فإنّه يفيد جعل ولاء الإمام (عليه السلام) جزءاً من ولاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وانطواء الولاء له (صلى الله عليه وآله وسلم) على الولاء لعلي (عليه السلام)، وهذا يفيد كون عليّ (عليه السلام) بمثابته (صلى الله عليه وآله وسلم) في الولاء المطلق له من قبل المسلمين.

٢- قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه)، فإنّه أيضاً صريح في أنّ الإمام (عليه السلام) هو المقياس للولاء الراشد، ولذا يستوجب من والاه ولاء الله تعالى له حقاً، ويستحق من عاداه سلب هذا الولاء عنه، بل معاداته، على حدّ مَن انحاز مِن جماعة المسلمين عمداً إلى موالاة الكفار المعاندين والمنافقين

في مقابل المسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

٣- ما اشتملت عليه الخطبة من حديث الثقلين، وهو قوله: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً)، فإنّه واضح في أنّ أهل البيت مناط للهدى وعصمة من الضلالة في الفتن والشبهات.

هذا، ويزيد مفاد هذه الخطبة ومغزاها وضوحاً من هذه الزاوية بملاحظة شواهد الحال وسائر الأقوال الصادرة من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

أمّا شواهد الحال فالمراد بها الأحوال المحيطة بالقول المقترنة به في الحال أو فيما يتصل به من المستقبل القريب مما يُكوّن بيئة للنصّ تولد له دلالات إضافية مفهومة لمن حضر مشهد النص أو استحضره ممن يقف عليه لاحقاً.

وتتمثل هذه الشواهد في جملة أمور قد ذكرناها من قبل، ونذكر بعضاً من أهمها:

١. ترقّب الشبهات والفتن في أجواء إلقاء خطبة الغدير، وذلك لأنّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ألقى هذه الخطبة منبّها في أولها على قرب وفاته وغيابه عن هذه الأمة، وتوفي (صلى الله عليه وآله وسلم) فعلاً بعد نحو شهرين ونصف من هذه الخطبة، وقد تأسس على

(١) سورة المائدة: آية ٥١.

يديه هذا الكيان الجديد الواسع الجامع للعرب كلهم تقريباً القاطنين حين ذاك في شبه الجزيرة العربية من عمان واليمن إلى حدود الشام والعراق بعد أن كانوا فرقاً وقبائل متفرقة ومتحاربة على أساس العصبيات الضيقة والولاءات المحدودة، فصاروا بمثابة إمبراطورية ثالثة في مقابل الروم والفرس، فكان الحديث عن غيابه ـ وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) العقد الرابط لهذه الأقوام والقبائل المتفرقة التي انطوت بفضل وجوده ومسعاه في هذا الكيان ـ يوجب تداعيات الخلاف والتفرق والضياع وبروز الولاءات الضيقة مرة أخرى والتنافس بينها، كما هو الحال في كل مجتمع قبلي اعتاد على الحياة القبلية وصراعاتها لقرون عديدة، وكان حديث عهد بالاتحاد والمركزية والانقياد لشخص واحد ينتمي إلى بعضهم.

هذا، ولا سيما مع وجود الأعراب الذين كانوا قد أسلموا انقياداً لقوة الإسلام ولم يؤمنوا بحقيقة الإيمان كما أكّدت الآيات القرآنية الكريمة التي نزلت في أواخر عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مثل ما جاء في سورة الحجرات والتوبة، وكذلك وجود المنافقين الذين وصفت الآيات حركاتهم ونشاطهم في أواخر عهده (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في سورة التوبة.

وأيّ إنسان نابه يعيش في مثل هذا المجتمع إذا أُطلِع وأُخبِر بقرب غياب مثل هذه الشخصية في كيانٍ حديثٍ من هذا القبيل، بل فيما دون ذلك، فسنجد مثل هذه التداعيات في نفسه، كما نجد مثلها في نفوس سائر العامة والخاصة،

وبذلك تظلل هذه الأجواء بطبيعة الحال على الخطاب الذي يبلّغ فيه القائد المؤسس عن قرب غيابه من غير أن يحدد حسب الفرض حتى الآن نظاماً أو شخصاً لخلافته، فيكون الأمر بولاء الإمام عليّ (عليه السلام) وعدم مخالفته في هذا السياق واضحاً في لزوم التزام المسلمين للإمام (عليه السلام) في هذه المسيرة واتباعهم إياه، وتمحورهم حوله في الولاء.

٢. الأحداث التي تلت وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم)، حيث اختلف الصحابة بعده مباشرة وتعددت الولاءات بينهم: بين ولاء للأنصار، وولاء لغير بني هاشم من بطون قريش كما كان عليه أبو بكر وعمر وعثمان، وولاء للإمام (عليه السلام)، حتى حسم الأمر على وجه الغلبة والاستبداد لجماعة أبي بكر ومَن كان معه وفق ما سبق شرحه بغياب الإمام (عليه السلام) وأنصاره ومواليه، ثمّ ما وقع من أحداث الردّة في زمان أبي بكر، ثم ما كان من حديث ولغط في بعض أوساط الصحابة عند وفاة أبي بكر، ثمّ ما اتفق من ذلك عند وفاة عمر من حديثِ مَن يخلفه، وقد أبدى الزبير الميل للإمام عليّ (عليه السلام) والرغبة في مبايعته بعد عمر، فانتفض عمر، وقال قولته المعروفة: (ألا إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها فمن عاد إلى مثله فاقتلوه)[١]، ثمّ ما اتفق في أواخر زمان عثمان من فتن مستفحلة في أثر مظالمه وإيثاره لقومه بني أمية بالمناصب والأموال، ثُمَّ ما اتفق عندما تصدّى

(١) لاحظ: شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد): ٢/ ٢٥. صحيح البخاري: ٨/ ٢٥.

الإمام (عليه السلام) للخلافة بمبايعة جمهور المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين حيث لم تواله مجموعات ثلاثة من الصحابة والمسلمين، بل عادوه وقاتلوه، وقد عرفوا بالناكثين والقاسطين والمارقين.

فالناظر في خطبة الغدير ـ بما تلاها من هذه الأحداث القريبة منها بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) التي أخبر عن وقوعها ـ يتضح له نظر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى إرشاد المسلمين إلى الالتزام بولاء عليّ (عليه السلام) فيها، وتجنّب عدائه، وهذا هو الذي فهمه ووفى به عدد من الصحابة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حسب دلالة الأخبار التاريخية فالتزموا ولاءه وامتنعوا من بيعة أبي بكر إلى أن اضطروا إليها أو أكرهوا عليها، ووفى به عدد أكثر منهم عند تيسر تصديه (عليه السلام) للخلافة بعد مقتل عثمان، كما تقدم في إيضاح سابق(١).

فهذا عن الأجواء الحافّة بخطبة الغدير.

وأمّا سائر أقوال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) التي توضح مفاد هذه الخطبة، وتبين نظر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها إلى الفتن التي ستتفق بعده (صلى الله عليه وآله وسلم)، وإرشاد المسلمين إلى التمسك بولاء عليّ فيها، فذلك ما جاء في آثار متفق عليها عنه حول الفتن بعده تدلّ على علمه (صلى الله عليه وآله وسلم) بوقوع تلك الفتن، وإشارته إليها، أو وصفه إياها لأصحابه وسائر المسلمين، وهي ـ كما تقدم ـ على طائفتين:

---

(١) لاحظ الإيضاح السادس.

الأولى: أحاديث عامة أخبرت عن وقوع الفتن بعده بين أصحابه، وافتتان أكثرهم بعده، حتى أنّ الناجي منهم كهمل النعم، وقد جاء ذلك في الصحيحين وسائر المصادر المعوّل عليها.

والأخرى: أحاديث خاصة وردت في الإشارة إلى الفتن التي تقع في زمان الإمام (عليه السلام)، كالتي تضمّنت أنّه (عليه السلام) يقاتل على تأويل القرآن، وأنّ بعض الصحابة وهو الزبير يقاتله وهو له ظالم، وأنّ عمّاراً تقتله الفئة الباغية، وأنّ من أصحابه من يمرق من الدين في إشارة إلى الخوارج على عليّ (عليه السلام)، وأنّ من نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من تنبحها كلاب الحوأب، وما ورد عن استضعاف أهل بيته وعشيرته الأدنين (بني هاشم) من بعده، إلى غير ذلك مما أذعن بصحته أصحاب الصحاح والسنن وسائر النقاد.

فبالالتفات إلى ذلك يعلم أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) نظر في إثبات الولاء للإمام (عليه السلام) في هذه الخطبة التي نعى فيها نفسه وأخبر عن قرب وفاته إلى أنّ الإمام (عليه السلام) هو المناط لولاء الله وولاء رسوله في تلك الفتن، وهو الضياء الهادي إلى الحق في ظلمتها.

إذاً بهذا البيان يتضّح أنّ خطبة الغدير تفي بوضوح بالغ بالولاء المطلق للإمام (عليه السلام).

أهمية دلالة الخطبة على الولاء المطلق للإمام (عليه السلام) في الفتن والشبهات

إنّ وفاء خطبة الغدير بالولاء المطلق للإمام عليّ (عليه السلام) حتى على تقدير أنّ يفهم منها الولاء الإيماني المتكافئ الثابت بين المؤمنين ـ كما حملها عليه غير الشيعة من المسلمين، وليس الولاء السياسي الذي فهمته الشيعة الإمامية بالنظر إلى تركيزها في الولاء للإمام عليّ (عليه السلام) بخصوصه وعدد من فقراتها ـ أمر مهم للغاية.

والوجه في هذه الأهمية:

أوّلاً: أنّه يتضمن إثبات مرجعية الإمام عليّ (عليه السلام) للهدى والسداد بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مطلق الفتن والشبهات والاختلافات التي تطرأ بعده (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ من المعلوم أنّ بداية انحراف كل دين ونظام عن المسيرة الراشدة والصائبة هو الاختلاف وطروّ الشبهة، فإذا عُيّنت مرجعية للهدى والسداد كان ذلك تأميناً لاستمرار الاتجاه الحق والراشد.

وتتضمن هذه المرجعية بعدين:

البعد العلمي الذي يحصل بالعقل الكامل والتعلّم اللازم والممارسة الكافية.

والبعد المعنوي الذي يحصل بالتقوى والورع ويكتمل بالتسديد الإلهي للعباد الصالحين المصطفين.

وعليه تدل هذه الخطبة بوضوح على أنّه متى اختلف الناس في ولاءاتهم

وجب على المؤمنين أن يكونوا مع الإمام (عليه السلام) وفي الجماعة الذين معه؛ لأنّه يكون في الفتن والشبهات على الهدى والرشد والعدل، كما قال الإمام (عليه السلام) في بعض كلامه في نهج البلاغة: (وإنّما سميت الشبهة شبهة لأنّها تشبه الحق. فأمّا أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدى، وأمّا أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى)[1]، وقد تكرر منه في خطبه أنّ أهل البيت (عليهم السلام) هم مناط الأمر والضياء في الشبهة.

وثانياً: أنّه يتضمن وجوب التوجه العملي نحو اتجاه الإمام (عليه السلام)، وليس الإذعان بصوابه فحسب، وذلك لأنّ الولاء للشخص لا يعني تصويب رأيه فحسب وإنّما يعني إسناده ونصره وتبني موقفه بشكل عملي، ليكون الموالي من أنصاره وشيعته، ولذلك لا يطلق الولاء على ثقة المريض برأي الطبيب، ولا ثقة المستفتي عن الحكم الشرعي بقول المفتي، فلا يقال: إنّ المريض يوالي الطبيب ولا أنّ المستفتي يوالي المفتي لمجرد أخذه برأيه في المسائل الشرعية، وإنما نطلق الولاء إذا كان الشخص الموالَى ذا موقع واتجاه اجتماعي وسياسي فيلتزم الشخص جانبه في ذلك، لذلك جاء في خطبة الغدير بعد ذكر وجوب الولاء للإمام (عليه السلام) وجوب نصرته وخطر خذلانه ومعاداته.

إذاً يشير الحديث إلى أنّ من المتوقع بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) اتجاهات متعددة مختلفة في

(١) نهج البلاغة: ٨١.

الولاء والعداء، والإمام عليّ (عليه السلام) وفق الحديث هو صاحب الاتجاه المصيب من بينها، فيلزم الولاء له ونصرته والوقوف معه.

وقد اتفق هذا الأمر فعلاً عقيب وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مباشرة في شأن خلافته، فقد حدث الخلاف في أمر من يتصدى الخلافة:

١- فكان هناك اتجاه للأنصار يدعو إلى اختيار الخليفة منهم لحقّهم في نصرة الدين.

٢- وكانت قيادة أخرى لغير بني هاشم من قريش، وهي التي برزت في الثلاثي المعروف (أبي بكر وعمر وأبي عبيدة) الذين اطّلعوا على اجتماع الأنصار في السقيفة لتداول أمر الخلافة فسارعوا إليها ودعوا إلى كون الخليفة أحدهم.

وهناك قيادة ثالثة غائبة هي الإمام (عليه السلام) ومن كان معه، واتجاه الإمام عليّ (عليه السلام) لم يكن تبعاً لا فكراً ولا عملاً لموقف أيٍّ من الفريقين الأولين، وقد امتنع (عليه السلام) من بيعة أبي بكر لفترة امتعاضاً باتفاق المحدثين والمؤرخين، وهكذا في سائر القضايا التي تلت مسألة تعيين الخليفة، فكان (عليه السلام) صاحب اتجاه وموقف فيها.

إذاً اتضح بشكل أكيد أنّ الحديث حتى لو عنى الولاء الإيماني لكنه بتركيزه على الإمام (عليه السلام) والتوصية بموالاته بشكل مطلق فإنّه يدل دلالة لا يمكن إنكارها على تعين أن يكون المسلمون ملتزمين بمرجعيته في كل قضية تُشكَل في الدين.

وبذلك يظهر أنّ أهل الحل والعقد من الصحابة لم يعملوا بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بخطبة الغدير على كل حال، حتى لو لم يكن المقصود بالولاية فيها ولاية الأمر، لأنّهم لم يلتزموا خط الإمام (عليه السلام).

وعليه لا مجال لاستبعاد إرادة الولاء السياسي للإمام (عليه السلام) من حديث الغدير على أساس أنّه لو كان ذلك هو المفهوم لكان معناه تخلّف الصحابة عن أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

والوجه في عدم توجه هذا الاستبعاد أنّ الحديث إن لم يدل على الولاء السياسي فلا أقل من أنّه يدل على الولاء الإيماني المطلق الذي يقتضي التزام خط الإمام (عليه السلام) وقوله في الشبهات والفتن، وهذا ما لم يعمل عليه أهل الحل والعقد من الصحابة بوضوح منذ وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فما بعده حتى شهادته (عليه السلام)، كما لم يعملوا بذلك مع أهل بيته وذريته الذين ورد في خطبة الغدير وجوب التمسّك بهم.

٢- استبطان الخطبة ـ في حال دلالتها على الولاء الإيماني المطلق للإمام (عليه السلام) ـ على الولاء السياسي له (عليه السلام)

الأمر الثاني: في استبطان دلالة الخطبة على الولاء الإيماني المطلق للإمام عليّ (عليه السلام) على الولاء السياسي له.

قد يقول قائل: إنّ الخطبة وفق التوضيح السابق وإن أفادت أنّ ولاءه (عليه السلام) واجب على وجه الإطلاق، فلا بدّ أن يكون المؤمن معه (عليه السلام) في

مواقفه كلها، لكنها لا تفيد إثبات الولاء السياسي له بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما عليه الشيعة الإمامية، إذ من الجائز أن يكون الإمام (عليه السلام) موافقاً للاتجاه السائد الذي وقع فعلاً فيكون الولاء له مقتضياً للولاء لهذا الاتجاه، نعم إذا اختلف الإمام (عليه السلام) مع اتجاهات أخرى وجب مناصرته كما في حروب الجمل وصفين والنهروان.

ولكن الواقع أنّ الالتزام بالولاء الإيماني المطلق للإمام (عليه السلام) يستبطن إثبات الولاء السياسي له لوجهين:

الأوّل: أنّ وجوب الولاء الإيماني للإمام (عليه السلام) بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولاءً مطلقاً يدل دلالة ذكية وظاهرة في نفس الحال على تسنّم الإمام (عليه السلام) لموقع القيادة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ من غير المعقول أن يتم الإعلان من قبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن وجوب التزام اتجاه الإمام ومساره والولاء المطلق له شرعاً، ولكن مع ذلك تكون القيادة السياسية التي تجب موالاتها لغيره، بل يكون المفهوم لكل إنسان نابه أنّ كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هذا يكون إشارة إلى أنّه لا يجوز لغير الإمام (عليه السلام) أن يعرض نفسه للقيادة السياسية، ولا يجوز للناس أن ينتخبوه ويوالوه، فكيف يجوز أن يكون العلم الهادي والإمام المسدد والذي يجب أن يكون محوراً لولاء المسلمين ومحلاً لنصرتهم هو الإمام (عليه السلام) ولكن لا يكون هو القائد المتعيّن للأمة.

ويبدو أنّ الذين قالوا بدلالة نص الغدير على نصب الإمام (عليه السلام) للحكم

دلالة خفية نظروا إلى هذا المنظار، فهم لم يريدوا بالدلالة الخفية ما يخفى، بل الدلالة الذكية التي تدل على المعنى عن طريق ذكر ما يستلزمه، وهو أشبه بأسلوب الكناية الواضحة والتلميح الظاهر مثل التعبير عن جود زيد بأنّه (كثير الرماد) و(مهزول الفصيل)، وذلك أمر معروف في الأساليب الأدبية.

الثاني: أنّه مع غض النظر عن ذلك فإنّ وجوب الولاء الإيماني المطلق للإمام إنّما يجتمع مع مشروعية القيادة السياسية لغيره إذا قدر أنّ الإمام (عليه السلام) كان يرى صحة تصدي غيره للحكم، كما لو قدّر أنّ الإمام (عليه السلام) كان مع الولاء لأبي بكر غداة السقيفة، ثم مع الولاء لعمر بعد أبي بكر، ثم مع الولاء لعثمان بعد عمر، فتكون خلافة الثلاثة شرعية[1] بموالاة الإمام (عليه السلام) لها.

ولكن الواقع الذي يدل عليه التاريخ المتفق عليه في حكاية العديد من مواقفه هو أنّ الإمام (عليه السلام) لم يوالِ أبا بكر، وإنّما تعامل معه معاملة الأمر الواقع فحسب، بل كان ولاؤه لنفسه، بمعنى أنّه كان يرى أنّ الأمر له، كما ينبّه على ذلك ما اتفق عليه المؤرخون والمحدثون ومنهم البخاري في الصحيح من امتناعه عن بيعة أبي بكر لمدة حتى وفاة فاطمة الزهراء ابنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكذلك الحال في شأن ولاية عمر ثمّ عثمان، وبذلك نجد أنّه عند توليه الخلافة

(١) ويبدو أنّ هذا أساس قبول بعض المذاهب التي ترى ضرورة اتباعه (عليه السلام) في مواقفه كلها لشرعية خلافة الخلفاء الثلاثة، مثل قسم من الزيدية والمعتزلة.

كان يشكو دائما مما وقع عليه من الحيف والظلم بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من قبل قريش، ويتمثّل ذلك بوضوح في كلماته المأثورة في التاريخ والتي جمعت جملة منها في نهج البلاغة.

وعليه يظهر أنّنا حتى لو فهمنا من الولاء المذكور في خطبة الغدير الولاء الإيماني العام له ولكن على وجه الإطلاق وأنّها لا تفيد إثبات الولاء السياسي له على وجه مباشر فإنّها تفي بتعيّن البناء على ولائه السياسي على المسلمين بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على وجه غير مباشر وظاهر.

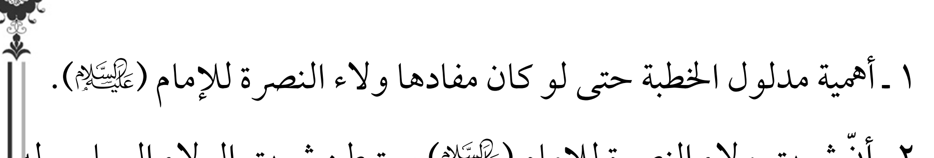
على أنّا نؤكد على أنّ خطبة الغدير نصّ جلي في الولاء غير المتكافئ للإمام (عليه السلام) على حدّ ولاء الناس للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وولاء العامة للحاكم، وليس جمع الحاكم عامة الناس لمخاطبتهم معلناً عن قرب وفاته ثمّ إيجاب ولائهم لشخص ما يرفعه بيده ليروه داعياً إلى نصرته ومحذراً عن خذلانه بالذي يحتمل معنى غير إيجاب ولائهم له على نحو ولاء عامة الناس لمن يحكمهم دون الولاء العام المنعقد بينهم كأخوة في الدين أو في الوطن حسب اختلاف المقامات.

فمن وعى هذا المشهد حقاً واستطاع استحضاره بنحو ملائم في ذهنه حتى كأنه حضره ـ ولم يمنعه حسن الظن بإعراض من أعرض من أهل الحل والعقد عن هذا الأمر ممن كَبُروا في التاريخ بتسلّم الأمر والتصدي للسلطة ـ وجد نفسه مضطراً إلى الإذعان بهذا المعنى، وانكشفت له حقانيته وواقعيته لا محالة، على أن يعرف قيمة الرجال ـ وخاصة الذين تبوؤوا السلطة ـ بالحق، ولا يعرف الحق

بالرجال.



الإيضاح التاسع
في واقعة الغدير ومقتضيات
ولاء النصرة الخاص للإمام (عليه السلام)



١ ـ أهمية مدلول الخطبة حتى لو كان مفادها ولاء النصرة للإمام (عليه السلام).

٢ ـ أنّ ثبوت ولاء النصرة للإمام (عليه السلام) يستبطن ثبوت الولاء السياسي له عند الإمعان في ذلك.

الإيضاح التاسع

في واقعة الغدير ومقتضيات ولاء النصرة الخاص للإمام (عليه السلام).

لقد عرفنا أنّ خطبة الغدير تدل على عقد الولاء الخاص (غير المتكافئ) للإمام (عليه السلام) وفق نوع الولاء الثابت للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الأمة، وذكرنا أنّ الولاء غير المتكافئ بحسب طبيعة معنى الولاء الذي لا يزال معروفاً لا يعني المحبة ولا النصرة، بل هو يقتضي كون الموالي من أتباع وليه وجماعته والمنحازين إليه، وهو قريب من التعبير الذي عبّر عنه لاحقاً بالشيعة، فكان يقال على الذين يوالون الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ويرون أنه على العدل والحق: (إنهم شيعته)، كما كان يطلق على الذين يرون أن عثمان قتل مظلوماً والمفروض أن يقتص من قتلته ويطالب به: (شيعة عثمان).

لكن جرى جمهور أهل السنة على صرف الولاء عن هذا المعنى، وكان أقرب[١] ما ذكروه بديلاً عن ذلك التفسير هو تفسير الولاء بالنصرة، فيقال إنّ فلاناً يوالي فلاناً إذا كان ينتصر له، وقد اقترن الولاء والنصرة في آيات القرآن

---

(١) وأما تفسير الولاء بمحض المحبة التي ليس من شأنها أن تستتبع النصرة مثل محبة شخص ما مثلاً لفضيلةٍ من غير إنشاء علاقة معه فهو خطأ جليّ جداً كما سبق في محله.

الكريم كثيراً كما تقدم ذلك[١]، وعليه فإنّ الحديث لا يدل إلا على وجوب الانتصار للإمام عليّ (عليه السلام)، وهو بطبيعة الحال يتوقف على أن يكون هناك صراع بين الإمام (عليه السلام) وبين غيره كالذي اتفق في زمان خلافته من خروج من خرج عليه وقتال من قاتله ولا يدل على وجوب الولاء له على حد الولاء للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد ذكرنا أنّ هذا التفسير خاطئ بوضوح من المنظور اللغوي، فإنّ الولاء ليس بمعنى النصرة، وإنما هو اتصال قائم بين اثنين ووشيجة رابطة بينهما، وأمّا النصرة فهي تترتب على الولاء إذا استطاعها الشخص، وإن لم يستطع لم يخرج به عن استحقاق اسم الولاء، فإذا انقسمت العشيرة إلى قسمين تبعاً لشخصيتين اختلفتا في قضيةٍ ما ووقف بعضهم في وجه بعض، فإنّ من يرى حقانية هذه الشخصية من العشيرة يقال عليه إنّه يواليه وإن لم ينتصر له عملاً ولو لعجزه عن ذلك، فالولاء هو معنى أعمق من النصرة، وقد يستتبع النصرة إذا كان الموالي قادراً وقوياً ومضحياً في سبيل من يواليه، وقد لا يستتبعه لعجز أو ضعف ووهن أو معصية، ولقد كانت الشيعة تعرف بأنها توالي علياً (عليه السلام) حتى وإن كانوا في وضع لا يسمح لهم بالانتصار له وإظهار حقه، وهذا أمر

(١) تقدم بعنوان تفسير الولاء بالنصرة من الإيضاح الخامس.

تقدم بيانه[١].

لكن الذي نريد أن نذكره في هذا الإيضاح في مزيد عناية بفقه الحديث أمران:

١- أهمية مدلول الخطبة حتى لو كان مفادها ولاء النصرة للإمام (عليه السلام).

٢- إنّ ثبوت ولاء النصرة للإمام (عليه السلام) يستبطن ثبوت الولاء السياسي له عند الإمعان في ذلك.

١. أهمية مدلول الخطبة حتى لو كان مفادها ولاء النصرة للإمام (عليه السلام)

الأمر الأوّل: أنّنا إذا افترضنا أنّ الولاء في خطبة الغدير يعني النصرة والمراد الحث على نصرة الإمام (عليه السلام) فإنّ مدلول الحديث يبقى مدلولاً مهماً لا يوافق ما جرت عليه الأمور بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في السقيفة وما بعدها.

وذلك لأنّ المقصود بالنصرة في هذه الخطبة ليس هو النصرة في حادث خاص وقع متزامناً مع الخطبة فأراد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الحث على نصرة الإمام (عليه السلام) فيه، وذلك لوجوه ثلاثة:

١- إنّه لم يتفق هناك حادث من هذا القبيل للإمام (عليه السلام) متزامناً مع خطبة الغدير لتكون الخطبة ناظرة إليه.

٢- إنّ هذه خطبة وصية من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما بعد موته كما تقدم، ولذا

(١) لاحظ الإيضاح الخامس.

بدأها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بذكر أنّه يوشك أن يدعى فيجيب، وعليه فيكون نظره في نصرة الإمام إلى ما بعد وفاته.

٣- إنّه لو اتفق حادث في زمان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فالمفروض أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع أحد الفريقين فيجب نصرة من يكون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) معه، ولا حاجة إلى جعل عليّ (عليه السلام) مداراً للنصرة.

وبذلك يعلم أنّ المراد من كون المسلمين أنصاراً للإمام (عليه السلام) أن يكونوا من أنصاره (عليه السلام) على وجه عام في أي موقف مستقبلي تختلف فيه الاتجاهات، فلا بدّ أن يكون المسلم ناصراً للإمام (عليه السلام) في أي موقف يتخذه بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومن المعلوم أن الإمام (عليه السلام) صاحب رأي ونظر واتجاه في عامة القضايا المصيرية بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من يوم السقيفة فما بعدها كما يتمثل ذلك في الحوادث والحكايات التاريخية بوضوح، وكان مما يؤهله له شخصيته الاجتماعية؛ إذ كان سيد بني هاشم في حينه بالنظر إلى أن عمره وإن لم يكن يزيد على (٣٣) سنة، إلا أنه كان هو الأبرز بينهم من جهة سوابقه وأدواره وخصوصيته مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما أنّه كان من أبرز سادات قريش ومن قادة المسلمين ومن أصحاب الرأي والنظر، وكان موقفه دائماً محل نظر الخلفاء كما كان محل استشارتهم في قضايا خطيرة يرون حاجتهم فيها إلى المشورة، حتى

اشتهر عن عمر قوله الذي ذهب مثلاً: (قضية ولا أبو حسن لها)[1]، وهذه كلها أمور واضحة وبديهية ومتفق عليها بالمنظور التاريخي، وعليه كان المفروض أخذ الصحابة بقول الإمام (عليه السلام) في تلك القضايا.

ففي موضوع خلافة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان الإمام (عليه السلام) دون شك يرى أنّه أولى بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد بقي على الامتناع من بيعة أبي بكر رغم ضغوط عمر وتهديده واستمر على عدم مبايعته رغم خطورة ذلك عليه حتى وفاة فاطمة (عليها السلام) كما رواه البخاري في صحيحه وسائر المحدثين والمؤرخين، وكان معه على ذلك جماعة كالزبير، إلا أن بعضهم اضطر إلى البيعة مكرهاً، وقد جاء في بعض الأخبار أنّه امتنع آخرون من الصحابة عن مبايعة أبي بكر ما لم يبايع الإمام عليّ (عليه السلام) مثل بريدة بن الحصيب الأسلمي[2].

---

(١) عمدة القاري للعيني: ١٦٩/٢٣، ولاحظ مثلاً: البداية والنهاية لابن كثير: ٣٩٧/٧، قال: (كان عمر يقول أعوذ بالله من معضلة ولا أبو حسن لها)،

(٢) ففي الشافي في الإمامة (للشريف المرتضى) ٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣: (وروى الثقفي قال: حدثني محمد بن عليّ عن عاصم بن عامر البجلي عن نوح بن دراج عن محمد بن إسحاق عن سفيان بن فروة عن أبيه قال: جاء بريدة حتى ركز رايته في وسط أسلم ثم قال: لا أبايع حتى يبايع عليّ، فقال عليّ عليه السلام: (يا بريدة ادخل فيما دخل فيه الناس فإن اجتماعهم أحب إلي من اختلافهم اليوم).

وعليه كان من الواجب وفق هذا الحديث أن ينتصر الصحابة للإمام (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ولا يخذلوه في موقفه هذا، ولم يفعلوا ذلك.

وموقفه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) من مبايعة أبي بكر يوضح موقفه من تعيين عمر بعد أبي بكر لأنّه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كان يرى أنه هو أولى بالنبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، وكذلك الحال في موقفه يوم الشورى ممن يلي عمر، فقد اختلف عليه أهل الشورى وهم يعلمون بطبيعة الحال رأيه منذ بيعة أبي بكر فقد ترشّح عثمان في مقابله للخلافة رغم أنّه (عَلَيْهِ السَّلَامُ) أبدى أنّه الأولى بالأمر، وقد أعان عثمانَ عليه كلٌّ من عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، ولم يتبعه إلا الزبير بن العوام.

وأما في زمان خلافته فقد بايعه جمهور أهل العقد والحل من المهاجرين

وروى إبراهيم قال: حدثني محمد بن أبي عمير قال: حدثنا محمد بن إسحاق عن موسى بن عبد الله بن الحسن أن علياً عليه السلام قال لهم: (بايعوا فإن هؤلاء خيروني أن يأخذوا ما ليس لهم أو أقاتلهم وأفرق أمر المسلمين).

وروى إبراهيم عن يحيى بن الحسن ابن الفرات عن ميسر بن حماد عن موسى بن عبد الله بن الحسن قال: أَبَتْ أسلَم أن تُبايع وقالوا: ما كنا نبايع حتى يبايع بريدة لقول النبي صلى الله عليه وآله لبريدة: (علي وليكم من بعدي)، فقال عليّ عليه السلام: (يا هؤلاء إن هؤلاء خيروني أن يظلموني حقي وأبايعهم أو ارتدت الناس حتى بلغت الردة أحداً فاخترت أن أظلم حقي وإن فعلوا ما فعلوا).

وقد حكي موقف بريدة عن كتاب (روضة الصفا) بالفارسية وهو كتاب في التاريخ لبعض علماء أهل السنة (ت٩٠٣هـ) وقد ذكره في كشف الظنون.

والأنصار ولكن تخلّف جماعة من قريش مثل سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، مضافاً إلى بني أمية وأشياعهم، ونكث طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بيعتهما إياه عندما لم يجدا ما كانا يرجوانه من مآربهما، وأعانتهما عائشة زوجة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقاتلوه وأثاروا حرب الجمل التي قتل فيها الآلاف، ثم كانت حرب صفين التي قاتله فيها معاوية وأعوانه وفيهم من يُعدّ من الصحابة، ثم كانت حرب النهروان وقد قاتله فيها جماعة كان بعضهم من الصحابة وسائرهم ممن عاصرهم أو تبعهم.

وبذلك نجد أنّ كثيراً من وجوه الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن عامتهم لم ينصروه (عليه السلام) بل خذلوه.

نعم، لقد نصره في مواقفه خاصة بعد خلافته جماعة من الصحابة من المهاجرين والأنصار واستشهدوا بين يديه مثل عمار بن ياسر وخزيمة بن ثابت الأنصاري الملقب بذي الشهادتين، وقد ذكّرهم الإمام (عليه السلام) بسوابقه في الإسلام ونصوص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حقه مثل تذكيره بنص الغدير في يوم الرحبة وقد امتنع ثلاثة منهم من الشهادة، كما روى أحمد في مسنده[1] في ذكر الحادثة: (فقاموا إلا ثلاثة لم يقوموا فأصابتهم دعوته)، وقد قيل إنّ الثلاثة هم أنس بن مالك والبراء بن عازب وزيد بن أرقم.

---

(١) مسند أحمد: ١/ ١١٩.

وقد انتفع بتذكيره (عليه السلام) كثير من الناس فنصروه في حروبه، بعد أن أثيرت الشبهة في أوساطهم بأن القتال معه فتنة بين المسلمين.

وعليه يقع السؤال عن أنّ الحديث إذا كان يدل على نصرة الإمام عليّ (عليه السلام) فلماذا تخلف كل هؤلاء عنه، وكان جمهور الصحابة من المهاجرين والأنصار قد حضروا خطبة الغدير وحكوا ذلك بطبيعة الحال لسائرهم كما حضرها وسمعها كثير غيرهم، فأين عمل كل هؤلاء بحديث الغدير؟

ولذلك يصح القول إنّ أهل الحل والعقد من الصحابة لم يعملوا بما فرضه عليهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في يوم الغدير على كل حال حتى لو لم تفِ خطبة الغدير بعقد الولاء للإمام بعد وفاته، وهذا ما يبين مغزى الأحاديث المتفق عليها عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الدالة على أنه لا ينجو من الصحابة بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا مثل همل النعم.

هذا ومما ذكرنا يظهر: أنه لا وجه لجعل انصراف أهل الحل والعقد من الصحابة عن إيلاء الأمر للأمام (عليه السلام) حجة على عدم دلالة خطبة الغدير على عقد الولاء له بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

ووجه ظهور ذلك: أنّ أهل الحل والعقد من الصحابة لم يعملوا بوصية النبي بنصرة الإمام على كل حال، رغم حضورهم في تلك الواقعة، ولم يمضِ عليها عند وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا شهران وأيام، فإن كانوا قد شبّهوا لأنفسهم في ذلك وافترضوا لها عذراً فإنّ من الجائز أن يكونوا قد فعلوا ذلك حتى لو دلّت

خطبة الغدير على عقد الولاء للإمام (عليه السلام).

٢- إنّ ثبوت ولاء النصرة للإمام (عليه السلام) يستبطن ثبوت الولاء السياسي له عند الإمعان في ذلك.

الأمر الثاني: أنّه يمكن القول إنّه إذا تأمّل الباحث عمق الموضوع وتفطن للوازم الأمور واقتضاءاتها فإنه يجد أنّ إيجاب نصرة الإمام عليّ (عليه السلام) في مواقفه بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه يستبطن تعييناً غير مباشر له (عليه السلام)، لأنه (عليه السلام) أعلن أنه الأولى بالأمر بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما حكاه الجميع، وقد دعمه بموقفه العملي المتفق عليه من الامتناع من بيعة أبي بكر لعدة أشهر حتى حدث ما خاف به على الإسلام، ثم جاهر بأولويته وأولوية أهل البيت (عليهم السلام) في خطبه بعد الخلافة حتى انتشر التشيع بين أهل الكوفة، واختاروا بعده ابنه الحسن (عليه السلام) ثم الحسين (عليه السلام) ثم رجعوا إلى ذرية الحسين (عليهم السلام)، وحيث امتنع الإمام عليّ بن الحسين (عليه السلام) من التصدي اتجه بعضهم إلى محمد بن عليّ ابن أبي طالب (المعروف بابن الحنفية) وهكذا.

فقول الإمام (عليه السلام) في أولويته بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس رأياً يمكن أن يجتهد فيه المرء فيأخذ به أو لا بعد أن كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ألزم المسلمين بنصرته، وبنى هذا الإلزام على وجوب التمسك بهم مع الكتاب.

وعليه فليس هناك مخرج يبرر سلوك الصحابة مع الإمام (عليه السلام) بعد حضورهم في واقعة الغدير وخطبتها.



الإيضاح العاشر

في واقعة الغدير وكون الولاء للإمام (عليه السلام) فيها من الولاء الاصطفائي دون الولاء السياسي الاعتيادي



عقد نقطتين:

١- تقسيم الولاء إلى الولاء الاصطفائي والاعتيادي

٢- دلالة الخطبة على الولاء الاصطفائي للإمام (عليه السلام)

الإيضاح العاشر

في واقعة الغدير وكون الولاء للإمام (عليه السلام) فيها من الولاء الاصطفائي دون الولاء السياسي الاعتيادي

قد عرفنا أن خطبة الغدير تشتمل على مضمونين رئيسين:

أحدهما: يفيد كون أهل البيت (عليهم السلام) هم حصراً الهداة إلى الحق في هذه الأمّة والمصونون من الضلالة فيها والذين يجب التمسك بهم في الدين.

والآخر: عقد الولاء الخاص للإمام (عليه السلام).

والمفهوم من النصوص القرآنية والنبوية الأخرى أنّ نوع الولاء الذي عقده النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للإمام (عليه السلام) ليس ولاءً سياسياً بحتاً ـ على حد الخلافة لدى أهل السنة ـ بل هو ولاء اصطفائي من سنخ الاصطفاء الإلهي المعهود لأهل بيوت الرسل (عليهم السلام) وعترهم من بعدهم في الأمم السابقة.

وتفصيل الكلام في عقد نقطتين:

١ – تقسيم الولاء إلى الولاء الاصطفائي والاعتيادي.

٢ – دلالة الخطبة على الولاء الاصطفائي للإمام علي (عليه السلام).

١ – تقسيم الولاء إلى قسمين:

إنّ الولاء على قسمين:

الأوّل: أن يكون على سبيل التعيين السياسي المحض، وعلى هذا التقدير يكون الولاء المعقود للإمام (عليه السلام) نظير استخلاف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) شخصاً على المدينة في غيابه فإنّه تعيين سياسي محض، وكذلك الحال في تعيين الإمام عليّ (عليه السلام) ولاة من قِبَله على بعض الأمصار مثل محمد بن أبي بكر ومالك الأشتر.

ويعبر عن الموقع الناتج عن هذا النوع من الولاء بالخلافة.

الثاني: أن يكون الولاء على سبيل الاصطفاء الإلهي للإمام (عليه السلام) للحكم، فيكون ذلك على حد اصطفاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للحكم في زمان حياته (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكذلك اصطفاء الله سبحانه بعض الأنبياء (عليهم السلام) للحكم كسليمان (عليه السلام)، وقد قال سبحانه: ﴿**فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا**﴾(١).

ويعبر عن هذا الموقع الناتج عن هذا التعيين بالإمامة.

والفرق بين هذين القسمين من الولاء كبير، ومن جملة وجوه الفرق:

١. الفرق بينهما في موقعهما في الدين.

بيان ذلك: أنّ القسم الأوّل من الولاء يكون ذا بعد عملي فحسب، وليس هناك بعد اعتقادي للتعيين بتاتاً، فالمهم أن لا يخالف المرء عملاً من عُيّن للحكم، كما هو الحال في القائد العسكري الذي يعيّنه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للجيش،

---

(١) سورة النساء: آية ٥٤.

فإنّ المهم عدم مخالفته، نعم يجب القبول بقيادته لمن اطلع على نصبه، لكن ليس إلا من جهة التسليم للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما أمر به، لا من جهة كونه واجباً اعتقادياً بعنوانه.

وأمّا القسم الثاني من الولاية فهو ذو بعد اعتقادي خطير في الدين، لا يصح للمسلم أن يجهل من اصطفاه الله سبحانه للحكم في هذه الأمة، لا ليعمل بأوامره فحسب، بل هذا الاصطفاء بنفسه يكون جزءاً من الدين، ويكون الاعتقاد به واجباً اعتقادياً أساسياً فيه.

فالولاء على وجه الاصطفاء هو على حد الولاء للأنبياء إلا أنه في مستوى الوصية لا في مستوى النبوة والرسالة.

٢. الفرق بينهما في حدود الطاعة الواجبة.

بيان ذلك: أنّ الطاعة الواجبة للحاكم السياسي بشكل عام مشروطة بعدم وقوعه في الخطأ والضلالة؛ لأن هذا الحاكم عرضة لهما، وأمّا الطاعة الواجبة لمن اصطفاه الله تعالى فهي طاعة مطلقة؛ لأنه مصون من الضلالة سواء كان على وجه الخطأ أم على وجه الخطيئة.

٢- دلالة الخطبة على الولاء الاصطفائي للإمام (عليه السلام)

ومفاد خطبة الغدير عقد الولاء الاصطفائي للإمام عليّ (عليه السلام) المبني على التفرد في الهدى بالعلم والتسديد الخاص، وليس الولاء السياسي.

والذي يدلّ على ذلك أمور:

الأوّل: أنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبته في الغدير أوجب أوّلاً التمسك بأهل بيته للأمان من الضلالة، وهو يفيد اصطفاء أهل البيت (عليهم السلام) في الدين، لأنّ ضمان الأمن من الضلالة ولو خطأ وعن قصور إنما هو من شؤون الاصطفاء الإلهي الخاص على ما سبق إيضاحه(١).

ولا شك في أنّ الإمام (عليه السلام) هو من جملة أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما دل على ذلك سياق هذه الخطبة نفسها فإنها مسوقة لجعل ولاء الإمام (عليه السلام) كولائه (صلى الله عليه وآله وسلم) على الناس، ولو لم يكن (عليه السلام) من أهل البيت (عليهم السلام) لم يكن هناك محل لذكر حديث الثقلين هنا، كما يدل على ذلك آثار نبوية أخرى مثل حديث الكساء الذي ورد بعد نزول آية تطهير أهل البيت (عليهم السلام).

وعليه فإنّ الإمام عليّاً (عليه السلام) عبد اصطفاه الله تعالى للهدى فيمن اصطفاهم من أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

والمفهوم من ذلك اختياره للولاء على الأمّة على سبيل الاصطفاء الإلهي دون الاصطفاء السياسي المحض.

الثاني: أنّ ذكر وجوب التمسك بأهل البيت (عليهم السلام) أوّلاً ثمّ إثبات الولاء الخاص للإمام (عليه السلام) يعطي ـ بحسب الفهم العرفي النابه ـ أنّ امتياز أهل البيت (عليهم السلام) بالهدى هو المنشأ لعقد الولاء للإمام عليّ (عليه السلام)؛ لأنّ أحقّ الناس

---

(١) لاحظ الإيضاح الرابع.

بالولاء أهداهم، ومتى لزم التمسك بشخص لملازمته للهدى، فإنه يتعين أن يكون هو مركز الولاء ومحوره الذي يلتف حوله المسلمون، كما جاء عن الإمام عليّ (عليه السلام) في نهج البلاغة في خطبة له: (أَمِينُ وَحْيِه وخَاتَمُ رُسُلِه، وبَشِيرُ رَحْمَتِه ونَذِيرُ نِقْمَتِه، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْه، وأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّه فِيه)[1]، وجاء عنه (عليه السلام) أيضاً في نهج البلاغة: (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاءُوا بِه، ثُمَّ تَلَا: ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾)[2]، وفي الحديث الصحيح عند الإمامية في احتجاج الإمام الصادق على المعتزلة في دعوته إياه إلى مبايعة محمد بن عبد الله ابن الحسن المعروف بالنفس الزكية: (ثم أقبل على عمرو بن عبيد فقال له: اتق الله، وأنتم أيها الرهط فاتقوا الله فإن أبي حدثني وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم): إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: من ضرب الناس بسيفه ودعاهم إلى نفسه وفي المسلمين من هو أعلم منه فهو ضال متكلف)[3].

الثالث: أنّ صياغته (صلى الله عليه وآله وسلم) للكلام في عقد الولاء للإمام (عليه السلام) لم تكن صياغة اعتيادية، كأن يقول إني ولّيت علياً (عليه السلام) الأمر عليكم أو استخلفته

---

(١) نهج البلاغة: ٢٤٧.

(٢) نهج البلاغة: ٤٨٤.

(٣) الكافي: ٢٧/٥، ح١.

فيكم، كما يقال مثله عند تعيين الخليفة أميراً على مدينة ما، بل كانت صياغته خاصة تدل على الاصطفاء من وجهين:

١. إنّه جعل الولاء للإمام (عليه السلام) جزءاً من ولائه إذ قال: (من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه)، والمفهوم العرفي من هذا الكلام ليس إلا كون ولاء الإمام (عليه السلام) جزءاً من ولاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فمن والى الإمام (عليه السلام) فهو لا محالة موالٍ للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومن لم يوالِ الإمام (عليه السلام) لم يوالِ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

٢. إنّه دعا لمن والاه بموالاة الله سبحانه كما دعا على من عاداه بمعاداته تعالى.

وهذه صياغة قوية لا تلائم مجرد التعيين السياسي، لأنّ ما يستوجبه التعيين السياسي كأخواته من التعيين الإداري والعسكري إنّما هو وجوب الطاعة للشخص الذي تم تعيينه دون موالاة الله سبحانه لمن عيّنه أو معاداته لمن عاداه، ولذلك نجد أنّه ليس من المتعارف في الحث على اتّباع من عُيّن لموقعٍ ما أن يدعى لمن والاه بموالاة الله له وعلى من عاداه وخالفه بمعاداة الله له، أو بنحو ذلك.

ولا يبعد أن يكون هذا الدعاء إنشاءً في قوة الإخبار، فالمراد أنّ الله سبحانه يوالي من والاه ويعادي من عاداه وذلك لأنّ الله سبحانه لن يوالي أو يعادي إلا من يستوجب ذلك، فإنّ الولاء والعداء ليسا على حد الإنعام والترحّم ونحو ذلك مما يناله المرء على وجه التفضل والإحسان، ولكنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) أورده بلسان

الدعاء تأكيداً، حتى يرجو مواليه شفاعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وييأس معاديه منها، إذ لا يشفع (صلى الله عليه وآله وسلم) لمن دعا هو بنفسه عليه في شأنه.

الرابع: الحديث المأثور لدى أهل السنة والشيعة بألفاظ مختلفة، منها: (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)(١)، فإنّ المناسب مع هذا التوصيف الشديد أن تكون الإمامة إمامة اصطفائية لا اعتيادية، وإلا فالمهم عدم مخالفة الوالي عملاً وإن لم يعرفه بشخصه، ولو خالفه فإنّ مخالفته تكون كمخالفة الأوامر الشرعية التي فيها الكبائر والصغائر، والله أعلم.

الخامس: أنّ سائر النصوص الدينية والأحاديث النبوية الواردة في شأن أهل البيت (عليهم السلام) تدل على اصطفائهم من عند الله تعالى مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

فمن الآيات القرآنية:

١ـ آية التطهير ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾(٢)، بضميمة السنة النبوية المتفق عليها التي دلّت على أنّ أهل البيت هم الإمام عليّ وفاطمة والحسنان (عليهم السلام)(٣).

٢ـ آية المباهلة ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ**

---

(١) لاحظ: صحيح مسلم: ١٤٧٨/٣، السنن الكبرى (البيهقي): ٨/ ٢٧٠، مسند أحمد: ٢٨/ ٨٨ـ ٨٩. ولاحظ الكافي: ٣٧٦/١ وغيرها.

(٢) سورة الأحزاب: آية ٣٣.

(٣) تقدم تخريجه.

أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[١]، ووجه دلالتها هي ما للمباهلة من بُعد معنوي لأنّها تبتني على ثقل من يباهل به عند الله سبحانه[٢].

وأمّا من الأحاديث النبوية فيدل عليه ما يأتي:

١. إنّه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما علّمه أصحابه في صيغة الصلاة عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) ضمّ إليها الصلاة على آله، وطلب مماثلتها مع الصلاة على إبراهيم وآل إبراهيم - وهم من العباد المصطفين - فكانت الصيغة هي: (اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد)[٣].

٢. تشبيههم بالمصطفين في الأمم السابقة، مثل تنزيله (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) من نفسه منزلة هارون من موسى (عليهما السلام) قائلاً: (إلا أنه لا نبي بعدي)، وقرن فاطمة (عليها السلام) بمريم والدة المسيح عيسى بن مريم (عليهما السلام)[٤]، وقوله (عليه السلام)

(١) سورة آل عمران: آية ٦١.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ١١٩.

(٤) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٨٥.

عن الحسنين أنّهما سبطان من الأسباط[١]، وسيّدا شباب أهل الجنة[٢].

إلى غير ذلك من النصوص النبوية، وليس هنا محل تفصيل ذلك.

فظهر بما ذكرنا أنّ الولاء المثبت للإمام عليّ (عليه السلام) في خطبة الغدير وإن اشتمل على البعد السياسي لكنه على سبيل الاصطفاء وليس على سبيل التعيين السياسي المحض.

والحمد لله ربِّ العالمين

وكان تحرير ذلك في أوقات مختلفة، وآخرها في شهري محرم الحرام وصفر المظفر من سنة (١٤٤٤ هـ) ولله الحمد كله وبه التوفيق والتسديد.

---

(١) لاحظ: تاريخ مدينة دمشق: ٣٤٦/٢٦، الجامع الصغير للسيوطي: ٤١٣/٢، وكنز العمال: ٤٢٧/٣، وغيرهما.

(٢) لاحظ مثلاً: صحيح ابن حبان: ٤١٣/١٥، المعجم الصغير: ١١٨/١، الاستيعاب: ٣٩١/١.

المصادر

- القرآن الكريم.
- الاستيعاب: ابن عبد البر (ت: ٤٦٣ هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط. الأولى ١٤١٢ـ١٩٩٢ م، الناشر: دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان.
- الأمالي: الشيخ الصدوق (ت: ٣٨١ هـ)، المطبعة: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم، ط. الأولى ١٤١٧هـ، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.
- الأمالي: الشيخ المفيد (ت: ٤١٣هـ)، تحقيق: حسين الأستاد ولي، علي أكبر الغفاري، ط. الثانية ١٤١٤ ـ ١٩٩٣ م، الناشر: دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.
- البداية والنهاية: ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، تحقيق وتدقيق وتعليق: علي شيري، ط. الأولى ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨ م، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان.
- البرهان في تفسير القرآن: السيد هاشم البحراني (ت: ١١٠٧هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية / مؤسسة البعثة ـ قم.
- تاريخ الطبري: محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)، مراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء الأجلاء، ط. الرابعة ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ م، الناشر:

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان.

- التاريخ الكبير: البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، الناشر: المكتبة الإسلامية ـ ديار بكر ـ تركيا.
- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط. الأولى (١٤١٧ ـ ١٩٩٧ م)، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.
- تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر (ت: ٥٧١هـ)، تحقيق: علي شيري، سنة الطبع: ١٤١٥هـ، المطبعة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.
- التحف شرح الزلف: أبو الحسين مجد الدين محمّد بن منصور المؤيّدي، ط. الثالثة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م، مكتبة بدر ـ صنعاء.
- تفسير الآلوسي: الآلوسي (ت:١٢٧٠هـ).
- تفسير الرازي: فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، ط. الثالثة.
- تهذيب الأحكام: الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان، ط. الثالثة ١٣٦٤هـ، المطبعة: خورشيد، الناشر: دار الكتب الإسلامية ـ طهران.
- تهذيب التهذيب: ابن حجر (ت: ٨٥٢ هـ)، ط. الأولى ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤ م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

• تهذيب الكمال: المزي (ت: ٧٤٢ هـ)، تحقيق وضبط وتعليق: الدكتور بشار عواد معروف، ط. الرابعة ١٤٠٦ ـ ١٩٨٥ م، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.

• جامع أحاديث الشيعة: السيد البروجردي (ت ١٣٨٣)، سنة الطبع: ١٣٩٩، المطبعة العلمية ـ قم.

• الجامع الصغير: جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، ط. الأولى ١٤٠١ ـ ١٩٨١ م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت.

• خصائص أمير المؤمنين (عليه السلام): النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، تحقيق وتصحيح الأسانيد ووضع الفهارس: محمد هادي الأميني، الناشر: مكتبة نينوى الحديثة ـ طهران.

• الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.

• روضة الواعظين: الفتال النيسابوري (ت: ٥٠٨هـ)، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان منشورات الشريف الرضي ـ قم.

• سبل الهدى والرشاد: الصالحي الشامي (ت: ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، ط. الأولى ١٤١٤ ـ ١٩٩٣ م، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

• سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: أبو عبد الرحمن



محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الأشقودري الألباني، عدد الأجزاء: ٦ (ت: ١٤٢٠هـ)، الرياض، ط. الأولى، (لمكتبة المعارف)، عام النشر: جـ ١ ـ ٤: ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م جـ ٦: ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م جـ ٧: ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد الرياض.

- سلسلة منهج التثبت في الدين: محمد باقر السيستاني، ط. الثانية ١٤٣٨ هـ، دار الكتب والوثائق، بغداد.
- السنة: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (ت: ٢٨٧ هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الأولى ١٤٠٠هـ، الناشر: المكتب الإسلامي بيروت.
- سنن ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٣هـ)، تحقيق وترقيم وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، ط. الأولى ١٤١٠ ـ ١٩٩٠ م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- سنن الترمذي: الترمذي (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف، ط. الثانية ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ م، الناشر: دار الفكر للطباعة

والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.

- السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، الناشر: دار الفكر.
- السنن الكبرى: النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، ط. الأولى ١٤١١ ـ ١٩٩١ م، الناشر دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.
- سير أعلام النبلاء: الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، إشراف وتخريج: شعيب الأرنؤوط، تحقيق: حسين الأسد، ط. التاسعة ١٤١٣ ـ ١٩٩٣ م، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.
- السيرة الحلبية: الحلبي (ت: ١٠٤٤هـ)، سنة الطبع: ١٤٠٠هـ، الناشر: بيروت ـ دار المعرفة دار المعرفة.
- السيرة النبوية: ابن هشام الحميري (ت: ٢١٨هـ)، تحقيق وضبط وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، سنة الطبع: ١٣٨٣ ـ ١٩٦٣ م، المطبعة: المدني ـ القاهرة، الناشر: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ـ بمصر.
- الشافي في الإمامة: الشريف المرتضى (ت: ٤٣٦هـ)، ط. الثانية ١٤١٠هـ، المطبعة: مؤسسة إسماعيليان ـ قم، الناشر: مؤسسة إسماعيليان ـ قم.
- شرح المواقف: القاضي الجرجاني (ت: ٨١٦هـ)، شرح: علي بن محمد الجرجاني، ط. الأولى ١٣٢٥ ـ ١٩٠٧ م، الناشر: مطبعة السعادة ـ مصر.
- شرح صحيح: مسلم النووي (ت: ٦٧٦هـ)، سنة الطبع: ١٤٠٧ ـ ١٩٨٧

م، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.

- شرح مشكل الآثار: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (ت: ٣٢١ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط. الأولى ١٤١٥ هـ، الناشر: مؤسسة الرسالة.
- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد (ت: ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. الأولى ١٣٧٨ ـ ١٩٥٩ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- صحيح ابن حبان: ابن حبان (ت: ٣٥٤ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط. الثانية ١٤١٤ ـ ١٩٩٣ م، الناشر: مؤسسة الرسالة.
- صحيح ابن خزيمة: ابن خزيمة (ت: ٣١١هـ)، تحقيق وتعليق وتخريج وتقديم: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، ط. الثانية ١٤١٢ ـ ١٩٩٢ م، الناشر: المكتب الإسلامي.
- صحيح البخاري: البخاري (ت: ٢٥٦هـ)، سنة الطبع: ١٤٠١ ـ ١٩٨١ م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- صحيح مسلم: مسلم النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، الناشر: دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان.
- الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة: أحمد بن حجر الهيثمي المكي (ت: ٩٧٤هـ)، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، ط. الثانية ١٣٨٥ ـ

١٩٦٥ م، المطبعة: شركة الطباعة الفنية المتحدة، الناشر: مكتبة القاهرة لصاحبها علي يوسف سليمان ـ شارع الصنادقية ـ بميدان الأزهر بمصر.

- عمدة القاري: العيني (ت: ٨٥٥ هـ)، المطبعة: بيروت ـ دار إحياء التراث العربي، الناشر: دار إحياء التراث العربي.
- الغدير: الشيخ الأميني (ت: ١٣٩٢هـ)، ط. الرابعة ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ م، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان.
- الفتاوى الكبرى: ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا مصطفى عبد القادر عطا، ط. الأولى ١٤٠٨ ـ ١٩٨٧ م، الناشر: دار الكتب العلمية.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير: المناوي (ت: ١٠٣١هـ)، تصحيح أحمد عبد السلام، ط. الأولى ١٤١٥ ـ ١٩٩٤ م، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.
- الكافي: الشيخ الكليني (ت: ٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط. الخامسة ١٣٦٣هـ، المطبعة: حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية ـ طهران.
- كتاب الأم: الإمام الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، ط. الثانية ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر.
- كتاب الملاحن: أبي بكر محمد بن الحسن بن دُريد الأزدي (ت: ٣٢١ هـ)،

تحقيق عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ـ دمشق ١٩٩٢م.

- كنز العمال: المتقي الهندي (ت: ٩٧٥هـ)، ضبط وتفسير: الشيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا، سنة الطبع: ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩ م، الناشر: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.
- المبسوط: الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠هـ)، تصحيح وتعليق: السيد محمد تقي الكشفي، سنة الطبع ١٣٨٧هـ، المطبعة الحيدرية ـ طهران المكتبة المرتضوية لإحياء آثار الجعفرية.
- مجمع الزوائد: الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) سنة الطبع: ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨ م، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، المحقق: محمد جاد المولى ـ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ علي محمد البجاوي، الناشر: المكتبة العصرية.
- مستدرك الوسائل: ميرزا حسين النوري الطبرسي، (ت: ١٣٢٠هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، ط. الأولى ١٤٠٨ ـ ١٩٨٧ م، الناشر: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث ـ بيروت ـ لبنان.
- المستدرك على الصحيحين: الحاكم النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)، إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي.

- مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ)، الناشر: دار صادر ـ بيروت ـ لبنان.
- المصنف: ابن أبي شيبة الكوفي (ت: ٢٣٥هـ)، تحقيق وتعليق: سعيد اللحام، ط. الأولى جماد الآخرة ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩ م، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان.
- معاني الأخبار: الشيخ الصدوق (ت: ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، سنة الطبع: ١٣٧٩ ـ ١٣٣٨، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
- المعجم الأوسط: الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق: قسم التحقيق بدار الحرمين، سنة الطبع: ١٤١٥ ـ ١٩٩٥ م، الناشر: دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع.
- المعجم الكبير: الطبراني (ت: ٣٦٠هـ)، تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي، ط. الثانية، مزيدة ومنقحة، الناشر: دار إحياء التراث العربي.
- من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق (ت: ٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط. الثانية، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
- المواقف: الإيجي (ت: ٧٥٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، ط. الأولى ١٤١٧ ـ ١٩٩٧م، المطبعة: لبنان ـ بيروت ـ دار الجيل، الناشر: دار الجيل.

- ميزان الاعتدال: الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط. الأولى ١٣٨٢ ـ ١٩٦٣ م، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان.
- نهج البلاغة: خطب الإمام علي (عليه السلام) (ت: ٤٠هـ) (تحقيق صالح)، ما اختاره وجمعه الشريف الرضي، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي صالح، ط. الأولى ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧ م، الناشر: بيروت.
- ينابيع المودة لذوي القربى: القندوزي (ت: ١٢٩٤هـ)، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، ط. الأولى ١٤١٦هـ، الناشر: أسوه دار الأسوة للطباعة والنشر.

الفهرس